٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الرعد وسورة إبراهيم

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

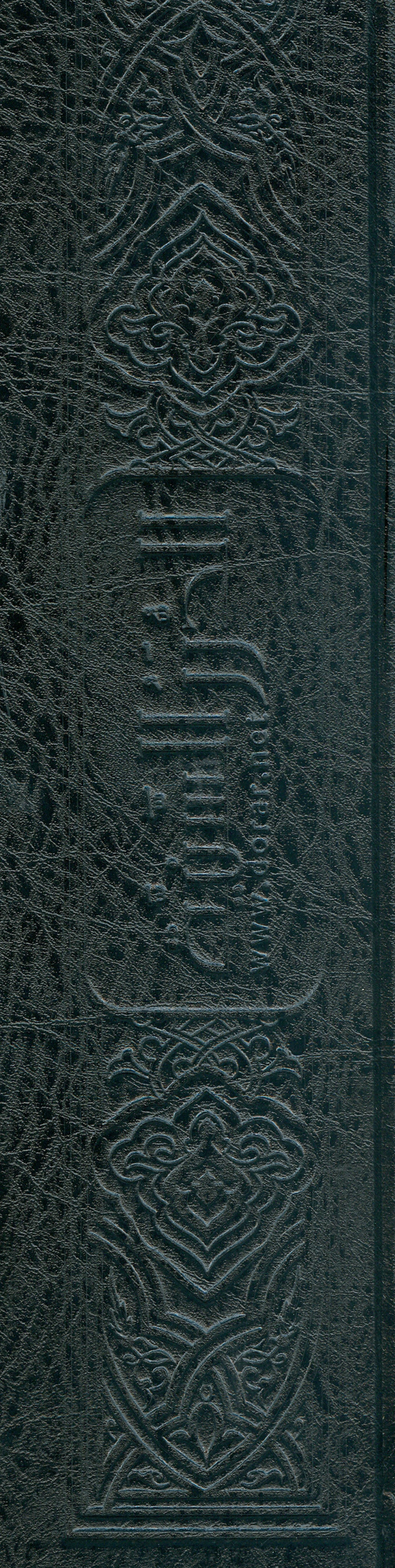
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر/قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني عشر

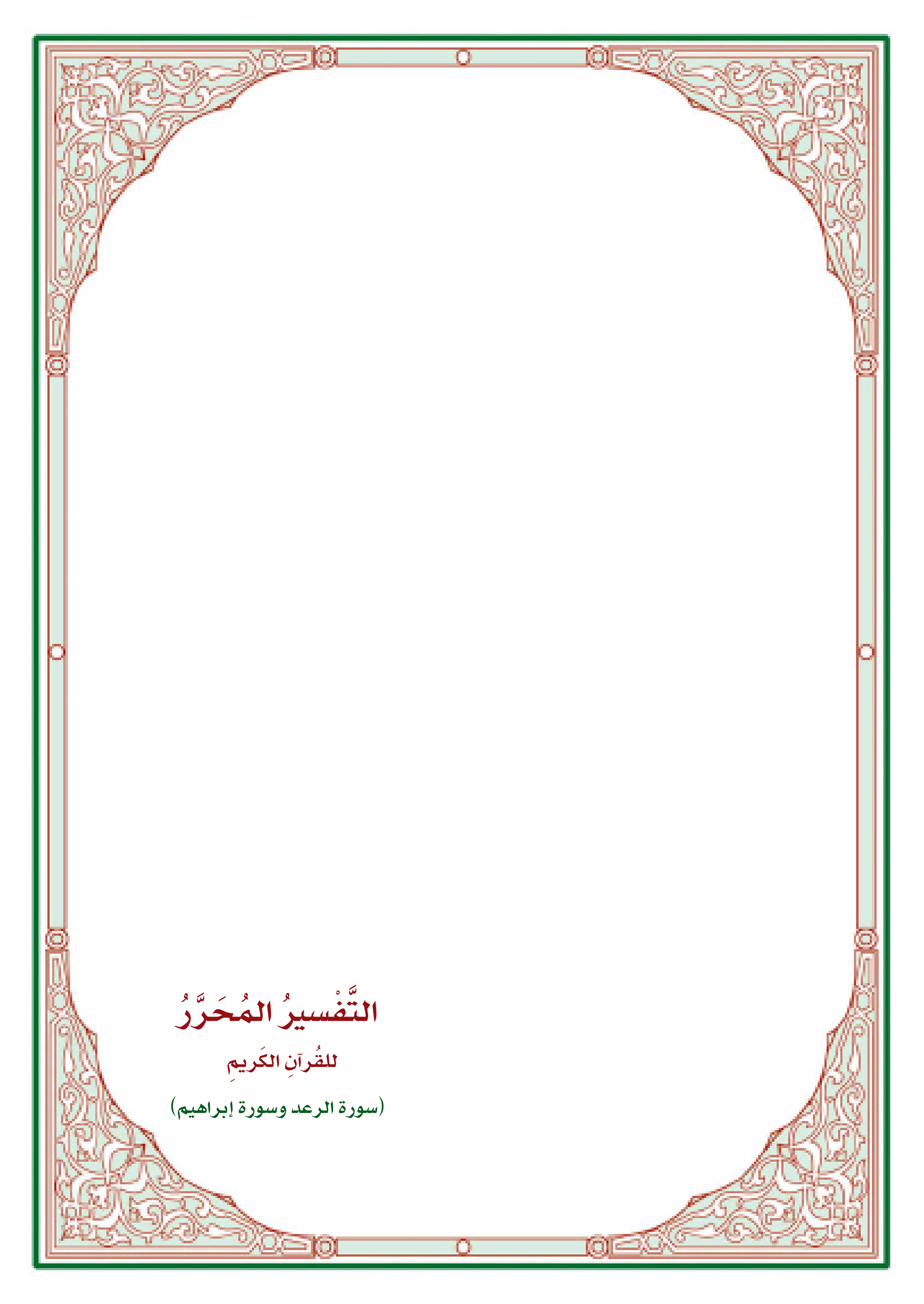
الدرر السنية
www.dorar.net





للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)



التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الرعد وسورة إبراهيم)



ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثاني عشر - سورة الرعد وإبراهيم/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ - الظهران، ١٤٣٨هـ

٤٤٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٥١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٩/٨٦٢

رقم الإيداع: ٩-٥١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

ردمك: ١٤٣٩/٨٦٢

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الدرر السنية
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية

ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريدإلكتروني nashr@dorar.net



للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الرعد وسورة إبراهيم)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمؤسَّسةِ الدُّررِ السَّنيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

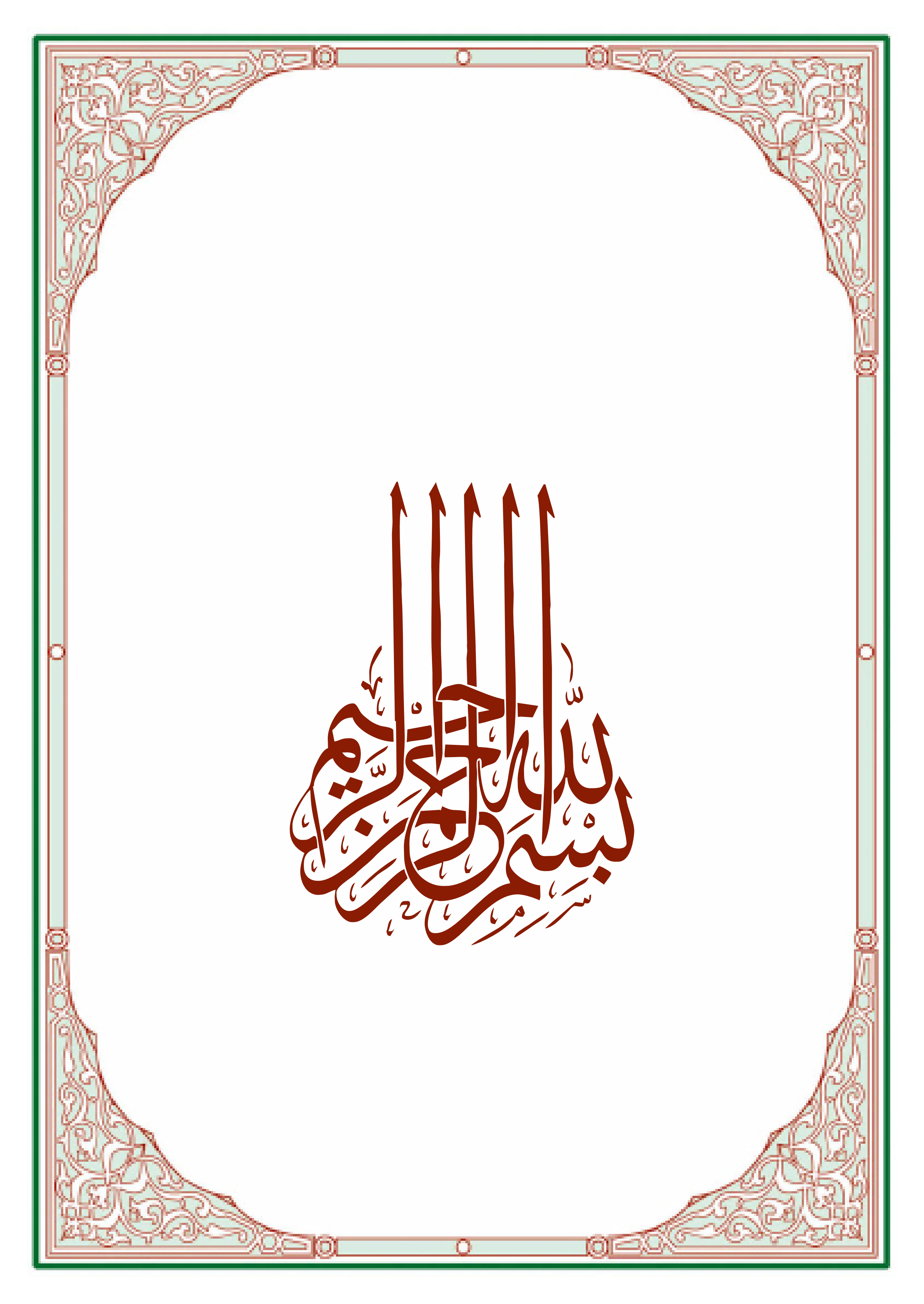
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الثاني عشر




بسم الله الرحمن الرحيم



تَفْسِيرُ

سُورَةِ الرَّعدِ







سورةُ الرَّعدِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الرَّعد)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمدَنيِّ:

سورةُ الرَّعدِ مِن السُّوَرِ المُختَلَفِ فيها؛ فقيل: إنَّها مدنيَّةٌ[٢]، وحُكِي الإجماعُ على ذلك[٣]. وقيل: إنَّها مكِّيَّةٌ[٤].

---

(١) وردت عدةُ آثارٍ عن السلفِ بتسميةِ هذه السورةِ سورةَ الرعدِ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٥٩٩).

وقال ابنُ عاشورٍ: (سورةُ الرعدِ، هكذا سُمِّيتْ مِن عهدِ السلفِ، وذلك يدلُّ على أنَّها مسماةٌ بذلك مِن عهدِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ إذ لم يختلفوا في اسمِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٥).

ووجهُ تسميتِها بسورةِ الرعدِ: ذكرُ لَفظِ الرَّعدِ فيها في قَولِه تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٥).

(٢) رواه عطاءٌ الخراسانيُّ عن ابنِ عباسٍ، وبه قال جابرُ بنُ زيدٍ. ورُوي عن ابنِ عباسٍ أنَّها مدنيَّةٌ، إلَّا آيتين نزلتا بمكَّةَ، وهما قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ إلى آخرِها.

وقيل: مدنيةٌ إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ فمكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٥)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣).

وقال بعضهم: المدنيُّ منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٧٩).

قال ابنُ عطيةَ: (والظاهرُ- عندي- أنَّ المدنيَّ فيها كثيرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٠).

(٣) قال الرازي: (قال الأصمُّ: هي مدنيَّةٌ بالإجماعِ سوى قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾). ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢٤).

(٤) رواه عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ، وبه قال الحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وعطاءٌ، وقتادةُ. وروَى أبو صالح عن ابنِ عباسٍ أنَّها مكِّيَّةٌ، إلَّا آيتين منها؛ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ إلى آخرِ الآيةِ، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾.

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

عرضُ قضايا التوحيدِ والوحيِ والبعثِ مِن خلالِ إطارٍ عامٍّ، وهو الكونُ وآياتُه ومشاهِدُه وعجائبُه في النفسِ وفي الآفاقِ.

موضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

١- الإشارةُ إلى القُرآنِ الكريمِ وكَونِه حَقًّا مِن عندِ الله تعالى.

٢- سوقُ عددٍ مِن الأدلةِ التي تدُلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالى الباهرةِ ووحدانيتِه.

٣- حكايةُ جانبٍ مِن أقوالِ المشركينَ المتعلقةِ بالبعثِ معَ الردِّ عليهم.

٤- بيانُ كمالِ عِلمِ الله سبحانه وإحاطتِه بكلِّ شَيءٍ، وعظيمِ سلطانِه، وحكمتِه فيما يَقْضيه ويقدِّرُه.

٥- ضَربُ مثلينِ للحَقِّ والباطلِ، وعقدُ مقارنةٍ بينَ مصيرِ أتباعِ الحقِّ، ومصيرِ أتباعِ الباطلِ، مع بيانِ أوصافِهما.

٦- حكايةُ بعضِ مقترحاتِ الكفَّارِ ومطالبِهم المتعنتةِ معَ الردِّ عليهم.

٧- بيانُ حسنِ عاقبةِ المتَّقينَ، وسوءِ عاقبةِ المكذِّبينَ.

٨- تسليةُ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٤٣).

الآيات (١-٤)

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢
وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ
يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ
وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا
عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدلُّ على ثباتٍ(١).

﴿زَوۡجَيۡنِ﴾: أي: صِنفَينِ ونَوعَينِ، وأصلُ (زوج): يدل على مُقارنةِ شَيءٍ لشَيءٍ(٢).

﴿صِنۡوَانٞ﴾: أي: مُجتمِعٌ، والصِّنوانُ مِن النَّخلِ: النَّخلتانِ والنَّخلاتُ يجمَعُهنَّ أصلٌ واحِدٌ، وتتشَعَّبُ منه رؤوسٌ فتصيرُ نخيلًا، وأصلُ (صنو): يدلُّ على تقارُبٍ بين شَيئَينِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾: جارٌّ ومجرورٌ، في موضِعِ نصبٍ على الحالِ مِن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، تقديرُه: خاليةً عن عمَدٍ. ﴿تَرَوۡنَهَا﴾: في موضِعِ نصبٍ حالٌ ثانيةٌ مِن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: رفَعَها مرئيَّةً لكم بغيرِ عمَدٍ. أو مُستأنفةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ؛ جِيءَ به للاستشهادِ على كونِ السَّمواتِ مَرفوعةً كذلك، وعلى ذلك فالضَّميرُ المنصوبُ في ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ للسَّمَواتِ. وقيل: ضَميرُ النَّصبِ في ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ عائِدٌ على ﴿عَمَدٖ﴾ أي: بِغَيرِ عَمَدٍ مَرْئيَّةٍ، وعليه فجملةُ ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ في محَلِّ جَرٍّ صِفةٌ لـ ﴿عَمَدٖ﴾، وهذا التخريجُ يَحتَمِلُ وَجهَينِ: أحدُهما: انتفاءُ العَمَدِ والرؤيةِ جَميعًا، أي: لا عَمَدَ فلا رؤيةَ، يعني: لا عَمَدَ لها فلا تُرى. وإليه ذهب الجُمهورُ. والثاني: أنَّ لها عمَدًا ولكِنْ غيرُ مَرئيَّةٍ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ الكريمةُ ببَعضِ الحروفِ المقطَّعةِ، وقد سبق الكلامُ عنها في أوَّلِ سورةِ البَقَرةِ، ثُمَّ أخبَرَ الله تعالى أنَّ هذه الآياتِ العظيمةَ هي آياتُ القُرآنِ المُعجِزِ، العظيم الشَّأنِ، الذي أُنزِلَ عليك- أيُّها النَّبيُّ- بالحَقِّ الذي لا يلتَبِسُ بالباطِلِ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بأنَّ القرآن هو الحَقُّ، مع وضوحِه وجلائِه؛ عِنادًا وتكبُّرًا، وأنَّ اللهَ تعالى الذي أنزلَ هذا الكِتابَ هو الذي رفعَ السَّمواتِ السَّبعَ بقُدرتِه مِن غيرِ عمَدٍ، كما تَرَونَها، ثمَّ علا على العرشِ عُلُوًّا يليقُ بجلالِه وعَظَمتِه، وذلَّل الشَّمسَ والقمرَ لمنافِعِ العبادِ، كلٌّ منهما يدورُ في فَلَكِه إلى يومِ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٩٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩١)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٧/ ٨-١٠).

القيامةِ، يُدبِّرُ سُبحانَه أمورَ الدُّنيا والآخرةِ، ويُوضِّحُ لكم الآياتِ الدَّالةَ على قُدرتِه؛ لتُوقِنوا بالمعادِ إليه، وبوعدِه ووعيدِه. وهو الذي جعل الأرضَ متَّسِعةً ممتدَّةً، وهيَّأها لِمعاشِكم، وجعل فيها جِبالًا تُثبِّتُها، وأنهارًا لشُربِكم ومَنافِعِكم، وجعل فيها مِن كلِّ الثَّمَراتِ صِنفينِ اثنينِ، فكان منها الأبيضُ والأسودُ، والحُلوُ والحامِضُ، وجعل اللَّيلَ يُغطِّي النَّهارَ بظُلمتِه، إنَّ في ذلك لَعِظاتٍ لقومٍ يتفكَّرونَ فيها فيتَّعِظونَ.

وإنَّ الأرضَ ذاتَها فيها عجائِبُ؛ فيها قِطَعٌ مِن الأرضِ يُجاوِرُ بعضُها بعضًا، منها ما هو طيِّبٌ يُنبتُ ما ينفَعُ النَّاسَ، ومنها سَبِخةٌ مالِحةٌ لا تُنبتُ شيئًا، وفي الأرضِ الطَّيِّبةِ بساتينُ مِن أعنابٍ، وزروعٌ مُختلِفةٌ، ونخيلٌ مُجتمِعٌ في منبتٍ واحدٍ، وغيرُ مجتمِعٍ فيه، كلُّ ذلك في تربةٍ واحدةٍ، ويشرَبُ مِن ماءٍ واحدٍ، ولكنَّه يختلِفُ في الثِّمارِ والحَجمِ والطَّعمِ وغيرِ ذلك؛ فهذا حُلوٌ، وهذا حامِضٌ، وبعضُها أفضَلُ مِن بعضٍ في الأُكُلِ، إنَّ في ذلك لَعلاماتٍ لِمَن كان له قلبٌ يعقِلُ عن اللهِ تعالى أمْرَه ونهيَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿الٓمٓر﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ[١].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

(١) يُنظر ما تقدم في تفسير سورة البقرة (١/ ٦٤) من ((التفسير المحرَّر)).

أي: هذه آياتُ القُرآنِ، الرَّفيعةُ الشَّأنِ العاليةُ المراتِبِ(١).

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: وهذا القرآنُ الذي أُنزل إليك -يا مُحمَّدُ- مِن رَبِّك لا مِن غَيرِه، هو الحَقُّ؛ فاعتَصِمْ به واعمَلْ بما فيه، ووجَب لثُبوتِ حَقِّيَّتِه أن يؤمِنَ به جميعُ النَّاسِ(٢).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بأنَّ القُرآنَ هو الحَقُّ الذي جاء مِن عندِ اللهِ، مع وضوحِ ذلك وثُبوتِه؛ جهلًا منهم وإعراضًا، أو عِنادًا وظُلمًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِى لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

قال الخازن: (﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الإشارةُ بـ﴿تِلۡكَ﴾ إلى آياتِ السورةِ ...، والمرادُ بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ السورةُ أي: آياتُ السورةِ الكاملةِ العجيبةِ في بابِها، ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني مِن القرآنِ كلِّه هو الحقُّ الذي لا مزيدَ عليه. وقيل: المرادُ بالإشارةِ في قولِه: ﴿تِلۡكَ﴾ الأخبارُ والقصصُ أي: الأخبارُ والقصصُ التي قصصتُها عليك يا محمدُ هي آياتُ التوراةِ والإنجيلِ والكتبِ الإلهيةِ القديمةِ المنزلةِ، ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يعني: وهذا القرآنُ الذي أُنزل إليك يا محمدُ مِن ربِّك ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي: هو الحقُّ فاعتصِمْ به. وقال ابنُ عباسٍ وقتادةُ: أراد بآياتِ الكتابِ القرآنُ، والمعنى: هذه آياتُ الكتابِ الذي هو القرآنُ، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾، يعني: وهذا القرآنُ الذي أُنزل إليك مِن ربِّك هو الحقُّ لا شكَّ فيه ولا تناقضَ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر الله تعالى أنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ؛ ذكرَ عَقيبَه ما يدُلُّ على صِحَّةِ التوحيدِ والمعادِ[1]، فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

أي: اللهُ هو الذي رفعَ بقُدرتِه العظيمةِ السَّمواتِ السَّبعَ بلا أعمدةٍ، كما ترَونَها[2].

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان: ١٠].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ على عَرشِه العظيم عُلوًّا يليقُ بجلالِه وكَمالِه[3].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: وذلَّلَ الشَّمسَ والقمَرَ لمصالحِ خَلْقِه، كلٌّ منهما يجري في السَّماءِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٨، ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢١).

والقول بأنَّ السمواتِ مرفوعةٌ بلا أعمدةٍ هو قولُ أكثرِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٧٥).

قال الرسعني: (وهذا قولُ ابنِ عباسٍ في روايةِ أبي صالحٍ، وبه قال الحسنُ وقتادةُ وجمهورُ العلماءِ، وهو الصحيحُ؛ لأنَّها لو احتاجتْ إلى عمدٍ لافتقرَ العمدُ إلى دعامةٍ أيضًا، وتسلسلَ إلى ما لا نهايةَ له). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٣٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وهذا هو اللَّائقُ بالسِّياقِ، والظَّاهرُ مِنْ قولِه تعالَى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، فعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيدًا لنفي ذلك، أي: هي مرفوعةٌ بغيرِ عمدٍ كما تَرَوْنها، هذا هو الأكملُ في القدرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٩).

وقيل: لها عَمَدٌ ولكن لا تُرَى، وهو مرويٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ أيضًا، ومجاهدٍ، والحسنِ، وقتادةَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

وقتٍ معلومٍ، وهو انتهاءُ الدُّنيا ووقوعُ يومِ القيامةِ[١].

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾.

أي: يُصرِّفُ أمورَ مَخلوقاتِه كما يريدُ[٢].

﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾.

أي: يبيِّنُ ويوضِّحُ لكم آياتِه[٣] الدالةَ على وحدانيتِه وقُدرتِه على البعثِ وغيرِه؛ كي تُوقِنوا بالبعثِ بعد الموتِ، وتُوقِنوا بوَعدِه ووعيدِه[٤].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى العالَمَ العُلويَّ؛ شرعَ في ذِكرِ قُدرتِه وحِكمتِه وإحكامِه للعالَمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

(٣) قال ابنُ جريرٍ: (يفصلُ لكم ربُّكم آياتِ كتابِه، فيبيِّنُها لكم احتجاجًا بها عليكم أيُّها الناسُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٣).

وقال الشوكاني: (﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: يُبيِّنُها، وهي الآياتُ الدَّالَّةُ على كمالِ قُدْرَتِه ورُبوبيَّتِه، ومنها ما تَقَدَّمَ مِنْ رفعِ السَّماءِ بغيرِ عمدٍ وتسخيرِ الشَّمسِ والقمرِ وجريِهما لأجلٍ مُسمًّى). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٧).

وقال السعدي: (وينزلُ الكتبَ الإلهيةَ على رسلِه ويبينُ ما يحتاجُ إليه العبادُ مِن الشرائعِ والأوامرِ والنواهي، ويفصِّلُها غايةَ التفصيلِ ببيانِها وإيضاحِها وتمييزِها، ﴿لَعَلَّكُم﴾ بسببِ ما أخرجَ لكم مِن الآياتِ الأفقيةِ والآياتِ القرآنيةِ ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

السُّفليِّ، فقال[1]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾.

أي: واللهُ هو الذي بسطَ لكم الأرضَ طولًا وعَرضًا، فخلَقَها متَّسِعةَ الأرجاءِ؛ لتَنتَفِعوا بها[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾.

أي: وجعل فيها جِبالًا ثابتةً، وأنهارًا جاريةً[3].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الأنهارَ؛ ذكَرَ ما ينشأُ عن المياهِ، فقال[4]:

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

أي: ومِن جميعِ الثَّمَراتِ جعل اللهُ في الأرضِ صِنفَينِ اثنينِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٣، ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥)، ((تفسير السعدي))

كما قال الله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧].

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

أي: يغطِّي اللهُ باللَّيلِ النَّهارَ، ويغطِّي بالنَّهارِ اللَّيلَ، فيجعلُ كلًّا منهما ساترًا للآخَرِ[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ فيما ذكرتُه لكم من عجائبِ مَخلوقاتي لدَلالاتٍ وعَلاماتٍ لِقَومٍ يتفكَّرونَ فيها، فيستدِلُّونَ بها على وحدانيَّةِ الله تعالى وكمالِ صِفاتِه، ومن ذلك

(ص: ٤١٢).

قال الرازي: (المرادُ بـ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: صِنفينِ اثنينِ، والاختلافُ إمَّا مِن حيثُ الطَّعمُ، كالحُلوِ والحامضِ، أو الطَّبيعةُ، كالحارِّ والبارد، أو اللونُ، كالأبيضِ والأسودِ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

قال الشنقيطي: (﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾... معناه: يجعلُ الليلَ مُغْشِيًا للنهارِ، أي: مُغَطِّيًا ضوءَ النهارِ بظلامِه، يذهبُ بضوءِ النهارِ ويغطي ضوءَه بظلامِ الليلِ، وهذا من غرائبِ صنعِه وعجائبِ آياته، وفي الآيةِ محذوفٌ دَلَّ المقامُ عليه، أي: وَيُغْشِي النهارَ الليلَ أيضًا، فيأتي ضوءُ النهارِ، ويغْشَى ظلامَ الليلِ فيُذْهِبُه، ويحلُّ محلَّه). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٨١). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٤٢).

حِكمتُه وقُدرتُه على وقوعِ البعثِ، وأنَّ العبادةَ لا تصلحُ لِغَيرِه سُبحانَه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ * وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٦].

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾.

أي: ومِن الآياتِ على كمالِ قُدرتِه العجيبةِ وبديعِ صُنعِه وأنَّه سُبحانَه الفاعِلُ المُختارُ وَحدَه: أنْ جعَلَ في الأرضِ بقاعًا مُختلفةً في ألوانِها وأحجامِها، وأنواعِها وطبائِعِ مَنابتِها؛ فهذه- مثلًا- طَيِّبةٌ عَذبةٌ تُنبِتُ ما ينفَعُ النَّاسَ، وهذه سَبِخةٌ مالِحةٌ لا تُنبِتُ شيئًا، مع كونِ تلك البقاعِ مُتجاوِرةً مُتقارِبةً[٢]!

﴿وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ﴾.

أي: وفي الأرضِ بَساتينُ مِن أعنابٍ مُتنَوِّعة، وفيها زروعٌ مُختَلِفةٌ[٣].

﴿وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١).

أي: وفي الأرضِ نَخيلٌ مُختلِفةٌ؛ فهناك نَخَلاتٌ يجمَعُهنَّ أصلٌ واحِدٌ في مَنبتٍ واحدٍ، وهناك نَخَلاتٌ مُتفرِّقاتٌ، كلُّ نخلةٍ منها نابتةٌ مِن أصلٍ مُستقِلٍّ[1].

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾.

أي: جميعُ ما ذكَرْناه من الجنَّاتِ والنَّخيلِ والزُّروعِ، يُسقى بماءٍ واحدٍ عذبٍ غيرِ مالحٍ[2].

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾.

أي: ونفضِّلُ بعضَ الأعنابِ والزُّروعِ والنَّخيلِ على بعضٍ في الثَّمرِ؛ طَعمًا وشَكلًا، ولونًا ورائحةً، وأوراقًا وأزهارًا ونفعًا، مع كَونِها تُسقَى بماءٍ واحدٍ[3]!!

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: إنَّ في اختلافِ قطعِ الأرضِ المتجاوراتِ، واختلافِ ثمارِ الجنَّاتِ لعلاماتٍ واضحاتٍ ودلالاتٍ لمن كان له قلبٌ يفهمُ عن اللهِ ما أخبَرَ به، فمِن ذلك دلالاتُها على أنَّ الله الذي بعلمِه وقدرتِه فاوَت بينَ الأشياءِ وخلَقَها على ما يشاءُ، وكما أنَّه قادرٌ على ما يريدُ مِن ابتداءِ الخلقِ ثم تنويعِه بعد إبداعِه، فهو قادرٌ أيضًا على إعادتِه بطريقِ الأَوْلَى، وأيضًا فالذي خالَف بينَ تلك الأشياءِ، هو الذي خالَف بينَ خلقِه فيما قسَم لهم مِن هدايةٍ وضلالٍ وتوفيقٍ وخذلانٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١٩، ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ فيه أنَّ كثرةَ الأدلَّةِ وبَيانَها ووضوحَها، مِن أسبابِ حُصولِ اليَقينِ في جميعِ الأمورِ الإلهيَّةِ، خُصوصًا في العقائدِ الكِبارِ، كالبَعثِ والنُّشورِ، والإخراجِ مِن القُبورِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ فالدَّلائِلُ المذكورةُ كما تدُلُّ على الخالقِ الحكيمِ الذي يستحقُّ العبادةَ وحدَه، فهي أيضًا تدُلُّ على صِحَّةِ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ؛ لأنَّ مَن قدَرَ على خَلقِ هذه الأشياءِ وتَدبيرِها على عَظَمتِها وكَثرتِها، فلَأنْ يقدِرَ على الحَشرِ والنَّشرِ كان أوْلَى(٢).

٢- قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾، فيه دليلٌ على رؤيةِ اللهِ تعالى؛ فقد أجمَعَ أهلُ اللسانِ على أنَّ اللقاءَ متى نُسِب إلى الحيِّ السليمِ مِن العمَى والمانعِ اقتضَى المعاينةَ والرؤيةَ(٣).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ ذِكرُ اللَّيلِ والنَّهارِ مع آياتِ العالَمِ السُّفليِّ في غايةِ الدِّقَّةِ العِلميَّةِ؛ لأنَّهما مِن أعراضِ الكُرةِ الأرضيَّةِ بحسَبِ اتِّجاهِها إلى الشَّمسِ، وليسا مِن أحوالِ السَّمواتِ؛ إذ الشَّمسُ والكواكبُ لا يتغيَّرُ حالُها بضياءٍ وظُلمةٍ(٤)، وقيل: عدَّ هذا في تَضاعيفِ الآياتِ السُّفليَّةِ وإنْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (١/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٤).

كانَ تعلُّقُه بالآياتِ العُلْويَّةِ ظاهرًا، باعتبارِ أنَّ ظُهورَه في الأرضِ؛ فإنَّ اللَّيلَ إنَّما هو ظِلُّها، وفيما فوقَ مَوقِعِ ظِلِّها لا ليلٌ أصلًا، ولأنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ لهما تعلُّقٌ بالثَّمراتِ مِن حيثُ العَقْدُ والإنضاجُ، على أنَّهما أيضًا زوجانِ مُتقابِلانِ مثلَها[1].

٤- في قول الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، هذه الآيةُ تقتضي أنَّ كلَّ ثمرةٍ موجودٌ منها نوعانِ، فإن اتَّفق أن يوجدَ في ثمرةٍ أكثرُ مِن نوعينِ فغيرُ ضارٍّ في معنى الآيةِ[2]، فإنْ قِيل: فلم خصَّ ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ بالذكرِ، وإنْ كان مِن أجناسِ الثِّمارِ ما يزيدُ على ذلك؟ فالجواب: لأنَّه الأقلُ، إذ لا نوعَ تنقصُ أصنافُه عن اثنينِ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ قيَّدَ مِن الأرضِ في هذا المثالِ ما جاورَ وقَرُبَ بعضُه مِن بعضٍ؛ لأنَّ اختلافَ ذلك في الأكلِ أغربُ[4].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه دليلٌ على بُطلانِ قَولِ الطَّبائعيِّينَ[5]؛ لأنَّه لو كان حدوثُ الثَّمَرِ مِن طَبعِ الأرضِ، والهواءِ والماءِ، وجب أن يتَّفِقَ ما يحدُثُ؛ لاتِّفاقِ ما أوجبَ الحُدوثَ، فلمَّا وقع الاختلافُ، دلَّ على مدبِّرٍ قادرٍ[6]، فاعِلٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٣).

(٥) الطَّبائعيُّونَ: نسبة إلى الطَّبائع، وهم القائلون بتأثيرِ الطبيعةِ في الإيجادِ والتَّدبيرِ، ومن ذلك قولُهم: إنَّ النارَ بطَبعِها مُحرِقَة، وإنَّ الماءَ بطَبعِه مُغرِق. يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) للشهرستاني (٥/ ١١٥)، ((شرح الشفا)) للقاري (٢/ ٥١٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٢).

مُختارٍ، يفعلُ ما يشاءُ، كيفَ يشاءُ، سبحانَه، جَلَّ وعَلَا عَنِ الشُّركاءِ والأندادِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ دَلالةٌ على تَفضيلِه سُبحانَه بعضَ المَخلوقاتِ على بعضٍ، مع استوائِها فيما تساوَت فيه مِن الأسبابِ[٢].

٨- قال الحسنُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ...﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: (هذا مَثَلٌ ضرَبَه اللَّهُ تعالى لقُلوبِ بني آدمَ؛ كانتِ الأرضُ طينَةً واحدةً فسَطَحَها، فصارت قِطَعًا مُتجاوراتٍ، فنزَلَ عليها ماءٌ واحدٌ مِن السَّماءِ، فتُخرِجُ هذه زَهرةً وثمَرةً، وتُخرِجُ هذه سَبَخَةً ومِلحًا وخَبَثًا. وكذلك النَّاسُ خُلِقوا مِن آدمَ، فنزَلَتْ عليهم مِن السَّماءِ تذْكِرَةٌ، فرَقَّتْ قُلوبٌ، وخشَعَت قُلوبٌ، وقَسَت قُلوبٌ، ولَهَتْ قُلوبٌ)[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ في إسنادِ الإنزالِ إليه بصِيغةِ المَبْنيِّ للمفعولِ والتَّعرُّضِ لوصْفِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضميرِه عليه السَّلامُ: دلالةٌ على فَخامةِ المُنْزَلِ التَّابعةِ لجَلالةِ شأْنِ المُنْزِلِ وتشْريفِ المُنْزَلِ إليه، وإيماءٌ إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ[٤]. وقيل: الإتيانُ بـ﴿رَبِّكَ﴾ دون اسمِ الجَلالةِ؛

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٣٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢).

للتَّلطُّفِ(١).

- وأخبَرَ عنِ الَّذي أُنْزِلَ بأنَّه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بصيغةِ القَصْرِ، أي: هو الحقُّ لا غيرُه مِن الكُتُبِ، فالقَصْرُ إضافيٌّ(٢) بالنِّسبةِ إلى كُتُبٍ معلومةٍ عندَهم، أو القصْرُ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ(٣)؛ مُبالغةً لعَدَمِ الاعتدادِ بغيرِه مِن الكُتُبِ السَّابقةِ، أي: هو الحقُّ الكاملُ؛ لأنَّ غيرَه مِن الكُتُبِ لم يستكمِلْ مُنتهَى مُرادِ اللَّهِ مِن النَّاسِ؛ إذ كانتْ درجاتٍ مُوصِلةً إلى الدَّرجةِ العُليا(٤).

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ هذه الجُملةُ كالحُجَّةِ على الجُملةِ الأُولى، وتعريفُ الخبَرِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وإنْ دلَّ على اختصاصِ المُنْزَلِ بكونِه حقًّا، فهو أعمُّ مِن المُنْزَلِ صريحًا أو ضِمنًا، كالمُثْبَتِ بالقياسِ وغيرِه ممَّا نطَقَ المُنْزِلُ بحُسْنِ اتِّباعِه(٥).

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استدراكٌ، وهو راجعٌ إلى ما أفادَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٩).

(٢) القصرُ- في اصطلاحِ البلاغيينَ-: هو تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأوَّلُ: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، وما ضربتُ إلَّا زيدًا.
والقصرُ الإضافيُّ: أن يكون المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلام، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصر بالإضافة إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالين أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. مثل: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) القصر الادِّعائي: هو ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالغةِ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدمِ، وقصرُ الشيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٨- ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٠).

القَصْرُ مِن إبطالِ مُساواةِ غيرِه له في الحَقِّيَّةِ إبطالًا يقتضي ارتفاعَ النِّزاعِ في أحقِّيَّتِه، وابتداءُ السُّورةُ بهذا تنويهٌ بِما في القُرآنِ- الَّذي هذه السُّورةِ جزءٌ منه- مقصودٌ به تهيئَةُ السَّامِعِ للتَّأمُّلِ ممَّا سَيَرِدُ عليه مِن الكلامِ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ هو ابتداءُ المقْصودِ مِن السُّورةِ، وما قبلَه بمنزِلَةِ الدِّيباجَةِ مِن الخُطبةِ؛ ولذا طالَ الكلامُ واطَّرَدَ في هذا الغَرَضِ[2].

- وفيه الافتِتاحُ باسمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ دون الضَّميرِ الَّذي يعودُ إلى ﴿رَّبِّكَ﴾؛ لأنَّه مُعَيَّنٌ به لا يشتَبِه غيرُه مِن آلهتِهم؛ ليكونَ الخبَرُ المقصودُ جاريًا على مُعَيَّنٍ لا يحتمِلُ غيرَه؛ إبلاغًا في قطْعِ شائبةِ الإشراكِ. و﴿ٱلَّذِى رَفَعَ﴾ هو الخبَرُ، وجُعِلَ اسمَ موصولٍ؛ لكونِ الصِّلةِ معلومةَ الدَّلالةِ على أنَّ مَن تثبُتُ له هو المُتوحِّدُ بالرُّبوبيَّةِ؛ إذ لا يستطيعُ مثلَ تلك الصِّلةِ غيرُ المُتوحِّدِ، ولأنَّه مُسَلَّمٌ له ذلك[3]. وعلى القولِ بأنَّ جُمْلتي ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ خَبَرانِ عن قولِه: ﴿ٱللَّهُ﴾ خبرًا بعد خبَرٍ؛ فالموصولُ ﴿ٱلَّذِى﴾ صفةٌ للمُبتدأِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ جيءَ به للدَّلالةِ على تحقيقِ الخبَرِ، وتعظيمِ شأْنِه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣).

- وقولُه: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئنافٌ استُشْهِدَ به على ما ذُكِرَ مِن رفْعِ السَّمواتِ بغيرِ عَمَدٍ(١).

- وعلى القولِ بالاستئنافِ فيكونُ في قولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فنٌّ رفيعٌ مِن فُنونِ البَلاغةِ، وهو نَفْيُ الشَّيءِ بايجابه، أي: رفَعَ السَّمواتِ خاليةً مِن العَمَدِ، فالوجْهُ انتِفاءُ العَمَدِ والرُّؤيةِ جميعًا؛ فلا رُؤيةَ ولا عَمَدَ(٢).

- قولُه: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه التَّعبيرُ بالجَرَيانِ عنِ السَّيرِ الَّذي فيه سُرْعةٌ(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا في سُورةِ (الرَّعدِ): ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وفي سُورةِ (لُقمانَ) قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ [لقمان: ٢٩]، فعبَّرَ بـ(إلى) ولا ثانِيَ له؛ وذلك لأنَّه يُقالُ في الزَّمانِ: جَرَى ليوم كذا، وإلى يومِ كذا، والأكثرُ اللَّامُ، كما في هذه السُّورةِ وسُورةِ (فاطرٍ): ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وكذلك في (يس): ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨]؛ لأنَّه بمنزِلةِ التَّاريخِ، وأمَّا في سُورةِ (لُقمانَ) فوافَقَ ما قبلَها، وهو قولُه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٢]، والقِياسُ (للَّهِ) كما في قولِه: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، لكنَّه حُمِلَ على المعنى، أي: يقصِدُ بطاعتِه إلى اللَّهِ، وكذلك ﴿يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، أي: يجْري إلى وقتِه المُسمَّى له(٤).

- قولُه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ الَّذي تقْتَضيه الفَصاحةُ أنَّ هاتينِ الجُمْلتينِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٥).
(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥١).

استِئنافُ إخبارٍ عنِ اللَّهِ تعالى[١]، وجُملةُ ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تُرِكَ عطْفُها على الَّتي قبلَها؛ لتكونَ على أسلوبِ التَّعْدادِ والتَّوقيفِ؛ وذلك اهتمامٌ باستقْلالِها[٢].

- وفيه مُناسَبة حَسَنةٌ، حيث صِيغَ ﴿يُدَبِّرُ﴾ و﴿يُفَصِّلُ﴾ بالمُضارعِ، على عكْسِ قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ التَّدبيرَ والتَّفصيلَ مُتَجدِّدٌ مُتكرِّرٌ بتجدُّدِ تعلُّقِ القُدرةِ بالمقْدوراتِ، وأمَّا رفْعُ السَّمواتِ وتسخيرُ الشَّمسِ والقمرِ فقد تمَّ واستقرَّ دُفعةً واحدةً[٣].

- قولُه: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ مِن إدماجِ غرَضٍ في أثناءِ غرَضٍ آخرَ؛ لأنَّ الكلامَ جارٍ على إثباتِ الوحدانيَّةِ، وفي أدلَّةِ الوحدانيةِ دَلالةٌ على البعْثِ أيضًا[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ فبيْنَ الجُملتينِ شِبْهُ التَّضادِّ؛ حيث اشتملتِ الأُولى على ذِكْرِ العَوالِمِ العُلويَّةِ وأحوالِها، واشتملتِ الثَّانيةُ على ذِكْرِ العَوالِمِ السُّفليَّةِ، والمعنى: أنَّه خالِقُ جميعِ العَوالِمِ وأعراضِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٢).

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جِبالًا ثوابتَ في أحْيازِها؛ مِن الرَّسْوِ، وهو ثباتُ الأجسامِ الثَّقيلةِ، ولم يذْكُرِ الموصوفَ (الجبالَ)؛ لظُهورِه، ولإغْناءِ غلَبَةِ الوصفِ بها عن ذلك، والتَّعبيرُ عنِ الجبالِ بهذا العُنوانِ؛ لبيانِ تفرُّعِ قَرارِ الأرضِ على ثباتِها(١).

- قولُه: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ فيه تنْكيرُ ﴿زَوْجَيْنِ﴾؛ للتَّنويعِ، أي: جعَلَ زوجَينِ مِن كلِّ نوعٍ، ومعنى التَّثْنيةِ في ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أنَّ كلَّ فرْدٍ مِن الزَّوجِ يُطْلَقُ عليه زوجٌ، والوصفُ بقولِه: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾؛ للتَّأكيدِ؛ تحقيقًا للامْتِنانِ(٢)؛ فأكَّدَ به الزَّوجينِ لئلَّا يُفْهَمَ أنَّ المُرادَ بذلك الشَّفْعانِ؛ إذ يُطْلَقُ الزَّوجُ على المجْموعِ، ولكنِ اثْنَينِيَّةُ ذلك اثْنَينِيَّةٌ اعتباريَّةٌ، أي: جعَلَ مِن كلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الثَّمراتِ الموجودةِ في الدُّنيا ضَرْبَينِ صِنْفَينِ(٣).

- وجيءَ بالفِعْلِ ﴿يُغْشِى﴾ بصيغَةِ المُضارعِ؛ لِما يدُلُّ عليه مِن التَّجدُّدِ؛ لأنَّ جَعْلَ الأشياءِ المُتقدِّمِ ذِكْرُها جَعْلٌ ثابتٌ مُستمِرٌّ، وأمَّا إغْشاءُ اللَّيلِ والنَّهارِ فهو أمْرٌ مُتجدِّدٌ كلَّ يومٍ وليلةٍ(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في الإشارةِ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ تنْبيهٌ على عِظَمِ شأْنِ المُشارِ إليه في بابِه(٥).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جعَلَ الأشياءَ المَذْكوراتِ ظُروفًا لـ (آياتٍ)؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ مِن الأمورِ المَذْكورةِ تتضمَّنُ آياتٍ عظيمةً،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤).

وأجْرى صِفَةَ التَّفكيرِ على لفظِ (قَوْمٍ)؛ إشارةً إلى أنَّ التَّفكيرَ المُتكرِّرَ المُتجدِّدَ هو صِفَةٌ راسِخةٌ فيهم، بحيث جُعِلَتْ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، أي: جِبِلَّتِهم، وجيءَ في التَّفكيرِ بالصِّيغةِ الدَّالَّةِ على التَّكلُّفِ (تَفعَّل) وبصيغةِ المُضارِعِ؛ للإشارةِ إلى تفْكيرٍ شديدٍ ومُكرَّرٍ[١].

- وخَصَّ المتفكِّرينَ؛ لأنَّ ما احتوَت عليه هذه الآياتُ مِن الصَّنيعِ العَجيبِ، لا يُدرَكُ إلَّا بالتفكُّرِ[٢].

- وفي خِتامِ هذه الآيةِ بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، وقد ختَمَ الآيةَ الَّتي بعدَها بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ في قولِه: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٍ وَزَرۡعٌ وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾؛ فقال في الأُولى: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي الآيةِ الَّتي بعدَها: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ وذلك أنَّ التَّفكُّرَ هو المُؤدِّي إلى مَعرفةِ الشَّيءِ، والعِلْمِ بالآياتِ الَّتي تدُلُّ على وَحدانيَّةِ اللَّهِ تعالى، فهو قَبْلُ؛ فإذا استُعْمِلَ على وجْهِه عقَل ما جُعِلَت هذه الأشياءُ أَمارَةً له، ودَلالةً عليه؛ فبُدِئَ في الأوَّلِ بما يُحْتاجُ إليه أوَّلًا مِن التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ المُفْضِيَيْنِ بصاحِبِهما إلى إدراكِ المطلوبِ، وخُصَّ الآخَرُ بما يستقِرُّ عليه آخِرُ التَّفكُّرِ مِن سُكونِ النَّفْسِ إلى عِرفانِ ما دلَّتِ الآياتُ عليه، فكان في تقْديمِ ما قُدِّمَ وتأْخيرِ ما أُخِّرَ إشارةٌ إليه[٣]؛ فختَمَ الآيةَ هنا بـ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، وختَمَها بعدُ بـ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٨).
(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٨١٢-٨١٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٦).

التَّفكُّرَ في الشَّيءِ سببٌ لِتعقُّلِه، والسَّببُ مُقدَّمٌ على المُسبَّبِ، فناسَبَ تقدُّمُ التَّفكُّرِ على التَّعقُّلِ[1]. وأيضًا لمَّا كان الاستدلالُ في الآيةِ الثَّانيةِ بأشياءَ في غايَةِ الوضوحِ مِن مُشاهدَةِ تجاوُرِ القِطَعِ، والجنَّاتِ وسَقْيِها وتفْضيلِها، جاء ختْمُها بقولِه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، بخلافِ هذه الآيةِ الَّتي قبلها؛ فإنَّ الاستدلالَ بها يَحتاجُ إلى تأمُّلٍ ومَزيدِ نظَرٍ؛ فجاءَ ختْمُها بقولِه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

وقيل: إنَّ مُعْتَبَراتِ الآيةِ الأُولى مِن مَدِّ الأرضِ وما ذُكِرَ بعدَ ذلك أوضحُ للاعتِبارِ، ومُعْتَبَراتِ الثَّانيةِ أغمضُ، فتجاوُرُ قِطَعِ الأرضِ وتقارُبُها في الصِّفاتِ والهيْئاتِ مِن سَهْلٍ وحَزْنٍ، ثمَّ تُخْرِجُ أنواعَ الجنَّاتِ مِن النَّخلِ والأعنابِ وضُروبِ الأشجارِ والنَّباتِ والزَّرعِ، واختلافُ الطُّعومِ في ثَمَراتِها والألوانِ والرَّوائحِ، وتفاوتُ الطِّيبِ والمنافعِ الحاصِلةِ عن ذلك؛ مِن غِذاءٍ ودواءٍ نافعٍ وضارٍّ، مع تقارُبِ الأرضِ وتجاوُرِها وتشاكُلِها وسَقْيِها بماءٍ واحدٍ، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، وهذا ممَّا تنقطِعُ الأفكارُ وتقصُرُ العُقولُ عن عَجيبِ الصُّنعِ الرَّبانيِّ فيه، وأمَّا مُعْتَبَراتُ الأُولى فيُتوصَّلُ بالفِكرِ إلى الحُصولِ على الاعتِبارِ بها وتعقُّلِها وعجيبِ الحِكمةِ فيها، وغُموضُ ما في الثَّانية بادٍ، ولا يُتَوصَّلُ إلى بعضِ ذلك إلَّا بعدَ طُولِ الاعتِبارِ والتَّأْييدِ منه سبحانه والتَّوفيقِ؛ فلمَّا كان العَقلُ أشرفَ وأعلى ناسَبَه أنْ يُتْبَعَ به ما هو أغمَضُ وأخْفى، وناسَبَ الفِكرَ ما هو أظهَرُ وأجْلى؛ فقيل في عَقِبِ الآيةِ الأُولى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي عَقِبِ الآيةِ الثَّانيةِ: ﴿لِّقَوۡمٖ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٠).

يَعۡقِلُونَ ﴾، ولو ورَدَ العكْسُ لم يكُنْ ليُناسِبَ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ ﴾ فيه إعادةُ اسمِ الأرضِ الظَّاهِرِ دون ضَميرِها الَّذي هو المُقْتَضى؛ لِيستقِلَّ الكلامُ، ويتجدَّدَ الأُسلوبُ، وأصلُ انتظامِ الكلامِ أنْ يُقالَ: (جعَلَ فيها زوجينِ اثنينِ، وفيها قِطَعٌ مُتجاوِراتٌ)؛ فعدَلَ إلى هذا تَوضيحًا وإيجازًا، والاقتِصارُ على ذِكْرِ الأرضِ وقِطَعِها يشيرُ إلى اختلافٍ حاصِلٍ فيها عن غيرِ صُنْعِ النَّاسِ؛ وذلك اختلافُ المَراعي والكلأِ[٢].

- قولُه: ﴿ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾ ليس وَصْفُ القِطَعِ بـ ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾ مقْصودًا بالذَّاتِ في هذا المَقامِ؛ إذ ليس هو مَحَلَّ العِبرَةِ بالآياتِ، بلِ المقْصودُ وَصْفُ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، تقديرُه: مُختلِفاتُ الألوانِ والمَنابِتِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ ﴾، وإنَّما وُصِفَت بـ ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾؛ لأنَّ اختلافَ الألوانِ والمَنابِتِ مع التَّجاوُرِ أشدُّ دَلالةً على القُدرةِ العظيمةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ ﴾، ﴿وَزَرۡعٞ ﴾، أي: مِن كلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الحُبوبِ، وإفرادُه لمُراعاةِ أصْلِه (لأنَّه مصْدرٌ في أصْلِه)، ولعلَّ تقْديمَ ذِكْرِ الجنَّاتِ عليه مع كونِه عَمودَ المَعاشِ؛ لظُهورِ حالِها في اختلافِها ومُبايَنتِها لِسائرِها، ورُسوخِ ذلك فيها. وتأْخيرُ ﴿وَنَخِيلٞ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴾؛ لئلا يقَعَ بينها وبين صِفَتِها ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ فاصِلَةٌ(١). وخُصَّ النَّخلُ بذِكْرِ صِفَةِ ﴿صِنْوَانٌ﴾؛ لأنَّ العِبرَةَ بها أقْوى، ووجْهُ زيادةِ ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ تجْديدُ العِبرَةِ باختلافِ الأحوالِ(٢).

- وأيضًا في قولِه: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ النَّصُّ على الصِّنْوانِ؛ لأنَّها بمِثالِ التَّجاوُرِ في القِطَعِ، فظهَرَ فيها غَرابَةُ اختلافِ الأُكُلِ(٣).

- قولُه: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ خُصَّ التَّفضيلُ في الأُكُلِ وإن كانت متفاضِلةً في غيرِه؛ لأنَّه غالِبُ وُجوهِ الانتفاعِ مِن الثَّمَراتِ(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ وهذه الأحوالُ وإنْ كانت هي الآياتِ أنْفُسَها لا أنَّها فيها، إلَّا أنَّه قد جُرِّدَت عنها أمثالُها؛ مُبالَغةً في كونِها آيةً، فـ (في) تجْريديَّةٌ مثْلها في قولِه تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾، وحيث كانت دلالةُ هذه الأحوالِ على مَدْلولاتِها أظْهَرَ ممَّا سبَقَ، عُلِّقَ كونُها آياتٍ بمَحْضِ التَّعقُّلِ؛ ولذلك لم يُتعَرَّضْ لغيرِ تفضيلِ بعضِها على بعضٍ في الأُكُلِ الظَّاهرِ لكلِّ عاقلٍ، مع تحقُّقِ ذلك في الخَواصِّ والكيفيَّاتِ ممَّا يتوقَّفُ العُثورُ عليه على نوعِ تأمُّلٍ وتفكُّرٍ؛ كأنَّه لا حاجةَ في ذلك إلى التَّفكُّرِ أيضًا. وفيه تعريضٌ بأنَّ المُشركينَ غيرُ عاقِلينَ(٥)؛ فجاءت هذه الجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ مَجيءَ التَّذييلِ، ووصَفَت الآياتِ بأنَّها مِن اختِصاصِ الَّذين يعقِلونَ؛ تعْريضًا بأنَّ مَن لم تُقْنِعْهم تلك الآياتُ مُنَزَّلونَ مَنزلَةَ مَن لا يعقِلُ، وَزِيدَ في الدَّلالةِ على أنَّ العقْلَ سَجِيَّةٌ للَّذين انتفعوا بتلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٧)، ويُنظر كذلك: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥).

الآياتِ بإجْراءِ وَصْفِ العقْلِ على كلمةِ ﴿لِّقَوْمٍ﴾؛ إيماءً إلى أنَّ العقْلَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[١].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٨).

الآيات (٥-٧)

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾: جمعُ غُلٍّ، والغُلُّ: مختصٌّ بما يُقيَّدُ به فيجعلُ الأعضاءَ وسطَه، أو: هو طوقٌ تشدُّ به اليدُ إلى العنقِ، أو حَلْقَةٌ مِنْ حديدٍ أو غيرِه تُحيطُ بالعنقِ تُناطُ بها سلسلةٌ مِنْ حديدٍ، وأصلُ (غلل): تدرُّعُ الشيءِ وتوسُّطُه[1].

﴿خَلَتْ﴾: أي: مَضَت وذَهبَت، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعرِّي الشَّيءِ مِن الشَّيءِ[2].

﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾: أي: العُقوباتُ النازلةُ على أمثالِهم من المكَذِّبينَ، وأصلُ (مثل): يدلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وإن تعجَبْ -يا مُحمَّدُ- مِن عدَمِ إيمانِ قَومِك بعدَ هذه

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).
(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

الأدلَّةِ، فالعجَبُ الأشدُّ قولُهم: أئِذا مِتْنا وكُنَّا تُرابًا نُبعَثُ مِن جديدٍ؟! أولئك هم الكافرون برَبِّهم الذي أوجَدَهم من العَدَمِ، وأولئك تكونُ أطواقُ الحديدِ في أعناقِهم يومَ القيامةِ، وأولئك أصحابُ النَّارِ لا يَخرُجونَ منها أبدًا. ويَستعجِلُك الكُفَّارُ بالعذابِ، بدلَ العافيةِ والرَّحمةِ والإمهالِ؛ استهزاءً، وإنكارًا منهم وقوعَ ما تُنذِرُهم به، وقد مضَت عُقوباتُ المكَذِّبينَ مِن قَبلِهم، فكيف لا يَعتَبِرونَ بهم؟ وإنَّ رَبَّك- يا مُحمَّدُ- لَذو مغفرةٍ لذُنوبِ مَن تاب مِن النَّاسِ على ظُلمِهم، وإنَّ ربَّك لَشديدُ العِقابِ على مَن أصرَّ على الكُفرِ والضَّلالِ ومَعصيةِ الله. ويقولُ كُفَّارُ مكَّةَ: هلَّا جاءتْه مُعجزةٌ مِن رَبِّه، وليس ذلك بيَدِك؛ فما أنت إلَّا منذرٌ لقَومِك؛ تحذِّرُهم مِن عِقابِ اللهِ، ولكُلِّ أمَّةٍ رَسولٌ يُرشِدُهم ويدعوهم إلى اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الدَّلائِلَ القاهِرةَ على ما يُحتاجُ إليه في مَعرفةِ المَبدأِ؛ ذكَر بعدَه مَسألةَ المعادِ[1].

وأيضًا لما قضَى حقَّ الاستدلالِ على الوحدانيةِ؛ نقَل الكلامَ إلى الردِّ على مُنكري البعثِ، وهو غرضٌ مستقلٌّ مقصودٌ مِن هذه السورةِ، وقد أُدْمِج ابتداءً خلالَ الاستدلالِ على الوحدانيةِ، بقولِه: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ تمهيدًا لما هنا، ثم نقَل الكلامَ إليه باستقلالِه، بمناسبةِ التدليلِ على عظيمِ القدرةِ، مستخرجًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/٨).

مِن الأدلةِ السابقةِ عليه أيضًا[١].

وأيضًا لَمَّا ثبَتَ قَطعًا بما أقام سُبحانَه وتعالى من الدَّليلِ على عظيمِ قُدرتِه، وبما أودَعَه مِن الغرائبِ في مَلَكوتِه التي لا يَقدِرُ عليها سِواه- أنَّ هذا إنَّما هو فِعلُ واحدٍ قَهَّارٍ مُختارٍ يُوجِدُ المَعدومَ، ويُفاوِتُ بين ما تقتَضي الطَّبائعُ اتِّحادَه؛ كان إنكارُ شَيءٍ مِن قُدرتِه عَجبًا، فقال عطفًا على قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ -مشيرًا إلى أنَّهم يقولونَ: إنَّ الوعدَ بالبَعثِ سِحرٌ لا حقيقةَ له[٢]-:

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾.

أي: وإنْ تَعجَبْ- يا مُحمَّدُ- مِن عبادةِ المُشرِكينَ آلهةً لا تضُرُّ ولا تنفَعُ، بعدَما رأَوا مِن آثارِ قُدرةِ اللهِ العظيمةِ ما رأَوْا؛ مِن خَلْقِه الأشياءَ التي تقدَّمَ ذِكرُها؛ فالعجَبُ مِن إنكارِهم البعثَ بقَولِهم: أئِذا صِرْنا تُرابًا بعد مَوتِنا، أئِنَّا لمبعوثونَ خَلقًا جديدًا كما كنَّا في الدُّنيا[٣]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٢).

وهذا المعنى المذكورُ للتعجبِ الأولِ هو في الجملةِ اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، وابنِ الجوزي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: وإن تَعجَبْ مِن قَولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ فعَجَبٌ قَولُهم! كيف يُنكِرونَ هذا وقد اعترَفوا وشاهَدوا ما هو أعجبُ مِمَّا كَذَّبوا به، وقد عَلِمَ كُلُّ عالمٍ وعاقلٍ أنَّ خَلقَ السَّمواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن خَلقِ النَّاسِ، وأنَّ مَن بدأ الخلقَ فالإعادةُ سَهلةٌ عليه؟! وممَّن اختار هذا القَولَ: الزجَّاج، والزمخشري، وابن كثير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٢).

وقيل: المعنى: وإن تَعجَبْ- يا مُحمَّدُ- مِن تَكذيبِهم لك بعد ما كنتَ عِندَهم الصَّادِقَ الأمينَ، فأعجَبُ منه تكذيبُهم بالبَعثِ. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨١).

قال السَّعدي: (يَحتمِلُ أنَّ معنى قَولِه: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ مِن عَظَمةِ اللهِ تعالى، وكثرةِ أدِلَّةِ

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا حكَى اللَّهُ سبحانَه عنهم قَوْلَهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾؛ حَكَم عليهم بأمورٍ ثلاثةٍ[1]، فقال:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾.

أي: أولئك- البَعيدونَ عن كُلِّ خيرٍ ممَّن يُنكِرونَ البَعثَ بعد الموتِ- قد وقَعوا بذلك في الكُفرِ باللهِ تعالى، حيثُ أنكَروا قُدرةَ الرَّبِّ الذي خلَقَهم ويَملِكُهم، ويدَبِّرُ أمورَهم، وكذَّبوا رسلَه[2].

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لمَّا حكَمَ عليهم بالكُفرِ في الدُّنيا ذكَرَ ما يَؤُولونَ إليه في الآخِرةِ على سبيلِ

توحيدِه؛ فإنَّ العَجَبَ- مع هذا- إنكارُ المكَذِّبينَ، وتكذيبُهم بالبَعثِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (الفِعلُ الواقِعُ في سِياقِ الشَّرطِ لا يُقصَدُ تعَلُّقُه بمعمولٍ معَيَّنٍ، فلا يُقدَّرُ: إن تعجَبْ مِن قَولٍ أو إنْ تعجَبْ مِن إنكارٍ، بل يُنزَّلُ الفِعلُ مَنزلةَ اللازم، ولا يُقدَّرُ له مفعولٌ، والتقديرُ: إن يكُنْ منك تعجُّبٌ فاعجَبْ مِن قَولِهم... إلخ، على أنَّ وقوعَ الفِعلِ في سياقِ الشَّرطِ يُشبِهُ وقوعَه في سياقِ النَّفيِ، فيكونُ لعُمومِ المفاعيلِ في المقامِ الخِطابيِّ، أي: إن تعجَبْ مِن شَيءٍ فعجَبٌ قَولُهم. ويجوزُ أن تكونَ جملةُ: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ ...﴾ عطفًا على جملة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]، فالتَّقديرُ: إن تعجَبْ من عدمِ إيمانِهم بأنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ من اللهِ، فعجَبٌ إنكارُهم البعثَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٩، ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

الوعيدِ[1].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾.

أي: وهم الذين في أعناقِهم أطواقٌ مِن حديدٍ، يومَ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ * إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: وأولئك سُكَّانُ النَّارِ، هم ماكِثونَ فيها، لا يَخرُجونَ منها أبدًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٢- ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٥٩).

وتفسيرُ الأغلالِ بأنَّها أغلالُ يومِ القيامةِ، نسَبه ابنُ الجوزي للأكثرين. ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ بالأغلالِ هنا: الأعمالُ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: الزجاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ١٣٩).

وقيل: المرادُ بالأغلالِ: الأعمالُ، والتي هي أيضًا مؤديةٌ إلى كونِ الأغلالِ في أعناقِهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّ قولَك للرجلِ: هذا غلٌّ في عنقِك؛ للعملِ السيئِ، معناه أنَّه لازمٌ لك، وأنَّك مُجازًى عليه بالعذابِ يومَ القيامةِ. ((المصدر السابق)).

وقيل: المرادُ بالأغلالِ هنا: أنهم مقيَّدون بالضلالِ، ممنوعونَ مِن الإيمانِ، فلا يُرجَى خلاصُهم؛ عقوبةً لهم؛ لكونِهم لم يُؤمنوا بالحقِّ أوَّلَ مرةٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: البيضاويُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

قال القاسمي: (﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾...؛ لأنهم غلُّوا أفكارَهم عن النظرِ في هذه الأمورِ، كما جعَلوا خالقَهم مغلولَ القدرةِ على ذلك). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يهَدِّدُ المشركين تارةً بعذابِ القِيامةِ، وتارةً بعذابِ الدُّنيا، والقومُ كلَّما هدَّدَهم بعذابِ القيامةِ أنكَروا القيامةَ والبعثَ، والحَشرَ والنَّشرَ، وكُلَّما هدَّدَهم بعذابِ الدُّنيا، طلَبوا منه إظهارَه وإنزالَه؛ على سبيلِ الطَّعنِ فيه، وإظهارِ أنَّ الذي يقولُه كلامٌ لا أصلَ له؛ فلهذا السَّبَبِ حكى اللهُ عنهم أنَّهم يستعجِلونَ الرَّسولَ بالسَّيِّئةِ قبلَ الحَسَنةِ(١).

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَت الآيةُ السابقةُ إثباتَ القُدرةِ التَّامَّةِ، مع ما سبقَ مِن أدِلَّتِها المحسوسةِ المُشاهَدةِ؛ كان أيضًا من العجَبِ العَجيبِ والنَّبأِ الغريبِ استهزاؤُهم بها، فقال مُعَجِّبًا منهم(٢):

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾.

أي: ويطلُبُ منك كفَّارُ قَومِك -يا محمَّدُ- استخفافًا واستهزاءً؛ أن تُعَجِّلَ لهم العذابَ قبلَ أن يَطلُبوا العافيةَ والإمهالَ، وذلك لشدَّةِ كُفرِهم وتكذيبِهم وعِنادِهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).
قال ابن عاشور: (والسَّيِّئة: الحالةُ السَّيِّئة. وهي هنا المصيبةُ التي تسوءُ مَن تحُلُّ به. والحسَنةُ ضِدُّها، أي: إنَّهم سألوا مِن الآياتِ ما فيه عذابٌ بسُوءٍ، كقولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] دونَ أن يسألوا آيةً مِن الحَسَنات؛ فهذه الآيةُ نزلت حكايةً لبعضِ أحوالِ سُؤَّالِهم الظَّانِّينَ أنَّه تعجيزٌ، والدالِّينَ به على التهكُّم

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٦-٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤].

وقال جلَّ ثناؤُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٧، ٨].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾.

أي: يَستعجِلونَك بالعذابِ والحالُ أنَّهم يعلمونَ ما حلَّ بالأُمَم المكذِّبةِ مِن قَبْلِهم مِن العُقوباتِ، ولم يتَّعِظوا[1]!

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ﴾.

بالعذابِ، وقبْليَّةُ السيئةِ قبْليَّةٌ اعتباريَّة، أي: مُختارينَ السَّيِّئةَ دونَ الحَسَنةِ. ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٢).

وَقِيلَ: ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: أي: قبلَ الإيمانِ الَّذي يُرْجَى به الأمانُ والحسناتُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤).

قال الشنقيطي: (﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: قبلَ العافيةِ، وقبلَ الإيمانِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٢، ٢٢٣).

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- ذُو عَفْوٍ وتجاوزٍ وسَترٍ للنَّاسِ معَ أنَّهم يَظْلِمونَ ويُخْطِئونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وذلك إذا تابوا ورجَعوا إلى الله(١).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَشديدُ العِقابِ لمن أصرَّ على ظُلمِه، فيُعاقِبُه على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨١).

وممن اختار أنَّ هذه المغفرةَ لهم إذا تابوا: ابنُ جريرٍ، وابنُ أبي زمنين، والقرطبي، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨١).

وقيل: المرادُ بالناسِ هنا المشركونَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٩٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالمغفرةِ هنا إنَّما هو سترُه في الدنيا وإمهالُه: ابنُ عطيةَ، وابنُ جزي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٣).

قال ابنُ عاشور: (المَغفِرةُ هنا مُستعملةٌ في المَغفرةِ المُوقَّتةِ، وهي التجاوُزُ عن ضراوةِ تَكذيبِهم وتأخيرُ العَذابِ إلى أجَلٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨] وقرينةُ ذلك أنَّ الكلامَ جارٍ على عذابِ الدُّنيا وهو الذي يقبَلُ التأخيرَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]، أي: عذابِ الدُّنيا... وسياقُ الآيةِ يدُلُّ على أنَّ المرادَ بالمغفرةِ هنا التَّجاوُزُ عن المُشركينَ في الدُّنيا بتأخيرِ العِقابِ لهم إلى أجَلٍ أراده اللهُ، أو إلى يومِ الحِسابِ... فمَحمَلُ الظُّلم على ما هو المشهورُ في اصطلاحِ القُرآنِ من إطلاقِه على الشِّركِ، ويجوزُ أن يُحمَلَ الظُّلمُ على ارتِكابِ الذُّنوبِ بقرينةِ السِّياقِ، كإطلاقِه في قَولِه تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]؛ فلا تعارُضَ أصلًا بين هذا المَحمَلِ وبينَ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] كما هو ظاهِرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٣).

قال ابن جزي: (﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ يريدُ: سترَه وإمهالَه في الدُّنيا للكفارِ والعصاةِ، وقيل: يريدُ مغفرتَه لمن تاب، والأوَّلُ أظهرُ هنا). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٠).

ذلك في الدُّنيا أو في الآخرةِ، أو في كِلا الدَّارَينِ[١].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكى عن الكُفَّارِ أنَّهم طَعَنوا في نبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ بسبَبِ طَعنِهم في الحَشرِ والنَّشرِ أوَّلًا، ثمَّ طعَنوا في نبُوَّتِه بسبَبِ طَعنِهم في صِحَّةِ ما يُنذِرُهم به مِن نُزولِ عذابِ الاستئصالِ ثانيًا، ثمَّ طعَنوا في نبوَّتِه بأن طلَبوا منه المُعجِزةَ والبيِّنةَ ثالثًا، وهو المذكورُ في هذه الآيةِ[٢].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله سُبحانَه أنَّ المُشرِكينَ غَطَّوا آياتِ رَبِّهم المتفَضِّلِ عليهم بتلك الآياتِ وغَيرِها؛ عَجِبَ منهم عجبًا آخَرَ في طلَبِهم إنزالَ الآياتِ، مع كونِها مُتساويةَ الأقدامِ في الدَّلالةِ على الصَّانِعِ وما له من صِفاتِ الكَمالِ، فلمَّا كَفَروا بما أتاهم كانوا جديرينَ بالكُفرِ بما يأتيهم، فقال[٣]:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾.

أي: ويقولُ الكافِرونَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- عنادًا وكفرًا، واعتذارًا عن الإيمانِ بك: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزةٌ مِن رَبِّه تَدُلُّ على نبُوَّتِه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٣).

قال ابنُ جرير: (وهذا الكلامُ... وعيدٌ مِن الله وتهديدٌ للمشركينَ مِن قوم رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، إن هم لم ينيبوا ويتوبوا مِن كفرِهم قبلَ حلولِ نِقمةِ الله بهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وقال سُبحانه: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧-٨].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾.

أي: إنَّما عليك -يا محمَّدُ- أن تُحذِّرَ قَومَك مِن عِقابِ اللهِ إن أصَرُّوا على كُفرِهم، وليس عليك هدايتُهم، ولا إنزالُ الآياتِ التي يقترِحونَها[١].

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

أي: ولكُلِّ أمَّةٍ رَسولٌ يدعوهم إلى توحيدِ اللهِ، ويُعَلِّمُهم الخيرَ، فيَهتَدونَ به[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: ٤٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٨١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٣).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بيَّن جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه ذو مَغفرةٍ للنَّاسِ على ظُلمِهم، وأنَّه شديدُ العِقابِ، فجمعَ بين الوعدِ والوعيدِ؛ ليَعظُمَ رجاءُ النَّاسِ في فَضلِه، ويشتَدَّ خَوفُهم مِن عِقابِه وعَذابِه الشَّديدِ؛ لأنَّ مَطامعَ العُقلاءِ مَحصورةٌ في جَلبِ النَّفعِ ودَفعِ الضُّرِّ، فاجتماعُ الخَوفِ والطَّمَعِ أدعى للطَّاعةِ، وقد بُيِّنَ هذا المعنى في آياتٍ كثيرةٍ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقولِه جلَّ وعلا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]، وقولِه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ[1].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٞ قَوْلُهُمْ﴾ رَدٌّ على الجَهميَّةِ؛ إذْ قد عَجِبَ -جلَّ وعلا- مِن كُفْرِ المشركينَ بالبَعثِ، والعَجَبُ عندهم مَنفيٌّ عنه؛ مِن أجلِ أنَّه مِن صِفاتِ المخلوقينَ، وقد حكاه عن نَفسِه -جلَّ وعلا- كما ترى، وليس شَيءٌ مِن صِفاتِه مَخلوقًا- وإنْ شاركَه المخلوقُ فيه بالاسمِ؛ إذ هو مِن المخلوقِ مَخلوقٌ؛ ومنه- جلَّ وعلا- غيرُ مخلوقٍ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٞ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٖ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصّاب (١/ ٦٢٩).

جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن أنكرَ المعادَ؛ فإنَّه كافرٌ بربِّ العالَمينَ، وإن زعَمَ أنَّه مُقِرٌّ به(١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ احتُجَّ به على أنَّ العذابَ المخلَّدَ ليس إلَّا للكُفَّارِ؛ فقَولُه: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ يفيدُ أنَّهم هم الموصوفونَ بالخُلودِ لا غيرُهم، وذلك يدُلُّ على أنَّ أهلَ الكبائرِ لا يُخَلَّدونَ في النَّارِ(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ ﴾ والأغلالُ وإن لم تكُن مُشاهَدةً الآن، فهي- لِقُدرةِ المهَدِّدِ بها على الفِعلِ- كأنَّها موجودةٌ(٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ -الذي فيه إثباتُ الهدايةِ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلم- مع قولِه تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ [القصص: ٥٦] -الذي فيه نفيُ هدايتِه مَن أحَبَّ- يُبيِّنُ أنَّ الهُدى الذي أثبتَه سُبحانَه هو البيانُ والدُّعاءُ، والأمرُ والنَّهيُ، والتعليمُ وما يَتبَعُ ذلك، وليس هو الهُدى الذي نفاه، والذي لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ، وهو جَعلُ الهُدى في القلوبِ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٨٣).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧٢).

﴿ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٍ﴾، وصِيغَ بصيغةِ التَّعجُّبِ مِن إنكارِ مُنْكري البعْثِ؛ لأنَّ الأدلَّةَ السَّالِفةَ لم تُبْقِ عُذرًا لهم في ذلك. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ ...﴾ عطفًا على جُملةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]؛ فالتقديرُ: إنْ تعْجَبْ مِن عدَمِ إيمانِهم بأنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن اللَّهِ فعَجَبٌ إنكارُهم البعْثَ، وفائدةُ هذا هو التَّشويقُ لمَعْرفةِ المُتعجَّبِ منه؛ تَهويلًا له أو نحوه، ولذلك فالتَّنكيرُ في قولِه: ﴿فَعَجَبٌ﴾ للتَّنويعِ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ قولَهم ذلك صالحٌ للتَّعجُّبِ منه، ثم هو يفيدُ معنى التَّعظيمِ في بابِه، تَبَعًا لِما أفادَه التَّعليقُ بالشَّرطِ مِن التَّشويقِ(١).

- قولُه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾ الاستفهامُ في ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ إنكاريٌّ، وهو مُفيدٌ لكَمالِ الاستبعادِ والاستنكارِ؛ لأنَّهم مُوقِنونَ بأنَّهم لا يكونون في خَلْقٍ جديدٍ بعدَ أنْ يكونوا تُرابًا، والقولُ المَحْكِيُّ عنهم في مَعْنى الاستفهامِ عن مَجْموعِ أمْرَين، وهما: كونُهم تُرابًا، وتجْديدُ خَلْقِهم ثانيةً، والمقصودُ مِن ذلك العَجَبُ والإحالةُ(٢).

- وتكْريرُ الهمزةِ في قولِهم: ﴿أَءِنَّا﴾؛ لتأْكيدِ الإنكارِ(٣).

- والإشارةُ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرِياءُ بما سَيَرِدُ بعد اسمِ الإشارةِ مِن الخبَرِ؛ لأجْلِ ما سَبَقَ اسمَ الإشارةِ مِن قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾ بعد أنْ رأَوا دلائلَ الخَلْقِ الأوَّلِ، فحَقَّ عليهم بقولِهم ذلك حُكمانِ؛ أحدُهما: أنَّهم كفَروا بربِّهم؛ لأنَّ قولَهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾ لا يقولُه إلَّا كافرٌ باللَّهِ، وثانيهما: استحقاقُهمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٩- ٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦).

العَذابَ[1].

- وعُطِفَ على هذه الجُملةِ جُملةُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾ مُفْتتحَةً باسمِ الإشارةِ لمِثْلِ الغرَضِ الَّذي افتُتِحَت به الجُملةُ قبلها؛ فإنَّ مضْمونَ الجُملتينِ اللَّتينِ قبلَها يُحقِّقُ أنَّهم أَحْرِياءُ بوَضْعِ الأغْلالِ في أعناقِهم، وذلك جزاءُ الإهانةِ. وكذلك عَطْفُ جُملةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إعادةُ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ؛ للتَّهويلِ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

- قولُه: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾ هذه الجُملةُ في مَوضِعِ الحالِ؛ لبَيانِ رَكاكةِ رأيِهم في الاستعجالِ بطريقِ الاستهزاءِ، أي: يستعْجِلونك بها مُستهزِئين بإنْذارِك، مُنْكِرين لوُقوعِ ما أنذرْتَهم إيَّاه، والحالُ: أنَّه قد مَضَتِ العُقوباتُ النَّازِلةُ على أمثالِهم مِن المُكَذِّبين والمُستهزِئين، وهو مَحَلُّ زيادةِ التَّعجُّبِ؛ لأنَّ ذلك قد يُعْذَرون فيه لو كانوا لم يرَوا آثارَ الأُمَمِ المُعذَّبةِ مثل عادٍ وثمودَ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٢).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، جُملةُ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ احتراسٌ؛ لئلا يحْسَبوا أنَّ المَغفِرةَ المَذْكورةَ مَغفِرةٌ دائمةٌ؛ تعريضًا بأنَّ العِقابَ حالٌّ بهم مِن بعدُ[1]، وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه العُدولُ عنِ الإضْمارِ إلى الموصولِ -حيث لم يقُلْ: (ويقولون)- فإنَّ الَّذين كفروا هم المُستعجِلون؛ لزيادةِ تسْجيلِ الكُفْرِ عليهم، ولِما يُومِئُ إليه الموصولُ مِن تعْليلِ صُدورِ قولِهم ذلك، وصِيغةُ المُضارعِ ﴿وَيَقُولُ﴾ تدلُّ على تجدُّدِ ذلك وتكرُّرِه[2].

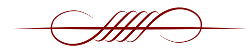
- ولكونِ اقتراحِهم آيةً يشِفُّ عن إحالتِهم حُصولَها -لِجهْلِهم بعظيمِ قُدرةِ اللَّهِ تعالى- سِيقَ هذا في عِدادِ نتائجِ عظيمِ القُدرةِ؛ فبذلك انتَظَمَ تفرُّعُ الجُمَلِ بعضِها على بعضٍ، وتفرُّعِ جميعِها على الغَرَضِ الأصليِّ[3].

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ فيه قصْرُ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ على صِفَةِ الإنذارِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، أي: أنت مُنذِرٌ لا مُوجِدٌ خَوَارِقَ عادةٍ، وبهذا يظهَرُ وجْهُ قصْرِه على الإنذارِ دون البِشارَةِ؛ لأنَّه قصْرٌ إضافيٌّ بالنِّسبةِ لأحوالِه نحوَ المُشركين؛ وقد ردَّ اللَّهُ اقتراحَهم مِن أصلِه بهذا القولِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٤- ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٥).

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ جُملةُ ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ تَذْييلٌ بالأعمِّ، أي: إنَّما أنت مُنذِرٌ لهؤلاءِ؛ لِهدايتِهم، وبهذا العُمومِ الحاصِلِ بالتَّذييلِ والشَّاملِ للرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ صارَ المعنى: إنَّما أنت مُنذِرٌ لقومِك، هادٍ إيَّاهم إلى الحقِّ؛ فإنَّ الإنذارَ والهُدى مُتلازِمانِ؛ فما مِن إنذارٍ إلَّا وهو هدايةٌ، وما مِن هدايةٍ إلَّا وفيها إنذارٌ، والهِدايةُ أعمُّ مِن الإنذارِ؛ ففي هذا احتباكٌ بديعٌ(١).



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
والاحْتِبَاك: هو الحذفُ من الأوائلِ؛ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ؛ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَعَ الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

الآيات (٨-١١)

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ
عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ
أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ
مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا
بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَغِيضُ﴾: أي: تَنقُصُ، يُقالُ: غاض الماءُ، فهو يَغيضُ؛ إذا نقَص، وأصلُ (غيض): يدُلُّ على نُقصانٍ في شَيءٍ[(١)].

﴿وَسَارِبُۢ﴾: أي: بارِزٌ ظاهِرٌ في سَرْبِه، أي: طريقِه، وأصلُ (سرب): يدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأرضِ[(٢)].

﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾: أي: مَلائِكةٌ يَخْلُفُ بعضُها بعضًا في اللَّيلِ والنَّهارِ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غَيرِه[(٣)].

﴿وَالٍ﴾: أي ملجأٍ وناصرٍ، وأصْلُ (ولي): يدلُّ على القُرْبِ، سواء مِن حيثُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧- ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن تمامِ عِلمِه الذي لا يخفى عليه شيءٌ؛ فهو سُبحانَه يعلَمُ ما تحمِلُ كلُّ أنثى في بَطنِها، أذكَرٌ هو أم أُنثى؟ وشقيٌّ هو أم سعيدٌ؟ إلى غيرِ ذلك من الأحوالِ، وهو تعالى عالمٌ بما تَنقُصُه الأرحامُ وما تزيدُه في بدنِ الجنينِ، ومدةِ الحملِ، وغيرِ ذلك، وكلُّ شَيءٍ مُقدَّرٌ عند اللهِ بمقدارٍ لا يتَجاوزُه، وهو- سبحانَه- عالِمٌ بما خَفيَ عن الأبصارِ، وبما هو مُشاهَدٌ، الكبيرُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، المُتَعالِ على جميعِ خَلقِه بذاتِه وقَدْرِه وقَهرِه. ويَستوي في عِلمِه تعالى مَن أخفَى القَولَ ومَن جهَرَ به، ويستوي عنده مَن استتَرَ بأعمالِه في ظُلمةِ اللَّيلِ، ومن جهرَ بها في وضَحِ النَّهارِ. وللعبدِ ملائِكةٌ يتعاقبونَ عليه مِن بينِ يديه ومِن خَلْفِه، يحفظونَه بأمرِ اللهِ. إنَّ اللهَ- سبحانه وتعالى- لا يغيِّرُ نِعمةً أنعَمَها على قومٍ إلَّا إذا غيَّروا ما أمَرَهم به فعَصَوه، وإذا أراد اللهُ بقَومٍ بلاءً فلا مفَرَّ منه، وليس لهم مِن دونِ اللهِ مِن والٍ يتولَّى أمورَهم، فيجلِبُ لهم المحبوبَ، ويدفَعُ عنهم المكروهَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقَدَّم إنكارُهم البَعثَ؛ لتفَرُّقِ الأجزاءِ، واختِلاطِ بَعضِها ببعضٍ، بحيثُ لا يتهيَّأُ الامتيازُ بينها؛ نَبَّه على إحاطةِ عِلمِه، وأنَّ مَن كان عالِمًا بجَميعِ المعلوماتِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

هو قادِرٌ على إعادةِ ما أنشأَ[١].

وأيضًا لَمَّا قامت البَراهينُ العديدةُ بالآياتِ السَّابِقةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، وعلى عظيمِ قُدرتِه التي أودَعَ بها في المَخلوقاتِ دَقائِقَ الخِلقةِ؛ انتقَلَ الكلامُ إلى إثباتِ العِلمِ له تعالى عِلمًا عامًّا بدقائِقِ الأشياءِ وعظائِمِها، وجُعِلَت هذه الجُملةُ في هذا المَوقِعِ؛ لأنَّ لها مُناسَبةً بقَولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فإنَّ ما ذُكِرَ فيها مِن عِلمِ اللهِ وعَظيمِ صُنعِه صالِحٌ لِأنْ يكونَ دَليلًا على أنَّه لا يُعجِزُه الإتيانُ بما اقتَرَحوا مِنَ الآياتِ، ولكِنَّ بَعثةَ الرَّسولِ ليس المَقصِدُ منها المُنازَعاتِ، بل هي دَعوةٌ للنَّظَرِ في الأدلَّةِ[٢].

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾.

أي: اللهُ يعلَمُ ما تحمِلُه كلُّ أنثى مِن بني آدمَ وغيرِهم، يعلمُ ما تحملُه على أيِّ حالٍ هو؛ مِن ذُكورةٍ وأُنوثةٍ، وحُسْنٍ وقُبحٍ، وطُولٍ وقِصَرٍ، وسَعادةٍ وشَقاوةٍ، إلى غيرِ ذلك من الأحوالِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ * هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٥- ٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثَنا رسولُ الله صلَّى الله عليه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٦)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٣).

وسَلَّم، وهو الصَّادقُ المصدوقُ: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ في بَطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ إليه مَلَكًا بأربعِ كَلِماتٍ، فيكتُبُ عَمَلَه، وأجَلَه، ورِزْقَه، وشَقيٌّ أو سعيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))[١].

﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾.

أي: وهو تعالى عالمٌ بما تَنقُصُه الأرحامُ وما تزيدُه؛ سواءٌ في بدنِ الجنينِ، أو مدةِ الحملِ، وغيرِ ذلك مما يعرِضُ أثناءَ الحملِ مِن الزيادةِ والنقصانِ[٢].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٦).

ومِمن ذهَب من المفسِّرين إلى عموم الزيادةِ والنقصانِ في الحملِ: ابنُ القيمِ، والشنقيطي.

قال ابنُ القيِّم: (التَّحقيقُ في معنى الآيةِ أنَّه يَعلَمُ مُدَّةَ الحَملِ، وما يَعرِضُ فيها مِنَ الزِّيادةِ والنُّقصانِ، فهو العالمُ بذلك دونكم... فهو سُبحانَه المُنفَرِدُ بعِلمِ ما في الرَّحِم، وعِلمِ وَقتِ إقامتِه فيه، وما يزيدُ مِن بَدَنِه وما يَنقُصُ، وما عدا هذا القَولَ فهو مِن توابِعِه ولوازِمِه، كالسِّقطِ والتَّامِّ، ورؤيةِ الدَّمِ وانقطاعِه، والمقصودُ ذِكرُ مُدَّةِ إقامةِ الحَملِ في البَطنِ وما يتَّصِلُ بها مِن زيادةٍ ونُقصانٍ). ((تحفة المودود بأحكام المولود)) (ص: ٢٦٨).

وقال الشِّنقيطيُّ بعد أن ذكَر الأقوالَ في الآيةِ: (مَرجِعُ هذه الأقوالِ كُلِّها إلى شَيءٍ واحدٍ، وهو أنَّه تعالى عالمٌ بما تَنقُصُه الأرحامُ وما تزيدُه؛ لأنَّ معنى تَغيضُ: تَنقُصُ، وتزدادُ، أي: تأخُذُه زائدًا، فيَشمَلُ النَّقصُ المذكورُ: نَقصَ العَدَدِ، ونَقصَ العُضوِ من الجنينِ، ونَقصَ جِسمِه إذا حاضت عليه فتَقلَّص، ونَقصَ مُدَّةِ الحَملِ بأن تُسقِطَه قبلَ أمَدِ حَملِه المعتادِ، كما أنَّ الازديادَ يَشمَلُ: زيادةَ العُضوِ، وزيادةَ العَدَدِ، وزيادةَ جِسمِ الجنينِ إن لم تَحِضْ وهي حامِلٌ، وزيادةَ أمَدِ الحَملِ عن القَدرِ المُعتادِ، واللهُ جَلَّ وعلا يعلَمُ ذلك كُلَّه، والآيةُ تَشمَلُه كُلَّه). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٢٦).

وقيل المعنى: ويعلَمُ ما تنقُصُ الأرحامُ مِن حَملِها في الأشهرِ التِّسعةِ بظُهورِ دَمِ الحَيضِ، وما تزدادُ في حَملِها على الأشهُرِ التِّسعةِ. وممن اختار ذلك: ابنُ جرير، ونسَبه ابنُ عطيةَ إلى جمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٨).

وممن قال به من السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبير، وعكرمةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤٤٤-٤٥١).

وقال الواحدي: (قال أكثرُ المفسِّرين: يعلمُ الوقتَ الذي تنقصُه الأرحامُ مِن المدةِ التي هي تسعةُ أشهرٍ، وما تزدادُ على ذلك. قال الضحاكُ: الغيضُ: النقصانُ مِن الأجلِ، والزيادةُ: ما

عن ابنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مفاتِحُ الغَيبِ خَمسٌ لا يعلَمُها إلَّا اللهُ: لا يعلَمُ ما في غدٍ إلَّا اللهُ، ولا يعلَمُ ما تغيضُ الأرحامُ إلَّا اللهُ، ولا يعلَمُ متى يأتي المطَرُ أحدٌ إلَّا اللهُ، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، ولا يعلَمُ متى تقومُ السَّاعةُ إلَّا اللهُ))(١).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

أي: وكلُّ شَيءٍ عندَ الله بقَدْرٍ وحَدٍّ، لا يتجاوَزُه ولا يَقصُرُ عنه، كما لا يزدادُ حَملُ أنثى على ما قُدِّرَ له، ولا ينقُصُ عما حُدَّ له(٢).

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ أنَّه عالِمٌ بأشياءَ خَفيَّةٍ لا يعلَمُها إلَّا هو، وكانت أشياءَ جُزئيَّةً مِن خفايا عِلمِه؛ ذكَرَ أنَّ عِلمَه مُحيطٌ بجميعِ الأشياءِ(٣).

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

يزدادُ على الأجلِ، وذلك أنَّ النساءَ لا يلدْنَ لأجلٍ واحدٍ). ((الوسيط)) (٣/ ٧).

(١) رواه البخاري (٤٦٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨٢-٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٦٣).

قال القُرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني: مِنَ النُّقصانِ والزيادةِ. ويقالُ: «بمقدارٍ» قَدْرَ خروجِ الوَلَدِ مِن بطنِ أمِّه، وقَدْرَ مُكثِه في بَطنِها إلى خُروجِه. وقال قتادةُ: في الرِّزقِ والأجَلِ. والمِقدارُ: القَدْرُ، وعمومُ الآيةِ يتناوَلُ كُلَّ ذلك، واللهُ سُبحانَه أعلَمُ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٩).

وقال ابن عطية: (قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ لفظٌ عامٌّ في كُلِّ ما يدخُلُه التَّقديرُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٨).

أي: اللهُ عالِمٌ بكُلِّ ما غاب عنكم، وكُلِّ ما تُشاهِدونَه بأبصارِكم، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن ذلك كُلِّه(١).

﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾.

أي: هو الكبيرُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، وهو أكبَرُ مِن أيِّ شيءٍ، وكُلُّ شَيءٍ دُونَه، وهو المُستَعلي على جميعِ خَلْقِه، بذاتِه وقَدْرِه وقَهرِه(٢).

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا تأكيدُ بَيانِ كَونِه عالِمًا بكُلِّ المَعلوماتِ(٣).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ على العُمومِ؛ ذكَرَ تعالى تعلُّقَ عِلمِه بشَيءٍ خاصٍّ مِن أحوالِ المُكَلَّفينَ(٤).

وأيضًا لَمَّا كانت العادةُ قاضيةً بتفاوُتِ العِلمِ بالنِّسبةِ إلى السِّرِّ والجَهرِ، والقُدرةِ بالنِّسبةِ إلى المتحَفِّظِ بالحَرَسِ وغَيرِه؛ أتبَعَ ذلك سبحانَه بما نفى هذا الاحتمالَ عنه، على وَجهِ الشَّرحِ والبَيانِ؛ لاستواءِ الغَيبِ والشَّهادةِ بالنِّسبةِ إلى عِلمِه(٥)، فقال:

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٩٠).



أي: يستوي في عِلمِ اللهِ- تعالى- وسَمعِه مَن أسرَّ مِنكم بقَولٍ، ومن جهَرَ به؛ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، فالسِّرُّ والجهرُ عنده سواءٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣- ١٤].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

وعن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها، قالت: ((الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمعُه الأصواتَ؛ لقد جاءت المجادِلةُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنا في ناحيةِ البَيتِ، تَشكو زَوجَها، وما أسمَعُ ما تقولُ، فأنزلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]))(٢).

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

أي: ويستوي في عِلمِ اللهِ وبَصَرِه مَن هو مُختَفٍ في ظُلمةِ اللَّيلِ، ومَن هو ظاهِرٌ يمشي في ضَوءِ النَّهارِ؛ فكِلا الحالَينِ عنده سَواءٌ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٦).

(٢) أورده البخاريُّ معلقًا بصيغةِ الجزمِ قبلَ حديثِ (٧٣٨٦)، وأخرجه موصولًا النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨) واللفظ له، وأحمد (٢٤١٩٥).

صحَّحه ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١٦٣)، وقال ابنُ تيمية في ((تلبيس الجهمية)) (١/ ٢٨٠): (إسنادُه ثابتٌ)، وصحَّحه ابنُ الملقن في ((البدر المنير)) (٨/ ١٤٥)، وابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٥/ ٣٣٩)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٦٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٦).

كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تقَدَّمَ أنَّ مَن أسَرَّ القَولَ ومَن جهرَ به، ومَن استخفَى باللَّيلِ وسَرَب بالنَّهارِ؛ مُستوٍ في عِلمِ اللهِ تعالى، لا يخفَى عليه مِن أحوالِهم شَيءٌ- ذكَرَ أيضًا أنَّ لذلك المذكورِ مُعَقِّباتٍ: جماعاتٍ مِن الملائكةِ تعقُبُ في حِفظِه وكِلاءتِه[١].

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

أي: للعَبدِ[٢] ملائِكةٌ يتعاقَبونَ عليه، فيأتيه بعضُهم عَقِبَ بَعضٍ، مِن بينِ يَدَيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٠).

(٢) ممَّن ذهب إلى أنَّ الهاءَ في ﴿لَهُ﴾ مُرادٌ بها (الإنسان): الزجَّاج، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).
وقال ابن جرير: (أولى التَّأويلينِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ من قال: الهاءُ في قَولِه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ مِن ذِكرِ ﴿مَنْ﴾ التي في قَولِه: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٠).
وقيل: (الهاء) في ﴿لَهُ﴾ عائدةٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ. وممَّن اختار هذا القولَ: القُرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩١).

ومِن خَلْفِه[١] فيَحفظُونَه ويَحرُسونَه[٢] بأمرِ الله وإذنِه، فإذا جاء القدرُ خلَّوا بينَه

(١) قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: مِن أمامِه. والمرادُ بقَولِه: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾: مِن وراءِ ظَهرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٥٦).
وقيل: المرادُ أنَّ الحفَظةَ مِن الملائكةِ تُحيطُ به من جميعِ جوانبِه. وممَّن اختار ذلك: الشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠١).
وقال ابن كثير: (قولُه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: للعبدِ ملائكةٌ يتعاقبونَ عليه؛ حرسٌ بالليلِ، وحَرَسٌ بالنَّهارِ، يَحفظونَه مِن الأسواءِ والحادثاتِ، كما يتعاقَبُ ملائِكةٌ آخرونَ لحِفظِ الأعمالِ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ؛ ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهارِ؛ فاثنانِ عن اليمينِ وعن الشِّمالِ يَكتبانِ الأعمالَ؛ صاحِبُ اليمينِ يكتبُ الحسَناتِ، وصاحِبُ الشِّمالِ يكتُبُ السَّيِّئاتِ، وملَكانِ آخرانِ يَحفظانِه ويَحرُسانِه؛ واحدًا من ورائِه، وآخَرَ مِن قُدَّامِه، فهو بين أربعةِ أملاكٍ بالنهارِ، وأربعةٍ آخرينَ بالليلِ بدلًا؛ حافِظانِ وكاتبان). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧-٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٠، ١٠١).
قال الواحديُّ عن معنى ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾: (وهم الملائكةُ الحَفَظةُ في قَولِ عامَّةِ المفَسِّرينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٧).
وقال ابن الجوزي: (قال أكثر المفسِّرين: هم الحَفَظَة؛ اثنانِ بالنَّهارِ واثنان بالليل، إذا مضى فريقٌ خلَفَ بعده فريقٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٥).
وفي معنى ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ خِلافٌ:
قال ابنُ عطية: (قوله: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ يحتَمِلُ معنيين:
أحدهما: أن يكونَ بمعنى يحرُسونَه، ويذبُّون عنه؛ فالضميرُ محمولٌ لِيَحفظ.
والمعنى الثاني: أن يكون بمعنى حِفظِ الأقوالِ وتَحصيلِها، ففي اللفظةِ حينئذٍ حَذفُ مضافٍ، تقديره: يحفظون أعمالَه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٢).
وقال الرازي: (في المرادِ بالمعَقِّباتِ قولان: الأول: وهو المشهور الذي عليه الجمهورُ: أن المرادَ منه الملائكةُ الحفَظةُ، وإنَّما صحَّ وصفُهم بالمعقِّباتِ، إمَّا لأجل أنَّ ملائكةَ الليلِ تَعقُبُ ملائكةَ النَّهار وبالعكس، وإمَّا لأجلِ أنَّهم يتعَقَّبون أعمالَ العباد ويَتبَعونَها بالحفظِ والكَتْبِ، وكلُّ مَن عمِلَ عملًا ثم عاد إليه فقد عَقَّب، فعلى هذا: المرادُ من المعقِّباتِ: ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النَّهار). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧).
وممَّن ذهب إلى أنَّ ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ بمعنى يحرسُونه: الزَّجاج، والزمخشري. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥١٧).
وممن ذهب إلى كلا المعنيين: يحفظونَه مِن كُلِّ مَن يريدُه بسُوءٍ، ويحفظونَ عليه أعمالَه خَيرَها وشَرَّها: ابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

وبينَه(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾

أي: إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بقَومٍ مِن نِعمةٍ فيُزيلُها عنهم، حتى يغَيِّروا ما كانوا عليه مِن طاعةِ اللهِ بمَعصيتِه، وشُكرِه بكُفرِه، وأسبابِ رِضاه بأسبابِ سَخَطِه، فإذا غيَّروا غيَّرَ عليهم؛ جزاءً وِفاقًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا

(١) وممن اختار هذا المعنى: ابنُ أبي زمنين، والواحدي، والبغوي، والرسعني، والعليمي.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٨٢).
قال الرسعني: (﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمْر الله، وكذلك هي في قراءةِ عليٍّ وابنِ عباسٍ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٥٠).
وقيل: المرادُ: حِفظُهم إيَّاه مِن أمرِ الله، أي: ممَّا أمَرَهم الله تعالى به، لا أنَّهم يَقدِرون أن يدفَعوا أمرَ الله. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: الزجاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ١٤٢).
وقيل: إنه على التقديمِ والتأخيرِ، وتقديرُه: له معقباتٌ مِن أمرِ الله يحفظونَه، وعلى هذا لا تعلُّقَ لـ ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ بـ ﴿مِنۡ﴾. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٠٩).
قال ابن عاشور: (وقولُه: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ صفةُ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾، أي: جماعاتٌ مِن جندِ الله وأمرِه، كقولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]... ويجوزُ أن يكونَ الحفظُ على الوجهِ الثاني مرادًا به الوقايةُ والصيانةُ، أي: يحفظونَ مَن هو مُسْتخفٍ بالليلِ وساربٌ بالنهارِ، أي: يقونَه أضرارَ الليلِ مِن اللصوصِ وذواتِ السُّمومِ، وأضرارَ النهارِ نحوَ الزحامِ والقتالِ، فيكونُ ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ جارًا ومجرورًا متعلقًا بـ ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾، أي: يقونَه مِن مخلوقاتِ الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠١). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧١)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٦).
قال الرازي: (كلامُ جميعِ المفَسِّرين يدُلُّ على أنَّ المرادَ: لا يغيِّرُ ما هم فيه من النِّعَمِ بإنزالِ الانتقام، إلَّا بأن يكونَ منهم المعاصي والفَسادُ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٢٠).
وقال السعدي: (كذلك إذا غيَّرَ العبادُ ما بأنفُسِهم من المعصيةِ، فانتقلوا إلى طاعةِ اللهِ؛ غيَّرَ الله عليهم ما كانوا فيه من الشَّقاءِ إلى الخير والسُّرورِ، والغِبطة والرَّحمة). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٣- ٥٤].

وقال سُبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾

أي: وإذا شاء اللهُ أن يُصيبَ قَومًا بهلاكٍ وعَذابٍ وشِدَّةٍ، فإرادتُه لا بُدَّ أن تنفُذَ فيهم؛ فإنَّه لا رادَّ لِمَا قضاه اللهُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وقال سُبحانه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾

أي: وما للقومِ الذين أرادَهم الله بسوءٍ مِن أحدٍ سِواه يتولَّى أمرَهم، ولا ناصِرٍ مِن دُونِه يمنَعُهم مِن عذابِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۞ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ فيه أنَّه تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

مُحيطٌ عِلمُه بأقوالِ المكَلَّفينَ وأفعالِهم، لا يَعزُبُ عنه شيءٌ مِن ذلك[١].

٢- الذُّنوبُ تُزيلُ النِّعَمَ ولا بُدَّ، فما أذنبَ عبدٌ ذنبًا إلَّا زالت عنه نِعمةٌ مِن الله بحسَبِ ذلك الذَّنبِ، فإن تاب وراجَعَ رجَعَت إليه أو مِثلُها، وإن أصَرَّ لم ترجِعْ إليه، ولا تزالُ الذُّنوبُ تُزيلُ عنه نِعمةً، حتى تُسلَبَ النِّعَمُ كُلُّها؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[٢].

٣- متى رأيتَ تكديرًا في حالٍ، فاذكُرْ نِعمةً ما شُكِرتْ، أو زَلَّةً قد فُعِلتْ، واحذَرْ مِن نِفارِ النِّعَم، ومُفاجأةِ النِّقَم، ولا تغترَرْ بِسَعةِ بِساطِ الحِلْم؛ فرُبَّما عُجِّلَ انقباضُه، وقد قال اللهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[٣]، ومَن تأمَّلَ ما قَصَّ اللهُ تعالى في كتابِه مِن أحوالِ الأُمَم الذين أزال نِعَمَه عنهم، وجدَ سبَبَ ذلك جميعِه إنَّما هو مُخالَفةُ أمرِه وعِصيانُ رُسُلِه، وكذلك من نظَرَ في أحوالِ أهلِ عَصرِه وما أزال اللهُ عنهم مِن نِعَمِه، وجد ذلك كُلَّه مِن سُوءِ عواقِبِ الذُّنوبِ، فما حُفِظَت نعمةُ اللهِ بشَيءٍ قَطُّ بمثلِ طاعتِه، ولا حَصَلت فيها الزِّيادةُ بمِثلِ شُكرِه، ولا زالت عن العبدِ بمِثلِ مَعصيتِه لرَبِّه؛ فإنَّها نارُ النِّعَم التي تعمَلُ فيها كما تعمَلُ النَّارُ في الحطَبِ اليابِسِ، ومن سافَرَ بفِكرِه في أحوالِ العالَمِ، استغنى عن تعريفِ غَيرِه له[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يتولَّى أمورَهم، فيجلِبُ لهم المحبوبَ، ويدفَعُ عنهم المكروهَ؛ فلْيَحذَروا من الإقامةِ على ما يكرهُ اللهُ؛ خشيةَ أن يحُلَّ بهم من العقابِ ما لا يُرَدُّ عن القوم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧١).
(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٣٢).
(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٥- ٢٠٦).

المُجرمينَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الحامِلَ تحيضُ[٢]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ مُدَّةَ الحَملِ تكونُ أقَلَّ مِن تِسعةِ أشهُرٍ وأكثَرَ منها[٣].

٣- أهلُ السنةِ يثبتونَ للهِ العلوَّ والعظمةَ بكلِّ اعتبارٍ، ومثلُ هذا وصفُه سبحانَه بأنَّه (الكبيرُ المتعالي)، فالكبيرُ يُوصفُ به الذاتُ وصفاتُها القائمةُ، فهم يُثبتونَ للهِ سبحانَه العظمةَ الذاتيةَ والمعنويةَ، والعلوَّ الذاتيَّ والمعنويَّ، والجمالَ والجلالَ الذاتيَّ والمعنويَّ[٤].

٤- الإرادةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ إرادةٌ كونيَّةٌ، والإرادةُ الكونيَّةُ هي مشيئتُه سُبحانه وتعالى لِمَا خلَقَه، وجميعُ المخلوقاتِ داخِلةٌ في مشيئتِه وإرادتِه الكونيَّةِ، وتُقابِلُها الإرادةُ الدِّينيَّةُ الشَّرعيَّةُ، وهي المتضَمِّنةُ لمحبَّتِه ورِضاه؛ المُتناوِلةُ لِمَا أَمَرَ به وجَعلَه شَرعًا ودِينًا، وهذه مُختصَّةٌ بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[٥] [البقرة: ١٨٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤١٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٧).

يُنظر الخلافُ في المسألةِ في ((مختصر فقه الطهارة)) إعداد القسم العلمي بالدُّرر السَّنية (ص: ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٧).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٥، ١٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ ...﴾ استئنافٌ؛ لبيانِ بُطلانِ قولِهم ذلك ونظائرِه مِن استعْجالِ العذابِ وإنكارِ البعْثِ[1].

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ صِيغَ الخبَرُ ﴿يَعْلَمُ﴾ بصيغَةِ المُضارِعِ المُفيدِ للتَّجدُّدِ والتَّكريرِ؛ لإفادةِ أنَّ ذلك العِلْمَ مُتكرِّرٌ، مُتجدِّدُ التَّعلُّقِ بمُقْتضى أحوالِ المعلوماتِ المُتنوِّعةِ والمُتكاثِرةِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾

- جُملةُ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ تذْييلٌ وفَذْلَكةٌ[3]؛ لتعْميمِ العِلْمِ بالخَفيَّاتِ والظَّواهرِ، وهما قِسْما الموجوداتِ[4].

- وقَولُه: ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ أخرَجَه مَخرجَ (التَّفاعُل)؛ ليكونَ أدَلَّ على المعنى وأبلغَ فيه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٧).

(٣) الفَذْلكةُ: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ- مِن قولِهم: (فذلك كذا)-، أي: ذكرُ مُجمَلِ ما فُصِّل أولًا وخلاصتِه. وقد يُرادُ بالفذلكةِ النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤه، والفراغُ منه، كقولِه تعالَى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٨٩).

٣- قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾

- قولُه: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ...﴾ هذه الجُملةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ مضمونَها بمنزِلةِ النَّتيجةِ لعُمومِ عِلْمِ اللَّهِ تعالى بالخَفِيَّاتِ والظَّواهرِ[١]، وهذا مِن بابِ ذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ[٢].

- وقولُه: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم...﴾ فيه العُدولُ عنِ الغَيبةِ المُتَّبَعَةِ في الضَّمائرِ فيما تقدَّمَ إلى الخطابِ هنا في قولِه: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم﴾؛ لأنَّه تعليمٌ يصلُحُ للمؤمنين والكافرين، وفيه تعريضٌ بالتَّهديدِ للمُشركين المُتآمرين على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ[٣].

- وتقْديمُ الإسْرارِ والاستِخفاءِ على الجَهرِ والعَلانيةِ؛ لإظهارِ كَمالِ عِلْمِه تعالى؛ فكأنَّه في التَّعلُّقِ بالخَفِيَّاتِ أقْدَرُ منه بالظَّواهِرِ، وإلَّا فنِسْبتُه إلى الكلِّ سَواءٌ[٤].

- والاستخفاءُ هنا: الخَفاءُ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالغَةِ في الفِعلِ مثلَ: استجابَ[٥].

- ذُكِرَ الاستخفاءُ مع اللَّيلِ؛ لكَونِه أشَدَّ خَفاءً، وذُكِرَ السُّروبُ مع النَّهارِ؛ لِكونِه أشَدَّ ظُهورًا[٦].

٤- قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾

- قولُه: ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ فيه مُبالغَةٌ؛ صِيغَةُ التَّفعيلِ فيه للمُبالغَةِ في العقب، وعَقَّبَه: إذا جاء على عَقِبِه؛ كأنَّ بعضَهم يَعْقُبُ بعضًا، أو لأنَّهم يعْقُبون أقوالَه وأفعالَه فيكتُبونها[١]، وجُمِعَت (المُعَقِّباتُ) باعتبارِ كثرةِ الجماعاتِ[٢].

- قولُه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مُستعملٌ في معنى الإحاطةِ مِن الجِهاتِ كلِّها- على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-. وأُفْرِدَ الضَّميرانِ في ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾؛ لأنَّ كلًّا منهما عائدٌ إلى أحدِ أصحابِ تلك الصِّلاتِ، حيث إنَّ ذِكْرَهم ذِكْرُ أقسامٍ مِن الَّذين جُعِلوا سواءً في عِلْمِ اللَّهِ تعالى[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ مُعترِضَةٌ بين الجُمَلِ المُتقدِّمةِ المَسُوقَةِ للاستدلالِ على عظيمِ قُدرةِ اللَّهِ تعالى، وعِلْمِه بمَصْنوعاته، وبين التَّذكيرِ بقوَّةِ قُدرتِه، وبين جُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الرعد: ١٢]، والمقصودُ تحذيرُهم مِن الإصرارِ على الشِّرْكِ بتحذيرِهم مِن حُلولِ العِقابِ في الدُّنيا في مُقابَلَةِ استعجالِهم بالسَّيِّئةِ قبلَ الحَسَنةِ.

- وجُملةُ ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ تصريحٌ بمفهومِ الغايةِ المُستفادِ مِن ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾؛ تأكيدًا للتَّحذيرِ؛ لأنَّ المَقامَ لكونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٠).

مَقامَ خوفٍ ووَجَلٍ يقْتَضي التَّصريحَ دون التَّعريضِ ولا ما يقْرُبُ منه.

- وجُملةُ ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ زيادةٌ في التَّحذيرِ مِن الغُرورِ؛ لئلا يَحسَبوا أنَّ أصنامَهم شُفعاؤهم عند اللَّهِ[1].

- قولُه: ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ في (ما) إبهامٌ، لا يتَّضِحُ المُرادُ منها إلَّا بسِياقِ الكلامِ، واعتقادِ مَحذوفٍ يتبيَّنُ به المَعْنى، والتقديرُ: لا يُغيِّرُ ما بقومٍ مِن نعمةٍ وخَيرٍ إلى ضدِّ ذلك حتَّى يغيِّروا ما بأنْفُسِهم مِن طاعتِه إلى توالي مَعصيَتِه[2].

- قولُه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فيه الاقتصارُ على قولِه: ﴿سُوٓءًا﴾؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ في الانتقامِ مِن العُصاةِ، وإلَّا فالسُّوءُ والخيرُ إذا أرادَ اللَّهُ تعالى شيئًا منهما فلا مَردَّ له؛ فذِكْرُ السُّوءِ مُبالغَةٌ في التَّخويفِ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠١- ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢-١٤)

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾
وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن
يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ
لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا
فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصَّوَٰعِقَ﴾: جمعُ صاعِقةٍ: وهي النَّارُ التي تنزِلُ مِن السَّماءِ عندَ اشتدادِ الرَّعد، وأصلُ (صعق): يدلُّ على شِدَّةِ صَوتٍ[1].

﴿ٱلْمِحَالِ﴾: أي: القُوَّةِ والأخذِ، والمكْرِ والإهلاكِ، يُقالُ: ماحَلْتُه مِحالًا: إذا قاوَيتَه حتى يَبِينَ لك أيُّكما أشَدُّ، والمَحْلُ: الشِّدَّةُ والمَكْرُ والكَيدُ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ لنا الله تعالى مَظهرًا مِن مَظاهِرِ قُدرتِه، فيقولُ سبحانَه: هو الذي يُريكم مِن آياتِه البَرقَ، فتَخافونَ أن تنزِلَ عليكم منه الصَّواعِقُ المُحرِقةُ، وتَطمعونَ أن يَنزِلَ معه المطَرُ، وبِقُدرتِه سُبحانه يُوجِدُ السَّحابَ المُحمَّلَ بالماءِ الكثيرِ لِمَنافِعِكم، ويُسبِّحُ الرَّعدُ بحَمدِ اللهِ تَسبيحًا يدُلُّ على خُضوعِه لرَبِّه، وتُنَزِّهُ الملائِكةُ رَبَّها؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤- ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

خوفًا منه سُبحانَه، ويُرسِلُ اللهُ الصَّواعِقَ المُهلِكةَ فيُهلِكُ بها مَن يشاءُ مِن خَلْقِه، والكُفَّارُ يُجادِلونَ في وحدانيَّةِ الله وقُدرتِه على البَعثِ، وهو شديدُ القُوَّةِ والبَطشِ بمن عصاه، وله -سُبحانه- دَعوةُ التَّوحيدِ -لا إلهَ إلَّا اللهُ- فلا يُعبَدُ ولا يُدعَى إلَّا هو، والآلِهةُ التي يَعبُدونَها مِن دونِ الله لا تُجيبُ دُعاءَ مَن دعاها، وحالُهم معها كحالِ عَطشانَ يمُدُّ يَدَه إلى الماءِ ويُشيرُ إليه بالإقبالِ إلى فيه، فلا يصِلُ إليه، وما دُعاءُ الكافرينَ لتلك الآلهةِ إلَّا غايةٌ في البُعدِ عن الصَّوابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا خَوَّفَ العبادَ بقَولِه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١]، أتبَعَه بما يشتَمِلُ على أمورٍ دالَّةٍ على قُدرةِ الله تعالى وحِكمَتِه، تُشبِهُ النِّعَمَ مِن وَجهٍ، والنِّقَمَ من وجهٍ[(١)]، فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

أي: اللهُ هو الذي يُريكم البَرقَ -وهو النُّورُ اللَّامعُ الذي يسطَعُ في السَّماءِ مِن بينِ السَّحابِ- خوفًا مِن الصَّواعِقِ، وطَمعًا في الانتفاعِ بالمطَرِ[(٢)].

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٤، ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).
وقيل في معنى الخوفِ والطمعِ: المرادُ: الخوفُ للمسافرِ؛ فإنَّ عادةَ المسافرِ أن يتأذَّى بالمطرِ، والطمعُ للمقيمِ؛ لأنَّ المقيمَ يرجُو الخصبَ بالمطرِ. وقيل: الخوفُ مِن المطرِ في غيرِ إبَّانِه، وفي غيرِ مكانِه، والطمعُ إذا كان في إبَّانِه ومكانِه مِن البلدانِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨٢).

أي: ويخلق اللهُ السَّحابَ(١) الثِّقالَ بما يَحمِلُه مِن مياهٍ كثيرةٍ(٢).

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾.

أي: ويُنزِّهُ الرَّعدُ(٣) اللهَ عن النَّقائصِ تنزيهًا مُتلبِّسًا بحَمدِه تعالى، بوَصفِه

(١) قال ابنُ جرير: (قولُه: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾: ويُثيرُ السَّحابَ الثِّقالَ بالمطَرِ، ويُبدِئُه، يقالُ منه: أنشأ اللهُ السَّحابَ: إذا أبدأَه، ونشأ السَّحابُ -إذا بدَأَ- ينشأُ نَشأً، والسَّحابُ في هذا الموضِعِ وإن كان في لفظِ واحدٍ، فإنَّها جمعٌ، واحِدتُها سَحابةٌ؛ ولذلك قال: ﴿ٱلثِّقَالَ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٠).
قال ابن عاشور: (السَّحابُ يكونُ ثَقيلًا بِمقدارِ ما في خِلالِه من البُخارِ، وعلامةُ ثِقَلِه قُربُه من الأرضِ وبُطءُ تَنَقُّلِه بالرِّياحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٤).

(٣) قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ فيه قولان: أحدُهما: أنَّه اسمُ الملَك الذي يزجُرُ السَّحاب، وصوتُه: تسبيحُه، قاله مقاتل. والثاني: أنَّه الصوتُ المسموع). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٧).
وقال السمعاني: (وقولُه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أكثرُ المفسِّرينَ أنَّ الرَّعدَ ملكٌ، والمسموعُ مِن الصَّوتِ تسبيحُه، وهذا مرويٌّ عن النَّبيِّ حينَ سألَه اليهودُ عن الرَّعدِ، وذكَر فيه أنَّ الصَّوتَ هو زجرُه للسحابِ. وقد حُكِي هذا عن ابنِ عبَّاسٍ، وعليٍّ، ومجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، والحسنِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨٣).
وقال الحربي: (قولُه: «الرَّعدُ مَلَكٌ» هو عندَ الصَّحابةِ: عليٍّ، وابنِ عبَّاسٍ، وعبدِ الله بن عمرو، وأبي هريرة. وكذا قال التَّابعونَ: مجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو صالحٍ، والضَّحَّاكُ، وشَهْرٌ، وعَطِيَّةُ، والحسنُ، ومحمدُ بنُ قيسٍ، والسُّدِّيُّ). ((غريب الحديث)) (٢/ ٦٨٨).
وقال ابنُ عبد البر: (جمهورُ أهلِ العلم مِن أهلِ الفقهِ والحديثِ يقولون: الرعدُ ملَكٌ يزجرُ السحابَ، وقد يجوزُ أن يكونَ زجرُه لها تسبيحًا؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾). ((الاستذكار)) (١٠/ ٣٦).
وقال الألوسي: (استُشْكِل بأنَّه لو كان علمًا للمَلَكِ لما ساغ تنكيرُه، وقد نُكِّر في البقرةِ، وأُجيب بأنَّ له إطلاقينِ: ثانيهما إطلاقُه على نفسِ الصوتِ، والتنكيرُ على هذا الإطلاقِ). ((تفسير

بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتعظيمًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((أقبلَتْ يهودُ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسِمِ، إنَّا نسألُك عن خمَسةِ أشياءَ، فإنْ أنبأتَنا بهنَّ، عرَفْنا أنَّك نبيٌّ واتَّبعناك، فأخَذ عليهم ما أخَذ إسرائيلُ على بَنيه؛ إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، قال: هاتوا،... قالوا: أخبِرْنا ما هذا الرَّعدُ؟ قال: ملَكٌ مِن ملائكةِ اللهِ عزَّ وجلَّ مُوكَّلٌ بالسَّحابِ، بيَدِه أو في يَدِه مِخراقٌ مِن نارٍ، يزجُرُ به السَّحابَ، يسوقُه حيثُ أمَرَ الله. قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسمَعُ؟ قال:

الألوسي)) (٧/ ١١٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: يُسَبِّحُ الرَّعْدُ نفسُه بحمدِ الله،... وليس هذا بمُستبعَدٍ، ولا مانعَ مِن أنْ يُنطقَه اللَّهُ بذلك ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، وأمَّا على تفسيرِ الرَّعدِ بمَلَكٍ مِن الملائكةِ فلا استبعادَ في ذلك، ويكونُ ذكرُه على الإفرادِ معَ ذكرِ الملائكةِ بعدَه لمزيدِ خصوصيَّةٍ له، وعنايةٍ به). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨٧).

وقال ابنُ تيميَّة: (أمَّا الرَّعدُ والبَرقُ، ففي الحَديث المَرفوع في التِّرمذي وغيره «أنَّه سُئِلَ عن الرَّعدِ، قال: مَلَكٌ مِن المَلائِكةِ مُوكَّلٌ بالسَّحابِ، معَه مَخاريقُ مِن نارٍ يَسوقُ بها السَّحابَ حيثُ شاء اللهُ» . و... عن عليٍّ أنَّه سُئِلَ عن الرَّعد فقال: «مَلَكٌ ... ». ورُوِيَ في ذلك آثارٌ كذلك، وقد رُوِيَ عن بَعضِ السَّلَفِ أقوالٌ لا تُخالِفُ ذلك، كقَولِ من يقولُ: إنَّه اصطِكاكُ أجرامِ السَّحابِ بسَبَبِ انضغاطِ الهواءِ فيه، فإنَّ هذا لا يُناقِضُ ذلك؛ فإنَّ الرَّعْدَ مَصدَرُ: رَعَد يرعُدُ رَعْدًا، وكذلك الرَّاعِدُ يُسَمَّى رَعْدًا، كمَّا يُسَمَّى العادِلُ عَدْلًا. والحَرَكةُ تُوجِبُ الصَّوتَ، والملائكةُ هي التي تحَرِّكُ السحابَ وتَنقُلُه من مكانٍ إلى مكانٍ، وكلُّ حَركةٍ في العالَم العُلويِّ والسُّفليِّ فهي عن الملائِكةِ، وصَوتُ الإنسانِ هو عن اصطِكاكِ أجرامِه الذي هو شَفَتاه ولسانُه وأسنانُه، ولَهاتُه وحَلقُه، وهو مع ذلك يكونُ مُسَبِّحًا للربِّ، وآمرًا بمعروفٍ، وناهيًا عن مُنكَرٍ، فالرَّعدُ إذَن صَوتٌ يَزجُرُ السَّحابَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٤/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

صوتُه، قالوا: صدقْتَ...))[(١)].

وعن رجُلٍ مِن بني غِفارٍ صَحِبَ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: سَمِعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُنشئُ السَّحابَ، فيَنطِقُ أحسَنَ المَنطِقِ، ويضحَكُ أحسَنَ الضَّحِكِ))[(٢)].

﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ ﴾.

أي: وتنزِّهُ الملائكةُ اللهَ؛ خوفًا منه سُبحانه[(٣)].

﴿ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ ﴾.

أي: ويُرسِلُ اللهُ الصَّواعِقَ مِن السَّماءِ، فيُهلِكُ بها مَن يشاءُ مِن خلقِه، وهؤلاء الكفارُ المكذبونَ للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، معَ هذه الآياتِ التي أراهم اللهُ، يجادلونَ في قدرةِ الله على البعثِ، وإعادةِ الخلقِ، وفي وحدانيته[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣١١٧) (جزءًا منه)، وأحمد (١/ ٢٧٤) (٢٤٨٣) واللفظ له.
قال الترمذي: حسنٌ غريب. وذكر ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ١٦) أن له طرُقًا يقوِّي بعضها بعضًا. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٨٦)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٥٢٢٠)، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (٢/ ٤١٢).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢١٩): رجاله رجال الصحيح. وصحح إسناده ابن حجر في ((تحفة النبلاء)) (٧٨)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٩٢٠).
قال ابنُ كثير: (والمرادُ- واللهُ أعلمُ- أنَّ نطقَها الرعدُ، وضحكَها البرقُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٧٠).
وممن اختار هذا القولَ في الجملةِ: الزمخشري، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي. تُنظر: المصادر السابقة.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾.

أي: واللهُ قويٌّ، شديدُ الأخذِ، عظيمُ الكيدِ والمَكرِ بمن طغَى وتمادَى في الكُفرِ به(١).

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها استئنافٌ ابتدائيٌّ بمَنزلةِ النَّتيجةِ ونُهوضِ المُدَلَّلِ عليه بالآياتِ السَّالفةِ التي هي براهينُ الانفرادِ بالخَلقِ الأوَّلِ، ثمَّ الخَلقِ الثَّاني، وبالقُدرةِ التامَّةِ التي لا تُدانيها قدرةُ قديرٍ، وبالعِلمِ العامِّ، فلا جرَمَ أن يكونَ صاحِبُ تلك الصِّفاتِ هو

وقيل: المعنى: فيصيبُ بها من يشاء في حالِ جِدالِه في الله. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٦٧).

قال الزَّجَّاج: (جائزٌ أن تكونَ الواوُ واوَ حالٍ، فيكون المعنى: فيصيبُ بها من يشاء في حالِ جِدالِه في الله... ويجوزُ أن يكونَ لَمَّا تمَّم اللهُ أوصافَ ما يدُلُّ على توحيدِه وقُدرتِه على البعثِ، قال بعد ذلك ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ١٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٢).

قال ابنُ عاشور: (وقد فُهِمَ أنَّ مَفعولَ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: هو النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمونَ، فالتقديرُ: يُجادِلونَك أو يُجادِلونكم، كقَولِه: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ في سورة الأنفال). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٥).

وقال أيضًا: (تعليقُ اسمِ الجلالةِ المجرورِ بفعلِ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ يتعيَّنُ أن يكونَ على تقديرِ مضافٍ تدُلُّ عليه القرينةُ، أي: في توحيدِ اللهِ، أو في قُدرتِه على البَعثِ، ومِن جَدَلِهم ما حكاه قَولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٤).

المعبودَ بالحَقِّ، وأنَّ عِبادةَ غَيرِه ضَلالٌ[١].

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾.

أي: لِلَّه وحدَه الدَّعوةُ الحَقُّ والصِّدقُ -وهي كلمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ- فهو المُستحِقُّ وَحدَه للعبادةِ والدُّعاءِ دونَ ما سواه[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾.

أي: والذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ ويَدعونَهم مِن دونِ اللهِ لا يُجيبونَ دُعاءَهم بأيِّ شَيءٍ ممَّا يُريدونَه -قليلًا كان أو كثيرًا- ولا ينفعونهم إلَّا كما ينتَفِعُ من يبسطُ كفَّيه إلى الماءِ، ويدعوه ليرتفِعَ إلى فَمِه، وهذا غيرُ ممكنٍ؛ فالماءُ جمادٌ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

قال ابنُ القيم: (إنَّه تعالى صاحبُ دعوةِ الحقِّ لذاتِه وصِفاتِه، وإن لم يُوجِبْ لداعيه بها ثوابًا، فإنَّه يستحِقُّها لِذاته، فهو أهلٌ أن يُعبدَ وحدَه، ويُدعى وحدَه، ويُقصَد ويُشكَر ويُحمَد، ويُحَبَّ ويُرجى ويُخافَ، ويُتوكَّلَ عليه، ويُستعانَ به، ويُستجارَ به، ويُلجَأ إليه، ويُصمَدَ إليه، فتكون الدعوةُ الإلهيَّةُ الحَقُّ له وحده، ومن قام بقلبه هذا معرفةً وذوقًا وحالًا، صح له مقامُ التبتُّل، والتجريدِ المحضِ. وقد فسر السَّلفُ دعوةَ الحَقِّ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ فيه والصِّدقِ، ومرادهم هذا المعنى). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٣١).

قال الواحدي: (قال أبو إسحاقَ [الزجاج]: وجائزٌ أن يكونَ ﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾، أنَّه مَن دعا الله موحِّدًا استُجيبَ له دعاؤه.

قال أبو بكر [ابن الأنباري]: الدعوةُ على هذا التَّفسيرِ يريدُ بها الدَّعواتِ، فاكتُفِيَ من الجَمعِ بالواحِدِ، كقولِه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، ومعنى الدَّعَواتِ: دعواتُ الدَّاعِينَ إيَّاه، يلتَمِسونَ الإجابةَ وهم مُحِقُّونَ في ذلك؛ لأنَّهم سألوا مَن لا يَخيبُ سائِلُه، ويَقدِرُ على الإجابةِ، وإنالةِ المطلوبِ، وهذا هو الوَجهُ، وهو الأليقُ بما بعدَه من سياقِ الآيةِ؛ لأنَّه ذكَرَ أنَّ الأصنامَ لا يَستَجيبونَ للدَّاعينَ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: الأصنامَ، يَدعونَها المُشرِكونَ مِن دونِ الله، في قَولِ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٢/ ٣٢٢).

يشعُرُ ببَسطِ كَفَّيه ولا بعطَشِه، ولا يقدِرُ أن يُجيبَ دُعاءَه ويبلُغَ فَمَه، وكذلك ما يدعونَه؛ جمادٌ لا يُحِسُّ بدُعائِهم، ولا يستطيعُ إجابَتَهم، ولا يقدِرُ على نَفْعِهم(١).

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾.

أي: وما دُعاءُ الكافرينَ لآلهتِهم إلَّا في ضياعٍ وخَسارٍ؛ لأنَّهم لا ينتَفِعونَ بدُعائِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ * وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦- ٨٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُ﴾ [فصلت: ٤٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ فاللهُ تعالى هو الذي ينبغي أن يُصرَفَ له الدُّعاءُ، والخَوفُ والرَّجاءُ، والحُبُّ، والرَّغبةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).
قال ابنُ كثيرٍ: (يَبْسُطُ يَدَه إلى الماءِ، إمَّا قابِضًا وإمَّا مُتَناوِلًا له مِن بُعدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٥).
وقيل: شُبِّهوا في قِلَّةِ جَدوى دُعائِهم لآلهتِهم بمن أراد أن يغرفَ الماءَ بيَديه ليشرَبَه، فبسَطَهما ناشِرًا أصابِعَه، فلم تُبقِ كفَّاه منه شيئًا، ولم يبلغْ طَلِبَته مِن شُربِه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

والرَّهبةُ، والإنابةُ؛ لأنَّ ألوهيَّتَه هي الحَقُّ، وألوهيَّةُ غَيرِه باطِلةٌ(١).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ جاء هنا بطريقِ الخِطابِ على أسلوبِ قَولِه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ [الرعد: ١٠]؛ لأنَّ الخَوفَ والطَّمَعَ يَصدُرانِ مِن المُؤمنينَ، ويُهَدَّدُ بهما الكَفَرةُ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ على أُسلوبِ تَعدادِ الحُجَجِ، الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى؛ فلأجْلِ أُسلوبِ التَّعْدادِ- إذ كان كالتَّكريرِ- لم يُعطَفْ على جُملةِ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾، وقد أَعْرَبَ هذا عن مَظْهرٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللَّهِ، وعَجيبِ صُنْعِه، وفيه مِن المُناسبَةِ للإنذارِ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ...﴾ [الرعد: ١١] أنَّه مِثالٌ لتصرُّفِ اللَّهِ بالإنعامِ والانتقامِ في تصرُّفٍ واحدٍ، مع تذْكيرِهم بالنِّعمةِ الَّتي هم فيها، وكلُّ ذلك مُناسِبٌ لِمَقاصدِ الآياتِ الماضيةِ؛ فكانت هذه الجُملةُ جَديرةً بالاستقلالِ، وأنْ يُجاءَ بها مُستأْنَفةً؛ لتكونَ مُستقِلَّةً في عِدادِ الجُمَلِ المُستقِلَّةِ الواردةِ في غرَضِ السُّورةِ(٣).

- وافتُتِحَت الجُملةُ بضميرِ الجَلالةِ ﴿هُوَ﴾ دون اسمِ الجَلالةِ المُفْتَتَحِ به في الجُمَلِ السَّابقةِ، فجاءت على أُسلوبٍ مُختلفٍ؛ مُراعاةً لكونِ هاتِه الجُملةِ مُفرَّعَةً عن أغْراضِ الجُمَلِ السَّابقةِ؛ فإنَّ جُمَلَ فواتِحِ الأغراضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

افتُتِحَت بالاسمِ العَلَمِ؛ كقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢]، وقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد: ٨]، وجُمَلَ التَّفاريعِ افتُتِحَت بالضَّمائرِ؛ كقولِه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [الرعد: ٢]، وقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾[1] [الرعد: ٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فنٌّ رائعٌ مِن فُنونِ البلاغةِ، وهو صِحَّةُ الأقسامِ؛ وهو عِبارةٌ عنِ استيفاءِ المعنى مِن جميعِ أقسامِه ووُجوهِه، بحيث لا يُغادِرُ المُتكلِّمُ منها شيئًا؛ ففي هذه الآيةِ استَوْفى قِسْمَيْ رؤيةِ البَرْقِ؛ إذ ليس فيها إلَّا الخوفُ مِن الصَّواعقِ والطَّمعُ في الأمطارِ، ولا ثالثَ لهذينِ القِسمينِ[2].

- قولُه: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فيه تقديمُ الخوفِ على الطَّمَعِ؛ ووجْهُ ذلك ظاهرٌ؛ لأنَّ المَخوفَ عليه النَّفْسُ أو الرِّزقُ العَتيدُ، والمَطْموعَ فيه الرِّزقُ المُترقَّبُ[3]. وقيل: قُدِّمَ الخوفُ على الطَّمَعِ؛ إذ كانت الصَّواعقُ يجوزُ وقوعُها مِن أوَّلِ برْقَةٍ، ولا يحصُلُ المطرُ إلَّا بعدَ تواتُرِ الإبراقِ؛ لأنَّ تواتُرَه لا يكادُ يُخْلَفُ، وليكونَ الطَّمعُ ناسِخًا للخوفِ، كمجيءِ الرَّخاءِ بعد الشِّدَّةِ، والفَرَجِ بعد الكُرْبَةِ؛ فيكونَ ذلك أحلى مَوقِعًا في القُلوبِ، ويشهَدُ لهذا قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]؛ فجاءَ معنى الآيةِ على ما جاءَ؛ رحمةً مِن اللَّهِ سبحانه بخلْقِه وبُشْرى لعبادِه[4].

٢- قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٩٩- ١٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٩٩- ١٠٢).

﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾

- قولُه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ فيه عطْفُ الرَّعْدِ على ذِكْرِ البرْقِ والسَّحابِ؛ لأنَّه مُقارِنُهما في كثيرٍ مِن الأحوالِ[١].

- قولُه: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ فيه الْتِفاتٌ عن درجةِ الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ إيذانًا بإسقاطِ هؤلاءِ المُجادِلين، وهم الكَفَرةُ المُخاطَبون في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، وإعراضًا عنهم، وتعديدًا لجناياتِهم لدى كلِّ مَن يستحقُّ الخِطابَ[٢]. وقيل: أُعيدَ الأُسلوبُ هنا إلى ضَمائرِ الغَيبةِ؛ لانقضاءِ الكلامِ على ما يصلُحُ لمَوعِظةِ المؤمنين والكافرين، فتمحَّضَ تخويفُ الكافرين[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾

- قولُه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المُبتدأِ؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: دعوةُ الحقِّ مِلْكُه لا مِلْكُ غيرِه، وهو قصْرٌ إضافيٌّ. وقد صرَّحَ بمفهومِ جُملةِ القصْرِ بجُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]؛ فكانت بيانًا لها، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ تُفْصَلَ ولا تُعْطَفَ، وإنَّما عُطِفَت؛ لِما فيها مِن التَّفصيلِ والتَّمثيلِ، فكانت زائدةً على مِقدارِ البَيانِ، والمقصودُ بيانُ عدَمِ استحقاقِ الأصنامِ أن يدعُوَها الدَّاعون[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٠٨).

تشبيهٌ تمثيليٌّ رائعٌ، أي: إلَّا استجابةً كاستجابةِ الماءِ مَن بَسَطَ كفَّيه إليه يطلُبُ منه أنْ يبلُغَ فاهُ، وما هو ببالِغِه؛ فالماءُ جَمادٌ لا يشعُرُ ببَسْطِ كفَّيه ولا بعَطَشِه وحاجتِه إليه، ولا يقدِرُ أنْ يُجيبَ دُعاءَه ويبلُغَ فاهُ، وكذلك ما يدْعونَه، جَمادٌ لا يُحِسُّ بدُعائِهم، ولا يستطيعُ إجابتَهم، ولا يقدِرُ على نفْعِهم. وقيل: شبَّهَ الكفَّارَ في دُعائِهم لأصنامِهم عند ضرورتِهم برجُلٍ عطشانَ لا يقدِرُ على الماءِ، وفي قِلَّةِ جَدْوى دُعائِهم لآلهتِهم بمَن جلَسَ على شَفيرِ بئْرٍ وأرادَ أنْ يغرِفَ الماءَ بيدَيه ليشرَبَه، فبسَطَهما ناشِرًا أصابعَه، فلم تَلْقَ كفَّاهُ منه شيئًا ولم يبلُغْ طَلِبَتَه مِن شُرْبِه؛ فلا هو يبلُغُ قعْرَ البئْرِ إلى الماءِ، ولا الماءُ يرتفِعُ إليه؛ كذلك ما يدعو الكفَّارُ مِن الأوثانِ، جمادٌ لا يُحِسُّ بدُعائهم، ولا يستطيعُ إجابتَهم، ولا يقدِرُ على نَفْعِهم[١]. وهذا التَّشبيهُ مِن غيرِ مُلاحظةِ التَّشبيهِ في جميعِ مُفرداتِ الأطرافِ؛ فإنَّ الماءَ في نفْسِه شيءٌ نافعٌ بخلافِ آلهتِهم، والمرادُ: نَفْيُ الاستجابةِ رأْسًا، إلَّا أنَّه قد أُخْرِجَ الكلامُ مَخْرَجَ التَّهكُّمِ بهم، فقيل: لا يستجيبون لهم شيئًا مِن الاستجابةِ إلَّا استجابةً كائنةً في هذه الصُّورةِ الَّتي ليست فيها شائبَةُ الاستجابةِ قطْعًا، فهو في الحقيقةِ مِن بابِ التَّعليقِ بالمُحالِ[٢].

- وتنْكيرُ (شيءٍ) في قولِه: ﴿بِشَيۡءٍ﴾؛ للتَّحقيرِ، والمُرادُ أقلُّ ما يُجابُ به مِن الكلامِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن

---

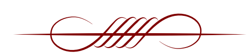
(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٠٢- ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠٩).

دُونِهِۦ﴾؛ لاستيعابِ حالِ المَدْعُوِّ وحالِ الدَّاعي؛ فبيَّنَتِ الجُملةُ السَّابقةُ حالَ عجْزِ المَدْعُوِّ عنِ الإجابةِ، وأُعقِبَت بالتَّمثيلِ المُشتمِلِ على كِنايةٍ، واشتَمَلَ ذلك أيضًا بالكِنايةِ على خَيبةِ الدَّاعي[(١)].

- قَولُه: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ فيه إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ، حيث قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقُلْ: (وما دُعاؤُهم)؛ وذلك لأنَّ دُعاءَ الكافرينَ لَمَّا كان مُنحَصِرًا في الباطِلِ، أظهر تعميمًا، وتعليقًا للحُكمِ بالوَصفِ[(٢)].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٠١).

الآيات (١٥-١٨)

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥)
قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا
ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ
خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ
ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ
وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ
لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)﴾

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِالْغُدُوِّ﴾: جمع غَداةٍ: وهي أولُ النَّهَارِ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زَمانٍ[١].

﴿وَالْآصَالِ﴾: جمع أُصُلٍ، والأُصُلُ: جَمْعُ أَصِيلٍ: وهو آخِرُ النَّهَارِ، وأصلُ (أصل): يدلُّ على ما كان مِن النَّهارِ بعدَ العَشيِّ[٢].

﴿الْقَهَّارُ﴾: أي: الغالبُ، والقاهرُ لكلِّ شيءٍ وحدَه، والقهرُ: الغلبةُ والتذليلُ معًا، وأصلُ (قهر): غلبةٌ وعلوٌّ[٣].

﴿أَوْدِيَةٌ﴾: جمعُ الوادي، وسُمِّي واديًا لخروجِه وسيلانِه، وأصلُ الوادي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦).

الموضعُ الذي يسيلُ فيه الماءُ، ومنه سُمِّي المفْرَجُ بينَ الجبلينِ واديًا[١].

﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾: أي: غُثاءً طافيًا عاليًا فوقَ الماءِ، وأصلُ (زبد): يدلُّ على تولُّدِ شَيءٍ عن شَيءٍ، وأصلُ (ربو): يدلُّ على الزِّيادةِ والنَّماءِ والعُلُوِّ[٢].

﴿حِلْيَةٍ﴾: أي: ما يُتحَلَّى ويُتَزيَّنُ به، وهو المَصوغُ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وأصلُ (حلي): يدُلُّ على تحسينِ الشَّيءِ[٣].

﴿جُفَآءً﴾: مُطَّرَحًا مَرميًّا؛ مِن قَولِهم: جفأ الوادي غُثاءَه: إذا رماه، وأصلُ (جفأ): يدلُّ على نبُوِّ الشَّيءِ عن الشَّيءِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: ولِلَّه وَحدَه يَسجُدُ خاضِعًا مُنقادًا كُلُّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ، فيَسجُدُ ويخضَعُ له المؤمِنونَ طَوعًا واختيارًا، ويخضَعُ له الكافِرونَ رَغمًا عنهم؛ لأنَّهم يَستكبِرونَ عن عبادتِه، وحالُهم وفِطرتُهم تُكَذِّبُهم في ذلك، وتسجُدُ لله ظِلالُ المَخلوقاتِ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، قلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومُدبِّرُهما؟ قُل: اللهُ هو الخالِقُ المدَبِّرُ لهما، ثمَّ قُلْ لهم مُلزِمًا بالحُجَّةِ: أتَّخَذتُم غَيرَه معَبودينَ لكم، وهم لا يَقدِرونَ على نَفعِ أنفُسِهم أو ضَرِّها، فَضلًا عن نَفعِكم أو ضَرِّكم، وترَكتُم عبادةَ مالِكِها؟! قلْ لهم: هل يستوي الكافِرُ

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، (٣/ ٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجَّاج (٣/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٥)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢١).

الذي هو أعمَى البَصيرةِ، والمؤمِنُ الذي هو البصيرُ المُهتدي؟ أم هل يستوي الكُفرُ الذي هو ظُلماتٌ، والإيمانُ الذي هو نورٌ؟ أم جَعَلوا لله سُبحانَه شُرَكاءَ معه في الخَلقِ خَلَقوا مِثلَ خَلقِ اللهِ، فاختلطَ عندهم خلقُ اللهِ بخَلقِ شُرَكائِهم؟! قُل لهم: اللهُ وَحدَه هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ لا شريكَ له في الخَلقِ، وهو الواحِدُ القهَّارُ الذي يستحِقُّ الألوهيَّةَ والعبادةَ، لا الأصنامُ والأوثانُ التي لا تضرُّ ولا تنفَعُ.

ثمَّ ضربَ اللهُ سُبحانَه مثَلًا للحَقِّ والباطلِ بماءٍ أنزَلَه من السَّماءِ، فجَرَت به أودِيةُ الأرضِ بقَدْرِ صِغَرِها وكِبَرِها، فحمَلَ السَّيلُ غُثاءً طافيًا فوقَه لا نفْعَ فيه، وضربَ مثلًا آخرَ: هو المعادِنُ يُوقِدونَ عليها النَّارَ لِصَهرِها؛ طلَبًا للزِّينةِ- كما في الذَّهَبِ والفِضَّةِ- أو طلَبًا لمنافِعَ ينتفِعونَ بها- كما في النُّحاسِ- فيخرجُ مِنها خَبَثُها ممَّا لا فائدةَ فيه، كالذي كان مع الماءِ، بمِثلِ هذا يضرِبُ اللهُ المَثَلَ للحَقِّ والباطِلِ؛ فالباطِلُ -كغُثاءِ الماءِ والمعادِنِ- يتلاشَى أو يُرْمَى؛ إذ لا فائدةَ منه، والحقُّ- كالماءِ الصافي والمعادِنِ النَّقيَّةِ- يبقَى في الأرضِ للانتفاعِ به، كما بيَّنَ لكم هذه الأمثَالَ، كذلك يضرِبُها للنَّاسِ؛ ليتَّضِحَ الحَقُّ مِن الباطِلِ، والهُدَى من الضَّلالِ.

ثمَّ بيَّنَ الله سبحانه بعدَ ذلك عاقبةَ أهلِ الحقِّ، وعاقبةَ أهلِ الباطلِ، فقال: للمُؤمنينَ الذين أطاعوا اللهَ ورَسولَه الجنَّةُ، والذين لم يُطيعوه وكَفَروا به لو كانوا يَملِكونَ كُلَّ ما في الأرضِ وضِعْفَه معه لبَذَلوه؛ فداءً لأنفُسِهم مِن عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ، ولن يُتَقبَّلَ منهم، أولئك يُحاسَبونَ على كُلِّ ما أسلَفوه مِن عمَلٍ سيِّئٍ، ومَسكَنُهم ومَقامُهم جهنَّمُ تكونُ لهم فِراشًا، وبِئسَ الفِراشُ الذي مَهَدوه لأنفُسِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾.

أي: ولله يَسجُدُ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ طائعينَ[١] ومكرهينَ؛ سجودَ ذلٍّ وقهرٍ وخضوعٍ، فكلُّ أحدٍ خاضعٌ لقدرِ اللهِ، مقهورٌ تحتَ سلطانِه، لا يقدرُ أن يمتنعَ عليه[٢].

---

(١) قال ابنُ القيم: (قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يدخلُ فيه سجودُ المصلِّين قطعًا، وكيف لا وهو أجلُّ السجودِ وأفرضُه؟). ((إعلام الموقعين)) (٢/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٧٢)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٤٢).

ومن اختار هذا القولَ في معنَى السجودِ: ابنُ القيم، والقاسمي، وابنُ عثيمين. تُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عثيمين: (قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ والسجودُ هنا السجودُ القدريُّ، فكلُّ أحدٍ خاضعٌ لقدرِ الله، ما أحدٌ يستطيعُ أن يغالبَ الله عزَّ وجلَّ، أين المفرُّ... فالسجودُ الشرعيُّ كثيرٌ مِن الناسِ حقَّ عليهم العذابُ، فلم يسجدوا، على أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ والجبالَ والشجرَ والدوابَّ كلَّها يسجدُ لله عزَّ وجلَّ، لكنَّ الكفرةَ مِن بني آدمَ ومِن الجنِّ لا يسجدونَ للهِ تعالى إلا السجودَ الكونيَّ القدريَّ). ((شرح رياض الصالحين)) (٥/ ٤٤٢).

وقال ابنُ تيميةَ في تفسيرِ الكرهِ في الآيةِ: (والصحيحُ أنَّه انقيادُهم لحكمِه القدريِّ بغيرِ اختيارِهم، كاستسلامِهم عندَ المصائبِ وانقيادِهم لما يكرهونَ مِن أحكامِه الشرعيةِ، فكلُّ أحدٍ لا بدَّ له مِن انقيادِه لحكمِه القدريِّ والشرعيِّ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٤٩).

وقال النحاسُ: (ومِن أحسنِ ما قيل: أنَّ السجودَ هاهنا الخضوعُ لتدبيرِ الله جلَّ وعزَّ وتصريفِه مِن صحَّةٍ وسقمٍ وغيرِهما.

﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: ينقادونَ على ما أحبُّوا أو كرِهوا لا حيلةَ لهم في ذلك). ((إعراب القرآن)) (٢/ ٢٢٢).

وقال السعدي: (جميعُ ما احتوتْ عليه السمواتُ والأرضُ كلُّها خاضعةٌ لربِّها، تسجدُ له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فالطوعُ لمن يأتي بالسجودِ والخضوعِ اختيارًا كالمؤمنينَ، والكرهُ لمن يستكبرُ عن عبادةِ ربِّه، وحالُه وفطرتُه تكذِّبُه في ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

وقيل: سجودُ مَن في السموات والأرض من العامِّ المخصوص؛ فالمؤمنون والملائكة يسجدونَ لله سجودًا حقيقيًّا، وهو وضعُ الجبهة على الأرض، يفعلون ذلك طوعًا، والكُفَّار يسجدون كَرهًا، ومنهم المنافقون. وممن اختار هذا القول: ابن جرير، والواحدي، ونسبه للمفسرين يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٦٨).

وقيل: المرادُ بسجودِ الكفارِ كَرهًا: سجودُ ظِلالِهم كَرهًا. وممن ذهب إلى ذلك: مقاتل. يُنظر:

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

أي: ولِلَّهِ تَسجُدُ ظِلالُ المَخلوقاتِ في أوَّلِ النَّهارِ، وفي آخِرِه[1].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۞ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩].

((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٧٣).

وقيل: الآيةُ في المؤمنينَ، فبعضُهم يسجدُ طَوعًا؛ لِخفَّةِ امتثالِ أوامرِ الشَّرع عليه، وبعضُهم يسجدُ كَرهًا؛ لِثِقَلِ مشقَّةِ التكليفِ عليه. وجوزَّه الزجاجُ. ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ١٤٤)

ونسَبه ابنُ عطيةَ أيضا للنحاسِ، لكن تعقَّبه قائلًا: (وإن كان اللفظُ يقتضي هذا فهو قلقٌ مِن جهةِ المعنَى المقصودِ بالآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٧ - ٢٣٩).

وقال ابنُ جُزي: (﴿مَن﴾ لا تقعُ إلا علَى مَن يعقلُ، فهي هنا يُراد بها الملائكةُ والإنسُ والجنُّ، فإذا جعَلْنا السجودَ بمعنَى الانقيادِ لأمرِ الله وقضائِه؛ فهو عامٌّ في الجميع: مَن شاء منهم ومَن أبَى، ويكونُ طوعًا لمَن أسلَم، وكرهًا لمن كرِه وسخِط، وإن جعَلْنا السجودَ هو المعروفُ بالجسدِ، فيكونُ لسجودِ الملائكةِ والمؤمنينَ مِن الإنسِ والجنِّ طوعًا، وأما الكرهُ فهو سجودُ المنافقِ وسجودُ ظلِّ الكافرِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

قال الشنقيطي: (قيل: سجودُها حقيقي، والله تعالى قادرٌ على أن يخلُقَ لها إدراكًا تُدرِكُ به وتسجُدُ لله سجودًا حقيقيًّا، وقيل: سجودُها: مَيلُها بقدرةِ اللهِ أوَّلَ النهار إلى جهةِ المغرب، وآخِرَه إلى جهة المَشرق، وادَّعى من قال هذا أنَّ الظِّلَّ لا حقيقةَ له؛ لأنَّه خيالٌ فلا يمكِنُ منه الإدراكُ. ونحن نقول: إنَّ اللهَ -جلَّ وعلا- قادِرٌ على كلِّ شيءٍ؛ فهو قادر على أن يخلُقَ للظِّلِّ إدراكًا يسجدُ به لله تعالى سجودًا حقيقيًّا). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٣٨).

﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر الله تعالى أنَّ المخلوقاتِ كلَّها تسجدُ له طوعًا وكرهًا؛ لذا كان هو الإلهَ حقًّا، المعبودَ المحمودَ حقًّا، وكانت إلهيةُ غيرِه باطلةً، ولهذا ذكَر بطلانَها، وبرْهَن عليه(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا نهَضَت الأدِلَّةُ الصَّريحةُ بمظاهِرِ الموجوداتِ المتنَوِّعةِ على انفرادِه بالإلهيَّةِ، مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الرعد: ٣]، وقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد: ٨]، وقولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ [الرعد: ١٢] الآيات، وبما فيها مِن دَلالةٍ رَمزيَّةٍ دَقيقةٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]، وقَولِه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ١٥]، إلى آخِرِها- لا جرَمَ تهيَّأَ المَقامُ لتَقريرِ المُشرِكينَ تقريرًا لا يجِدونَ معه عن الإقرارِ مَندوحةً، ثمَّ لتَقريعِهم على الإشراكِ تَقريعًا لا يسَعُهم إلَّا تجرُّعُ مَرارتِه؛ لذلك استؤنِفَ الكلامُ وافتُتِحَ بالأمرِ بالقَولِ؛ تنويهًا بوضوحِ الحُجَّة(٢)، فقال تعالى:

﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾.

أي: قُل -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: مَن خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومالِكُهما ومُدَبِّرُهما؟ قُل: ربُّها الذي خلَقَها وأوجَدَها هو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحدَه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٢).

دونَ غَيرِه(١).

﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

أي: قُل -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: أفاتَّخذتُم مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تملِكُ أن تجلِبَ لأنفُسِها نفعًا، ولا أن تدفَعَ عن أنفُسِها ضَرًّا، فضلًا عن غَيرِها، فتَعبُدونَها وتترُكونَ عِبادةَ اللهِ الذي بِيَدِه وحدَه النَّفعُ والضَّرُّ(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: هل يَستوي الأعمى الذي لا يُبصِرُ شَيئًا، والبَصيرُ الذي يُبصِرُ؟ لا شَكَّ أنَّهما لا يستويانِ، فكذلك لا يستوي الموَحِّدُ لله، والمُشرِكُ به(٣).

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾.

أي: وهل تستوي الظُّلُماتُ التي لا يُرى فيها شيءٌ، والنُّورُ الذي تُرى فيه الأشياءُ بوُضوحٍ؟ لا شَكَّ أنَّهما لا يستويانِ؛ فكذلك لا يستوي الشِّركُ والإيمانُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٢)، ((تفسير البغوي))

﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾.

أي: أجَعَلوا لله شُركاءَ يَعبُدونَهم مع اللهِ؛ خَلَقوا مثلَ خَلقِ اللهِ -تعالى وتقَدَّسَ-، فتَشابهَ خَلقُ الشُّركاءِ بخَلقِ اللهِ عِندَهم، فجَعَلوها شُركاءَ لله بسبَبِ ذلك؟! أي: ليس الأمرُ كذلك، فلا عُذرَ للمُشرِكينَ في عبادتِها، وهم مُعترِفونَ بأنَّها لا تخلُقُ شيئًا[1].

كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾.

أي: قُل- يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، وقد خلَقَكم وخلَقَ آلهَتَكم، فكيف تعبُدونَها مع اللهِ، وهو المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١].

وقال سُبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٥).

قال ابن تيمية: (هذا استفهامُ إنكارٍ بمعنى النفي، أي: ما جعلوا لله شُرَكاءَ خَلَقوا كخَلقِه؛ فإنَّهم مقِرُّونَ أنَّ آلهتَهم لم يخلُقوا كخَلِقه، وإنَّما كانوا يجعلونَهم شُفَعاءَ ووسائِطَ). ((مجموع الفتاوى)) (١/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٩).

وقال عزَّ وجلَّ حاكيًا قولَ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- لِقَومِه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥- ٩٦].

﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾.

أي: واللهُ هو الواحِدُ الذي لا ثانيَ له، الغالِبُ لجميعِ خَلقِه، المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه دون ما سواه(١).

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾.

أي: أنزلَ اللهُ مِن السَّحابِ مطَرًا فاحتمَلَتْه الأوديةُ بقَدْرِ كِبَرِها وصِغَرِها، فأخذ كلُّ وادٍ بحسَبِ سَعَتِه(٢).

وهذا مَثَلٌ ضرَبَه اللهُ، فشَبَّه تعالى ما أنزَلَه من العِلمِ والإيمانِ إلى القُلوبِ بالماءِ الذي أنزَلَه من السَّماءِ إلى الأرضِ، وشبَّه القلوبَ الحاملةَ للعِلمِ والإيمانِ بالأوديةِ الحاملةِ للسَّيلِ؛ فقَلبٌ كبيرٌ يسَعُ عِلمًا عَظيمًا، كوادٍ كبيرٍ يسَعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ يسَعُ عِلمًا قَليلًا، كوادٍ صغيرٍ يسَعُ ماءً قليلًا، فحَمَلت القلوبُ من هذا العِلمِ بقَدَرِها، كما سالت الأوديةُ مِن الماءِ بقَدَرِها، فهذا تقسيمٌ للقُلوبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧).

قال الرسعني: (المعنى: سالَتْ أوديةٌ بقَدرِها على حسبِ مجاريها، إن صغر الوادي قلَّ الماءُ، وإن اتَّسَع كَثُرَ الماءُ. هذا قولُ أكثرِ المفسرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٦٦).

بحَسَب ما تحمِلُه مِن العِلمِ والإيمانِ إلى مُتَّسِعٍ وضَيِّقٍ[١].

﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾.

أي: فاحتمَلَ الماءُ الذي يسيلُ في الأوديةِ بعد نزولِ المطَرِ زبَدًا[٢] مُرتفِعًا فوقَ الماءِ طافيًا على سَطحِه[٣].

وهذا بيانٌ للحَقِّ في ثَباتِه والباطِلِ في اضمِحلالِه؛ فالحَقُّ هو الماءُ الباقي الذي أنزَلَه اللهُ مِن السَّماءِ، والباطِلُ هو الزَّبَدُ الذي لا يُنتفَعُ به، فإنَّه يضمَحِلُّ ويَعْلَقُ بجَنَباتِ الأوديةِ، وتدفَعُه الرِّياحُ، فكذلك يذهَبُ الكُفرُ ويتلاشَى[٤].

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾.

أي: ومِن الذي يُوقِدُ عليه الناسُ في النَّارِ؛ ليذوبَ، مِن معادِنِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ؛ طلبًا لِحليةٍ يتزيَّنونَ بها، ويتجمَّلون، أو من معادِنِ الحديدِ، والنحاسِ، والرصاص وغيرِها؛ طلَبًا لِمَتاعٍ يتمَتَّعونَ به، وينتفِعونَ، كالأواني والآلاتِ المصنوعةِ- خبثٌ يعلو فوقَ ما أُذيبَ مِن تلك المعادنِ، كما يعلُو الزَّبَدُ على الماءِ، فلا يُنتفَعُ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) قال الشوكاني: (الزَّبَدُ: هو الأبيضُ المُرتفعُ المنتفِخُ على وجهِ السَّيلِ، ويقال له: الغُثاءُ والرَّغوةُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٤).
قال الواحدي: (يريد: أنَّ الباطِلَ -وإنْ ظهَرَ على الحقِّ في بعضِ الأحوالِ- فإنَّ الله سيمحَقُه ويُبطِلُه، ويجعلُ العاقبةَ للحقِّ وأهلِه). ((الوجيز)) (ص: ٥٦٩).

ويذهبُ باطلًا[١].

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾.

أي: كما مثَّل اللهُ بقاءَ الإيمانِ وبُطلانَ الكُفرِ إذا اجتمعا، بما يبقى مِن ماءِ السَّيلِ وخالِصِ المَعادِنِ التي يُوقَدُ عليها في النَّارِ- كذلك يُبيِّنُ اللهُ مثَلَ الحَقِّ والباطِلِ[٢].

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نبَّهَ اللهُ تعالى بهذا الفَصلِ -وهو قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾- على عُلُوِّ رُتبةِ هذا المثَلِ؛ شرَعَ في شَرحِه، فبدأ بما هو الأهَمُّ في هذا المَقامِ، وهو إبطالُ الباطِلِ الذي أضَلَّهم[٣].

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً﴾.

أي: فأمَّا الزَّبَدُ -الذي كان يعلو السَّيلَ، ويعلو المعادِنَ عند الإيقادِ عليها- فيذهَبُ ضائِعًا مُضمحِلًّا مَرمِيًّا لا يُنتفَعُ به[٤].

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٨-١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧).

أي: وأمَّا ما ينفَعُ النَّاسَ -مِن الماءِ الصَّافي والمعادِنِ الخالِصةِ- فيبقى في الأرضِ ويَستقِرُّ، فينتفِعُ به النَّاسُ(١).

عن أبي موسى الأشعريِّ رضيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مثَلَ ما بعَثَني الله به -عزَّ وجلَّ- من الهُدى والعِلمِ، كمَثَلِ غيثٍ أصاب

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٧).

قال ابنُ تيميةَ: (والذي ينفَعُ النَّاسَ يمكُثُ في الأرضِ ويستَقِرُّ، وكذلك القلوبُ تُخالِطُها الشَّهَواتُ والشُّبُهاتُ، فإذا ترابى فيها الحَقُّ ثارت فيها تلك الشَّهَواتُ والشُّبُهاتُ، ثم تذهبُ جُفاءً، ويستقِرُّ فيها الإيمان والقرآنُ الذي ينفَعُ صاحِبَه والنَّاسَ، وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ فهذا المثَلُ الآخَرُ، وهو الناريُّ؛ فالأول للحياةِ، والثاني للضياء). ((مجموع الفتاوى)) (١٩/ ٩٥).

وقال ابنُ القيِّم: (شَبَّه الوحيَ -الذي أنزله لحياةِ القلوبِ والأسماعِ والأبصارِ- بالماءِ الذي أنزله لحياةِ الأرض بالنَّبات، وشبَّه القلوب بالأودية، فقلبٌ كبيرٌ يسعُ عِلمًا عظيمًا كوادٍ كبير يسعُ ماء كثيرًا، وقلبٌ صغير إنما يسعُ بحَسَبه كالوادي الصغير، فسالت أوديةٌ بقَدَرها، واحتمَلَت قلوبٌ من الهدى والعلم بقَدَرِها؛ وكما أن السيلَ إذا خالط الأرضَ ومرَّ عليها احتمل غُثاءً وزَبَدًا، فكذلك الهُدى والعلم إذا خالطَ القلوبَ أثار ما فيها من الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ؛ ليقلَعَها ويُذهِبَها كما يثيرُ الدواءُ وقتَ شُربِه من البَدَن أخلاطَه، فيتكدَّرُ بها شاربُه، وهي من تمام نفْعِ الدواء؛ فإنَّه أثارها ليَذهبَ بها، فإنه لا يجامِعُها ولا يشارِكُها؛ وهكذا يضرِبُ اللهُ الحقَّ والباطِل، ثم ذكر المثلَ الناريَّ، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، وهو الخبَثُ الذي يخرجُ عند سبْكِ الذهب والفضَّة والنُّحاس والحديد، فتُخرِجُه النار وتميِّزُه وتَفصِلُه عن الجوهر الذي يُنتفَعُ به، فيُرمى ويُطرَحُ ويَذهَبُ جُفاءً؛ فكذلك الشهواتُ والشبُهاتُ يرميها قلبُ المؤمِنُ ويَطرَحُها ويجفوها، كما يطرحُ السيلُ والنار ذلك الزبَدَ والغُثاءَ والخَبَث، ويستقِرُّ في قرار الوادي الماءُ الصافي الذي يستقي منه النَّاسُ ويزرعون ويسقونَ أنعامهم، كذلك يستقِرُّ في قرار القلبِ وجِذرِه الإيمانُ الخالِصُ الصافي الذي ينفَعُ صاحِبَه، وينتَفِعُ به غيرُه؛ ومن لم يَفقَهْ هذين المثَلَين ولم يتدبَّرْهما ويعرِفْ ما يُراد منهما، فليس من أهلِهما، والله الموفِّق). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١٧ - ١١٨).

ويُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٥٨، ٥٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٧).

أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طَيِّبةٌ قَبِلَت الماءَ، فأنبَتَت الكَلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكان منها أجادِبُ أمسَكَت الماءَ، فنفعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا منها وسَقَوا ورَعَوا، وأصاب طائفةً منها أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كَلأً؛ فذلك مثَلُ مَن فَقُهَ في دينِ اللهِ، ونفَعَه بما بعَثَني اللهُ به، فعَلِم وعلَّم، ومثَلُ مَن لم يرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يقبَلْ هُدى اللهِ الذي أُرسِلتُ به))[١].

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

أي: كما مثَّل اللهُ لكم هذا المثَلَ لبقاءِ الحَقِّ وذَهابِ الباطِلِ، كذلك يضرِبُ اللهُ لكم الأمثالَ؛ ليتَّضِحَ لكم الحَقُّ مِن الباطِلِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

لَمَّا بيَّنَ تعالى الحَقَّ مِن الباطِلِ، ذكَرَ أنَّ النَّاسَ على قِسمَينِ: مُستجيبٍ لرَبِّه، فذكَرَ ثوابَه، وغيرِ مُستجيبٍ، فذكَرَ عقابَه، فقال(١):

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: للذينَ أجابوا ربَّهم فآمَنوا به وأطاعوه ورَسولَه؛ الجزاءُ الحسَنُ في الدُّنيا، والجنَّةُ في الآخرةِ(٢).

كما قال سُبحانَه مُخبِرًا عن ذي القَرنينِ أنَّه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧- ٨٨].

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾.

أي: والذين لم يُؤمِنوا برَبِّهم ولم يطيعوه ورَسولَه؛ لو أنَّهم يَملِكونَ كُلَّ شَيءٍ في الأرضِ، ويَملِكونَ مِثلَه معه، لقدَّموه فداءً؛ لتخليصِ أنفُسِهم من عذابِ النَّارِ يومَ القيامةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ -الذين لم يستجيبوا لربِّهم- يُؤخَذون يومَ الحسابِ بجميعِ ذُنوبِهم صَغيرِها وكبيرِها، ولا يَغفِرُ اللهُ شيئًا منها، فلا يقبَلُ لهم حَسَنةً، ولا يتجاوَزُ لهم عن سيِّئةٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ❁ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ❁ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ [المدثر: ٨-١٠].

وعن عائشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من حُوسِبَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ. فقلتُ: أليس قد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ [الانشقاق: ٨]؟! فقال: ليس ذاك الحِسابَ، إنَّما ذاك العَرضُ، مَن نوقِشَ الحِسابَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ))[2].

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) رواه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦)، واللفظ له.

أي: ومسكَنُ الكُفَّارِ ومَقامُهم يومَ القيامةِ نارُ جهنَّمَ، وبئسَ الفِراشُ جهنَّمُ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يُستفادُ منه أنَّ الباطِلَ وإن علا في وقتٍ، فإنَّه يضمَحِلُّ، ويبقى الحَقُّ ظاهِرًا لا يشوبُه شَيءٌ مِن الشُّبُهاتِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى في سورةِ آلِ عِمرانَ: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وعامَّةُ السَّلَفِ على أنَّ المرادَ بالاستسلامِ استِسلامُهم له بالخُضوعِ والذُّلِّ، لا مجرَّدُ تَصريفِ الرَّبِّ لهم، كما في قَولِه تعالى هنا: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ وهذا الخضوعُ والذُّلُّ هو أيضًا لازِمٌ لكُلِّ عبدٍ، لا بدَّ له مِن ذلك، وإن كان قد يَعرِضُ له أحيانًا الإعراضُ عن رَبِّه والاستكبارُ، فلا بُدَّ له عند التَّحقيقِ مِن الخُضوعِ والذُّلِّ له، لكِنَّ المؤمِنَ يُسلِمُ له طَوعًا فيُحِبُّه ويُطيعُ أمْرَه، والكافِرُ إنَّما يخضَعُ له عند رَغبةٍ ورَهبةٍ، فإذا زال عنه ذلك أعرَضَ عن رَبِّه[٣].

٢- جُملةُ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ صِفةٌ لـ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، والمقصودُ منها تنبيهُ السَّامعينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٢٩٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠).

للنَّظَرِ في تلك الصِّفَةِ؛ فإنَّهم إنْ تدبَّروا عَلِموها، وعَلِموا أنَّ مَن كانت تلك صِفَتَه فليس بأهلٍ لأنْ يُعْبَدَ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ احتجَّ سُبحانه على تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ بتفرُّدِه بالخَلْقِ؛ وعلى بُطلانِ إلهيَّةِ ما سواه بعَجزِهم عن الخَلْقِ، وعلى أنَّه واحدٌ بأنَّه قَهَّارٌ- والقَهرُ التامُّ يستلزِمُ الوَحدةَ- فإنَّ الشَّركةَ تُنافي تمامَ القَهرِ(٢)، فلا توجدُ الوحدةُ والقهرُ إلَّا للهِ وحدَه، فالمخلوقاتُ وكلُّ مخلوقٍ فوقَه مخلوقٌ يقهرُه، ثم فوقَ ذلك القاهرِ قاهرٌ أعلَى منه، حتَّى ينتهيَ القهرُ للواحدِ القهَّار، فالقهرُ والتوحيدُ متلازمانِ متعينانِ لله وحدَه، فتبيَّن بالدليلِ العقليِّ القاهرِ، أنَّ ما يُدعَى مِن دونِ الله ليس له شيءٌ مِن خلقِ المخلوقاتِ، وبذلك كانت عبادتُه باطلةً(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ ساق ذلك في أُسلوبِ الغَيبةِ؛ إعلامًا بأنَّهم أهلٌ للإعراضِ عنهم؛ لكَونِهم في عِدادِ البَهائِمِ؛ لقَولِهم ما لا يُعقَلُ بوجهٍ مِن الوُجوهِ(٤).

٥- قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فنفَى أن يكونَ خالقٌ غيره، ونفَى أن يكونَ شيءٌ سواه غير مخلوقٍ، فلو كانت الأفعالُ غيرَ مخلوقةٍ له، لكان خالقَ بعضِ الأشياءِ لا خالقَ كلِّ شيءٍ، وهو بخلافِ الآيةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٣).
(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٥).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣١٣).
(٥) يُنظر: ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص: ١٤٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ السَّماءَ تَرِدُ- في اللُّغةِ والقُرآنِ- بمعنى العُلُوِّ؛ لأنَّ الماءَ يَنزِلُ مِن السَّحابِ لا مِن السَّماءِ التي هي السَّقفُ المحفوظُ(١)!

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ أصلٌ في الصَّوغِ والأواني المُنطَبِعةِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾

- ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا﴾ فيه قصْرٌ، أي: يسجُدُ للَّهِ وحدَه لا لشيءٍ غيرِه استقلالًا ولا اشتراكًا؛ فالقصْرُ ينتظِمُ القلْبَ والإفرادَ(٣). وعدَلَ عن ضميرِ الجَلالةِ إلى اسمِه تعالى العَلَمِ؛ تبَعًا للأُسلوبِ السَّابقِ(٤) في افتتاحِ الأغراضِ الأصليَّةِ(٥).

- ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه تخصيصُ انقيادِ العُقلاءِ بالذِّكْرِ مع كونِ

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١).

وقَصرُ الإفرادِ: إذا اعتقَد المخاطَبُ الشركةَ، نحو: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النساء: ١٧١] ردًّا على مَن اعتقد أنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ.

وأمَّا قصرُ القَلبِ: فهو إذا اعتقَد المخاطَبُ عكسَ الحُكم الذي يُثبتُه المُتكلِّمُ، نحو: (ما سافَر إلَّا عليٌّ) ردًّا على مَن اعتقدَ أن المسافِرَ خليلٌ لا عليٌّ. فقد قلَب المتكلِّمُ على المخاطبِ اعتقادَه، وعكَسه عليه. يُنظر: ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٧٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٨- ٥٢٩).

(٤) يعني قولَه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ...﴾ [الرعد: ٢]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ ...﴾ [الرعد: ٨].

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٠).

غيرِهم أيضًا كذلك؛ لأنَّهم العُمدَةُ، وانقيادَهم دليلُ انقيادِ غيرِهم، والعُمومُ المُستفادُ مِن (مَن) الموصولةِ عُمومٌ عُرفيٌّ يُرادُ به الكَثْرةُ الكاثِرَةُ[1].

- قولُه: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ فيه تخصيصُ هذينِ الوقتينِ مع أنَّ انقيادَها مُتَحَقِّقٌ في جميعِ أوقاتِ وُجودِها؛ لأنَّ الظِّلالَ إنَّما تعظُمُ وتكثُرُ فيهما[2].

- وفي قولِه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وفي سورةِ (النَّحلِ) قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...﴾، وقال في سورةِ (الحجِّ): ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾، فخصَّصَ آيةَ (الرَّعدِ) بـ (مَن) ولم تَتكرَّر؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ما في هذه السُّورةِ تقدَّمَ آيةَ السَّجدَةِ ذِكْرُ العُلْويَّاتِ مِن البرْقِ والسَّحابِ والصَّواعِقِ، ثمَّ ذِكرُ الملائكةِ بتسبيحِهم، ثمَّ الأصنامِ والكفَّارِ، فبدَأَ في آيةِ السَّجدَةِ بذِكْرِ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ ليُقدِّمَ ذِكْرَهم، وأَتْبَعَهم مَن في الأرضِ فذَكرَهم تبَعًا. ولم يُكرِّر (مَن) فيها كما كرَّرها في سورة (الحَجِّ)؛ استخفافًا بالأصنامِ والكفَّارِ، وأمَّا في سورةِ (الحجِّ) فتقدَّمَ ذِكْرُ المؤمنين وسائرِ الأديانِ؛ فَقُدِّم ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لشرَفِهم وتعظيمًا لهم ولها، ثمَّ ذَكَر ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ ليُقَدِّمَ ذِكْرَ المؤمنين؛ لأنَّهم هم الَّذين تقدَّمَ ذِكْرُهم، وأمَّا في سُورةِ (النَّحلِ) فقد تقدَّمَ ذِكْرُ ما خلَقَ اللَّهُ على العُمومِ، ولم يكن فيه ذِكرُ الملائكةِ والرَّعدِ ولا الإنسِ بالتَّصريحِ؛ فاقتَضَتِ الآيةُ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فقال في كلِّ آيةٍ ما يناسِبُها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٦- ٢٨٧).

وقيل: إنَّ وُرودَ (مَن) في سُورةِ (الرَّعدِ) لا سُؤالَ فيه، فإنَّ قَبولَ الأوامِرِ وامتثالَ الطَّاعاتِ بالقصْدِ والاختيارِ بمَشيئةِ اللَّهِ سبحانه- إنَّما يكونُ مِن أصحابِ العُقولِ، وهم الملائكةُ والإنسُ والجِنُّ، وهم المَقْصودونَ في الآيةِ، فورَدَتْ بـ(مَن) الواقِعةِ على العُقلاءِ؛ لهذا قيل: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]؛ لأنَّ ذلك إنَّما يكونُ ويُسْتَوْضَحُ مِن العاقِلِ، فالآيةُ وارِدَةٌ على ما ينْبَغي. وأمَّا آيةُ (النَّحلِ) فمُراعًى فيها لفْظُ (دابَّة) الوارِدُ فيها؛ إذ هو عامٌّ للعاقِلِ وغيرِه، فورَدَتِ الآيةُ بـ(ما) الواقِعَةِ على الأنواعِ والأجناسِ مُناسِبَةً لِما تقدَّمَ مِن الإطلاقِ والعُمومِ[١].

- ومِن المُناسَبَةِ الحَسَنةِ أيضًا أنَّ في سُورةِ (النَّحلِ) زيادة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٤٩]، ولم يرِدْ ذلك هنا في سُورةِ (الرَّعدِ)؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ قولَه تعالى في آيةِ (النَّحلِ): ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تخصيصٌ لهم؛ لجَليلِ حالِهم، فعُيِّنوا بالذِّكْرِ مع دُخولِهم في العُمومِ المُتقدِّمِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، مع دُخولِهما تحتَ لفْظِ الملائكةِ. ثمَّ أَكَّدَ الوارِدَ في آيةِ (النَّحلِ) ما ورَدَ فيها مِن لفْظِ (دابَّة). ولم يُخَصَّصوا بالذِّكْرِ في آيةِ (الرَّعدِ)؛ لأنَّه لم يقَعْ هناك لفْظُ (دابَّة)، الَّذي هو الموجِبُ لِتَعْيينِ الملائكةِ وتخصيصِهم بالذِّكْرِ، فكلٌّ على ما يجِبُ ويُناسِبُ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾

- قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ حكايةٌ لاعترافِهم وتأْكيدٌ له عليهم؛ لأنَّه إذا قال لهم: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لم يكُنْ لهم بُدٌّ مِن أنْ يقولوا: اللَّهُ، كقولِه: ﴿قُلْ مَن

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٩).

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]، وهذا كما يقولُ المُناظِرُ لصاحبِه: أهذا قولُك؟ فإذا قال: هذا قولي، قال: هذا قولُك، فيَحكي إقرارَه؛ تقريرًا له عليه واستيثاقًا منه، ثم يقولُ له: فيلْزَمُك على هذا القولِ كَيْتَ وكَيْتَ. ويجوزُ أنْ يكونَ تلْقينًا، أي: إنْ كَفُّوا عنِ الجوابِ فلقِّنْهم، فإنَّهم يتلقَّنونَه، ولا يقدِرون أنْ يُنكِروه؛ فلأنَّه لَمَّا كان السُّؤالُ عن أمرٍ واضحٍ لا يمكِنُ أنْ يدفَعَ منه أحدٌ، كان جوابُه مِن السَّائلِ، فكانَ السَّبْقُ إليه أفصحَ في الاحتجاجِ إليهم وأسرعَ في قطْعِهم في انتظارِ الجوابِ منهم؛ إذ لا جوابَ إلَّا هذا الَّذي وقعَتِ المُبادرةُ إليه[(١)].

وقيل: لكونِ الاستفهامِ غيرَ حقيقيٍّ جاءَ جوابُه مِن قِبَلِ المُستفهِمِ، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، وهو مِن بَديعِ أساليبِه[(٢)].

- قولُه: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ استفهامٌ على سبيلِ التَّوبيخِ والإنكارِ[(٣)]. وفيه إعادةُ فِعْلِ الأمرِ بالقولِ ﴿قُلۡ﴾ الَّذي هو تفريعٌ على الإقرارِ بأنَّ اللَّهَ ربُّ السَّمواتِ والأرضِ؛ لقصْدِ الاهتمامِ بذلك التَّفريعِ؛ لِما فيه من الحُجَّةِ الواضِحةِ، فالاستفهامُ تقريرٌ وتوبيخٌ وتسفيهٌ لرأْيِهم بناءً على الإقرارِ المُسَلَّمِ[(٤)].

- قولُه: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ فيه وصْفُ الأولياءِ هاهنا بعدَمِ المالِكيَّةِ للنَّفعِ والضَّرِّ في ترشيحِ الإنكارِ وتأْكيدِه، كتقْييدِ الاتِّخاذِ بالجُملةِ الحاليَّةِ ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٣).

وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ فإنَّ كلًّا منهما ممَّا يَنْفي الاتِّخاذَ المَذْكورَ ويُؤكِّدُ إنكارَه(١).

- قولُه: ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فيه عطْفُ الضَّرِّ على النَّفعِ؛ استقصاءً في عجْزِهم؛ لأنَّ شأْنَ الضَّرِّ أنَّه أقربُ للاستطاعةِ وأسهلُ(٢).

- ونكَّرَ ﴿نَفْعًا﴾ ليعُمَّ، وقدَّمَه؛ لأنَّ السِّياقَ لطَلَبِهم منهم، والإنسانُ إنَّما يَطلُبُ ما ينفَعُه(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦]، وقال في سُورة (الفُرقانِ): ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: ٣]؛ فقُدِّمَ (النَّفعُ) على (الضَّرِّ) في سُورةِ الرَّعْدِ، وعُكِسَ ذلك في سُورةِ الفُرقانِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ (الفُرقانِ) قد عُطِفَ عليها بالواوِ المُشْرِكَةِ في الإعْرابِ والمعنى قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقُدِّمَ قبلَها ما عُطِفَت عليه بالواوِ أيضًا، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]؛ فقد اتَّفقَت هذه الجُمَلُ المَعْطوفاتُ في انطِواءِ كلِّ جُملةٍ منها على مُتَقابِلَيْنِ كالضِّدَّيْنِ، ففي الأُولى عدَمُ الخلْقِ في قولِه: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ﴾ مُقابِلًا للخلْقِ والحياةِ، وبُنِيَ مَجموعُها على تأْخيرِ أشرَفِ المُتَقابِلَيْنِ، ففي الأُولى الإشارةُ إلى الخلْقِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وكذا في الثَّانيةِ الضَّرُّ والنَّفعُ، والنَّفعُ أشرَفُ، وفي الثَّالثةِ الموتُ والحياةُ، والحياةُ أشرَفُ، فرُوعِيَ تَناسُبُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣١٢).

الآيِ على ما أوضَحْنا، فقُدِّمَ الضَّرُّ على النَّفعِ في آيةِ (الفُرقانِ). أمَّا آيةُ (الرَّعدِ) فلم يعرِضْ فيها ما يحمِلُ على ما ذُكِرَ مِن التَّناسُبِ، فجاءت مِن حيث أُفْرِدَت على ما يجِبُ مِن تقْديمِ النَّفعِ الَّذي هو مَطْلَبُ العاقِلِ، وكأنْ قد قيل فيها: إذا لم ينْفَعوا أنفُسَهم فكيف ينْفَعونَكم؟! ثمَّ أُتْبِعَ بما يكْمُلُ به التَّعريفُ بحالِ مَن اتَّخذوهم أولياءَ مِن أنَّها لا تضُرُّ ولا تنفَعُ، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ؛ فإنَّه لمَّا تقدَّمَ قبلَ الجُمَلِ المذْكورةِ في سُورةِ (الفُرقانِ) قولُه سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢]، ناسَبَ هذا مِن ذِكْرِ آلهَتِهم وَصْفُها بأنَّها لا تخلُقُ، فقيل: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]؛ ليحصُلَ مِن وَصْفِه سبحانه بأنَّه خالِقُ كلِّ شيءٍ، وأنَّ آلهَتَهم لا تخلُقُ شيئًا ما أفْصَحَ به مِن توبيخِهم وتقْريعِهم في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وتناسَبَ هذا أوضَحَ تناسُبٍ وأبْيَنَه، ولا يمكِنُ خلافُه، ثمَّ بُنِيَ عليه ما بعدَه لتَناسُبِ ذلك كلِّه، وحصَلَ منه أنَّ الوارِدَ في كلٍّ مِن السُّورتَيْنِ لا يمكِنُ فيه العَكْسُ بوجْهٍ(١).

- قولُه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ فيه إعادةُ الأمرِ بالقولِ؛ للاهتمامِ الخاصِّ بهذا الكلامِ؛ لأنَّ ما قبله إبطالٌ لاستحقاقِ آلهتِهم العبادةَ، وهذا إظهارٌ لِمَزيَّةِ المؤمنين باللَّهِ على أهلِ الشِّركِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ تضمَّنَ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ دعا إلى إفرادِ اللَّهِ بالرُّبوبيَّةِ، وأنَّ المُخاطَبين أثْبَتوا الرُّبوبيَّةَ للأصنامِ؛ فكانَ حالُهم وحالُه كحالِ الأعمى والبصيرِ وحالِ الظُّلماتِ والنُّورِ، ونفْيُ التَّسويةِ بين الحالينِ يتضمَّنُ تشبيهًا بالحالينِ، وهذا مِن صِيَغِ التَّشبيهِ البليغِ. و﴿أَمۡ﴾

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٧٩-٢٨٠).

للإضرابِ الانتقاليِّ في التَّشبيهِ[١].

- وفي قولِه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ اخْتِيرَ التَّشبيهُ في المُتَقابِلاتِ- العمى والبصَرِ، والظُّلمةِ والنُّورِ-؛ لتَمامِ المُناسبَةِ؛ لأنَّ حالَ المُشركين أصحابِ العَمَى كحالِ الظُّلمةِ في انعدامِ إدراكِ المُبْصَراتِ، وحالَ المؤمنين كحالِ البصَرِ في العِلْمِ، وكحالِ النُّورِ في الإرشادِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي﴾ فيه إظهارُ حرْفِ (هل) بعد (أم)؛ لأنَّ فيه إفادةَ تحقيقِ الاستفهامِ، وذلك ليس ممَّا تُغْني فيه دلالةُ (أم) على أصلِ الاستفهامِ[٣].

- قولُه: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: بل أجَعَلوا، ومعنى الهمزةِ الإنكارُ، وقولُه: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ صِفَةٌ لـ ﴿شُرَكَاءَ﴾ داخِلةٌ في حُكْمِ الإنكارِ؛ فالكلامُ بعدَ (أم) استفهامٌ حُذِفَت أداتُه؛ لدَلالةِ (أم) عليها[٤]، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ والتَّغليطِ، فتضمَّنَ هذا الاستفهامُ التَّهكُّمَ بهم؛ لأنَّه معلومٌ بالضَّرورةِ أنَّ هذه الأصنامَ وما اتَّخذوها مِن دونِ اللَّهِ أولياءَ، وجعَلوهم شُركاءَ- لا تقدِرُ على خلْقِ ذَرَّةٍ، ولا إيجادِ شيءٍ البتَّةَ[٥].

- قولُه: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ فيه الانتقالُ مِن خطابِهم إلى الإخبارِ عنهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١١٤- ١١٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٥).

غائبًا؛ إعراضًا عنهم، وتنبيهًا على تَوبيخِهم في جَعْلِ شُركاءَ للَّهِ، وتعجيبًا منهم، وإنكارًا عليهم، فالْتفَتَ عنِ الخطابِ إلى الغَيبةِ؛ إعراضًا عنهم؛ لِما مضى مِن ذِكرِ ضَلالِهم(١).

- قولُه: ﴿شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه تعريضٌ بِرَكاكَةِ رأْيِهم، وتَهَكُّمٌ بهم(٢)، والفرقُ بين التَّهكُّمِ والهَزْلِ الَّذي يُرادُ به الجِدُّ: أنَّ التَّهكُّمَ ظاهِرُه جِدٌّ وباطِنُه هَزْلٌ؛ لِمَجيئِه على سبيلِ الاستهزاءِ والسُّخريَةِ، هذا على ما تعارَفْناه بيننا، والهَزْلُ الَّذي يُرادُ به الجِدُّ ظاهِرُه هَزْلٌ وباطِنُه جِدٌّ، وفي قولِه تعالى: ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ في سِياقِ الإنكارِ تَهَكُّمٌ بهم؛ لأنَّ غيرَ اللَّهِ لا يخلُقُ خلْقًا البتَّةَ؛ لا بطريقِ المُشابَهةِ والمُساواةِ، ولا بطريقِ الانحطاطِ والقُصورِ، فقد كان يكْفي في الإنكارِ عليهم أنَّ الشُّركاءَ الَّتي اتَّخذوها لا تخلُقُ مُطلقًا، ولكنْ جاءَ قولُه تعالى: ﴿كَخَلۡقِهِۦ﴾؛ تهكُّمًا يَزيدُ الإنكارَ تأْكيدًا(٣).

- قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فَذْلَكَةٌ لِما تقدَّمَ ونتيجةٌ له؛ فإنَّه لمَّا جاءَ الاستفهامُ التَّوبيخيُّ في ﴿أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، وفي ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ كان بحيث يَنتجُ أنَّ أولئك الَّذين اتَّخذوهم شُركاءَ للَّهِ، والَّذين تبيَّنَ قُصورُهم عن أنْ يمْلِكوا لأنفُسِهم نفعًا أو ضرًّا، وأنَّهم لا يخلُقونَ كخَلْقِ اللَّهِ؛ إنْ هم إلَّا مخلوقاتٌ للَّهِ تعالى، وأنَّ اللَّهَ خالقُ كلِّ شيءٍ، وما أولئك الأصنامُ إلَّا أشياءُ داخِلةٌ في عُمومِ كلِّ شيءٍ، وأنَّ اللَّهَ هو المُتوَحِّدُ بالخلْقِ، القهَّارُ لكلِّ شيءٍ دونَه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١١٠- ١١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٥).

- قولُه: ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فيه حذْفُ مُتعلَّقِ هذينِ الاسمينِ؛ لِتَعَيُّنِ موضوعِ الوَحدةِ ومُتعلِّقِ القَهْرِ[1].

٣- قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

- هذا مَثَلٌ ضرَبَه اللَّهُ تعالى للحقِّ وأهلِه والباطِلِ وحزْبِه؛ فمثَّلَ الحقَّ وأهلَه بالماءِ الَّذي يُنزِلُه مِن السَّماءِ، فتَسيلُ به أوديةُ النَّاسِ، فيَحْيَونَ به وينفَعُهم أنواعَ المَنافِعِ، وبالفِلِزِّ[2] الَّذي ينتفِعونَ به في صَوْغِ الحُلِيِّ منه واتِّخاذِ الأواني والآلاتِ المُختلِفةِ، ولو لم يكُنْ إلَّا الحديدُ الَّذي فيه البأْسُ الشَّديدُ لَكَفى به، وأنَّ ذلك ماكِثٌ في الأرضِ، باقٍ بقاءً ظاهِرًا، يثبُتُ الماءُ في مَنافِعِه، وتَبْقى آثارُه في العُيونِ والبئارِ والجبوبِ، والثِّمارِ الَّتي تنبُتُ به ممَّا يُدَّخَرُ ويُكْنَزُ، وكذلك الجواهِرُ تَبْقى أزمنةً مُتطاولةً، وشبَّهَ الباطِلَ في سُرعةِ اضْمِحلالِه ووَشَكِ زَوالِه وانسلاخِه عنِ المَنفعَةِ بزَبدِ السَّيلِ الَّذي يُرْمَى به، وبزَبَدِ الفِلِزِّ الَّذي يطْفو فوقَه إذا أُذِيبَ[3].

- وفي قولِه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ جيءَ في هذا التسجيلِ بطريقةِ ضرْبِ المَثَلِ بحالَيْ فَريقينِ في تلقِّي شيءٍ واحدٍ انتَفَع فريقٌ بما فيه مِن منافِعَ، وتعلَّق فريقٌ بما فيه من مَضارَّ. وجِيء

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١١٦).

(٢) الفِلِزُّ: اسمٌ جامعٌ لجواهِرِ الأرضِ، مِنَ الذَّهَبِ، والفِضَّة، والصُّفْرِ، والنُّحاسِ وغيرِها. يُنظر: ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٢).

في ذلك التمثيلِ بحالةٍ فيها دَلالةٌ على بديعِ تَصرُّفِ الله تعالى؛ ليَحصُلَ التخلص مِن ذِكر دلائل القُدرةِ إلى ذِكر عِبَر الموعظةِ. وهذا تَشبيهٌ تمثيليٌّ (مُركَّب)، حيث شبَّهَ إنْزالَ القُرآنِ الَّذي به الهُدى مِن السَّماءِ بإنْزالِ الماءِ الَّذي به النَّفعُ والحياةُ مِن السَّماءِ، وشبَّهَ وُرودَ القُرآنِ على أسماعِ النَّاسِ بالسَّيلِ يمُرُّ على مُختلِفِ الجِهاتِ؛ فهو يمُرُّ على التِّلالِ والجبالِ فلا يستقِرُّ فيها، ولكنَّه يمْضي إلى الأوديةِ والوِهادِ فيأخُذُ منه كلٌّ بقدْرِ سَعَتِه، وتلك السِّيُولُ في حالِ نُزولِها تحمِلُ في أعالِيها زَبَدًا، وهو رَغْوَةُ الماءِ الَّتي تَرْبو وتَطْفو على سطْحِ الماءِ، فيذهَبُ الزَّبَدُ غيرَ مُنْتَفَعٍ به، ويبْقى الماءُ الخالِصُ الصَّافي ينتفِعُ به النَّاسُ للشَّرابِ والسَّقْيِ. ثمَّ شُبِّهَت هيئةُ نُزولِ الآياتِ وما تحْتَوي عليه مِن إيقاظِ النَّظَرِ فيها، فينتفِعُ به مَن دخَلَ الإيمانُ قُلوبَهم على مقاديرِ قُوَّةِ إيمانِهم وعمَلِهم، ويمُرُّ على قُلوبِ قومٍ لا يشعُرونَ به؛ وهم المُنكِرون المُعرِضون، ويُخالِطُ قُلوبَ قومٍ فيتأمَّلونَه، فيأْخُذونَ منه ما يُثِيرُ لهم شُبُهَاتٍ وإلحادًا. شبَّهَ ذلك كلَّه بهيئةِ نُزولِ الماءِ؛ فانحِدارُه على الجبالِ والتِّلالِ وسَيَلانُه في الأوديةِ على اختلافِ مقاديرِها، ثمَّ ما يدفَعُ مِن نفْسِه زَبَدًا لا يُنْتَفَعُ به، ثمَّ لم يلْبَثِ الزَّبَدُ أنْ ذهَبَ وفَنِيَ، والماءُ بَقِيَ في الأرضِ للنَّفعِ. ولمَّا كان المقصودُ التَّشبيهَ بالهيئةِ كلِّها جِيءَ في حِكايةِ ما تَرتَّبَ على إنْزالِ الماءِ بالعطْفِ بفاءِ التَّفريعِ في قولِه: ﴿فَسَالَتْ﴾ وقولِه: ﴿فَٱحْتَمَلَ﴾؛ فهذا تمْثيلٌ صالِحٌ لتَجْزِئةِ التَّشبيهاتِ الَّتي تَرَكَّبَ منها، وهو أبلَغُ التَّمثيلِ[1].

- ومِن مَحاسنِ البلاغةِ أيضًا في هذه الآيةِ: أنَّه شبَّهَ الحقَّ بِما يخلُصُ مِن جِرْمِ هذه المَعادِنِ مِن الأقْذارِ والخبَثِ ودَوامِ الانتفاعِ بها، وشبَّهَ الباطِلَ بالزَّبَدِ والمُجتمِعِ مِن الخبَثِ والأقْذارِ، ولا بقاءٌ له ولا قيمةٌ، وفصَّلَ ما سَبَقَ ذِكْرُه ممَّا يُنْتَفَعُ به ومِن الزَّبَدِ، فبدَأَ بالزَّبَدِ؛ إذ هو المُتأخِّرُ في قولِه: ﴿زَبَدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٦- ١١٧).

رَّابِيًا﴾، وفي قولِه: ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾. ولكونِ الباطِلِ كِنايةً عنه وُصِفَ مُتأَخِّرًا، وكأنَّه- واللَّهُ أعلمُ- يَبدَأُ في التَّفصيلِ بما هو أهمُّ في الذِّكْرِ. وأُفْرِدَ ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ بالذِّكْرِ ولم يُثَنَّ وإنْ تقدَّمَ زَبَدانِ؛ لاشتراكِهما في مُطلَقِ الزَّبَدِيَّةِ، فهما واحدٌ باعتبارِ القَدْرِ المُشْتَرَكِ[1].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ فيه حذْفُ المضافِ، والتقديرُ: مَثَلَ الحقِّ ومَثَلَ الباطِلِ؛ والحذْفُ للإنباءِ عن كَمالِ التَّماثُلِ بين المُمَثَّلِ والمُمَثَّلِ به؛ كأنَّ المَثَلَ المَضروبَ عينُ الحقِّ والباطِلِ، وبعدَ تحقيقِ التَّمثيلِ، مع الإيماءِ في تَضاعيفِ ذلك إلى وُجوهِ المُماثلَةِ على أبدَعِ وُجوهٍ وآنَقِها، وبيَّنَ عاقِبةَ كلٍّ مِن المُمَثَّلَيْنِ على وجْهِ التَّمثيلِ، مع التَّصريحِ ببعضِ ما به المُماثلَةُ مِن الذَّهابِ والبقاءِ؛ تَتِمَّةً للغرَضِ مِن التَّمثيلِ؛ مِن الحثِّ على اتِّباعِ الحقِّ الثَّابتِ، والرَّدعِ عنِ الباطِلِ الزَّائدِ، فقيل: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ ...﴾[2].

- وتنْكيرُ ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾؛ لأنَّ المطرَ يأْتي على تَناوُبٍ بين البِقاعِ، فيَسيلُ بعضُ أوديةِ الأرضِ دونَ بعضٍ[3].

- ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ وإيثارُ التَّمثيلِ بها على الأنهارِ المُستمِرَّةِ الجَرَيانِ؛ لوُضوحِ المُماثَلَةِ بين شأنِها وشأنِ ما مُثِّلَ بها[4].

- قولُه: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ سبَبُ ذِكْرِه أنَّه مِن مواضِعِ العِبرَةِ؛ وهو أنْ كانت أَخاديدُ الأوديةِ على قدْرِ ما تحتمِلُه مِن السِّيولِ بحيث لا تَفيضُ عليها، وهو غالِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤).

أحوالِ الأوديةِ، وهذا الحالُ مقصودٌ في التَّمثيلِ؛ لأنَّه حالُ انصرافِ الماءِ لنَفْعٍ لا ضُرَّ معه؛ لأنَّ مِن السِّيولِ جَواحِفُ تجرُفُ الزَّرعَ والبيوتَ والأنعامَ، وأيضًا هو دالٌّ على تَفاوُتِ الأوديةِ في مَقاديرِ المياهِ، ولذلك حظٌّ مِن التَّشبيهِ؛ وهو اختِلافُ النَّاسِ في قابِلِيَّةِ الانتفاعِ بما نزَلَ مِن عند اللَّهِ، كاختلافِ الأوديةِ في قَبولِ الماءِ على حسَب ما يسيلُ إليها مِن مَصابِّ السِّيولِ، وقد تمَّ التَّمثيلُ هنا[١]، وقوله أيضًا: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ هو من بابِ الاحتراسِ، أي: بمقدارِها الَّذي عرَف اللَّهُ أنَّه نافعٌ للممطورِ عليهم غيرُ ضارٍّ، وإلا فلو طمَا واستحالَ سيلًا لاجتاحَ الأخضرَ واليابسَ ولأهلَك الحَرْثَ والنَّسلَ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾ فيه تعريفُ ﴿ٱلسَّيۡلُ﴾؛ لأنَّه قد فُهِم مِن الفعل قَبْلَه، وهو قوله تعالى: ﴿فَسَالَتۡ﴾، وهو لو ذكر لكان نكرةً، فلمَّا أُعيدَ أُعيدَ معرفةً نحو: رأيتُ رجلًا فأكرمتُ الرَّجُلَ، وهكذا تطرد القاعدةُ في النَّكرةِ إذا أُعيدتْ[٣].

- وإنَّما وُصِفَ الزَّبَدُ بقولِه تعالى: ﴿رَّابِيٗا﴾، أي: عاليًا مُنتفِخًا فوقه؛ بيانًا لِما أُرِيدَ بالاحتمالِ المُحْتَمَلِ؛ لكونِ الحَمِيلِ غيرَ طافٍ كالأشجارِ الثَّقيلةِ، وإنَّما لم يُدْفَعْ ذلك الاحتمالُ بأنَّ يقالَ: (فاحْتَمَلَ السَّيْلُ فوقه)؛ للإيذانِ بأنَّ تلك الفوقيَّةَ مُقْتَضى شأْنِ الزَّبَدِ لا مِن جِهَةِ المُحْتَمِلِ؛ تحقيقًا للمُماثَلَةِ بينه وبين ما مُثِّلَ به مِن الباطِلِ الَّذي شأْنُه الظُّهورُ في بادي الرَّأْيِ مِن غيرِ مُداخلَةٍ في الحقِّ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٨)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٣).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١١٢ - ١١٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤).

- قولُه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ عِبارةٌ جامِعَةٌ لأنواعِ الفِلِزِّ، مع إظهارِ الكِبْرياءِ في ذِكْرِه على وجْهِ التَّهاوُنِ به كما هو شأنُ الملوكِ، وذلك أنَّ فيه عدولًا مِن الاسمِ إلى تصويرِ حالةٍ هي أحطُّ حالاتِ هذه الجواهِرِ، أي: هذه التي تعدُّونها أنفسَ الجواهِرِ، وتتَّخِذون منها الحليَّ، وتَتزيَّنون بها، هي هذه التي تُوقِدونَ عليها[١].

- والضَّميرُ في ﴿يُوقِدُونَ﴾ للنَّاسِ؛ أُضْمِرَ مع عدَمِ سَبْقِ الذِّكْرِ؛ لظُهورِه[٢].

- وفي زيادةِ ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ إشعارٌ بالمُبالَغَةِ في الاعتمالِ للإذابةِ، وحُصولِ الزَّبَدِ كما أُشيرَ إليه، وعدَمُ التَّعرُّضِ لإخراجِه مِن الأرضِ؛ لعدَمِ دَخْلِ ذلك العنوانِ في التَّمثيلِ، كما أنَّ لعنوانِ إنزالِ الماءِ مِن السَّماءِ دَخْلًا فيه حسبما فُصِّلَ فيما سلف، بل له إخلالٌ بذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، وهذا تمثيلٌ آخَرُ ورَدَ استطرادًا عَقِبَ ذِكْرِ نظيرِه، يُفيدُ تقريبَ التَّمثيلِ لقومٍ لم يُشاهِدوا سِيولَ الأوديةِ؛ فقرَّبَ إليهم تمثيلَ عدَمِ انتفاعِهم بما انتفَعَ به غيرُهم بمِثْلِ ما يُصْهَرُ من الذَّهبِ والفضَّةِ في البَواتِقِ[٤]؛ فإنَّه يقذِفُ زَبَدًا ينتَفي عنه وهو الخبَثُ، وهو غيرُ صالِحٍ لشيءٍ، في حين صَلاحِ مَعدنِه لاتِّخاذِه حِلْيَةً أو مَتاعًا، فالكلامُ من قَبيلِ تعدُّدِ التَّشبيهِ القريبِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٨/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٤-١٥).

(٤) البَواتق: جمْعُ بَوتقَة، وهي الْوِعَاء الَّذِي يُذابُ فيه الْمَعْدنُ؛ يُذيبُ فِيهِ الصَّائغُ ونَحْوُه من الصُّنَّاعِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ١٧٢)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١١٨- ١١٩).

- قولُه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ فيه تقْديمُ المُسنَدِ -وهو ﴿مِمَّا يُوقِدُونَ﴾- على المُسنَدِ إليه -وهو ﴿زَبَدٞ﴾- في هذه الجُملةِ؛ للاهتمامِ بالمُسنَدِ؛ لأنَّه موضِعُ اعتبارٍ أيضًا ببديعِ صُنْعِ اللَّهِ تعالى؛ إذ جعَلَ الزَّبَدَ يطْفو على أرَقِّ الأجسامِ -وهو الماءُ- وعلى أغلظِها -وهو المعدنُ- فهو ناموسٌ مِن نَواميسِ الخِلْقَةِ، فبالتَّقديمِ يقَعُ تَشْويقُ السَّامِعِ إلى ترقُّبِ المُسنَدِ إليه[١].

- وعدَلَ عن تسميَةِ الذَّهبِ والفضَّةِ إلى الموصوليَّةِ بقولِه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّها أخصَرُ وأجمَعُ، ولأنَّ الغرَضَ في ذِكْرِ الجُملةِ المَجْعولةِ صِلَةً، فلو ذُكِرَت بكيفيَّةٍ غيرِ صِلَةٍ -كالوصفيَّةِ مَثَلًا- لكانت بمنزِلَةِ الفَضْلَةِ في الكلامِ، ولَطالَ الكلامُ بذِكْرِ اسمِ المعدنَيْنِ مع ذِكْرِ الصِّلَةِ؛ إذ لا مَحيدَ عن ذِكْرِ الوَقودِ؛ لأنَّه سبَبُ الزَّبَدِ، فكان الإتيانُ بالموصولِ قضاءً لحقِّ ذِكْرِ الجُملةِ مع الاختصارِ البديعِ، ولأنَّ في العُدولِ عن ذِكْرِ اسمِ الذَّهبِ والفضَّةِ إعراضًا يُؤْذِنُ بقِلَّةِ الاكتراثِ بهما؛ ترفُّعًا عن وَلَعِ النَّاسِ بهما؛ فإنَّ اسمَيْهما قد اقترَنا بالتَّعظيمِ في عُرْفِ النَّاسِ[٢].

- وفائدةُ قولِه: ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ كالفائدةِ في قولِه: ﴿بِقَدَرِهَا﴾؛ لأنَّه جمَعَ الماءَ والفِلِزَّ في النَّفعِ في قولِه: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ لأنَّ المعنى: وأمَّا ما ينفَعُهم مِن الماءِ والفِلِزِّ؛ فذُكِرَ وجْه الانتفاعِ ممَّا يُوقَدُ عليه منه ويُذابُ، وهو الحِلْيَةُ والمَتاعُ[٣]، وذُكِرَ لإيضاحِ المُرادِ مِن الصِّلَةِ، ولإدماجِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٣).

ما فيه مِن مِنَّةِ تسخيرِ ذلك للنَّاسِ؛ لشِدَّةِ رغبتِهم فيهما[١]، وفي ذِكْرِ مُتعلِّقِ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ تنبيهٌ على مَنفعَةِ ما يوقِدونَ عليه[٢].

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ مُعترِضَةٌ، وهي فَذْلَكَةُ التَّمثيلِ ببَيانِ الغرَضِ منه، أي: مِثْلُ هذه الحالةِ يكونُ ضَرْبُ مَثَلٍ للحقِّ والباطِلِ، وقد عُلِمَ أنَّ الزَّبَدَ مَثَلٌ للباطِلِ، وأنَّ الماءَ مَثَلٌ للحقِّ، فارْتَقَى عندَ ذلك إلى ما في المَثَلَيْنِ مِن صِفتَيِ البقاءِ والزَّوالِ؛ ليتَوصَّلَ بذلك إلى البِشارةِ والنِّذارةِ لأهلِ الحقِّ وأهلِ الباطِلِ، فصارُ التَّشبيهُ تعريضًا وكِنايةً عنِ البِشارةِ والنِّذارةِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تغْييرُ تَرْتيبِ اللَّفِّ الواقعِ في الفذْلَكَةِ المُوافِقِ للتَّرتيبِ الواقعِ في التَّمثيلِ؛ لمُراعاةِ المُلاءمَةِ بين حالتَيِ الذَّهابِ والبقاءِ وبين ذِكْرَيْهما؛ فإنَّ المُعتبَرَ إنَّما هو بقاءُ الباقي بعد ذَهابِ الذَّاهِبِ لا قبْلَه[٤]؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ مُفرَّعَةً على التَّمثيلِ، وافتُتِحَت بـ ﴿فَأَمَّا﴾؛ للتَّوكيدِ، وصَرْفِ ذِهْنِ السَّامِعِ إلى الكلامِ لِما فيه مِن خَفِيِّ البِشارةِ والنِّذارةِ، ولأنَّه تَمامُ التَّمثيلِ[٥].

- وعبَّرَ عنِ الماءِ بـ ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو البَقاءُ في الأرضِ؛ تعريضًا للمُشركين بأنَّ يعرِضوا أحوالَهم على مَضمونِ هذه الصِّلَةِ، واكْتُفِيَ بذِكْرِ وجْهِ شَبَهِ النَّافعِ بالماءِ وغيرِ النَّافعِ بالزَّبَدِ عن ذِكْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٠- ١٢١).

وجْهِ شَبَهِ النَّافِعِ بالذَّهبِ أو الفضَّةِ وغيرِ النَّافِعِ بزَبَدِهما؛ استغناءً عنه(١).

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ مُسْتأْنَفَةٌ تَذْييليَّةٌ؛ لِما في لفْظِ ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ مِن العُمومِ، فهو أعمُّ مِن جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾؛ لدلالتِها على صِنْفٍ مِن المَثَلِ دون جميعِ أصنافِه، فلمَّا أعقَبَ بمَثَلٍ آخَرَ -وهو ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾- جيءَ بالتَّنبيهِ إلى الفائدةِ العامَّةِ من ضرْبِ الأمثالِ، وحصَلَ أيضًا توكيدُ جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾؛ لأنَّ العامَّ يندرِجُ فيه الخاصُّ. فالإشارةُ بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى التَّمثيلِ السَّابقِ في جُملةِ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، أي: مِثْلَ ذلك الضَّربِ البَديعِ يضرِبُ اللَّهُ الأمثالَ، وهو المقصودُ بهذا التَّذييلِ(٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ فيه تفخيمٌ لشأْنِ هذا التَّمثيلِ، وتأكيدٌ لقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾(٣)؛ فالإشارةُ بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّنويهِ بذلك المَثَلِ، وتنْبيهِ الأفهامِ إلى حِكْمتِه وحِكْمةِ التَّمثيلِ، وما فيه مِن المَواعظِ والعِبَرِ، وما جمَعَه مِن التَّمثيلِ والكِنايةِ التَّعريضيَّةِ، وإلى بَلاغةِ القُرآنِ وإعجازِه، وذلك تبهيجٌ للمؤمنِينَ وتَحدٍّ للمُشركِينَ، ولِيُعلمَ أن جُملةَ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾ لم يُؤْتَ بها لمُجَرَّدِ تشْخيصِ دَقائقِ القُدرةِ الإلهيَّةِ والصُّنْعِ البديعِ، بل ولضَرْبِ المَثَلِ؛ فيُعْلَمُ المُمَثَّلُ له بطريقِ التَّعريضِ بالمُشركين والمؤمنِينَ؛ فيكونُ الكلامُ قد تمَّ عندَ قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، كما في شأْنِ التَّذييلِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٢١- ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢١- ١٢٢).

- وفي هذه الآيةِ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بمُراعاةِ النظيرِ، وذلك في ألفاظِ (الماء) و(السيل)، و(الزبد) و(الرَّبو)، وفي ألفاظ (النَّار) و(الإيقاد)، و(الحِلية) و(المتاع)[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

- قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ ففي ذِكْرِ هذه الجُملةِ زيادةُ تنبيهٍ للتَّمثيلِ وللغرَضِ منه مع ما في ذلك مِن جَزاءِ الفريقينِ، وفي العُدولِ إلى الموصولينَ وصِلَتَيْهما في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الصِّلَتَيْنِ -الاستجابةَ، وعدَمَ الاستجابةِ- سببانِ لِما حصَلَ للفريقينِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تقْديمُ المُسنَدِ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ﴾؛ لأنَّه الأهمُّ؛ لأنَّ الغرَضَ التَّنويهُ بشأْنِ الَّذين استجابوا مع جَعْلِ الحُسْنى في مَرتبةِ المُسنَدِ إليه، وفي ذلك تنويهٌ بها أيضًا[٣]؛ فـ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مُبتدأٌ، وخبَرُه في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ﴾، و﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ مُبتدأٌ، خبَرُه ما بعدَه، وغايَرَ بين جُمْلتَيِ الابتداءِ؛ لِما يدلُّ عليه تقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ في الاعتِناءِ والاهتمامِ، أو مِن الاختصاصِ، على رأيٍ آخَرَ[٤]. وقيل: أُجْرِيَ الخبَرُ عن وعيدِ الَّذين لم يستجيبوا على أصْلِ نظْمِ الكلامِ في التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ لقِلَّةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١١٢ - ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٥).

الاكتِراثِ بهم[1].

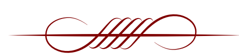
- وأيضًا قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾ فيه مِن تَهويلِ ما يلْقاهم ما لا يُحيطُ به البَيانُ؛ فالموصولُ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مُبتدأٌ، والشَّرطيَّةُ كما هي ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ خبَرُه، لكنْ لا على أنَّها وُضِعَت موضِعَ السُّوءَى، فوقَعَت في مُقابلةِ الحُسنى الواقِعَةِ في القَرينةِ الأُولى؛ لمُراعاةِ حُسْنِ المُقابلَةِ؛ فصارَ كأنَّه قيل: والَّذين لم يستجيبوا له السُّوءَى كما يُوهِمُ؛ فـ(إنْ) الشَّرطيَّةُ وإنْ دلَّت على كَمالِ سوءِ حالِهم، لكنَّها بمعزلٍ مِن القيامِ مَقامَ لفْظِ (السُّوءَى) مَصحوبًا باللَّامِ الدَّاخِلةِ على الموصولِ أو ضميرِه، وعليه يدورُ حُصولُ المَرامِ، وإنَّما الواقِعُ في تلك المُقابَلةِ ﴿سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾، وحيث كان اسمُ الإشارةِ الواقِعُ مُبتدأً في هذه الجُملةِ عِبارةً عنِ الموصولِ الواقعِ مُبتدأً في الجُملةِ السَّابقةِ، كان خبرُها -الجُملةُ الظَّرفيَّةُ- خبرًا عنِ الموصولِ في الحقيقةِ، ومُبيِّنًا لإبهامِ مضمونِ الشَّرطيَّةِ الواقِعَةِ خبرًا عنه أوَّلًا؛ ولذلك تُرِكَ العَطْفُ، فصارَ كأنَّه قيل: والَّذين لم يستجيبوا له لهم سوءُ الحِسابِ، وذلك في قوَّةِ أنْ يقالَ: وللَّذين لم يستجيبوا له سوءُ الحسابِ مع زيادةِ تأْكيدٍ؛ فتمَّ حُسْنُ المُقابَلةِ على أبلَغِ وجْهٍ وآكدِه[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾، وفي سُورةِ المائدةِ قال: ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣٦]؛ وذلك لأنَّ (لو) وجوابَها يتَّصِلانِ بالماضي، فقال في هذه السُّورةِ ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥-١٦).

بِهِۦٓ﴾، وجوابُه في المائدةِ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡ﴾ وهو بلفْظِ الماضي، وقولُه: ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ عِلَّةٌ وليس بجوابٍ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرِيَاءُ بِما بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الخبَرِ بسَبَبِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الصِّلةِ[٢].



(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٢-١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٢).

الآيات (١٩-٢٤)

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾
ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ
﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم
مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

غريبُ الكلماتِ:

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: العقولِ الزكيَّة، مفردُها لُبٌّ، وأصْل اللُّبِّ: الخُلُوص والجَوْدةُ، والشَّيء المُنتقَى(١).

﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾: الميثاق: عقدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، أو العهدُ المُحكَمُ، وأصله: العقدُ والإحكامُ(٢).

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾: أي: يَدفعونَ، وأصلُ (درأ): يدُلُّ على دفعِ الشَّيءِ(٣).

﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: أي: تصيرُ الجنَّةُ آخِرَ أمْرِهم، والعُقبَى: العاقِبةُ، وهي الشَّيءُ الذي يقَعُ عَقِبَ شَيءٍ آخَرَ، وقد اشتُهِرَ استِعمالُها في آخِرةِ الخيرِ، وأصلُ (عقب):

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٠).

يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غَيرِه[١].

﴿عَدْنٍ﴾: أي: إقَامَةٍ، واستقرارٍ، وثباتٍ، يُقَال: عدن بالمكانِ إذا أقامَ به، واستقرَّ، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مُبيِّنًا أنَّ المُهتدينَ والضَّالِّينَ لا يستوونَ، فيقولُ له: هل الذي يعلَمُ أنَّ ما جاءك- يا محمَّدُ- مِن عندِ اللهِ هو الحَقُّ فيؤمِنُ به، كالأعمى عن الحَقِّ الذي لم يؤمِنْ؟ إنَّما يتَّعِظُ وينتفعُ بما أنزلَه الله إليك مِن القرآنِ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ، الذين يوفونَ بالعهدِ الذي بينَهم وبينَ الله تعالى مِن الأوامرِ والنَّواهي، والعهدِ الذي بينَهم وبينَ النَّاسِ، ويستمرُّون على الوفاءِ به، فلا يقعُ منه نقضٌ له، وهم الذين يَصِلونَ كلَّ ما أمَرَهم اللهُ بوَصلِه، مِن الإيمانِ باللهِ والأرحامِ وغير ذلك، ويخافونَ رَبَّهم أن يُحاسِبَهم على كلِّ ذُنوبِهم، ولا يغفِرُ لهم منها شيئًا، وهم الذين صَبَروا؛ طلبًا لِرضا ربِّهم، وأدَّوا الصَّلاةَ على أتمِّ وُجوهِها، وأدَّوا مِن أموالِهم زكاتَهم المفروضةَ، والنَّفَقاتِ الواجِبةَ، في الخَفاءِ والعَلَن، ويَدفعونَ بالعَمَلِ الصَّالح السَّيئَ من الأعمالِ، أولئك الموصوفونَ بهذه الصِّفاتِ لهم العاقِبةُ المحمودةُ في الآخرةِ.

تلك العاقِبةُ هي جنَّاتُ عَدنٍ يُقيمونَ فيها لا يزولونَ عنها، ومعهم الصَّالِحونَ مِن الآباءِ والزَّوجاتِ والذُّرِّيَّاتِ؛ من الذُّكورِ والإناث، وتدخُلُ الملائِكةُ عليهم مِن كلِّ بابٍ؛ لتهنِئَتِهم بدُخولِ الجنَّة، تقولُ الملائكةُ لهم: سَلِمْتُم مِن كُلِّ سُوءٍ؛

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

بسبَبِ صَبرِكم في الدُّنيا، فنِعْمَ عاقبةُ الدَّارِ الجنَّةُ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا افترَقَ حالُ من أجاب ومَن أعرَضَ في الجزاءِ، وكان ما مضى مُستوفيًا طُرُقَ البَيانِ بإيضاحِ الأمرِ بالجُزئيَّاتِ والأمثلةِ مع التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، فكان جديرًا بترتيبِ الأثَرِ عليه- تسبَّبَ عنه الإنكارُ على مَن سَوَّى بين العالمِ العاملِ وغَيرِه؛ التفاتًا إلى قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وسَوَّى بين الحَقِّ والباطِلِ؛ التفاتًا إلى قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الرعد: ١٧] فحَسُنَ قَولُه[(١)]:

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾.

أي: أهذا الذي يعلَمُ أنَّ القُرآنَ الذي أنزَلَه اللهُ عليك -يا محمَّدُ- حَقٌّ لا شَكَّ فيه، فيؤمِنُ به ويتَّبِعُه- كالذي هو أعمَى القَلبِ، لا يعلَمُ ما أنزَلَ اللهُ في كِتابِه، ولا يفهَمُه ولا يتَّبِعُه؟! أفهذا كهذا؟! لا يستويانِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: إنَّما يتَّعِظُ بآياتِ اللهِ ويَعتَبِرُ بها أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ الصَّحيحةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ٢٠﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾.

أي: الَّذين يُوفُونَ بالعهدِ[2] الذي بينَهم وبينَ الله تعالى مِن الأوامرِ والنَّواهي، والعهدِ الذي بينَهم وبينَ النَّاسِ، كالوفاءِ بالعقودِ في المعاملاتِ، وأداءِ الأماناتِ إلى غير ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) قال الرازي: (اعلمْ أنَّ هذه الآيةَ هل هي مُتعلِّقةٌ بما قبلَها أم لا؟ فيه قولانِ:
القولُ الأوَّلُ: أنَّها متعلِّقةٌ بما قبلَها وعلى هذا التَّقديرِ ففيه وجهانِ: الأوَّلُ: أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ صفةً لأُولي الألبابِ. والثَّاني: أنْ يكونَ ذلك صِفَةً لقولِه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩].
والقولُ الثَّاني: أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ مُبتدأً: و﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ خَبرَه). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٣)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤).
وممن اختار العمومَ في معنَى العهدِ: السمرقندي، والرازي، وابنُ القيم، والشوكاني. يُنظر المصادر السابقة.
قال الرازي: (ويدخلُ فيه [أي: عهدِ الله] الإتيانُ بجميعِ المأموراتِ والانتهاءُ عن كلِّ المنهياتِ، ويدخلُ فيه الوفاءُ بالعقودِ في المعاملاتِ، ويدخلُ فيه أداءُ الأماناتِ، وهذا القولُ هو المختارُ الصحيحُ في تأويلِ الآيةِ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٣).
وقال محمد رشيد رضا: (وعهدُ اللهِ هنا يشملُ جَميعَ ما عَهِدَه إلى البشرِ مِنَ التَّكاليفِ سواءٌ كانَتْ بلفظِ العهدِ كقولِه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾.

أي: ولا يقعُ منهم نقضٌ لهذا العهدِ المؤكَّد، فهم مستمرُّون على الوفاءِ به(١).

الآيتينِ أوْ بلفظٍ آخَرَ -ومنه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٧] وأمثالِه مِنَ النِّداءِ في هذه السُّورةِ- ومِنَ الوصايا في السُّورةِ الَّتي قبلَها «الأنعام» كما يشملُ ما عاهَدوا اللهَ عليه بلفظِ العهدِ أوْ بدونِه، وما يُعاهِدُ بعضُهم بعضًا عليه بشروطِه، ومنها ألَّا يكونَ على شيءٍ محرَّم. ويدخلُ في العهدِ العامِّ ما أوجَبه مِنْ مُوالاةِ المؤمنينَ وحقوقِهم). ((تفسير المنار)) (١٠/ ١٠٤).

وقال ابنُ عاشور: (عهدُ الله مصدرٌ مضافٌ لمفعولِه، أي: ما عاهدوا الله على فعلِه، أو مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه، أي: ما عهِد الله به إليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٥-١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٩)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٩).

قال أبو حيان: (والظاهرُ أنَّ قولَه: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، جملةٌ توكيديةٌ لقولِه: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ العهدَ هو الميثاقُ، ويلزمُ مِن إيفاءِ العهدِ انتفاءُ نقيضِه). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٩).

قال الرَّازي: (قولُه: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ وفيه أقوالٌ:

القولُ الأوَّلُ: وهو قَولُ الأكثرينَ: أنَّ هذا الكلامَ قريبٌ مِنَ الوَفاءِ بالعَهد، فإنَّ الوفاءَ بالعهدِ قَريبٌ مِن عَدَمِ نَقضِ الميثاقِ والعَهدِ، وهذا مِثلُ أن يقولَ: إنَّه لمَّا وجب وجودُه لزِمَ أن يمتَنِعَ عَدَمُه؛ فهذان المَفهومانِ مُتغايرانِ إلَّا أنَّهما متلازمانِ، فكذلك الوفاءُ بالعَهدِ يَلزَمُه ألَّا يُنقَضَ الميثاقُ...

والقَولُ الثَّاني: أنَّ الميثاقَ ما وثَّقَه المُكَلَّفُ على نفسِه؛ فالحاصِلُ أنَّ قَولَه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما كَلَّف اللهُ العبدَ به ابتداءً، وقَولَه: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ إشارةٌ إلى ما التَزَمه العبدُ من أنواعِ الطَّاعاتِ بحسَب اختيارِه نفسِه، كالنَّذرِ بالطَّاعاتِ والخَيراتِ.

والقَولُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ بالوَفاءِ بالعَهدِ: عهدُ الرُّبوبيَّةِ والعبوديَّة، والمرادَ بالميثاقِ: المَواثيقُ المذكورةُ في التَّوراةِ والإنجيلِ وسائرِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ على وجوبِ الإيمانِ بنبُوَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم عند ظهورِه). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٣).

وقال القرطبي: (قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ يحتملُ أن يريدَ به جنسَ المواثيقِ، أي إذا عقَدوا في طاعةِ الله عهدًا لم ينقضوه. قال قتادةُ: تقدَّم الله إلى عبادِه في نقضِ الميثاقِ، ونهَى عنه في بضعٍ وعشرينَ آيةً، ويحتملُ أن يشيرَ إلى ميثاقٍ بعينِه، هو الذي أخَذه الله على عبادِه حين أخرَجهم مِن صُلبِ أبيهم آدمَ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٠٧-٣٠٨).

وقيل: هذا تعميمٌ بعد التَّخصيصِ؛ لأنَّه يدخُلُ تحتَ المِيثاقِ كُلُّ ما أوجَبَه العَبدُ على نَفسِه

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾.

أي: ومِن صفاتِ أُولي الألبابِ أنَّهم يَصِلونَ كُلَّ ما أمَرَ اللهُ بوَصلِه؛ مِن الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، وعبادتِه وَحدَه لا شريكَ له، وصلةِ الأرحامِ، وغيرِ ذلك[1].

كالنُّذورِ ونَحوِها، ويحتملُ أن يكونَ الأمرُ بالعَكسِ، فيَكونَ مِنَ التَّخصيصِ بعد التَّعميم، على أن يُرادَ بالعَهدِ جَميعُ عُهودِ الله، وهي أوامِرُه ونواهيه التي وصَّى بها عَبيدَه، ويَدخُلُ في ذلك الالتِزاماتُ التي يُلزِمُ بها العَبدُ نَفسَه، ويرادُ بالميثاقِ ما أخَذَه اللهُ على عبادِه حينَ أخرَجَهم مِن صُلبِ آدَمَ في عالَمِ الذَّرِّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤).

وممن ذهب إلى أنَّه تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ: الزمخشريُّ، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بـ ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: صِلةُ الأرحام: ابنُ جرير، وابنُ كثير، ونسَبه القرطبيُّ إلى أكثرِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٠).

وممن اختار العموم في الآية: القرطبيُّ، وابنُ القيم، والشوكاني، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((عدة الصابرين)) (ص: ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦) ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٧).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهِرٌ في صلةِ الأرحام، وهو قولُ قتادةَ وأكثرِ المفسِّرين، وهو معَ ذلك يتناولُ جميعَ الطاعاتِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٩).

وقال ابنُ القيم: (وصفَهم بأنَّهم يصِلون ما أمَرَ الله به أن يُوصلَ، ويدخلُ في هذا ظاهرُ الدين وباطنُه، وحقُّ الله، وحقُّ خلقه). ((عدة الصابرين)) (ص: ٢٩).

وقال السعدي: (وهذا عامٌّ في كلِّ ما أمر الله بوَصلِه، من الإيمان به وبرسولِه، ومحبَّتِه ومحبةِ رسوله، والانقيادِ لعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، ولطاعةِ رَسولِه، ويَصِلون آباءَهم وأُمَّهاتِهم...، ويَصِلون الأقاربَ والأرحامَ...، ويَصِلون ما بينَهم وبينَ الأزواجِ والأصحابِ والمماليك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

وقال ابنُ عاشور: (﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ عامٌّ في جميع الأواصِرِ والعلائقِ التي أمَرَ الله بالمودَّةِ والإحسانِ لأصحابِها؛ فمنها آصِرةُ الإيمانِ، ومنها آصِرةُ القرابةِ، وهي صِلةُ الرَّحِمِ،

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

أي: ويخشونَ رَبَّهم، إن خالفوا أوامِرَه فقَطَعوا ما أمَرَهم بوَصلِه[1].

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: ويخافونَ مُناقشةَ اللهِ لهم عن جميعِ أعمالِهم وعدمِ مَغفرةِ ذُنوبِهم[2].

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: والذين صبَروا على طاعةِ اللهِ وعن مَعاصيه، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، طَلبًا لِرضوانِه وثَوابِه[3].

وقد اتَّفَق المفسِّرونَ على أنَّها مُرادُ اللهِ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٧).

وقال الرسعني: (ويدخُلُ في عُمومِ قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وصْلُ قَرابةِ رَسولِ اللهِ- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وقَرابةِ المؤمنينَ الثَّابتةِ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. والمرادُ بصِلَتِهم: العَطفُ عليهم، والإحسانُ إليهم، والذبُّ عنهم بالحَقِّ، وإفشاءُ السَّلامِ عليهم، وزيارتُهم، والنَّصيحةُ لهم). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٧٢).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالَى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ لم يُبيِّنْ هنا هذا الَّذي أمَرَ به أنْ يُوصلَ، وقد أشارَ إلى أنَّ منه الأرحامَ بقولِه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. وأشارَ في موضعٍ آخرَ إلى أنَّ منه الإيمانَ بجميعِ الرُّسلِ، فلا يجوزُ قطعُ بعضِهم عن بعضٍ في ذلك بأنْ يُؤمنَ ببعضِهم دونَ بعضِهم الآخرِ. وذلك في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]). ((أضواء البيان)) (١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي))

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأدَّوُا الصَّلواتِ بأركانِها وشُروطِها، وواجِباتِها، في مَواقيتِها، خاشعينَ فيها[1].

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾.

أي: وأخرجوا الزَّكَواتِ المفروضةَ، والنَّفَقاتِ الواجِبةَ مِن الأموالِ التي رزَقناهم، فأعطَوها لمُستحِقِّيها في الخفاءِ وفي العَلَنِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

أي: ويدفعونَ بالعملِ الصالحِ السيِّئَ مِن الأعمالِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

قال الشوكاني: (والمرادُ بها الصلواتُ المفروضةُ، وقيل: أعمُّ مِن ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥١).

والمعنى المذكور- وهو أنَّ المرادَ بالإنفاقِ هنا: الإنفاقُ الواجبُ- هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ كثيرٍ.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠٩).

وقيل: المرادُ ما هو أعمُّ مِن ذلك، وممن ذهَب إلى ذلك الرسعني والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

وقال ابنُ عطيةَ: (﴿وَأَنفَقُواْ﴾ يريدُ به مواساةَ المحتاجِ، و«السر» هو فيما أُنفِق تطوعًا، و«العلانية» فيما أُنفِق مِن الزكاةِ المفروضةِ؛ لأنَّ التطوعَ كلَّه الأفضلُ فيه التكتمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠-٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

وممن ذهَب إلى العمومِ- وأن المعنى: يدفعونَ بالعملِ الصالحِ السيئَ مِن الأعمالِ فيدفعون الذنب بالتوبة وسيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه، إلى غير ذلك-: القرطبيُّ، والشوكاني. يُنظر: ((المصدران السابقان)).

قال القرطبيُّ: (﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعونَ بالعملِ الصالحِ السيئَ مِن الأعمالِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ). ثم ذكَر ثمانيةَ أقوالٍ أُخرَى، وقال: (فهذه تسعةُ أقوالٍ، معناها كلِّها متقاربٌ، والأوَّل يتناولُها بالعمومِ، ونظيرُه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٠-٣١١).

وقال الشوكاني: (﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفَعونَ سَيِّئةَ مَن أساء إليهم بالإحسانِ إليه، كما في قَولِه تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، أو يَدفَعونَ بالعَمَلِ الصَّالحِ العَمَلَ السَّيِّئَ، أو يَدفَعونَ الشَّرَّ بالخيرِ، أو المُنكَرَ بالمعروفِ، أو الظُّلمَ بالعَفوِ، أو الذَّنبَ بالتَّوبةِ، ولا مانِعَ مِن حَملِ الآيةِ على جميعِ هذه الأمورِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤).

وقال ابنُ القيمِ: (ثمَّ ذكَرَ حالَهم إذا جُهِلَ عليهم وأُوذوا أنَّهم لا يُقابلونَ ذلك بمِثلِه، بل يَدرَؤونَ بالحَسَنةِ السَّيِّئةَ، فيُحسِنونَ إلى مَن يُسيءُ إليهم، فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وقد فُسِّرَ هذا الدَّرءُ بأنَّهم يَدفَعونَ بالذَّنبِ الحَسَنةَ بَعدَه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «أتبِعِ السَّيِّئةَ الحَسَنةَ تَمْحُها»، والتَّحقيقُ أنَّ الآيةَ تَعُمُّ النَّوعينِ). ((عدة الصابرين)) (ص: ٣١).

وقيل: ويَدفَعونَ إساءةَ مَن أساء إليهم -بقَولِه أو فِعلِه- بالإحسانِ إليه، وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، وابنُ عطيةَ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابنِ عطية)) (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٦٣٧).

أي: أولئك -المؤمِنونَ الذين ذكَرْنا أوصافَهم- لهم في الآخِرةِ الجنَّةُ[١].

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾.

أي: لهم جَنَّاتُ مُكثٍ وإقامةٍ دائِمةٍ، يدخُلونَها هم والصَّالِحونَ مِن آبائِهم وأمَّهاتِهم وأزواجِهم وأولادِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾: لهم عاقبةُ الآخرةِ، وهي الجنةُ بدلَ النارِ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ. ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠).

وقيل: المراد: لهم عاقبةُ الدنيا وهي الجنةُ. وممن ذهب إلى هذا المعنى: الرسعني، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨٠).

قال ابنُ عطية: (قوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ يحتملُ أن يكونَ عُقْبَى دارِ الدنيا، ثم فسَّرَ العُقبى بقولِه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾؛ إذ العُقبى تعمُّ حالةَ الخيرِ وحالةَ الشرِّ، ويحتملُ أن يريدَ عُقْبَى دارِ الآخرةِ لدارِ الدنيا، أي: العقبى الحسنةُ في الدارِ الآخرةِ هي لهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٠).

وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ وهي العاقبةُ والنُّصرةُ في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٢).

أي: والملائِكةُ يَدخُلونَ على المؤمنينَ مِن كُلِّ بابٍ؛ للسَّلامِ عليهم، وتهنِئتِهم بدُخولِ الجنَّةِ(١).

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾.

أي: تقولُ الملائكةُ لأهلِ الجنَّةِ: سَلَّمَكم اللهُ- أيُّها المؤمِنونَ- من العذابِ والأهوالِ والشُّرورِ في الآخرةِ(٢)؛ بسبَبِ صَبرِكم في الدُّنيا، فنِعمَ عُقبى الدَّارِ الجنَّةُ(٣).

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم أنَّه قال: ((هل تدرونَ أوَّلَ مَن يدخُلُ الجنَّةَ مِن خَلقِ اللهِ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: أوَّلُ من يدخُلُ الجنَّةَ مِن خَلقِ اللهِ الفُقَراءُ المهاجِرونَ، الذين تُسَدُّ بهم الثُّغورُ، ويُتَّقى بهم المَكارِهُ، ويموتُ أحَدُهم وحاجتُه في صَدرِه لا يستطيعُ لها قَضاءً، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ لِمَن يشاءُ مِن ملائكتِه: ائتُوهم فحَيُّوهم، فتقولُ الملائكةُ: نحن سُكَّانُ سمائِك، وخِيرتُك مِن خَلقِك، أفتأمُرُنا أن نأتيَ هؤلاءِ فنُسَلِّمَ عليهم؟! قال: إنَّهم كانوا عبادًا يعبُدوني لا يُشرِكونَ بي شيئًا، وتُسَدُّ بهم الثُّغورُ، ويُتَّقى بهم المكارِهُ، يموتُ أحَدُهم وحاجتُه في صَدرِه، لا يستطيعُ لها قضاءً، قال: فتأتيهم الملائكةُ عند ذلك، فيدخُلونَ عليهم مِن كُلِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

(٢) قال القرطبي: (﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ أي: يقولون: سلامٌ عليكم، فأُضمِرَ القول، أي: قد سلمتُم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاءٌ لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي: سلَّمكم الله، فهو خبرٌ معناه الدعاء، ويتضمَّن الاعترافَ بالعبودية. ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ أي: بصبرِكم). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨).

بابٍ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾))[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ حقيقٌ بالعبدِ أن يتذكَّرَ ويتفكَّرَ أيُّ الفريقينِ أحسَنُ حالًا وخيرٌ مآلًا، فيُؤثِرُ طريقَه، ويَسلُكُ خَلفَه، ولكِنْ ما كلُّ أحدٍ يتذكَّرُ ما ينفَعُه ويضُرُّه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فيَصِلونَ ما بينهم وبينَ رَبِّهم بعبوديَّتِه وَحدَه لا شَريكَ له، والقيامِ بطاعتِه، والإنابةِ إليه والتوكُّلِ عليه، وحُبِّه وخَوفِه ورَجائِه، والتَّوبةِ إليه، والاستكانةِ له، والخُضوعِ والذِّلَّةِ له، والاعترافِ له بنِعمَتِه وشُكرِه عليها، والإقرارِ بالخَطيئةِ والاستغفارِ منها؛ فأمَرَ الله بهذه الأسبابِ التي بينه وبينَ عَبدِه أن تُوصَلَ، وأمَرَ أن نَصِلَ ما بيننا وبينَ رَسولِه بالإيمانِ به وتَصديقِه، وتَحكيمِه في كُلِّ شَيءٍ، والرِّضا لحُكمِه والتَّسليمِ له، وتقديمِ محبَّتِه على محبَّةِ النَّفسِ والولَدِ والوالِدِ والنَّاسِ أجمعينَ- صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه- وأمَرَ أن نَصِلَ ما بيننا وبين الوالِدَينِ والأقرَبينَ بالبِرِّ والصِّلةِ، وما بيننا وبينَ الزَّوجاتِ بالقيامِ بحُقوقِهنَّ، ومُعاشَرتِهنَّ بالمعروفِ، وأن نَصِلَ ما بيننا وبين الجارِ القَريبِ والبعيدِ بمُراعاةِ حَقِّه، وحِفظِه في نَفسِه ومالِه وأهلِه بما نحفَظُ به نفوسَنا وأهلينا وأموالَنا، وأن نَصِلَ ما بيننا وبين الرَّفيقِ في السَّفَرِ والحَضَرِ، وأن نَصِلَ ما بيننا وبين عُمومِ النَّاسِ بأن نأتيَ إليهم بما نحِبُّ أن يأتوه

---

(١) أخرجه أحمد في ((المسند)) (٦٥٧٠)، وعبد بن حميد في ((المنتخب)) (٣٥٢)، والبزار في ((المسند)) (٢٤٥٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٧٤٢١).
قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ١٣٦): رواتُه ثقاتٌ. وصحَّح إسنادَه الدمياطي في ((المتجر الرابح)) (٣٢٨)، وأحمد شاكر في ((المسند)) (١٠/ ٧٧)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).

إلينا؛ فهذا كلُّه مما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ[١].

٣- السببُ الذي يجعَلُ العبدَ واصِلًا ما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ: خَشيةُ اللهِ وخَوفُ يومِ الحسابِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أي: يخافونَه فيمنعُهم خوفُهم منه، ومن القدومِ عليه يومَ الحسابِ، أن يتجَرَّؤوا على معاصي اللهِ، أو يُقَصِّروا في شيءٍ ممَّا أمرَ اللهُ به؛ خوفًا مِن العقابِ ورجاءً للثَّوابِ[٢]، ولا يمكِنُ لأحدٍ قَطُّ أن يَصِلَ ما أمَرَ اللهُ بوَصلِه إلَّا بخَشيتِه، ومتى ترَحَّلَت الخشيةُ مِن القَلبِ، انقطَعَت هذه الوُصَلُ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، فلم يكتَفِ منهم بمجَرَّدِ الصَّبرِ، حتى يكونَ خالصًا لوجهِه سبحانَه[٤].

٥- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ ثمَّ ذكَرَ لهم ما يُعينُهم على الصَّبرِ، وهي الصَّلاةُ، فقال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذان هما العَونانِ على مصالحِ الدُّنيا والآخرةِ، وهما الصَّبرُ والصَّلاةُ؛ قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٥] [البقرة: ١٥٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ في التَّقييدِ بالصَّلاحِ قَطعٌ للأطماعِ الفارغةِ لِمَن يتمَسَّكُ بمُجَرَّدِ حَبلِ الأنسابِ[٦].

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٣٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الصَّبرَ عِمادُ الدِّينِ كُلِّه[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الفوزَ بالمطلوبِ المحبوبِ، والنَّجاةَ مِن المكروهِ المرهوبِ، ودخولَ الجَنَّةِ؛ إنَّما نالوه بالصَّبرِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ جمَع مقاماتِ الإسلامِ والإيمانِ كلَّها؛ حيث اشتَمَل على فِعلِ المأمورِ، وتركِ المحظورِ، والصَّبرِ على المَقدورِ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه إثباتُ الوجهِ لله عزَّ وجلَّ[4].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الدَّرجةَ تعلو بالشَّفاعةِ، وأنَّ الموصوفينَ بتلك الصِّفاتِ يقتَرِنُ بعضُهم ببعضٍ -لِما بينهم مِن القَرابةِ والوُصلةِ- في دُخولِ الجنَّةِ؛ زيادةً في أُنسِهم[5].

٤- الإكثارُ مِن تَردادِ رسلِ الملكِ أعظمُ في الفخرِ، وأكثرُ في السرورِ والعزِّ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٥٣).
(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٣١).
(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٩٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥٧).

قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾، ولمَّا كان إتيانُهم مِن الأماكنِ المعتادةِ- مع القدرةِ على غيرِها- أدلَّ على الأدبِ والكرمِ؛ قال تعالى: ﴿مِّن كُلِّ بَابٖ﴾[1].

٥- يجزئُ السَّلامُ مع حذفِ اللَّامِ، فلو قال القائلُ: «سلامٌ عليكم» أجزأَ؛ قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾، لكن باللامِ أولَى؛ لأنَّها للتفخيمِ والتكثيرِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مِن الملائكةِ ملائِكةً مُوَكَّلينَ بتحيَّةِ أهلِ الجنَّةِ[3].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ لَمَّا كان الصبرُ هو الذي نشأ عنه تلك الطَّاعاتُ السَّابقةُ؛ ذكَرَت الملائكةُ أنَّ النَّعيمَ السَّرمديَّ إنَّما هو حاصِلٌ بسبَبِ الصَّبرِ، ولم يأتِ التَّركيبُ بالإيفاءِ بالعَهدِ، ولا بغيرِ ذلك[4].

٨- لَمَّا كانت الجنَّةُ دارَ السَّلامةِ مِن كُلِّ عَيبٍ وشَرٍّ وآفةٍ، بل قد سَلِمَت مِن كُلِّ ما ينغِّصُ العَيشَ والحياةَ- كانت تحيَّةُ أهلِها فيها سَلامًا، والرَّبُّ يُحيِّيهم فيها بالسَّلامِ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[5] [الرعد: ٢٣- ٢٤].

٩- السَّلامُ شُرِعَ على الأحياءِ والأمواتِ بتقديمِ اسمِه على المُسلَّمِ عليهم؛ لأنَّه دُعاءٌ بخيرٍ، والأحسَنُ في دُعاءِ الخيرِ أن يتقَدَّمَ المدعوُّ به على المدعوِّ له،

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤).
(٣) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٣).
(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٥).

قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [هود: ٧٣]، وقولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]، وأمَّا الدُّعاءُ بالشَّرِّ فيُقدَّمُ فيه المدعوُّ عليه على المدعُوِّ به غالبًا، كقولِه تعالى لإبليسَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ [ص: ٧٨]، وقولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ [الحجر: ٣٥]، وقولِه: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ [التوبة: ٩٨]، وقولِه: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ [الشورى: ١٦]، وسِرُّ ذلك -والله أعلَمُ- أنَّ في الدُّعاءِ بالخيرِ قَدَّموا اسمَ الدُّعاءِ المحبوبِ الذي تشتهيه النُّفوسُ وتَطلُبُه، ويَلَذُّ للسَّمعِ لَفظُه، فيَبدأُ السَّمعُ بذِكرِ الاسمِ المحبوبِ المَطلوبِ، ويبدأُ القَلبُ بتصَوُّرِه، فيُفتَحُ له القَلبُ والسَّمعُ، فيبقى السَّامِعُ كالمُنتَظِرِ لِمَن يحصُلُ هذا، وعلى من يحُلُّ، فيأتي باسمِه فيقولُ: عليك أو لك، فيحصُلُ له من السُّرورِ والفَرَحِ ما يبعَثُ على التَّحابِّ والتَّوادِّ والتَّراحُمِ، الذي هو المقصودُ بالسَّلامِ، وأمَّا في الدُّعاءِ عليه ففي تقديمِ المدعوِّ عليه إيذانٌ باختصاصِه بذلك الدُّعاءِ، وأنَّه عليه وَحدَه، كأنَّه قيل له: هذا عليك وَحدَك لا يَشرَكُك فيه السَّامِعونَ، بخلافِ الدُّعاءِ بالخيرِ؛ فإنَّ المطلوبَ عُمومُه، وكلَّما عَمَّ به الدَّاعي كان أفضَلَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ...﴾ الآيةَ؛ فالكلامُ لنَفْيِ استواءِ المؤمنِ والكافرِ في

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧٤).

صورةِ الاستفهامِ؛ تنبيهًا على غَفلةِ الضَّالينَ(١).

- ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيه قصْرٌ بـ (إنَّما)، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، أي: لا غيرُ أُولي الألبابِ؛ فهو تعريضٌ بالمُشركين بأنَّهم لا عقولَ لهم؛ إذ انتفَت عنهم فائدةُ عُقولِهم(٢).

- قولُه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ فيه دُخولُ همزةِ الإنكارِ على الفاءِ ﴿أَفَمَن﴾؛ لإنكارِ أنْ تقعَ شُبهَةٌ في تشابُهِهما بعدما ضُرِبَ مِن المَثَلِ، في أنَّ حالَ مَن عَلِمَ أنَّما أُنْزِلَ إليك مِن ربِّك الحقُّ فاستجابَ، بمعزلٍ مِن حالِ الجاهلِ الَّذي لم يستبْصِرْ فيستجيبَ، كبُعْدِ ما بين الزَّبَدِ والماءِ، والخَبَثِ والإبريزِ(٣)؛ فإيرادُ الفاءِ بعد الهمزةِ لتَوجيهِ الإنكارِ إلى ترتُّبِ توهُّمِ المُماثلَةِ على ظُهورِ حالِ كلٍّ منهما بما ضُرِبَ مِن الأمثالِ وبين المصيرِ والمآلِ، كأنَّه قيل: أبعدما بُيِّنَ حالُ كلٍّ مِن الفريقينِ ومآلُهما يُتَوَهَّمُ المُماثلَةُ بينهما(٤)؟!

- قولُه: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾، أي: كمَن لا يعلَمُ ذلك، إلَّا أنَّه أُريدَ زيادةُ تقْبيحِ حالِه فعُبِّرَ عنه بالأعْمى(٥)، وقيل: شَبَّه الكافِرَ والجاهِلَ بالأعمَى؛ لأنَّ الأعمَى لا يهتدي لرُشدٍ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٨).
الخَبَثُ: ما تنفيه النَّارُ مِن رديءِ الفِضَّةِ والحَديدِ وغيرهما. يُنظر: ((غريب الحديث)) للقاسم ابن سلام (٢/ ١٩٢).
والإبريزُ: الذَّهَبُ الخالِصُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥٥).

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ فيه إعادةُ اسمِ الموصولِ وما عُطِفَ عليه مِن الأسماءِ الموصولةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ صِلاتِها خِصالٌ عظيمةٌ تقْتَضي الاهتمامَ بذِكْرِ مَن اتَّصَفَ بها، ولدفْعِ تَوَهُّمِ أنَّ عُقْبى الدَّارِ لا تتحقَّقُ لهم إلَّا إذا جمَعوا كلَّ هذه الصِّفاتِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ جُملةٌ توكيديَّةٌ لقولِه: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ العهدَ هو الميثاقُ، ويلزَمُ مِن إيفاءِ العهدِ انتفاءُ نَقيضِه[2]. وقيل: قولُه: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ تعميمٌ بعد تخصيصٍ، وفيه تأْكيدٌ للاستمرارِ المفهومِ مِن صِيغَةِ المُستقبَلِ[3]؛ فالميثاقُ يستغرِقُ جميعَ المَواثيقِ، وبذلك يكونُ أعمَّ مِن (عهدِ اللَّهِ)، فيشمَلُ المواثيقَ الحاصِلةَ بين النَّاسِ مِن عُهودٍ وأَيْمانٍ، وباعتبارِ هذا العُمومِ حصَلَت مُغايرةٌ ما بينه وبين عَهْدِ اللَّهِ، وتلك هي مُسَوِّغَةُ عطْفِ ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ على ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ مع حُصولِ التَّأْكيدِ لمعنى الأُولى بنَفْيِ ضِدِّها، وتعريضًا بالمُشركين؛ لاتِّصافِهم بضِدِّ ذلك الكَمالِ؛ فعطْفُ التَّأكيدِ باعتبارِ المُغايرةِ بالعُمومِ والخُصوصِ[4].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ...﴾ فيه إطنابٌ في التَّعبيرِ عنِ الرَّحِمِ- على أحدِ القولينِ في التفسيرِ- بطريقةِ اسمِ الموصولِ ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٦).

بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾؛ لِما في الصِّلةِ مِن التَّعريضِ بأنَّ واصِلَها آتٍ بما يُرْضي اللَّهَ؛ لينتَقِلَ مِن ذلك إلى التَّعريضِ بالمُشركين الَّذين قطَعوا أواصِرَ القَرابةِ بينهم وبين رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن معه مِن المؤمنين، وأساؤوا إليهم في كلِّ حالٍ، وكتَبوا صحيفةَ القَطيعَةِ مع بَني هاشمٍ[١].

- قولُه: ﴿أَن يُوصَلَ﴾ جيءَ بهذا النَّظْمِ؛ لزيادةِ تقْريرِ المقصودِ- وهو الأرحامُ- بعد تقريرِه بالموصوليَّةِ[٢]، وذلك على أحدِ وجهي التفسيرِ. وقيل: قال: ﴿بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ دونَ (بوَصلِه)؛ ليكونَ مأمورًا بوَصلِه مرَّتينِ، ويُفيدَ تجديدَ الوَصلِ -كُلَّما قطَعَه قاطِعٌ- على الاستمرارِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ لمَّا كان الصَّبرُ على الوجْهِ المذْكورِ مِلاكَ الأمرِ في كلِّ ما ذُكِرَ مِن الصِّلاتِ السَّابقةِ واللَّاحِقةِ: أُورِدَ على صِيغَةِ الماضي؛ اعتناءً بشأْنِه، ودلالةً على وُجوبِ تحقُّقِه؛ فإنَّ ذلك ممَّا لا بُدَّ منه؛ إمَّا في نفْسِ الصِّلاتِ، كما فيما عَدَا الأُولى والرَّابعةِ والخامسةِ، أو في إظهارِ أحكامِها، كما في الصِّلاتِ الثَّلاثِ المَذْكوراتِ؛ فإنَّها وإنِ استغْنَت عنِ الصَّبرِ في أنفُسِها حيث لا مَشَقَّةَ على النَّفْسِ في الاعترافِ بالرُّبوبيَّةِ والخشيَةِ والخوفِ، لكنْ إظهارُ أحكامِها والجرْيُ على مُوجبِها غيرُ خالٍ عنِ الاحتياجِ إليه[٤]، ففيه مجيءُ الصِّلَةِ هنا بلفْظِ الماضي، وفي المُوصِلين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧).

قبْلَ ذلك بلفْظِ المُضارِعِ في قولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ ﴾، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾، وما عُطِفَ عليهما؛ على سبيلِ التَّفنُّنِ في الفَصاحةِ؛ لأنَّ المُبتدأَ هنا في معنى اسمِ الشَّرطِ بالماضي كالمُضارِعِ في اسمِ الشَّرطِ، فكذلك فيما أشبَهَه، وأيضًا اختصاصُ هذه الصِّلةِ بالماضي وتَيْنِك بالمُضارِعِ؛ لأنَّ تَيْنِكَ الصِّلَتَيْنِ قُصِدَ بهما الاستصحابُ والالتباسُ دائمًا، وهذه الصِّلَةُ قُصِدَ بها تقدُّمُها على تَيْنِكَ الصِّلَتَيْنِ وما عُطِفَ عليهما؛ لأنَّ حُصولَ تلك الصِّلاتِ إنَّما هي مُترتِّبَةٌ على حُصولِ الصَّبرِ وتقدُّمِه عليها؛ ولذلك لم تأتِ صلتُه في القُرآنِ إلَّا بصِيغَةِ الماضي؛ إذ هو شَرطٌ في حُصولِ التَّكاليفِ وإيقاعِها. واللَّهُ أعلمُ[١]. وقيل: جاءتِ الصِّلاتُ ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ وما عُطِفَ عليهما بصيغةِ المُضارِعِ في تلك الأفعالِ الخمسةِ؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ كِنايةً عنِ الاستمرارِ، وجاءت صِلَةُ ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ وما عُطِفَ عليها- وهو ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ ﴾- بصيغةِ المُضِيِّ؛ لإفادةِ تحقُّقِ هذه الأفعالِ الثَّلاثةِ لهم وتمكُّنِها من أنفُسِهم؛ تنويهًا بها؛ لأنَّها أُصولٌ لفضائلِ الأعمالِ[٢].

- قولُه: ﴿صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فيه احتِراسٌ، حيث انْتَفَى بقولِه: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أنْ يكونَ صبْرُهم ناشِئًا عن حُبِّ الجاهِ والشُّهرةِ، أو ليقالَ: ما أصبَرَه، وأحمَلَه للنَّوازِلِ، وأوْقَرَه عند الزَّلازِلِ! لئلا يشمَتَ به الأعداءُ[٣]!

- في قولِه: ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أفرَدَ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بالذِّكرِ، وإن كانتا داخِلَتينِ في الجُملةِ الأولى؛ تنبيهًا على كونِهما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١١٧).

أشرَفَ مِن سائرِ العباداتِ[١]. وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه نبَّهَ على هاتينِ الخَصْلَتَيْنِ: العِبادةِ البَدَنيَّةِ، والعِبادةِ الماليَّةِ؛ إذ هما عَمودُ الدِّينِ، والصَّبرُ عليهما أعظَمُ صبْرٍ؛ لِتكرُّرِ الصَّلواتِ، ولِتعلُّقِ النُّفوسِ بحُبِّ تحصيلِ المالِ[٢].

- قولُه: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ فيه تقْديمُ المجرورِ ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ على المنْصوبِ ﴿السَّيِّئَةَ﴾؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بالحَسَنةِ[٣].

- وفيه إعادةُ أُسلوبِ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ في المعطوفِ على الصِّلَةِ وهو قولُه: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾؛ لاقتضاءِ المَقامِ إفادةَ التَّجدُّدِ؛ إيماءً إلى أنَّ تجدُّدَ هذا الدَّرْءِ ممَّا يُحْرَصُ عليه؛ لأنَّ النَّاسَ عُرْضَةٌ للسَّيِّئاتِ على تفاوُتٍ، فوصَفَ لهم دواءَ ذلك بأنْ يدْرَؤوا السَّيِّئاتِ بالحَسَناتِ[٤].

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ دلَّ اسمُ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ على أنَّ المُشارَ إليهم جَديرونَ بالحُكْمِ الوارِدِ بعد اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ ما وُصِفَ به المُشارُ إليهم مِن الأوصافِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ قُدِّمَ المجرورُ على المُبتدأِ؛ للدَّلالةِ على القصْرِ، أي: لهم عُقْبى الدَّارِ لا للمُتَّصِفينَ بأَضْدادِ صِفاتِهم، فهو قصْرٌ إضافيٌّ[٦].

٥- قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٠- ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٣٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ؛ وهي حالٌ مِن ﴿جَنَّٰتُ﴾، أو مِن ضميرِ ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، والمقصودُ مِن ذِكْرِها استحضارُ الحالةِ البَهيجَةِ[١].

- قولُه: ﴿يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ وذِكْرُ ﴿مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ كِنايةٌ عن كثْرَةِ غِشْيانِ الملائكةِ إيَّاهم، بحيث لا يخْلو بابٌ مِن أبوابِ بيوتِهم لا تدخُلُ منه ملائكةٌ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾

- قولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ فيها بِشارةٌ بِدَوامِ السَّلامةِ[٣]؛ حيث عُبِّرَ بالجُملةِ الاسميَّةِ.

- قولُه: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ تفريعُ ثناءٍ على حُسنِ عاقِبتِهم، والمخصوصُ بالمدْحِ محذوفٌ؛ لدلالةِ مَقامِ الخِطابِ عليه، والتَّقديرُ: فنِعْمَ عُقْبى الدَّارِ دارُ عُقْباكم[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٢).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿يَبۡسُطُ﴾: أي: يُوسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[١].

﴿وَيَقۡدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، يقال: قَدَرْتُ عليه الشيءَ: إذا ضيَّقتَه، كأنَّما جعلتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه[٢].

﴿مَتَٰعٞ﴾: أي: متعةٌ، وانتفاعٌ، وأصل (متع): المنفعةُ وامتدادُ مدَّةٍ في خيرٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

بعد أنْ ذكَرَ اللهُ تعالى صِفاتِ أولئك الأوفياءِ، وما أعدَّ لهم مِن ثوابٍ جَزيلٍ؛ أتبَعَ ذلك بوَصفِ الأشقياءِ، وبيَّنَ أنَّهم الذين لا يُوفونَ بعَهدِ اللهِ مِن بعدِ ما أكَّدوا التزامَهم به، وقَبولَهم له، وهم الذين يَقطَعونَ ما أمَرَهم اللهُ بوَصلِه، ويُفسِدونَ في الأرضِ، أولئك الموصوفونَ بهذه الصِّفاتِ السيئةِ لهم اللعنةُ، ولهم ما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

يَسوءُهم في الدَّارِ الآخرةِ مِن العذابِ.

اللهُ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يشاءُ مِن عِبادِه، ويُضيِّقُه على مَن يشاءُ منهم، وفَرِحَ الكُفَّارُ بنعيمِ الحياةِ الدُّنيا فَرَحَ بَطَرٍ وطُغيانٍ، وما نعيمُ هذه الحياةِ الدُّنيا بالنِّسبةِ للآخرةِ إلَّا شَيءٌ قليلٌ يُتمتَّعُ به، سُرعانَ ما يزولُ. ويقولُ الكُفَّارُ: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزةٌ مِن رَبِّه؛ لنؤمِنَ برِسالتِه. قلْ لهم: إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويَهدي إليه مَن رجَعَ وتاب، وليس ضلالُ مَن يضِلُّ لعدمِ نزولِ آيةٍ، ولا هدايةُ مَن يهتدي بسببِ إنزالِها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى صِفاتِ السُّعَداءِ، وذكَرَ ما ترتَّبَ عليها مِن الأحوالِ الشَّريفةِ العاليةِ؛ أتبَعَها بذِكرِ حالِ الأشقياءِ، وذِكرِ ما يترتَّبُ عليها من الأحوالِ المُخْزيةِ المكروهةِ، وأتبعَ الوَعدَ بالوعيدِ، والثَّوابَ بالعقابِ؛ ليكونَ البيانُ كامِلًا[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾.

أي: والذين لا يُوفونَ بعهدِ الله، مِن بعدِ تأكيدِه عليهم، وتغليظِه، وتوثيقِه، إنما يقابلونَه بالإعراضِ والنقضِ[2].

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٣). ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآيةِ رقم (٢٠).
قال السمعاني: (وهذا واردٌ في الكفَّارِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٩١).

أي: ويَقطعونَ ما أمَرَ اللهُ بوَصلِه؛ من الإيمانِ والعمَلِ الصَّالِحِ، والأرحامِ[١].

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: ويُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ[٢].

﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

أي: أولئك لهم الطَّردُ والإبعادُ مِن رَحمةِ اللهِ، ولهم ما يَسوءُهم في جهنَّمَ[٣].

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكَمَ اللهُ تعالى على من نقَضَ عَهدَه في قَبولِ التَّوحيدِ والنبُوَّةِ بأنَّهم ملعونونَ في الدُّنيا، ومُعَذَّبونَ في الآخرةِ، فكأنَّه قيل: لو كانوا أعداءَ اللهِ، لَمَا فتَحَ اللهُ عليهم أبوابَ النِّعَمِ واللَّذَّاتِ في الدُّنيا! فأجاب اللهُ تعالى عنه بهذه الآيةِ، وهو أنَّه يبسطُ الرزقَ على البعضِ، ويضيِّقُه على البعضِ، ولا تعلُّقَ له بالكفرِ والإيمانِ، فقد يوجدُ الكافرُ موسَّعًا عليه دونَ المؤمنِ، ويوجدُ المؤمنُ مضيَّقًا عليه دونَ الكافرِ، فالدُّنيا دارُ امتحانٍ[٤]، فقال:

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

(٢) يُنظر: المصادر السابقة.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٨).

أي: اللهُ وَحدَه هو الذي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يشاءُ، ويُضَيِّقُ الرِّزقَ على من يَشاءُ، بحسَبِ ما تَقتضيه حِكمتُه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وفَرِحَ الكُفَّارُ- الذين وسَّعَ اللهُ أرزاقَهم- بنعيمِ الحياةِ الدُّنيا فَرَحَ بَطَرٍ وطُغيانٍ، وغَفَلوا عن الآخرةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧- ٨].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

أي: وما نعيمُ الحياةِ الدُّنيا في جَنبِ نَعيمِ الآخرةِ إلَّا شَيءٌ حَقيرٌ، وتمتعٌ ضئيلٌ لا قيمةَ له، سرعانَ ما ينقضي ويزولُ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال سُبحانه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٤، ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٥).

.[٣٨

وعن المُستَورِد رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((والله ما الدُّنيا في الآخرةِ إلاَّ مِثلُ ما يجعَلُ أحَدُكم إصبَعَه هذه في اليَمِّ[١]، فلْينظُرْ بم ترجِعُ؟))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الدُّنيا مَتاعٌ، وخَيرُ مَتاعِ الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ))[٣].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى طَعْنَهم فى نبُوَّةِ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِقَولِه بالحَشرِ والمعادِ، ثمَّ طعْنَهم فيه؛ لأنَّه أنذَرَهم بحلولِ عَذابِ الاستِئصالِ؛ ذكَرَ أنَّهم طَعَنوا فيه؛ لأنَّه لم يأتِ لهم بمُعجزةٍ مُبَيِّنةٍ، كما فعل الرُّسُلُ مِن قَبلِه، فقال تعالى[٤]:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

أي: ويقولُ الكُفَّارُ من قَومِك- يا محمَّدُ-: هلَّا أُنزِلَ على مُحمَّدٍ مُعجِزةٌ مِن رَبِّه؛ حتى نؤمِنَ بأنَّه رَسولُ اللهِ[٥].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا * أَوۡ

---

(١) اليَمُّ: البَحرُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٣) رواه مسلم (١٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٣/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾.

أي: قُلْ - يا محمَّدُ - لِقَومِك الذين يقترِحونَ عليك إنزالَ آيةٍ: إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عِبادِه فيَخذُلُه عن الإيمانِ بي، ويهدي إليه[1] من رجَعَ وتاب فيُوَفِّقُه لاتِّباعي، وليس ضلالُ مَن يضِلُّ منكم لأنَّه لم تنزِلْ عليَّ آيةٌ مِن ربِّي وفقَ ما تقترحونَ، ولا هدايةُ مَن يهتدي منكم بسببِ إنزالِها عليَّ، وإنما ذلك بيدِ اللهِ وحدَه[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشورى: ١٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١ - في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ التَّحذيرُ مِن قطيعةِ الرَّحِمِ؛ فإنَّها سببٌ لِلَعنةِ اللهِ وعقابِه[3].

٢ - قول الله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الفرحَ بالدُّنيا حرامٌ منهيٌّ عنه[4]، وهو مَذمومٌ مُطلقًا؛ لأنَّه نَتيجةُ

---

(١) قال القرطبي: (الهاءُ في {إِلَيْهِ} للحقِّ، أوْ للإسلامِ، أوْ لله عزَّ وجلَّ، على تقديرِ: ويَهْدي إلى دينِه وطاعتِه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (٧/ ٥٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن عادل))

حُبِّها، والرِّضا بها، والذُّهولِ عن ذَهابِها[١]، أمَّا الفَرَحُ بها لِكَونِها وَسيلةً إلى أمرٍ مِن أمورِ الآخرةِ فغَيرُ مذمومٍ[٢]، فالمذمومُ هو الفَرَحُ بالدُّنيا المحضةِ، والأَشَرُ والبَطَرُ، وهذا هو الذي ذَمَّ اللَّهُ به الإنسانَ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[٣] [هود: ١٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الآياتِ التي يَقترِحُها الكُفَّارُ لِيُؤمِنوا؛ لا تُوجِبُ هِدايةً، وإنَّما اللهُ هو الذي يهدي ويُضِلُّ[٤].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، وفيه سؤالٌ: كيفَ طابَق هذا الجوابُ قولَهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ﴾؟

الجوابُ: أنَّ المعنى: قلْ لهم: إنَّ الله أنزَل عليَّ آياتٍ ظاهرةً، ومعجزاتٍ قاهرةً، لكنِ الإضلالُ والهدايةُ مِن الله، فأضلَّكم عن تلك الآياتِ، وهدَى إليها آخرينَ، فلا فائدةَ في تكثيرِ الآياتِ والمعجزاتِ.

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه كلامٌ جرَى مجرَى التعجبِ مِن قولِهم؛ لأنَّ الآياتِ الباهرةَ المتكاثرةَ، التي ظهَرت على يدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كانت أكثرَ مِن أن تشتبِهَ على العاقلِ، فلمَّا طلبوا بعدَها آياتٍ أُخَرَ، كان محل التعجبِ والإنكارِ، فكأنَّه قيل لهم: ما أعظمَ عنادَكم!! إنَّ اللهَ يضلُّ مَن يشاءُ، كمَن كان

(١١/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٨).

على صنيعِكم، مِن التصميمِ على الكفرِ، فلا سبيلَ إلى هدايتِكم، وإن أُنزلتْ كلُّ آيةٍ! ويهدي مَن كان على خلافِ صنيعِكم(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ زِيادةُ ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ للزِّيادةِ في تَشنيعِ النَّقضِ، أي: مِن بعدِ توثيقِ العهدِ وتأْكيدِه(٢)، و﴿مِنْ﴾ مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿يَنْقُضُونَ﴾، وهي لابتداءِ الغايةِ، ويدلُّ على أنَّ النَّقضَ حصَلَ عَقِيبَ توثُّقِ العهدِ مِن غيرِ فَصْلٍ بينهما، وفي ذلك دليلٌ على عدَمِ اكْتِراثِهم بالعَهدِ؛ فإثْرَ ما استوثَقَ اللهُ منهم نقَضُوه(٣).

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ فيه تكريرُ (لهم)؛ للتَّأْكيدِ، والإيذانِ باختلافِهما واستقلالِ كلٍّ منهما في الثُّبوتِ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، وقال في سُورةِ القَصَصِ: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢]، وفي سُورةِ العَنكَبوت قال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٢]، وفي سُورةِ سبأٍ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، وفي سُورةِ الرُّومِ قال:

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٩-٢٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩).

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الروم: ٣٧]، وقال في الشُّورى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الشورى: ١٢]؛ ووجهُ ذلك: أنَّه زادَ في العنكبوتِ ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ و﴿لَهُۥٓ﴾؛ مُوافَقةً لِبسْطِ الكلامِ على الرِّزقِ المذكورِ فيها صريحًا، وزاد في القَصَصِ ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾؛ مُوافَقةً لذلك، وإنْ كان لفْظُ (الرِّزقِ) فيه تضمُّنًا، وزادَ ﴿لَهُۥ﴾ في ثاني مَوضعَيْ سبَأٍ وهو قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]؛ لأنَّه نزَلَ في المُؤمنينَ، وما قبلَه في الكافرينَ[1].

- ومِن المناسبةِ كذلك في قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ اختِصاصُ ما هنا وما في سُورةِ القَصَصِ والعَنكبوتِ والرُّوم بلفْظِ (اللَّه)، وفي الإسراءِ وفي سَبَأٍ -في موضعينِ- بلفْظِ (الرَّبِّ)، وفي الشُّورى بإضمارِ لفْظِ (اللَّه)؛ مُوافَقةً لِتقدُّم تكرُّرِ لفْظِ (الله) في السُّورِ الأربعِ، ولِتقدُّم تكرُّرِ لفْظِ (الرَّبِّ) في المواضِعِ الثَّلاثةِ، ولِتقدُّم تكرُّرِ الإضمارِ في الشُّورى[2].

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ جُملةٌ مُستأْنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عمَّا يَهجِسُ في نُفوسِ السَّامعينَ مِن المُؤمنينَ والكافرينَ مِن سماعِ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وأفاد تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعْليِّ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ﴾ تقويةَ الحُكمِ وتأكيدَه؛ لأنَّ المقصودَ أنْ يعلَمَه النَّاسُ، ولفْتُ العُقولِ إليه، وليس المَقامُ مَقامَ إفادةِ الحصْرِ[3]؛ إذْ ليس ثمَّةَ مَن يزعُمُ الشَّركةَ للهِ في ذلك، أو مَن يزعُمُ أنَّ اللهَ لا يفعَلُ ذلك؛ فيُقْصَدُ الرَّدُّ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٧).

(٣) هذا الرأيُ الذي ردَّه هنا ابنُ عاشورٍ هو رأيُ الزمخشريِّ، حيثُ قال: (أي: اللهُ وحْدَه هو يَبسُطُ الرزق ويَقدِره دون غيره). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٧).

عليه بطريقِ القصْرِ(١).

- قولُه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ جِيءَ في جانِبِ الكافرينَ بضَميرِ الغَيبةِ؛ إشارةً إلى أنَّهم أقلُّ مِن أنْ يفْهَموا هذه الدَّقائقَ؛ لِعُنْجُهِيَّةِ نُفوسِهم؛ فإنَّهم فَرِحوا بما لهم في الحياةِ الدُّنيا، وغَفَلوا عنِ الآخِرةِ؛ فالفرَحُ المذكورُ فرَحُ بطَرٍ وطُغيانٍ(٢).

- وتنْكيرُ ﴿مَتَٰعٌ﴾؛ للتَّقليلِ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾

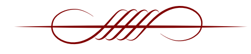
- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذه الجُملةُ تكريرٌ لِنظيرتِها السَّابقةِ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٧]؛ فأُعِيدَت تلك الجُملةُ إعادةَ الخَطيبِ كلمةً مِن خُطبتِه؛ ليأتِيَ بما بقِيَ عليه في ذلك الغرَضِ بعد أنْ يَفْصِلَ بما اقْتَضى المَقامُ الفصْلَ به، ثمَّ يتفرَّغَ إلى ما ترَكَه مِن قبلُ؛ فإنَّه بعد أنْ بيَّنَتِ الآياتُ السَّابقةُ أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُعَجِّلَ لهمُ العذابَ، ولكنَّ حِكمتَه اقتضَت إنظارَهم؛ ليتحَدَّى عبيدَه؛ فتبيَّنَ ذلك كلُّه كَمالَ التَّبيينِ(٤).

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه إيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ -حيثُ لم يقُلْ: (ويقولون)- مع ظُهورِ إرادتِهم عَقِيبَ ذكْرِ فرَحِهم بالحياةِ الدُّنيا؛ لِذمِّهم، والتَّسجيلِ عليهم بالكُفرِ فيما حُكِيَ عنهم مِن قولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٥).

عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[1].

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الماضي ﴿أَنَابَ﴾؛ للإيماءِ إلى استدْعاءِ الهِدايةِ لسابقةِ الإنابةِ، كما أنَّ إيثارَ صِيغَةِ المُضارِعِ في الصِّلةِ الأُولى؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ المشيئةِ حسَبَ استمرارِ مُكابرتِهم[2].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٠).

الآيات (٢٨-٣٠)

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾: أي: طيبُ العيشِ لهم، أو: الخيرُ وأقصَى الأُمنيةِ، أو: طوبى: شجرةٌ في الجنةِ، وقيل: بل هي إشارةٌ إلى كلِّ مستطابٍ في الجنةِ، وأصلُ (طيب): خلافُ الخبيثِ[1].

﴿مَـَٔابٖ﴾: أي: مرجعٍ، ومنقلَبٍ، وأصلُ (أوب): الرجوعُ[2].

﴿مَتَابِ﴾: أي: تَوبتي ومَرْجعي وأَوْبتي، وأصلُ (توب): يدلُّ على الرجوعِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ الذين يستحِقُّونَ الهِدايةَ هم الذين آمنوا، وسَكَنَت قُلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ، ألا بِذِكرِ اللهِ تسكُنُ القُلوبُ، ويزولُ اضطرابُها. إنَّ هؤلاء المؤمنينَ الذين امتلأتْ قلوبُهم بالإيمانِ الصَّحيحِ، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ، لهم حالٌ طَيِّبةٌ، ومَرجِعٌ حسَنٌ إلى رِضوانِ اللهِ وجنَّتِه، ومِثلَ ذلك الإرسالِ للأنبياءِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

السَّابقينَ أرسَلْناك -أيُّها الرَّسولُ- بكتابٍ تبلِّغُه للنَّاسِ وتَقرَؤُه عليهم، كما أرسَلْنا رسُلًا إلى أمَمٍ مِن قَبلِك، وحالُ قَومِك الجُحودُ بوَحدانيَّةِ الرَّحمنِ، قلْ لهم- يا محمدُ: إن الذي كفَرْتُم به أنا مُؤمِنٌ به، وهو ربِّي وَحدَه، لا معبودَ بحَقٍّ سواه، عليه توكلتُ، وإليه مَرجِعي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ذكَرَ سُبحانَه وتعالى في هذه الآيةِ الحَضَّ على ذِكرِ اللهِ، وأنَّه به تحصُلُ الطُّمأنينةُ؛ ترغيبًا في الإيمانِ، فبِذكرِه تعالى تطمئِنُّ القُلوبُ لا بالآياتِ المُقترَحةِ، بل ربَّما كُفِرَ بَعدَها فنزلَ العذابُ، كما سلَفَ في بعضِ الأمَمِ[١].

وأيضًا لَمَّا قال اللهُ تعالى في الآيةِ التي سَبقَت: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾ يعني: أنَّ الآيةَ التي يَقترِحونَها لا تُوجِبُ هِدايةً، بل اللهُ هو الذي يهدي ويُضِلُّ- نَبَّهَهم هنا على أعظَمِ آيةٍ وأجَلِّها، وهي: طُمأنينةُ قُلوبِ المؤمِنينَ بذِكرِه الذي أنزَلَه؛ إذ يستحيلُ في العادةِ أن تطمئِنَّ القلوبُ وتسكنَ إلى الكذبِ والافتراءِ والباطلِ[٢]، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ويهدي الله الذين آمنوا[٣] وتسكُنُ قُلوبُهم، ويزولُ قَلقُها واضطِرابُها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٨).

(٣) قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ هذا بدلٌ مِن قولِه: ﴿ أَنَابَ ﴾، والمعنى: يَهْدي الذين آمنوا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٥).

بذِكرِ اللهِ تعالى، ومِن ذِكرِه: القُرآنُ[١].

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

أي: ألا بذِكرِ اللهِ تَسكُنُ قُلوبُ المؤمنينَ، ويزولُ عنها قلَقُها واضطِرابُها، وحَريٌّ بها ألَّا تَطمئِنَّ لشَيءٍ سِوى ذِكره سُبحانَه[٢].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: الذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا- تصديقًا لهذا الإيمانِ- الأعمالَ الصَّالِحةَ- أولئك لهم حالٌ طَيِّبةٌ، وحُسنُ مَرجِعٍ؛ وذلك بما ينالونَ مِن رِضوانِ اللهِ وكَرامتِه في الدُّنيا والآخرةِ، فلهم كَمالُ الخيرِ والطُّمَأنينةِ، والفَرَحِ والسُّرورِ، ولهم النَّعيمُ الدَّائمُ، ومِن جملةِ ذلك شَجرةُ طُوبَى التي في الجنَّةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٧٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٧).

قال ابن القيم: (مِن أفضَلِ ذِكرِه: ذِكرُه بكَلامِه... ومِن ذِكرِه سُبحانه: دُعاؤُه واستغفارُه والتضَرُّع إليه). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٨).

قال الواحدي: (أكثرُ المفسِّرين على أنَّ «طوبى» اسمُ شجرةٍ في الجنةِ، وهو قولُ أبي هريرة، ومُغيثِ بنِ سُمَيٍّ، وشَهرِ بنِ حَوْشَبٍ، ومجاهد، ومقاتِلٍ، وابنِ عبَّاس في روايةِ الكلبيِّ وعطاءٍ. ورُوِي ذلك عن رسُولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((الوسيط)) (٣/ ١٥).

قال النَّحَّاس: (قال ابنُ عبَّاس وأبو أُمامة: طُوبى: شَجَرةٌ في الجنَّةِ، وكذلك قال عُبَيدُ بنُ عُمَير. وقال مجاهِدٌ: هي الجنَّةُ. وقال عِكرمةُ: أي: نِعْمَ ما لهم!. وقال إبراهيمُ: طُوبى: أي: خيرٌ وكَرامةٌ. وهذه الأقوالُ مُتَقاربةٌ؛ لأنَّ طُوبى: فُعْلَى مِنَ الطِّيبِ، أي: مِنَ العَيشِ الطَّيِّبِ لهم، وهذه الأشياءُ تَرجِعُ إلى الشَّيءِ الطَّيِّبِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٤٩٣).

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وعن أبي سَعيد الخُدريِّ، عن رَسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((أنَّ رَجُلًا قال له: يا رسولَ اللهِ، طوبى لِمَن رآك، وآمَنَ بك، قال: طوبى لِمَن رآني وآمَنَ بي، ثمَّ طوبى، ثمَّ طوبى، ثمَّ طوبى لِمَن آمنَ بي ولم يَرَني، قال له رجُلٌ: وما طُوبى؟ قال: شجَرةٌ في الجَنَّةِ مَسيرةَ مِئة عامٍ، ثِيابُ أهلِ الجَنَّة تخرُجُ مِن أكمامِها[(١)]))[(٢)].

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما حكَى الله عن الكافرينَ قولَهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ جاءَهم الجوابُ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ الجوابَ السَّابقَ بقَولِه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ جوابٌ بالإعراضِ عن جَهالتِهم، والتعَجُّبِ مِن ضَلالِهم، وما هنا هو الجوابُ الرَّادُّ لِقَولِهم[(٣)].

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾.

أي: كما أرسَلْنا الأنبياءَ مِن قَبلِك بوَحينا، وأعطَيناهم كُتُبَنا -يا محمَّدُ- أرسَلْناك بهذا القُرآنِ إلى قومٍ قد مَضَت مِن قَبلِهم جماعاتٌ أرسَلْنا لهم رسُلًا،

وقال الرسعني: (قال ابنُ الأنباري: تأويلُها: الحالُ المستطابةُ. قلتُ: إلى هذا المعنى ترجِعُ أقوالُ المفسِّرين). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٨٢).

(١) الأكمامُ: جمع الكِمِّ: وهو وِعاءُ الطَّلع وغِطاءُ النَّوْرِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (١١٦٧٣)، وأبو يعلى في ((المسند)) (١٣٧٤)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٧٤١٣)، وابن أبي داود في ((البعث)) (٦٨)، وأصله في ((صحيح مسلم)) (٢٨٢٨).
حسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٤٧)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٣٩١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٩).

فلستَ ببِدْعٍ مِن الرُّسُلِ حتى يَستَنكِرَ قومُك رسالتَك، ويَطلُبوا منك آياتٍ مُقترَحةً لإثباتِها، ولك بهم أُسوةٌ حَسَنةٌ حين كَذَّبَتْهم أقوامُهم واستهزَأتْ بهم في عدَمِ الإجابةِ إلى آياتِهم المُقتَرَحةِ، فصبروا على ذلك، وكما أوقَعْنا بأسَنا بأولئك، فلْيحذَرْ قومُك مِن حُلولِ العذابِ بهم[1].

كما قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٦٩- ٧٠].

﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ الَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

أي: أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- إلى قَومِك لِتقرَأَ عليهم أعظَمَ الآياتِ والمُعجِزاتِ، وهو القُرآنُ الذي لستَ تقولُه مِن تِلقاءِ نَفسِك، بل هو وحيٌ أوحاه اللهُ إليك ليَهتَدوا به، ولم نُرسِلْك لإجابةِ ما يقتَرِحونَ مِن الآياتِ؛ ليَحصُلَ لهم الاهتداءُ للحَقِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٥٩-٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٠)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٨-٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٠).

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾.

أي: والحالُ أنَّ قَومَك -يا محمَّدُ- يَجحَدونَ ويُكَذِّبونَ بوَحدانيَّةِ اللهِ، ويُنكِرونَ اسمَ اللهِ (الرَّحمن) فلم يُقابِلوا رَحمتَه -التي أعظَمُها أنْ أرسَلْناك إليهم رَسولًا، وأنزَلْنا عليك القُرآنَ ليَهتَدوا به- بالقَبولِ والشُّكرِ والانقيادِ للحَقِّ، بل قابلوها بالإنكارِ والرَّدِّ، والاستمرارِ على الكُفرِ والشِّركِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا تضَمَّنَ كُفرُهم بالرَّحمنِ كُفرَهم بالقُرآنِ ومَن أُنزِلَ عليه، وكان الكُفرُ بالمُنعِمِ في غايةِ القَباحةِ، كان كأنَّه قيل: فماذا أفعَلُ حينئذٍ أنا ومَنِ اتَّبَعني؟ فكان أنْ بدأَ جوابَهم عن الكفرِ بالموحِي؛ لأنَّه أهمُّ[2]، فقال:

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: إنْ كفَرَ هؤلاء الذين أرسلتُك إليهم -يا مُحمَّدُ- بالرَّحمنِ، فقل لهم: الذي كفَرْتُم به أنا مُؤمِنٌ به، ومُقِرٌّ ومُعترِفٌ له بالربوبيَّةِ والألوهيَّةِ؛ فهو ربِّي الذي أوجَدَني وربَّاني بنِعَمِه، لا أكفُرُ إحسانَه كما كفَرْتُموه أنتم، وهو اللهُ الذي لا معبودَ بحَقٍّ سِواه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

أي: على اللهِ وَحدَه اعتمَدْتُ في جميعِ أموري، وإليه وحدَه مرجِعي وأَوْبَتي، فلا أرجعُ في جميعِ شُؤوني - مِن عباداتٍ وحاجاتٍ - إلَّا إليه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ فالقُلوبُ حَقيقٌ بها وحَرِيٌّ ألَّا تطمَئِنَّ لشَيءٍ سِوى ذِكرِه؛ فإنَّه لا شيءَ ألَذُّ للقُلوبِ ولا أشهَى ولا أحلَى مِن محبَّةِ خالِقِها، والأُنسِ به ومَعرفتِه، وعلى قَدرِ مَعرفتِها باللهِ ومَحبَّتِها له، يكونُ ذِكرُها له[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ومِن ذِكرِ اللهِ: القُرآنُ؛ فالقُلوبُ حين تعرِفُ معانيَ القُرآنِ وأحكامَه تطمَئِنُّ لها؛ فإنَّها تدُلُّ على الحَقِّ المُبينِ المُؤَيَّدِ بالأدلَّةِ والبَراهين، وبذلك تطمئِنُّ القلوبُ، فإنَّها لا تطمئِنُّ القلوبُ إلَّا باليقينِ والعِلمِ، وذلك في كتابِ اللهِ مضمونٌ على أتَمِّ الوُجوهِ وأكمَلِها، وأمَّا ما سواه من الكُتُبِ التي لا تَرجِعُ إليه، فلا تطمئِنُّ بها، بل لا تزالُ قَلِقةً مِن تعارُضِ الأدلَّةِ، وتضادِّ الأحكامِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).

ومِن المفسِّرين مَن حمَل (المتابَ) على العمومِ، أي: في الدُّنيا بالرجوعِ إليه والتوبةِ، وفي الآخرةِ بالمعادِ. وهو اختيارُ القرطبيِّ والبقاعي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ﱡﭐ ﭐ ﭐ ﭐ ٱلْقُلُوبُ ﴾، فيه سُؤالٌ: أليس أنَّه تعالى قال في سورةِ الأنفالِ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢]، والوَجَلُ ضِدُّ الاطمئنانِ، فكيف وصَفَهم هاهنا بالاطمِئنانِ؟

الجوابُ: أنَّ الطُّمَأنينةَ إنَّما تَعتري قُلوبَهم إذا سَمِعوا ذِكرَ اللهِ؛ لِمَا انشرَحَت له صدورُهم مِن مِعرفةِ الحَقِّ وتيقُّنِه، فقُلوبهُم مُطمَئِنَّةٌ غايةَ الطُّمَأنينةِ إلى مَعرفةِ الحَقِّ، عالِمونَ أنَّه حَقٌّ لا يُخالِجُهم شَكٌّ، ومع هذا يخافونَ مِنَ اللهِ ألَّا يتقبَّلَ منهم أعمالَهم ونحوَ ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، ويَخافونَ الزَّيغَ والذَّهابَ عن الهُدى، كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[1] [آل عمران: ٨].

وأيضًا فالله تعالى إذا ذُكِرَ وَجِلَت القلوبُ، فحصَل لها اضطرابٌ ووجلٌ لما تخافُه مِن دونِه، وتخشاه مِن فواتِ نصيبِها منه، فالوجلُ إذا ذُكِر حاصلٌ بسببٍ مِن الإنسانِ، وإلَّا فنفسُ ذكرِ الله يُوجِبُ الطمأنينةَ؛ لأنَّه هو المعبودُ لذاتِه، والخيرُ كلُّه منه[2].

٢- أخبَرَ الله تعالى أنَّ القُلوبَ تَطمَئِنُّ بالقرآنِ- أي: تَسكُنُ إليه مِن قَلَقِ الجَهلِ والرَّيبِ والشَّكِّ- كما يطمَئِنُّ القَلبُ إلى الصِّدقِ، ويَرتابُ بالكَذِبِ، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾، وجعلَ هذا من أعظَمِ الآياتِ على صِدقِه، وأنَّه حَقٌّ مِن عِندِه، ولهذا ذكَرَه جوابًا لِقَولِ الكُفَّارِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بكِتابِه

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٣٩-٤٠).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٧٨).

الذي أنزَلَه، وهو ذِكرُه وكلامُه، ولو كان في العَقلِ الصَّريحِ ما يُخالِفُه لم تطمَئِنَّ به قلوبُ العُقَلاءِ(١).

٣- الأصلُ في إزالةِ قَسوةِ القُلوبِ بالذِّكرِ قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ القُرآنَ هو مُعجِزتُه؛ لأنَّه ذَكَرَه في مُقابلةِ إرسالِ الرُّسُلِ الأوَّلين، ومُقابلةِ قَولِه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾، وقد جاء ذلك صريحًا في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما من الأنبياءِ نَبيٌّ إلَّا أُوتيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحاه اللهُ إليَّ))(٣).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ اختيارُ اسمِ (الرَّحمن) مِن بينِ أسمائِه تعالى؛ لأنَّ كُفرَهم بهذا الاسمِ أشَدُّ؛ لأنَّهم أنكروا أن يكونَ اللهُ رَحمنَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، فأشارتِ الآيةُ إلى كُفرَينِ مِن كُفرِهم: جَحدِ الوَحدانيَّةِ، وجَحدِ اسمِ الرَّحمن، ولأنَّ لهذه الصِّفةِ مَزيدَ اختصاصٍ بتكذيبِهم الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتأييدِه بالقرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ هُدًى ورحمةٌ للنَّاسِ، وقد أرادوا تعويضَه بالخوارِقِ التي لا تُكسِبُ

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٢٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٠).

والحديث أخرجه البخاري (٤٩٨١) واللفظ له، ومسلم (١٥٢).

هَديًا بذاتِها، ولكنَّها دالَّةٌ على صِدقِ مَن جاء بها[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن أنكرَ اسمًا مِن أسماءِ اللهِ الثَّابتةِ في الكتابِ أو السُّنَّةِ؛ فهو كافِرٌ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ ...﴾ استئنافٌ اعتراضيٌّ؛ مُناسبَتُه المُضادَّةُ لحالِ الَّذين أضَلَّهم اللهُ، والبيانُ لحالِ الَّذين هَداهُم، مع التَّنبيهِ على أنَّ مِثالَ الَّذين ضلُّوا هو عدَمُ اطمئنانِ قُلوبِهم لذِكْرِ اللهِ، وهو القُرآنُ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يتضمَّنُ أنَّهم لم يعُدُّوا القُرآنَ آيةً مِن اللهِ، ثمَّ التَّصريحُ بجِنْسِ عاقبةِ هؤلاءِ، والتَّعريضُ بضدِّ ذلك لأولئك؛ فذِكْرُها عقِبَ الجُملةِ السَّابقةِ يُفيدُ الغرضَينِ، ويُشيرُ إلى السَّببينِ[3].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ العُدولُ إلى صِيغةِ المُضارِعِ ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾؛ لإفادةِ دوامِ الاطمئنانِ وتجدُّدِه حسَبَ تجدُّدِ الآياتِ وتعدُّدِها[4]، وهو فنٌّ رَفيعٌ مِن فُنونِ البَلاغةِ، حيثُ عدَلَ عن عطْفِ الماضي على الماضي؛ فلم يقُلْ: (واطمأنَّت قُلوبُهم)؛ لِسرٍّ دقيقٍ مِن أسرارِ هذه اللُّغةِ الشَّريفةِ؛ ذلك أنَّ مِن خَصائصِ الفعلِ المُضارِعِ: أنَّه قد لا يُلاحَظُ فيه زمانٌ مُعيَّنٌ مِن حالٍ أو استقبالٍ، وهما الزَّمانانِ اللَّذانِ يَحتمِلُهما المُضارِعُ؛ فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠).

يدلُّ إلَّا على مُجرَّدِ الاستمرارِ، والمُرادُ بهذه الآيةِ: أنَّ المُؤمنينَ تطمَئِنُّ قُلوبُهم بصُورةٍ مُطَّرِدةٍ مهما تتالَتِ المِحَنُ، وتعاقَبَتِ الأَرْزاءُ؛ فكأنَّما أعَدُّوا لكلِّ مِحْنةٍ صبرًا، ولكلِّ رُزْءٍ اطْمئنانًا جديدًا؛ فهذا سِرُّ عطْفِ المُضارعِ ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ على الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾[1].

- قولُه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ افْتُتِحَتِ الجُملةُ بحرْفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ اهتمامًا بمضْمونِها، وإغراءً بوعْدِه، وهي بمنزلةِ التَّذييلِ لِمَا في تَعريفِ (القُلوب) مِن التَّعميمِ، وفيه إثارةُ الباقينَ على الكُفرِ على أنْ يتَّسِموا بسِمةِ المُؤمنينَ مِن التَّدبرِ في القُرآنِ؛ لِتطمئنَّ قُلوبُهم[2].

- وتقديمُ المفعولِ يدلُّ على أنَّها لا تطمئِنُّ إلَّا بذكرِه[3].

٢- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ جوابٌ رادٌّ لقولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ فيجوزُ جعْلُ هذه الجُملةِ مِن مقولِ القولِ في ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ...﴾، ويجوزُ جعْلُها مَقطوعةً عنها، وأيًّا ما كان فهي بمَنزلةِ البيانِ لجُملةِ القولِ كلِّها، أو البيانِ لجُملةِ المقولِ، وهو التَّعجُّبُ[4].

- في الافتِتاحِ باسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تأكيدٌ للمُشارِ إليه، وهو التَّعجُّبُ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٩).

مِن ضلالتِهم؛ إذ عَمُوا عن صِفَةِ الرِّسالةِ، والمُشارُ إليه: الإرسالُ المأخوذُ مِن فعْلِ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، أي: مثْلَ الإرسالِ البيِّنِ أرسَلْناك، فالمُشبَّهُ به عينُ المُشبَّهِ، إشارةً إلى أنَّه لِوُضوحِه لا يُبيِّنُ ما وضَحَ مِن نفْسِه[١].

- قولُه: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فيه التَّعريضُ بالوعيدِ بمثْلِ مَصيرِ الأُمَمِ الخاليةِ الَّتي كذَّبَت رُسُلَها، وتضمَّنتْ لامُ التَّعليلِ في قولِه: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ﴾ أنَّ الإرسالَ لأجلِ الإرشادِ والهدايةِ إلى ما أمَرَ اللهُ، لا لأجلِ الانتِصابِ لِخوارِقِ العاداتِ[٢].

- قولُه: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فيه تَقديمُ المجْرورِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على المنْصوبِ ﴿ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ ...﴾، وهو مِن قَبيلِ: الإبهامِ ثمَّ البَيانِ، وفيه ما لا يَخْفَى مِن ترقُّبِ النَّفْسِ إلى ما سَيرِدُ، وحُسْنِ قَبولِها له عند وُرودِه عليها[٣].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فيه العُدولُ عنِ المُضْمَرِ (به) إلى المُظْهَرِ المُتعرِّضِ لِوصْفِ الرَّحمةِ ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإرسالَ ناشئٌ منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤] [الأنبياء: ١٠٧].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك واستمرارِه[٥].

- وجُملةُ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ نَتيجةٌ لِكونِه ربًّا واحدًا، أو كالنتيجةِ؛ لذلك فُصِلَتْ عنِ الَّتي قبلَها -أي: لم تُعْطَفْ عليها-؛ لِمَا بينهما مِن الاتِّصالِ، وتقديمُ المجْرورَيْنِ- وهما: ﴿عَلَيۡهِ﴾ و﴿إِلَيۡهِ﴾-؛ لإفادةِ اختِصاصِ التَّوكُّلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٠).

والمَتابِ بالكونِ عليه، أي: لا على غيرِه؛ لأنَّه لمَّا توحَّدَ بالرُّبوبيَّةِ كان التَّوكُّلُ عليه، ولمَّا اتَّصَفَ بالرَّحمانيَّةِ كان المَتابُ إليه؛ لأنَّ رَحمانيَّتَه مَظِنَّةٌ لِقَبولِه توبةَ عبْدِه(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٠).

الآيتان (٣١-٣٢)

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾: أي: يَعلَمْ ويتبيَّنْ، على إحدَى لغاتِ العربِ، وقِيل: هو مِن اليأسِ المعروفِ، أي: انتفاءِ الطمعِ، وقطعِ الرَّجاءِ[١].

﴿قَارِعَةٌ﴾: أي: داهيةٌ تَفجَؤُهم، وسُمِّيَت بذلك لأنَّها تقرَعُ النَّاسَ، أي: تَضرِبُهم بشِدَّتِها، وأصلُ (قرع): يدلُّ على ضَربِ شَيءٍ[٢].

﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾: أي: أمهلْتُ وأطلْتُ المُدَّةَ، والإملاءُ: الإمهالُ على جِهةِ الاستدراجِ، وهو مِن المُلاوةِ مِن الزَّمَنِ، وأصلُ (ملو): يدلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غيرِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٣٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٥٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٤).

المعنى الإجماليُّ:

يردُّ اللهُ- تعالى- على الكافرينَ الذين طَلَبوا إنزالَ الآياتِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولُ لهم: ولو أنَّ ثَمَّةَ كتابًا يُقرأُ، فتزولُ به الجِبالُ عن أماكِنِها، أو تتشقَّقُ به الأرضُ أنهارًا، أو يحيا به الموتى ويُكَلَّمونَ- كما طَلَبوا منك- لكان هذا القُرآنُ المُوحَى إلى هذا النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هو المتَّصِفَ بذلك دونَ غَيرِه، بل لله وَحدَه الأمرُ كُلُّه، أفلَمْ يَعلَمِ المُؤمِنونَ أنَّ اللهَ لو يشاءُ لهدى النَّاسَ كُلَّهم إلى الإيمانِ به؟ ولا يزالُ الكُفَّارُ تنزِلُ بهم داهيةٌ تَفجَؤُهم وبلاءٌ وعذابٌ، أو يقَعُ ذلك قريبًا مِن ديارِهم، حتى يأتيَ وَعدُ اللهِ وهو موتُهم، أوْ قيامُ السَّاعةِ عليهم، إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعادَ.

ولقد استهزأَ الكُفَّارُ برُسُلِي الذين أرسَلْتُهم مِن قَبلِك؛ فأمهلْتُ الذين كَفَروا، مُدَّةً، ثمَّ أحللْتُ عليهم عذابي، فلسْتَ أوَّلَ رَسولٍ كُذِّبَ وعُوديَ، فاصبِرْ على أذاهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا ذكَرَ تعالى عِلَّةَ إرسالِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وهي تلاوةُ ما أوحاه إليه؛ ذكَرَ تعظيمَ هذا المُوحَى، وأنَّه لو كان قُرآنًا تُسَيَّرُ به الجبالُ عن مقارِّها، أو تُقَطَّعُ به الأرضُ حتَّى تتزايَلَ قِطَعًا قِطَعًا، أو تُكَلَّمَ به الموتى فتسمَعُ وتُجيبُ، لكان هذا

القُرآنُ؛ لِكونِه غايةً في التَّذكيرِ، ونهايةً في الإنذارِ والتَّخويفِ[1].

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: ولو أنَّ كِتابًا مِن الكُتُبِ السَّابِقةِ -التي أنزَلَها اللهُ على رُسُلِه[2]- اشتمَلَ على ما هو أكثَرُ مِن الهدايةِ، فكان مصدرًا لإيجادِ العَجائِبِ المَحسوسةِ، بحيث يُقرأُ على الجِبالِ فتَتَزحزَحُ عن أماكِنِها، أو على الأرضِ فتتصَدَّعُ وتنشَقُّ[3]، أو على الموتَى في قُبورِهم فيَسمعونَ الكلامَ ويُجيبونَه- لكان هذا القُرآنُ المُوحَى إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو المتَّصفَ بذلك دونَ غَيرِه مِن الكتُبِ، أو هو أَولى منها بذلك، فكيفَ تَقترِحونَ آيةً غَيرَه؟ ثمَّ إنَّه لم يكُنْ ثَمَّ كتابٌ إلهيٌّ كذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٨).

(٢) قال ابن كثير: (قد يُطلق اسمُ القرآنِ على كلٍّ مِن الكتبِ المتقدمةِ؛ لأنَّه مشتقٌّ مِن الجمعِ... قال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «خفِّفت على داودَ القراءةُ، فكان يأمرُ بدابتِه أن تسرجَ، فكان يقرأ القرآنَ مِن قبلَ أن تسرجَ دابتُه، وكان لا يأكلُ إلا مِن عملِ يديه». انفَرد بإخراجِه البخاريُّ. والمرادُ بالقرآنِ هنا الزبورُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦١).

(٣) وممن اختار هذا المعنى المذكور لقولِه تعالى: ﴿قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾: الزمخشري، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٣).

وقيل: المرادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾: أي شُقِّقَت إلى أنهارٍ وعُيونٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٢).

وقيل: المرادُ قَطعُها بالسَّيرِ ومُجاوزتُها، فتُصبِحُ المسافةُ البعيدةُ قريبةً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٣).

وممن قال به مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والضحاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٤٠)،

كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩ - ٩٣].

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

أي: ليس ذلك من شأنِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ؛ فذلك كُلُّه إلى اللهِ، وبيَدِه وَحدَه، فمَرجِعُ الأمورِ كلِّها إليه، ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكُنْ، يهدي من يشاءُ، ويُضِلُّ من يشاءُ، ويأتي بالآياتِ التي تَقتَضيها حِكمتُه؛ فهو الذي أنزل الكِتابَ، وهو الذي يخلقُ العجائِبَ إن شاء، وليس ذلك إلى غيرِه[1].

((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٣).

قال الرسعني: (واختُلف في جوابِ «لو» فقال الأكثرونَ: هو مضمرٌ، تقديرُه: لكان هذا القرآنَ؛ لعظمتِه وكرامتِه... وقيل: التقديرُ: لو أنَّ قرآنًا كان بهذه المثابةِ لما آمنوا به؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الأنعام: ١١١]). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٨٦).

وممن اختار القول الثاني: الزجاج، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي ((ص: ٥٧٢).

قال الشنقيطي: (وقال بعضُهم: تقديرُه: لكفرتُم بالرحمنِ، ويدلُّ لهذا الأخيرِ قولُه قبلَه: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [١٣/ ٣٠]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٤).

﴿أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

أي: أفلَم يعلَمِ المؤمنونَ أنْ لو يشاءُ اللهُ لهدَى النَّاسَ كُلَّهم إلى الإيمانِ به مِن غيرِ إيجادِ آيةٍ؟ فاللهُ تعالى قادرٌ على هدايتِهم جميعًا، ولكنَّه لا يشاءُ ذلك، فالهدايةُ والإضلالُ بيَدِه وَحدَه؛ يهدي مَن يشاءُ بغيرِ إنزالِ آيةٍ، ويُضِلُّ مَن يشاءُ معَ إنزالِها[١].

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وعلِمَ المؤمنون أنَّ بَعضَ هؤلاء الكفار لا يؤمِنُ، ضاقت صدورُهم لذلك؛ لِما يُعاينونَه مِن أذى هؤلاء الكُفَّار، فأتبَعَه ما يُسَلِّيهم، فقال تعالى[٢]:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٧ - ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣٠/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).
قال ابنُ جرير: (والصوابُ مِن القولِ في ذلك ما قاله أهلُ التأويلِ: إنَّ تأويلَ ذلك: أفلمْ يتبيَّنْ ويعلَمْ؛ لإجماعِ أهلِ التأويلِ على ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٨).
قال الرازي: (﴿يَايْـَٔسِ﴾ يَعلَمْ، في لغةِ النَّخعِ، وهذا قولُ أكثرِ المفَسِّرين، مثلَ مجاهدٍ، والحسنِ وقتادةَ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٢).
وقال البقاعي: (والعلمُ بالشَّيءِ يوجِبُ اليأسَ مِن خلافه... فقد وضح أنَّ ﴿يَايْـَٔسِ﴾ على بابِها). ((نظم الدرر)) (١٠/ ٣٤٣-٣٤٤).
قال ابن عطية: (ويحتملُ أن يكونَ اليَأسُ في هذه الآيةِ على بابِه؛ وذلك أنَّه لَمَّا أبعَدَ إيمانَهم في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا ...﴾ الآية –على التأويلَين في المحذوفِ المقدَّر– قال في هذه الآيةِ: أفلم يَيئَسِ المؤمنونَ مِن إيمانِ هؤلاء الكَفَرةِ، علمًا منهم أنْ لو يشاءُ اللهُ لهدى النَّاسَ جميعًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٤٤-٣٤٥).

أي: ولا يزالُ الكفارُ تصيبُهم بسبَبِ ما صنعوا مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ داهيةٌ تَفجَؤُهم، ونازلةٌ شديدةٌ تنزِلُ بهم، وبلاءٌ وعذابٌ[1].

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

أي: أو تقَعُ هذه القارعةُ قريبًا مِن ديارِهم؛ فيَفْزَعونَ منها، ويُصيبُهم الخوفُ مِن تَجاوُزِها إليهم، وهم مُصِرُّون على كفرِهم[2].

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٢).
وقيل: ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: سَرايا رسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٥٨).
وممن اختار هذا المعنى: ابنُ أبي زمنين، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٦).
وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: القارعةُ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والشوكانيُّ، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشورٍ، لكنه جوَّز القول الثاني، وستأتي الإشارةُ إليه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٦-١٤٧).
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٧).
وقيل: المعنى: أو تحلُّ أنت -يا محمَّدُ- مع جُندِك قريبًا مِن بلادِهم، وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٩٥).
وممن قال بهذا القول من السلف: ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وعبد الله بن أبي نجيح، وسعيد ابن جبير، وقتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٧).

أي: حتى يأتيَ وعدُ اللهِ وهو موتُهم، أوْ قيامُ السَّاعةِ عليهم، فإذا جاءَ وعدُ اللَّهِ المحتومُ حَلَّ بهم مِنْ عذابِه ما هو الغايةُ في الشِّدَّةِ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يَنقُضُ وعدَه، وكلُّ ما وعَدَ اللهُ به فهو كائِنٌ لا محالةَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير القنوجي)) (٧/ ٦٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ هو موتُهم أو يوم القيامةِ: الزمخشري، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقنوجي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير القنوجي)) (٧/ ٦٠).

وقيل: المرادُ به: يومُ القيامةِ. وممن قال بذلك: الواحديُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٢). وممن قال به مِن السلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٤).

وقيل: إنَّ المرادَ بـ ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ هنا: فتحُ مكة. وممن اختاره: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين، والرسعني، والقرطبي، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢١)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨٥).

وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٠)، فما بعدها.

قال ابنُ عاشور: (و ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ مِن إطلاقِ المصدَرِ على المفعولِ، أي: موعودُ اللهِ، وهو ما توعَّدَهم به منَ العذابِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، فأشارت الآيةُ إلى استِئصالِهم؛ لأنَّها ذَكَرَت الغَلَبَ ودُخولَ جَهنَّمَ، فكان المعنى أنَّه غَلَبُ القَتلِ بسُيوفِ المُسلِمينَ، وهو البَطشةُ الكبرى. ومِن ذلك يومُ بَدرٍ، ويَومُ حُنَينٍ، ويَومُ الفتحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٧).

قال البقاعي: (﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ أي الملكُ الأعظمُ بفتحِ مكةَ، أو بالنصرِ على جميعِ الكفرةِ في زمنِ عيسَى عليه السلامُ، فينقطعُ ذلك؛ لأنَّه لا يُبقي على الأرضِ كافرًا، وفي غيرِ ذلك مِن الأزمانِ كزمنِ فتحِ مكةَ المشرفةِ، فيكونُ المعنى خاصًّا بالبعضِ). ((نظم الدرر)) (١٠/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠١).

[الروم: ٦].

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا طلَبَ المُشرِكونَ سائرَ المُعجِزاتِ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على سبيلِ الاستِهزاءِ والسُّخريةِ، وكان ذلك يشُقُّ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكان يتأذَّى مِن تلك الكَلِماتِ؛ فاللهُ تعالى أنزل هذه الآيةَ تَسليةً له وتَصبيرًا له على سفاهةِ قَومِه، فقال له(١):

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾.

أي: إنْ يَستهزِئْ بك هؤلاءِ المُشرِكونَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ-، فاصبِرْ على أذاهم، فلسْتَ أوَّلَ رَسولٍ كُذِّبَ وعُودِيَ؛ فقد استهزأَ الكُفَّارُ برُسُلِي الذين أرسَلْتُهم مِن قَبلِك، فأمهلتُ أولئك الكُفَّارَ مُدَّةً، ثمَّ أحلَلْتُ عليهم عذابي حين أصَرُّوا على كُفرِهم وتَكذيبِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).

قال ابنُ عاشور: (قد استهزأ قومُ نوحٍ به عليه السَّلامُ: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، واستهزأت عادٌ بهودٍ عليه السلام: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، واستهزأت ثمودُ بصالحٍ عليه السَّلامُ: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف: ٦٦]، واستهزؤوا بشُعَيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧]، واستهزأ فرعونُ بموسى عليه السَّلامُ: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٨).

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

أي: فانظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف كان عقابي الشَّديدُ لأولئك الكافرينَ، ألَمْ أُذِقْهم أليمَ العَذابِ، وأَجعَلْهم عِبرةً وعِظةً؟ فلْيعتَبِرْ كُفَّارُ قَومِك بذلك، ولْيَحذَروا مِن نِقمَتي وعذابي، ولا يغتَرُّوا بإمهالي لهم[1].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وقال سُبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١-٢٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- حُذِفت التاءُ في قولِ الله تعالى: ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾، وثبتَتْ في الفعلينِ قبلَه؛ لأنَّه مِن بابِ التغليبِ؛ لأنَّ الموتَى تشملُ المذكَّر والمؤنَّثَ[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ سُبحانه إذا أضلَّ عبدًا، لم يكُنْ لأحدٍ سبيلٌ إلى هدايتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ...﴾ جوابُ (لو) محذوفٌ، وتقديرُه: لكان هذا القرآنَ. وقيل: تقديرُه: لكفرتُم بالرحمنِ، وحُذِف لدَلالةِ المَقام عليه، والمُرادُ منه تعظيمُ شأنِ القُرآنِ، أو المُبالَغةُ في عِنادِ الكفَرَةِ وتَصميمِهم، كما يقولُ الرَّجلُ لِغُلامِه: لو أنِّي قُمْتُ إليك! ويترُكُ الجوابَ، ويُفيدُ ذلك أيضًا معنًى تعْريضيًّا بالنِّداءِ عليهم بنِهايةِ ضلالتِهم؛ إذ لم يهتَدوا بهَدْيِ القُرآنِ ودَلائلِه[1]، فحُذِفَ جَوابُ (لو)؛ ليكونَ أبلَغَ في العبارةِ، وأعَمَّ في الفائدةِ[2]. وحذْفُ جوابِ (لو) شائعٌ في كلامِ العرَبِ، وهو هنا في هذه الآيةِ إيجازٌ عجيبٌ، حيثُ اشتَمَل هذا اللَّفظُ القليلُ على المعاني الكثيرةِ[3].

- قولُه: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فيه تقديمُ المجْرورِ ﴿بِهِ﴾ في المواضِعِ الثَّلاثةِ على المرفوعِ (الْجِبالُ- الْأَرْضُ- الْمَوْتَى)؛ لِقصْدِ الإبهامِ ثمَّ التَّفسيرِ؛ لزِيادةِ التَّقريرِ؛ لأنَّ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ تبْقَى النَّفْسُ مُستشرِفَةً ومُترقِّبةً إلى المُؤَخَّرِ أنَّه ماذا؛ فيتمكَّنُ عند وُرودِه عليها فَضلَ تمكُّنٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٧٥٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٤- ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢).

- قولُه: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ إضرابٌ عمَّا تَضمَّنَتْه (لَوْ) مِن معنى النَّفيِ؛ فجُملةُ ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ عطْفٌ على ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ بحرْفِ الإضرابِ، أي: ليس ذلك مِن شأْنِ الكُتُبِ، بل للهِ الأمْرُ جميعًا؛ فهو الَّذي أنزَلَ الكِتابَ، وهو الَّذي يخلُقُ العَجائبَ إنْ شاء، وليس ذلك إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا عند سُؤالِكم، فأمَرَ اللهُ نَبيَّه بأنْ يقولَ هذا الكلامَ إجراءً لكلامِهم على خِلافِ مُرادِهم على طريقةِ الأسلوبِ الحَكيمِ؛ لأنَّهم ما أرادوا بما قالوه إلَّا التَّهكُّمَ، فحُمِلَ كلامُهم على خِلافِ مُرادِهم؛ تنبيهًا على أنَّ الأَولى بهم أنْ ينْظروا: هل كان في الكُتُبِ السَّابقةِ قُرآنٌ يتأتَّى به مِثْلُ ما سأَلوه، وقد أفادَتِ الجُملتانِ- المعطوفةُ والمعطوفةُ عليها- معنى القصْرِ؛ لأنَّ العطْفَ بـ (بَلْ) مِن طُرُقِ القصْرِ؛ فاللَّامُ في قولِه: ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ للاستغراقِ، و﴿جَمِيعًا﴾ تأْكيدٌ له، وتقديمُ المجْرورِ على المبتدأِ؛ لِمُجرَّدِ الاهتمامِ؛ لأنَّ القصْرَ أُفيدَ بـ (بَلْ) العاطفةِ[1].

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ؛ إنكارًا لانتِفاءِ يأْسِ الَّذين آمنوا، أي: فهم حَقيقونَ بزَوالِ يأْسِهم، وأنْ يعلَموا أنْ لو يشاء اللهُ لَهَدى النَّاسَ جميعًا- وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-، وفي هذا الكلامِ زِيادةُ تَقريرٍ لِمضمونِ جُملةِ ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[2].

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾، أي: أفلم يُوقِنْ ويعلَمْ؛ قيل: إنَّما اسْتُعْمِلَ اليأْسُ بمعنى العِلْمِ؛ لِتضمُّنِه معناه؛ لأنَّ اليائسَ عنِ الشَّيءِ عالِمٌ بأنَّه لا يكونُ، كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٤).

اسْتُعْمِلَ الرَّجاءُ في معنى الخوفِ، والنِّسيانُ في معنى التَّرْكِ؛ لِتضمُّنِ ذلك[(١)].

- قولُه: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾، أي: بسبَبِ ما صَنَعوه مِن الكُفرِ والتَّمادي فيه، وأبْهَمَ ما صنَعوا ولم يُبيِّنْه؛ للقصْدِ إلى تَهْويلِه أو استهجانِه، وهو تَصريحٌ بما أشعَرَ به بِناءُ الحُكمِ على الموصولِ مِن عِلِّيَّةِ الصِّلةِ له، مع ما في صِيغَةِ الصُّنْعِ مِن الإيذانِ برُسوخِهم في ذلك[(٢)].

- قولُه: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ شُبِّهَتِ القارعةُ بالعَدُوِّ المُتوجِّهِ إليهم، فأُسْنِدَ إليها الإصابةُ تارةً، والحُلولُ أُخْرى[(٣)].

- قولُه: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾ على الفاعلِ ﴿قَارِعَةٌ﴾، وهو مِن إرادةِ التَّفسيرِ إثْرَ الإبهام؛ لِزيادةِ التَّقريرِ والإحكامِ، مع ما فيه مِن بيانِ أنَّ مَدارَ الإصابةِ مِن جِهَتِهم آثِرَ ذي أَثِيرٍ[(٤)].

- وجُملةُ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾، وهي تَهديدٌ بالوَعيدِ على تعنُّتِهم، وإصرارِهم على عدَمِ الاعترافِ بمُعجزةِ القُرآنِ، وتهكُّمِهم باستِعجالِ العذابِ الَّذي تُوُعِّدُوا به؛ فهُدِّدُوا بما سيحُلُّ بهم مِن الخوفِ بحُلولِ الكتائبِ والسَّرايا بهم تنالُ الَّذين حلَّتْ فيهم، وتَخويفِ مَن حولَهم، حتَّى يأتِيَ وعْدُ اللهِ بيوم بَدرٍ أو فتْحِ مكَّةَ[(٥)]، وذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

آثِرَ ذي أثيرٍ: أي: أوَّلَ كُلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٥).

على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- واستعمالُ ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ في أصلِها تدلُّ على الإخبارِ باستِمرارِ شيءٍ واقِعٍ؛ فإذا كانت هذه الآيةُ مكِّيَّةً، تَعيَّنَ أنْ تكونَ نزَلَت عند وُقوعِ بعضِ الحَوادِثِ المُؤلِمةِ بقُريشٍ مِن جُوعٍ أو مرَضٍ؛ فتكونُ هذه الآيةُ تَنبيهًا لهم بأنَّ ذلك عِقابٌ مِن اللهِ تعالى، ووعيدٌ بأنَّ ذلك دائمٌ فيهم حتَّى يأتِيَ وعْدُ اللهِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾؛ إيذانًا بأنَّ إتيانَ الوعْدِ المُغيَّا به مُحقَّقٌ، وأنَّ الغايةَ به غايةٌ بأَمْرٍ قريبِ الوُقوعِ، والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ مُراعاةً لإنكارِ المُشركينَ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فيه وعيدٌ لهم، وجوابٌ عنِ اقتِراحِهم الآياتِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على سبيلِ الاستهزاءِ، وتَسليةٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

- والاستهزاءُ: مُبالَغةٌ في الهزْءِ، مثلَ الاستسخارِ في السُّخريةِ[٤].

- قولُه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ استفهامٌ معناه التَّعجُّبُ بما حلَّ، وفي ضِمْنِه وعيدُ مُعاصِري الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الكُفَّارِ؛ فالكلامُ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمنينَ، ووعيدٌ للمُشركينَ[٥]. وفي التَّعبيرِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٨).

عنِ العِقابِ بقولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ دَلالةٌ ظاهرةٌ على تناهي كيفيَّةِ هذا العِقابِ في الشِّدَّةِ والفَظاعةِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، وفي سُورةِ الحجِّ: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]؛ فعقَّبَ الأُولى بقولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، والثَّانيةَ بقولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، مع تَساوي الآيتَينِ في مَقصودِ الوعيدِ لِمُكذِّبي الرُّسلِ عليهم السَّلامُ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ العِقابَ أشدُّ موقِعًا مِن النَّكيرِ؛ لأنَّ الإنكارَ يقَعُ على ما لا عِقابَ فيه بالفعْلِ، وعلى ما فيه العِقابُ بالفعْلِ، وأمَّا مُسمَّى العِقابِ فإنَّما يُرادُ به في الغالِبِ أخْذٌ بعَذابٍ مُناسِبٍ لِحالِ المُجْرمِ، إثْرَ مَعصيتِه، وعَقيبَ جريمتِه، وقد تقدَّمَ في آيةِ الرَّعدِ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الرعد: ٣٢]، والاستهزاءُ أمْرٌ مُرْتكَبٌ زائدٌ على التَّكذيبِ مِن التَّهاوُنِ، والاستِخفافُ بِجريمةٍ مُرْتكَبةٍ أشنَعُ جريمةً، فناسَبَها الإفصاحُ بالعِقابِ. أمَّا آيةُ الحجِّ فإنَّ الوعيدَ بها للمَذْكورينَ بالتَّكذيبِ ولم يذْكُرْ منهم استهزاءً، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤]؛ فلم يُخبِرْ عن هؤلاءِ بغيرِ التَّكذيبِ، وليس كالاستهزاءِ؛ فقد يُؤْمِنُ المُكذِّبُ ويَصلُحُ حالُه، أمَّا المُستهزِئُ فلا يَصلُحُ، وقد كفَى اللهُ نَبيَّه إيَّاهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]؛ فناسَبَ النَّظمَ تَعقيبُ كلِّ آيةٍ بما يُناسِبُ مُرْتكِبَ مَن قُدِّمَ، ولم يكُنْ عكْسُ الوارِدِ لِيُناسِبَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٨١-٢٨٢).

الآيتان (٣٣-٣٤)

﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ
بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ
وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾.

المعنى الإجماليُّ:

تُبيِّنُ لنا الآياتُ الكريمةُ لونًا مِن الحِجاجِ مع المُشركينَ، يتضَمَّنُ توبيخًا لهم، وتعجيبًا مِن عُقولِهم، فيقولُ سُبحانه: أفمَن هو قائِمٌ على شُؤونِ جَميعِ العِبادِ- مِن أرزاقٍ وغيرِها- رقيبٌ على ما يَكسِبونَه مِن أعمالٍ، حافِظٌ لها، ومُجازٍ عليها، كمَن ليس كذلك مِن هذه الأصنامِ؟!

وجَعَلوا لله شُرَكاءَ مِن خَلْقِه يَعبُدونَهم، قلْ لهم- يا محمدُ: سمُّوهم بالأسماءِ التي يستحقُّونَها ما دُمتُم جعَلْتموهم شركاءَ لله، ولن يَجِدوا ما يَجعَلُهم أهلًا للعبادةِ، أم تُخبِرونَ اللهَ بشُرَكاءَ في أرضِه لا يعلَمُهم، أم تُسَمُّونَهم شُرَكاءَ بظاهرٍ مِن اللَّفظِ مِن غيرِ أن يكونَ لهم حقيقةٌ! بل حُسِّنَ للكُفَّارِ قَولُهم الباطِلُ، وصُرِفوا عن سبيلِ الله. ومَن يُضِلَّه الله فلا أحدَ يهديه، ويأخذُ بيدِه إلى الحَقِّ والرَّشادِ، ولهؤلاء الكُفَّارِ عذابٌ في الحياةِ الدُّنيا بالقتلِ والأسرِ والخِزي والمصائبِ والآفاتِ، ولَعذابُهم في الآخرةِ أغلظُ وأشَدُّ، وليس لهم من أحدٍ يَمنَعُهم مِن عذابِ اللهِ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ
بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ

ﭽ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ ﭼ.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها تفريعٌ على مجموعِ قَولِه تعالى: ﭽوَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَﭼ [الرعد: ٣٠]، أي: أنَّ كُفرَهم بالرَّحمنِ وإيمانَك بأنَّه ربُّك المقصورةُ عليه الرُّبوبيَّةُ، يتفَرَّعُ على مجموعِ ذلك استفهامُهم استفهامَ إنكارٍ عليهم تسويتَهم مَن هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بمن ليس مِثلَه مَن جعلوهم له شرُكاءَ(١).

وأيضًا: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الوعيدَ للكافرينَ، والجوابَ عن اقتراحِهم الآياتِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أورد تعالى على المُشرِكينَ ما يجري مَجرى الحِجاجِ، وما يكونُ توبيخًا لهم وتَعجيبًا مِن عُقولِهم(٢)، فقال:

ﭽ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ﭼ.

أي: أفاللهُ القائِمُ على شُؤونِ جَميعِ عِبادِه -ومِن ذلك أرزاقُهم- العالِمُ بهم وبأحوالِهم، الرَّقيبُ على ما يَكسِبونَه مِن أعمالٍ، الحافِظُ لها، والمُجازي عليها خيرًا وشَرًّا، كمَن ليس بهذه الصِّفةِ مِن الأصنامِ التي لا تسمَعُ ولا تُبصِرُ، ولا تنفَعُ ولا تضُرُّ؟! كلَّا، ليس الأمرُ كذلك(٣).

ﭽ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡ ﭼ.

أي: اللهُ هو القائِمُ بأرزاقِ هؤلاء المُشرِكينَ، والمدبِّرُ لأمورِهم، والرَّقيبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٠).
قال السمعاني: (أكثرُ المفسِّرين أنَّ قولَه: ﭽ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ﭼ هُوَ الله). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٩٦).

الحافِظُ عليهم أعمالَهم، ومع ذلك جعلوا لله شُرَكاءَ مِن خَلقِه يَعبدونَهم معه! قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الكُفَّارِ: سَمُّوا هؤلاء الذين أشَركتُموهم في عبادةِ اللهِ بالأسماءِ التي يستحِقُّونَها: هل هي خالقةٌ رازقةٌ، محييةٌ مميتةٌ، أم هي مخلوقةٌ، لا تملكُ ضرًّا ولا نفعًا؟ فإذا سمَّوْها فوصَفوها بما تستحِقُّه مِن الصفاتِ، تبيَّنَ ضلالُهم، فما يسمُّونَهم إلا بما يعلمون أنَّ تلك الأسماءَ لهم حقيقةٌ، كحجرٍ وخشبٍ وكوكبٍ وأمثالِها(١).

قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٥٤) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥١، ١٥٢).

قال ابنُ تيمية: (إذا جعلتُم أولئك شركاءَ فسمُّوهم إذًا بالأسماءِ التي يسمَّى بها القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ، فإنَّه سبحانَه يسمَّى بالحيِّ القيوم، المحيي المميتِ، السميع البصيرِ، الغنيِّ عما سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، ووجودُ كلِّ شيءٍ به، فهل تستحِقُّ آلهتُكم اسمًا مِن تلك الأسماءِ؟ فإن كانت آلهةً حقًّا فسمُّوها باسمٍ مِن هذه الأسماءِ؛ وذلك بهتٌ بيِّنٌ؛ فإذا انتفى عنها ذلك عُلِم بطلانُها، كما عُلِم بطلانُ مسمَّاها. وأمَّا إن سمَّوها بأسمائِها الصادقةِ عليها كالحجارةِ وغيرِها مِن مسمَّى الجماداتِ وأسماءِ الحيوانِ التي عبدوها مِن دونِ الله كالبقرِ وغيرِها، وبأسماءِ الشياطينِ الذين أشركوهم مع الله جلَّ وعلا، وبأسماءِ الكواكبِ المسخراتِ تحتَ أوامرِ الربِّ، والأسماءُ الشاملةُ لجميعِها أسماءُ المخلوقاتِ المحتاجاتِ المدبراتِ المقهوراتِ. وكذلك بنو آدمَ عبادةُ بعضِهم بعضًا، فهذه أسماؤُها الحقُّ، وهي تبطلُ إلهيتَها؛ لأنَّ الأسماءَ التي مِن لوازمِ الإلهيةِ مستحيلةٌ عليها؛ فظهَر أن تسميتَها آلهةً مِن أكبرِ الأدلةِ على بطلانِ إلهيتِها، وامتناعِ كونِها شركاءَ لله عزَّ وجلَّ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٩٧).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ ليس يريدُ بهذا أن يَذكُروا أسماءَهم التي جعَلوها لهم كاللَّاتِ والعُزَّى؛ لأنَّه لا يكونُ في هذا احتِجاجٌ عليهم، ولكِنَّ المعنى: سَمُّوهم بما يَستَحِقُّونَ مِن الأسماءِ التي هي صِفاتٌ، ثمَّ انظُروا هل تدُلُّ صِفاتُهم على أنَّه يجوزُ أن يُعبَدوا أم لا؟ وهذا تنبيهٌ على أنَّهم مُبطِلونَ؛ لأنَّ المعنى يَؤُولُ إلى أنَّ الصَّنَمَ لو كان إلهًا لتُصُوِّرَ منه أن يَخلُقَ ويَرزُقَ ويُحييَ ويُميتَ، ولحَسُنَ حينئذٍ أن يُسمَّى بالخالِقِ والرَّازِقِ، فكأنَّ اللهَ تعالى قال: قُلْ سَمُّوهم بإضافةِ أفعالِهم إليهم إن كانوا شُرَكاءَ لله تعالى، كما يضافُ إلى الله تعالى أفعالُه بالأسماءِ الحُسنى). ((البسيط)) (١٢/ ٣٥٩).

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: أم الأمرُ -أيُّها المُشرِكونَ- أنَّكم تُخبِرونَ اللهَ بأنَّ معه شُركاءَ في الأرضِ، وهو لا يعلَمُ بذلك؟! وما لا يعلَمُ عالِمُ الغَيبِ والشهادةِ أنَّه موجودٌ، فباطِلٌ، ولو كان موجودًا لعَلِمَه[(١)].

﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾.

أي: أم الأمرُ أنَّكم ادَّعيتُم لله شُركاءَ بمُجَرَّد ظواهِرِ أقوالِكم التي لا حقيقةَ لها، وإنَّما هي ظَنٌّ وكَذِبٌ، وباطِلٌ[(٢)].

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾.

أي: ليس لله شَريكٌ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، ولكِنْ زُيِّنَ[(٣)] للمُشرِكينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٣) قال الشوكاني: (وقرأ ابنُ عباس «زَيَّنَ» على البناء للفاعل، على أنَّ الذي زيَّنَ لهم ذلك هو مكرُهم. وقرأ مَن عداه بالبناءِ للمفعولِ، والمُزَيِّنُ هو اللهُ سبحانه، أو الشَّيطانُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٢).
وممَّن نصَّ على أنَّ المزَيِّنَ هو اللهُ عزَّ وجلَّ: ابنُ عطية، والرازي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٣).
وممن قال بأن المزينَ هنا هو الشيطانُ: الواحدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٣).
وممن قال مِن السلفِ بذلك: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٧).

كُفرُهم وشِركُهم وكَذِبُهم على اللهِ(١).

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿وَصُدُّواْ﴾ بضمِّ الصادِ على ما لم يسَمَّ فاعِلُه، أي: أُضِلُّوا عن الإيمانِ، قيل: صَدَّهم اللهُ عن اتِّباعِ سَبيلِه؛ لكُفرِهم به، وقيل: صَدَّهم الشَّيطانُ بتَزيينِه(٢).

٢- قراءةُ ﴿وَصَدُّوا﴾ بفتح الصادِ، بإسنادِ الفعل إلى الفاعلِ، أي: صَدُّوا بأنفُسِهم وأعرَضوا عن الإيمانِ، وقيل: صَدُّوا غيرَهم عن الإيمانِ فأضلُّوهم، وقيل: إنَّهم لمَّا زُيِّنَ لهم ما هم فيه وأنَّه حقٌّ، دَعَوا إليه وصَدُّوا النَّاسَ عن اتِّباعِ طريقِ الرُّسلِ(٣).

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وصُرِفوا -لكُفرِهم بالله- عن طريقِ الإيمانِ المُستقيمِ المُوصِل إليه وإلى دارِ كرامتِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

قال ابن عطية: (﴿مَكْرُهُمْ﴾: لفظٌ يعُمُّ أقوالَهم وأفعالَهم التي كانت بسبيلِ مُناقضةِ الشَّرعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٤).

(٢) قرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكسائي ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٢).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٩، ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

أي: ومَن يُضِلَّه اللهُ عن طريقِ الحَقِّ، ويَخذُلْه عن اتِّباعِه، فلا أحدَ يُوفِّقُه إلى الخيرِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

وقال سُبحانه: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن الكافرينَ بتلك الأمورِ المذكورةِ؛ بيَّنَ أنَّه جمعَ لهم بين عذابِ الدُّنيا، وبين عذابِ الآخرةِ الذي هو أشَقُّ، وأنَّه لا دافِعَ لهم عنه لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[2].

وأيضًا فإنَّها استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن قَولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٦).

هذا التَّهديدَ يُومئُ إلى وعيدٍ يسألُ عنه السَّامِعُ، وفيه تكمِلةٌ للوعيدِ المتقَدِّمِ في قولِه: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ مع زيادةِ الوعيدِ بما بعدَ ذلك في الدَّارِ الآخرةِ[١].

﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: لهؤلاءِ الكُفَّارِ عَذابٌ في الحياةِ الدُّنيا بالقتلِ والأسرِ والخِزيِ، والمصائبِ والأمراضِ والآفاتِ[٢].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّ﴾.

أي: ولَعذابُهم في الآخرةِ أشَدُّ وأغلَظُ مِن عذابِهم في الدُّنيا[٣].

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾.

أي: وما لهؤلاءِ الكافرينَ مِن أحدٍ يَقيهم ويمنَعُهم مِن عذابِ اللهِ[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- كلُّ نَقصٍ وبَلاءٍ وشَرٍّ في الدُّنيا والآخرةِ، فسَببُه الذنوبُ، ومُخالفةُ أوامِرِ الرَّبِّ؛ فليس في العالَمِ شَرٌّ قَطُّ إلَّا الذُّنوبُ ومُوجِباتُها. وآثارُ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ في القلوبِ والأبدانِ والأموالِ أمرٌ مشهودٌ في العالَمِ، لا يُنكِرُه ذو عَقلٍ سَليمٍ، بل يَعرِفُه المُؤمِنُ والكافِرُ، والبَرُّ والفاجِرُ. وشهودُ العَبدِ هذا في نَفسِه وفي غيرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

وتأمُّلِه ومُطالعتُه: مِمَّا يُقوِّي إيمانَه بما جاءت به الرُّسُلُ، وبالثَّوابِ والعقابِ؛ فإنَّ هذا عَدلٌ مَشهودٌ مَحسوسٌ في هذا العالَمِ، ومَثوباتٌ وعُقوباتٌ عاجِلةٌ دالَّةٌ على ما هو أعظَمُ منها لِمَن كانت له بَصيرةٌ، ومتى انفتَحَ هذا البابُ للعبدِ انتفَعَ بمُطالعةِ تاريخِ العالَمِ، وأحوالِ الأُمَمِ، ومُجرَياتِ الخَلقِ، بل انتفَعَ بمُجرَياتِ أهلِ زَمانِه وما يُشاهِدُه من أحوالِ النَّاسِ، وفَهِمَ حينئذ معنى قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، وقولِه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] فكُلُّ ما تراه في الوجودِ مِن شَرٍّ وألمٍ وعقوبةٍ وجَدبٍ، ونَقصٍ في نَفسِك وفي غَيرِك؛ فهو من قيامِ الرَّبِّ تعالى بالقِسطِ، وهو عَدلُ اللهِ وقِسطُه وإن أجراه على يَدِ ظالمٍ؛ فالمُسلِّطُ له أعدَلُ العادلينَ(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هو تعالى المحيطُ بأحوالِ النُّفوسِ جَلِيِّها وخَفِيِّها، ونبَّهَ على بعضِ حالاتِها وهو (الكسب)؛ ليتفكَّرَ الإنسانُ فيما يَكسِبُ مِن خيرٍ وشَرٍّ، وما يترتَّبُ على الكَسبِ في الجزاءِ(٢).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فاللهُ سُبحانه وتعالى يقومُ عليها بكَسبِها لا بكَسبِ غيرِها، وهذا مِن قيامِه بالقِسطِ(٣).

٢- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ معلومٌ أنَّ القائِمَ على كُلِّ نفسٍ بما كسَبَت هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، فصار الوجودُ كُلُّه قائمًا باللهِ تعالى؛

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٢٤-٤٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١٨٢).

إيجادًا، وإمدادًا، وإعدادًا[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فيه جوازُ وصفِ الله بالقيامِ على التَّقْييدِ، وهو أنَّه قَائِمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسَبتْ، ولا يجوزُ أَن يُسمَّى قَائِمًا على الإِطلاقِ؛ لأنَّ الشَّرْعَ لم يرِدْ به[٢].

٤- قد تضمَّنَ هذا الاحتجاجُ في هذه الآيةِ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾ أساليبَ وخصوصياتٍ:

أحدُها: توبيخُهم على قياسِهم أصنامَهم على اللهِ في إثباتِ الإلهيَّةِ لها قياسًا فاسدًا؛ لانتفاءِ الجهةِ الجامعةِ، فكيف يُسَوَّى مَن هو قائمٌ على كلِّ نفْسٍ بمَن ليسوا في شيءٍ من ذلك؟!

ثانيها: تَجهِيلُهم في جَعْلِهم أسماءً لا مُسمَّياتِ لها آلهةً.

ثالثُها: إبطالُ كونِ أصنامِهم آلهةً بأنَّ اللهَ لا يعلَمُها آلهةً، وهو كِنايةٌ عنِ انتفاءِ إلهيَّتِها.

رابعُها: أنَّ ادِّعاءَهم آلهةً مُجَرَّدُ كلامٍ، لا انطباقَ له مع الواقعِ، وهو قولُه: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

خامسُها: أنَّ ذلك تمويهٌ باطِلٌ روَّجَه فيهم دُعاةُ الكُفْرِ، وهو معنى تَسْميتِه مَكرًا في قولِه: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾.

سادسُها: أنَّهم يَصُدُّونَ النَّاسَ عن سَبيلِ الهُدى[٣].

٥- إنَّما قال الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّ﴾؛ لأنَّه أزيَدُ؛ إن شئتَ بسبَبِ

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٣).

القوَّةِ والشِّدَّةِ، وإن شئتَ بسبَبِ كثرةِ الأنواعِ، وإن شئتَ بسبَبِ أنَّه لا يختَلِطُ بها شيءٌ مِن مُوجباتِ الرَّاحةِ، وإنْ شِئتَ بسبَبِ الدَّوامِ، وعدمِ الانقطاعِ[1].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾ احتِجاجٌ عليهم في إشراكِهم باللهِ، يعني: أفاللهُ الَّذي هو قائمٌ رقيبٌ على كُلِّ نَفْسٍ صالحةٍ أو طالحةٍ بِما كَسَبَتْ، يعلَمُ خيرَه وشرَّه، ويُعِدُّ لكلٍّ جَزاءَه؛ كمَن ليس كذلك[2]؟!

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ إنكاريٌّ، وحُذِفَ خبَرُه تَصريحًا في التَّوبيخِ والزِّرايةِ عليهم على القياسِ الفاسِدِ؛ لِفقْدِ الجِهةِ الجامعةِ لهما، وهذا يُسَمَّى في البلاغةِ: (الإضمار على شَريطةِ التَّفسيرِ)، وهو: أنْ يُحْذَفَ مِن صدْرِ الكلامِ ما يُؤْتَى به في آخِرِه، فيَكونَ الآخِرُ دليلًا على الأوَّلِ[3].

- قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ استِئنافُ إخبارٍ عن سُوءِ صنيعِهم، وكونِهم أشْرَكوا مع اللهِ ما لا يصلُحُ للأُلوهيَّةِ؛ نَعَى عليهم هذا الفِعلَ القبيحَ، فهي جُملةٌ مُستقِلَّةٌ، جِيءَ بها للدَّلالةِ على الخبَرِ. أو حاليةٌ، أي: أَفَمَنْ هذه صِفاتُه كمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٧- ١٢٩).

ليس كذلك، وقد جعَلوا له شُركاءَ لا شريكًا واحدًا؟! وعلى القولِ بأنَّ هذه الجُملةَ معطوفةٌ على الخبَرِ، إنْ قُدِّرَ ما يصلُحُ لذلك، أي: أَفَمَنْ هذا شأنُه لم يُوَحِّدوه، وجَعَلوا له شُركاءَ؟! ووضَعَ المُظْهَرَ موضِعَ المُضْمَرِ -حيث لم يقُلْ: (وجعَلوا له)-؛ تَقديرًا لِأُلوهيَّتِه، وتَصريحًا بها، وللتَّنصيصِ على وَحدانيَّتِه ذاتًا واسمًا، وللتَّنبيهِ على أنَّهم جعَلوا شُركاءَ لِمَن هو فَردٌ واحدٌ لا يُشارِكُه أحدٌ في اسمِه، وللتَّنبيهِ على اختِصاصِه باستِحقاقِ العبادةِ، مع ما فيه مِن البَيانِ بعد الإبهامِ بإيرادِه مَوصولًا؛ للدَّلالةِ على التَّفخيمِ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾[1]. وقيل: فائدةُ هذا الإظهارِ: التَّعبيرُ عنِ المُسَمَّى باسمِه العَلَمِ الَّذي هو الأصلُ؛ إذ كان قد وقَعَ الإيفاءُ بحَقِّ العُدولِ عنه إلى الموصولِ في الجُملةِ السَّابقةِ، فتَهيَّأَ المَقامُ للاسمِ العَلَمِ، وليكونَ تصريحًا بأنَّه المُرادُ مِن الموصولِ السَّابقِ؛ زيادةً في التَّصريحِ بالحُجَّةِ[2].

- قولُه: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ هؤلاءِ الشُّركاءَ لا يستحِقُّونَ العِبادةَ، وتبْكيتٌ لهم إثرَ تبْكيتٍ، والمعنى: أي: سمُّوهم مَن هُمْ؟ وماذا أسماؤُهم؟ أو صِفُوهم، فانْظروا هل لهم ما يَستحِقُّونَ به العِبادةَ، ويستأْهِلونَ الشَّركةَ[3]؟! وقيل: هذا تهديدٌ، كما تقولُ لِمَن تُهَدِّدُه على شُرْبِ الخَمْرِ: سَمِّ الخمْرَ بعد هذا[4]، وفيه تعجيزٌ لهم، أي: عيِّنوا أسماءَهم، فقولوا: فُلانٌ وفلانٌ؛ فهو إنكارٌ لِوُجودِها على وجْهٍ بُرهانيٍّ، كما يقولُ المرْءُ لِخَصمِه: إنْ كان الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٧- ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٣).

تدَّعيه موجودًا فسَمِّه؛ لأنَّ المُرادَ بالاسمِ العِلمُ[١]. أو الأمْرُ مُستعمَلٌ في معنى الإباحةِ؛ كِنايةً عن قِلَّةِ المُبالاةِ بادِّعائِهم أنَّهم شُركاءُ، أي: سمُّوهم شُركاءَ، فليس لهم حَظٌّ إلَّا التَّسميةُ، أي: دونَ مُسَمَّى الشَّريكِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ فيه نَفْيُ الشَّيءِ بإيجابِه، أو عكسُ الظَّاهِرِ، وهو مِن مُستطرَفاتِ عِلْمِ البَيانِ، وحقيقةُ هذا النَّفيِ: أنَّهم ليسوا بشُركاءَ، وأنَّ اللهَ لا يعلَمُهم كذلك؛ لأنَّهم- في الواقعِ- ليسوا كذلك، وإنْ كانت لهم ذواتٌ ثابتةٌ يعلَمُها اللهُ، إلَّا أنَّها مَرْبوبةٌ حادِثةٌ لا آلهةٌ معبودةٌ، ولكنْ مَجِيءُ النَّفيِ بهذه الطَّريقةِ المَتلوَّةِ بَديعٌ لا تَكادُ تُكْتَنَه بَلاغتُه وعِبارتُه[٣].

- قولُه: ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ[٤]، وهذا احتِجاجٌ بليغٌ على أُسلوبٍ عجيبٍ يُنادي على نفْسِه بالإعجازِ، ويَدُلُّ على أنَّه ليس مِن كَلامِ البَشرِ لِمَن عرَفَ وأنصَفَ مِن نفْسِه[٥].

- وخَصَّ الأرضَ بنَفيِ الشَّريكِ عنها، وإن لم يكُنْ شَريكٌ البتَّةَ، فقال: ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّهم ادَّعَوا أنَّ له شُرَكاءَ في الأرضِ لا في غَيرِها[٦]. وقيل: قيَّد ذلك بـ (الأرض) لزيادةِ تجهيلِهم؛ لأنَّه لو كان يخفَى عن علمِه شيءٌ، لخفِي عنه ما لا يُرى، ولما خفِيت عنه موجوداتٌ عظيمةٌ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٧- ١٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٢٧- ١٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٥).

بزعمِكم(١).

- و﴿أَمْ﴾ الثَّانيةُ في قولِه: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ مُتَّصِلةٌ، وهي مُعادِلَةٌ همْزَةَ الاستفهامِ المُقدَّرَةَ في ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾، وإعادةُ الباءِ؛ للتَّأْكيدِ بعدَ ﴿أَمْ﴾ العاطفةِ(٢).

- ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فيه محذوفٌ، تقديرُه: أفمَنْ هو رقيبٌ على كلِّ نفْسٍ صالحةٍ وطالحةٍ، يَعلمُ ما كسبتْ مِن خيرٍ وشرٍّ، كمَن ليس كذلك مِن شُركائِهم الَّتي لا تضُرُّ ولا تنفَعُ؟! ويَدُلُّ عليه قولُه عَقِبَه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾، ونحوُه قولُه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، والتَّقديرُ: كمنْ قَسَا قَلبُه؛ يدلُّ له قولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٣) [الزمر: ٢٢].

- وفي قولِه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ العُدولُ عنِ اسمِ الجلالةِ إلى الموصولِ (مَنْ)؛ لأنَّ في الصِّلةِ دَليلًا على انتِفاءِ المُساواةِ، وتَخطئةً لأهْلِ الشِّركِ في تَشريكِ آلهتِهم للهِ تعالى في الإلهيَّةِ، ونِداءً على غَباوتِهم؛ إذْ هم مُعترِفونَ بأنَّ اللهَ هو الخالِقُ، ولِمَا في هذه الصِّلةِ مِن التَّعريضِ(٤).

- قولُه: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ فيه وضْعُ الموصولِ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ موضِعَ المُضْمَرِ (لهم)؛ ذمًّا لهم، وتَسجيلًا عليهم بالكُفْرِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤).

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ تَذييلٌ؛ لِمَا فيه مِن العُمومِ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾

- قولُه: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ﴾ فيه تَنكيرُ ﴿عَذَابٞ﴾؛ للتَّعظيمِ(٢).

- قولُه: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ ﴿مِن﴾ الأُولى صِلةٌ للوقايةِ، و﴿مِن﴾ الثَّانيةُ الدَّاخلةُ على ﴿وَاقٖ﴾ لتأْكيدِ النَّفْيِ؛ للتَّنصيصِ على العُمومِ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٥).

الآيات (٣٥-٣٧)

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ
تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ
وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ
أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: صِفَتُها أو شَبَهُها، وأصلُ (مثل): يدلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ(٤).

﴿أُكُلُهَا﴾: أي: ثمرُها، وأصْلُ (أكل): يدُلُّ على تَنَقُّصٍ(٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾

﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأٌ، والخبَرُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الجنَّةِ، وجملةُ ﴿تَجْرِي﴾ مُفَسِّرةٌ لذلك المَثَل، فلا محلَّ لها من الإعرابِ، ويجوزُ أن تكونَ حالًا مِن العائدِ المحذوفِ في ﴿وُعِدَ﴾ أي: وُعِدَها المتَّقونَ مُقَدَّرًا جَرَيانُ أنهارِها. وقيلَ: جملةُ ﴿تَجْرِي﴾ خبَرٌ عن ﴿مَّثَلُ﴾ باعتبارِ أنَّها مِن أحوالِ المضافِ إليه، وهو الجنَّةُ. وقيل غيرُ ذلك(٦).

---

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠).

(٦) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٩٨-٣٩٩)، ((التبيان في إعراب القرآن))

المعنى الإجماليُّ:

يذكُرُ اللهُ تعالى ما أعدَّه للمُؤمنينَ في الآخرةِ، فيقولُ: صِفةُ الجنَّةِ التي وعَدَ اللهُ بها المتَّقينَ أنَّ الأنهارَ تجري من تحتِ أشجارِها وقُصورِها، وأنَّ ثَمَرَها دائِمٌ لأهلِها لا ينقَطِعُ، وظِلَّها دائِمٌ لا يزولُ ولا يَنقُصُ، تلك الجنَّةُ هي عاقِبةُ المتقين، وعاقبةُ الكافرينَ باللهِ هي النَّارُ. ثمَّ بيَّنَ أنَّ أهلَ الكتابِ انقَسَموا فِئَتَين: فئةً فَرِحَت بنُزولِ القُرآنِ، وفِئةً أنكَرَته وكَفَرَت ببعضِه، فقال: والذين آتيناهم الكتابَ مِن اليهودِ والنَّصارى ممَن آمَنَ منهم بك يَفرحونَ بالقُرآنِ الذي أنزَلَه الله إليك؛ لِمُوافقتِه ما عندهم، ومن أهلِ المِلَلِ والأديانِ المتحَزِّبينَ عليك- يا محمَّدُ- مَن يكَذِّبُ ببعضِ ما في القُرآنِ الكريم، قُلْ لهم- يا محمَّدُ: إنَّما أمَرَني اللهُ بعبادتِه وَحدَه، وألَّا أشرِكَ به شَيئًا، إلى الله وحدَه أدعو النَّاسَ مُخلِصينَ له العبادةَ، وإليه مَرجِعي في جميع أموري.

ثمَّ بيَّنَ- سُبحانَه- أنَّه أرسَلَ رَسولَه بلُغةِ قَومِه كما أرسلَ مِن قَبلِه رُسُلًا بلُغاتِ أقوامِهم، فقال: كما أنزَلْنا الكتُبَ على الأنبياءِ السابقين بلُغاتِهم، أنزَلْنا عليك القُرآنَ محكمًا بلُغةِ العَرَبِ؛ لتحكُمَ به بينَ الناسِ، ولَئِن اتَّبَعتَ أهواءَ المُشرِكينَ -بعد الحَقِّ الذي جاءك مِن الله- ما لك مِن ناصرٍ ينصُرُك ويتولَّى أمورَك، ولا واقٍ يقيك عذابَ اللهِ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾.

للعكبري (٢/ ٧٥٩-٧٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٨-٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ عذابَ الكُفَّارِ في الدُّنيا والآخرةِ، أتبعَه بذكرِ ثوابِ المتَّقينَ[١].

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

أي: صِفةُ الجنَّةِ -التي وعدَ اللهُ بها المتَّقينَ في الآخرةِ- أنَّ الأنهارَ تجري من تحتِ قُصورِها وأشجارِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمد: ١٥].

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾.

أي: ما يُؤكَلُ في الجنَّةِ مِن ثمارِها دائِمٌ لأهلِها، لا ينفَدُ ولا ينقَطِعُ عنهم، وظِلُّها أيضًا دائِمٌ لا يزولُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ * وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ * وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ * لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٠ - ٣٣].

﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

أي: تلك الجنَّةُ العاليةُ الأوصافِ هي عاقِبةُ المُتَّقينَ الذين امتَثلوا ما أمَرَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: صفتُها أنَّ الأنهارَ تجري مِن تحتِها، هذا قولُ الجمهورِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

اللهُ به، واجتَنَبوا ما نهاهم عنه، وعاقِبةُ الكافرينَ بالله هي النَّارُ[١].

كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

وقال سُبحانه: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر أحوالَ المشركين مِن قولِه: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ ... ﴾ [الرعد: ٣٠]؛ ذكَر فضلَ بعضِ أهلِ الكتابِ في حسنِ تلقِّيهم للقرآنِ، فالذين أُرسل إليهم النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالقرآنِ انقسَموا في التصديقِ بالقرآنِ فرقًا، ففريقٌ آمنوا بالله وهم المؤمنون، وفريقٌ كفَروا به، وهذا فريقٌ آخرُ أيضًا - أهلُ الكتابِ - وهو منقسمٌ أيضًا[٢].

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾.

أي: والذين آتيناهم التَّوراةَ والإنجيلَ ممَّن آمنَ بك -يا محمَّدُ- مِن اليَهودِ والنَّصارى، يَفرحونَ بالقُرآنِ الذي أنزَلَه الله إليك[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٥، ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

وهذا المعنى المذكورُ لقولِه تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ هو اختيارُ الزمخشري، والقرطبي، وأبي حيان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره محمد رشيد رضا، والسعدي،

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾.

أي: ومن أهلِ المِلَلِ والأديانِ المتحَزِّبينَ عليك- يا محمَّدُ- مَن يكَذِّبُ ببعضِ ما في القُرآنِ الكريم[1].

والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٥-٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير المنار)) لرضا (١١/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((أضواء البيان)) (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٦٥٨).

قال الزمخشري: (يريدُ من أسلمَ من اليهودِ- كعبدِ اللهِ بنِ سَلام، وكعب وأصحابهما، ومن أسلمَ منَ النَّصارى- وهم ثمانون رجلًا: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن- هؤلاء ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

قال الزمخشري: (﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني: ومن أحزابهم، وهم كفَرَتُهم الذين تحزَّبوا على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعداوةِ، نحو كعب بن الأشرف وأصحابه، والسيِّد والعاقبِ أُسقُفَي نجران، وأشياعهما، ﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾ لأنَّهم كانوا لا يُنكرونَ الأقاصيصَ وبعضَ الأحكام والمعاني [مما] هو ثابتٌ في كتُبِهم غيرُ مُحرَّف، وكانوا ينكِرونَ ما هو نعتُ الإسلامِ ونعتُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وغير ذلك مما حرَّفوه وبدَّلوه مِن الشرائعِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (فالأظهَرُ أنَّ المرادَ بالأحزابِ أحزابُ الذين أوتُوا الكِتابَ، كما جاء في قَولِه تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ [مريم: ٣٧]، أي: ومِن أحزابِهم مَن يُنكِرُ بَعضَ القُرآنِ، فاللامُ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، ولعَلَّ هؤلاء هم خُبَثاؤُهم ودُهاتُهم الذين توسَّموا أنَّ القُرآنَ يُبطِلُ شَرائِعَهم فأنكَروا بَعضَه، وهو ما فيه مِنَ الإيماءِ إلى ذلك مِن إبطالِ أُصولِ عقائِدِهم، مِثلُ عُبوديَّةِ عيسى عليه السَّلامُ بالنِّسبةِ للنَّصارى، ونبوَّتِه بالنِّسبةِ لليَهودِ. وفي التَّعبيرِ عنهم بالأحزابِ إيماءٌ إلى أنَّ هؤلاء هم المتحَزِّبونَ المتصَلِّبونَ لِقَومِهم ولِمَا كانوا عليه. وهكذا كانت حالةُ اضطرابِ أهلِ الكتابِ عندما دمغَتْهم بَعثةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأخذَ أمرُ

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾.

أي: قل -يا مُحمَّدُ-: إنَّما أمَرَني اللهُ بعِبادتِه وَحدَه، وألَّا أُشرِكَ به شيئًا(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحدَه أدعو النَّاسَ إلى طاعتِه مُخلِصينَ له العبادةَ، وإلى اللهِ مَرجِعي في جميعِ أموري، وإليه مَصيري(٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

أي: وكما أنزَلْنا الكتُبَ على الرُّسُلِ السَّابِقينَ بلُغاتِهم، كذلك أنزَلْنا عليك- يا مُحمَّدُ- القُرآنَ مُحكَمًا مُتقَنًا؛ لِتَحكُمَ به بين النَّاسِ، بلسانِ العَرَبِ(٣).

الإسلام يفشو). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال سُبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

أي: ولَئِن اتَّبَعتَ - يا محمَّدُ - أهواءَ تلك الأحزابِ الكافرةِ بعد ما جاءك مِن العِلمِ الذي علَّمَك اللهُ إيَّاه[1]، ما لك مِن اللهِ مِن ناصرٍ ينصُرُك ويتولَّى أمورَك، ولا واقٍ يقيك عذابَ اللهِ؛ فاحذَرْ مِن اتِّباعِ أهوائِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

(ص: ٤١٩).

(١) قال ابنُ عاشور: (ومعنى ﴿مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ ما بلَغَك وعَلِمتَه، فيَحتَمِلُ أن يرادَ بالموصولِ القرآنُ؛ تنويهًا به، أي: لَئِن شايعْتَهم فسألْتَنا آيةً غيرَ القرآنِ بعد أن نَزَل عليك القُرآنُ، أو بعد أن أعلَمْناك أنَّا غيرُ مُتنازِلينَ لإجابةِ مُقترَحاتِهم. ويَحتَمِلُ اتِّباعَ دينِهم؛ فإنَّ دينَهم أهواءٌ، ويكونُ المرادُ بـ﴿مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ هو دينُ الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٧)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

قال ابن تيمية: (ومُتابعتُهم فيما يختصُّون به من دينِهم وتوابعِ دينِهم؛ اتِّباعٌ لأهوائهم، بل يحصلُ اتِّباعُ أهوائهم بما هو دون ذلك). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٩٩).

وقال ابنُ عاشور: (واتِّباع أهوائهم يحتمِلُ السعيَ لإجابة طَلِبَتِهم إنزالَ آيةٍ غير القرآن؛ تحذيرًا من أن يسأل اللهَ إجابتَهم لِما طلبوه، كما قال لنوح عليه السَّلامُ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٠).

وقال سُبحانه: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الفرَحُ بالعِلمِ والإيمانِ والسنَّة دليلٌ على تعظيمِه عند صاحِبِه، ومحبَّتِه له، وإيثارِه له على غيرِه؛ فإنَّ فرَحَ العبدِ بالشَّيءِ عندَ حصولِه له، على قَدرِ محبَّتِه له ورغبتِه فيه؛ فمَن ليس له رغبةٌ في الشَّيءِ لا يُفرِحُه حُصولُه له، ولا يَحزُنُه فَواتُه، فالفرَحُ تابعٌ للمحبَّةِ والرَّغبةِ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، فالفرَحُ باللهِ وبرسولِه، وبالإيمانِ وبالسنَّةِ، وبالعِلمِ وبالقرآنِ: مِن أعلَى مقاماتِ العارفينَ[(١)].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ هذه الآيةُ تتضمَّنُ النَّهيَ عن اتِّبَاعِ أهواءِ أَحَدٍ في خلافِ شريعتِه وسُنَّتِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ومن ذلك أهلُ الأهواءِ مِن هذه الأمَّةِ[(٢)]، وفيها وعيدٌ لأهلِ العِلمِ أن يتَّبِعوا سُبُلَ أهلِ الضَّلالةِ بعدما صاروا إليه مِن سُلوكِ السُّنَّة النبويَّة والمَحجَّة المُحمَّديَّة- على من جاء بها أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ- كما أنَّه بَعْثٌ للأمَّةِ، وتهييجٌ على الثَّباتِ في الدِّينِ والتصَلُّبِ فيه[(٣)]، وتحذيرٌ مِن الركونِ إلى تمويهاتِ المشركين[(٤)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ فيه دَلالةٌ على بقاءِ نعيمِ الجنَّةِ، إلَّا

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦١).

أنَّ الدَّائمَ الذي لا يَنفَدُ ولا يَنقَضي إنَّما هو النَّوعُ، وإلَّا فكلُّ فَردٍ مِن أفرادِه نافِدٌ مُنقَضٍ ليس بدائمٍ(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ حَرَكاتِ أهلِ الجنَّةِ لا تنتهي إلى سُكونٍ دائمٍ، كما يقولُه أبو الهُذَيل(٢) وأتباعُه(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الرسلَ- صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم- لم يخبِروا بما تُحيلُه العقولُ، وتقطعُ باستحالتِه؛ لأنَّ النفوسَ لا تفرحُ بالمحالِ(٤).

٤- جمعَ اللهُ تعالى كُلَّ ما يَحتاجُ المرءُ إليه في مَعرفةِ المبدأِ والمعادِ في ألفاظٍ قَليلةٍ منه، فقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ وهذا الكلامُ جامعٌ لكُلِّ ما ورد التَّكليفُ به، وفيه فوائِدُ:

أوَّلُها: أنَّ كَلِمةَ (إنَّما) للحَصرِ، ومعناه: إنِّي ما أُمِرتُ إلَّا بعبادةِ الله تعالى، وذلك يدُلُّ على أنَّه لا تَكليفَ ولا أمْرَ ولا نَهيَ إلَّا بذلك.

وثانيها: أنَّ العبادةَ غايةُ التَّعظيمِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ المرءَ مُكَلَّفٌ بذلك.

وثالثُها: أنَّ عِبادةَ اللهِ واجِبةٌ، وهو يُبطِلُ قَولَ نُفاةِ التَّكليفِ، ويُبطِلُ القَولَ بالجَبرِ المَحضِ.

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ٣١٠، ٤٢٦).

(٢) هو أبو الهُذيلِ محمَّدُ بنُ الهُذيلِ البَصريُّ، العَلَّافُ، شَيخُ المُعتَزلةِ، وُلِدَ في البَصرةِ، واشتُهر بعِلمِ الكلامِ، له مقالاتٌ في الاعتزالِ، ومَجالِسُ ومُناظَراتٌ، زعم أنَّ نعيمَ الجنَّةِ وعذابَ النَّارِ ينتهيان، بحيث إنَّ حَرَكاتِ أهلِ الجنَّةِ تَسكُنُ، حتى لا يَنطِقونَ بكَلِمةٍ، وأنكرَ الصِّفاتِ المُقدَّسةَ حتى العِلمَ والقُدرةَ! يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٠/ ٥٤٢)، ((الأعلام)) للزِّركلي (٧/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٦٢).

ورابعُها: قَولُه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓ﴾ وهذا يدُلُّ على نفيِ الشُّرَكاءِ والأندادِ والأضدادِ بالكليَّةِ، ويدخُلُ فيه إبطالُ قَولِ كُلِّ من أثبَتَ مَعبودًا سِوى اللهِ تعالى.

وخامسُها: قَولُه: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ والمرادُ منه أنَّه كما وجَبَ عليه الإتيانُ بهذه العباداتِ، فكذلك يجِبُ عليه الدعوةُ إلى عبوديَّةِ اللهِ تعالى، وهو إشارةٌ إلى نبُوَّتِه.

وسادسُها: قَولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ وهو إشارةٌ إلى الحَشرِ والنَّشرِ والبَعثِ والقيامةِ، فإذا تأمَّلَ الإنسانُ في هذه الألفاظِ القليلةِ ووقَفَ عليها، عرَفَ أنَّها محتويةٌ على جَميعِ المطالِبِ المُعتَبَرةِ في الدِّينِ[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ توعَّدَ رَسولَه -مع أنَّه معصومٌ-؛ ليمتَنَّ عليه بعِصمتِه، ولتَكونَ أُمَّتُه أُسوتَه في الأحكامِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾

- قولُه: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ؛ للمُناسَبةِ بالمُضادَّةِ، وهي كالبيانِ لجُملةِ ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[٣]، والمعنى: عُقْبَى الكافرينَ لا غيرُ، وفيه ما لا يخْفَى مِن إطماعِ المُتَّقينَ، وإقناطِ الكافرينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقَل به إلى فَضْلٍ لبعْضِ أهلِ الكِتابِ في حُسْنِ تلقِّيهم للقُرآنِ، بعد الفراغِ مِن ذكْرِ أحوالِ المُشركينَ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ ...﴾ إلخ؛ ولذلك جاءتْ على أُسلوبِها في التَّعقيبِ بجُملةِ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾[1].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ اتَّصَلَ هذا بقولِه قبلَه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، أي: لم يُعطَفْ عليه؛ لأنَّه جوابٌ للمُنكرينَ، معناه: قُلْ: إنَّما أُمِرْتُ فيما أُنْزِلَ إليَّ بأنْ أعبُدَ اللهَ ولا أشرِكَ به، فإنكارُكم لِبعضِه إنكارٌ لِعبادةِ اللهِ وتوحيدِه[2].

- وأفادت ﴿إِنَّمَآ﴾ أنَّه لم يُؤْمَرْ إلَّا بأنْ يعبُدَ اللهَ ولا يُشرِكَ به، أي: لا بغيرِ ذلك ممَّا عليه المُشركونَ؛ فهو قصْرٌ إضافيٌّ دلَّت عليه القرينةُ[3].

- قولُه: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ؛ للتَّخصيصِ، فالمعنى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ خُصوصًا، لا أَدْعو إلى غيرِه، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيرِه مَرْجِعي[4].

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ هذا مِن بابِ الإلْهابِ والتَّهييجِ، والبَعثِ للسَّامعينَ على الثَّباتِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٣).

الدِّينِ، والتَّصلُّبِ فيه، وألَّا يَزِلَّ زالٌّ عند الشُّبهةِ بعدَ استمساكِه بالحُجَّةِ، وإلَّا فقد كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن شِدَّةِ الشَّكيمةِ بمكانٍ[1].

- قولُه: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ فيه الْتفاتٌ مِن التَّكلُّم ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ إلى الغَيبةِ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾- فلم يَقُلْ: (مِنَّا)- وإيرادُ الاسمِ الجليلِ؛ لِتربيةِ المَهابةِ[2].

- وأُدْخِلَ على المعطوفِ ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ حرْفُ النَّفيِ (لا)؛ للتَّأكيدِ[3]، و(مِن) الدَّاخِلةُ على اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ تتعلَّقُ بـ ﴿وَلِيٍّ﴾ و﴿وَاقٍ﴾، و(مِن) الدَّاخِلةُ على ﴿وَلِيٍّ﴾؛ لِتأْكيدِ النَّفيِ؛ تنصيصًا على العُمومِ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، وفي سُورةِ طَه قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣]؛ فاختلَفَتِ العِبارةُ في السُّورتينِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ سُورةَ الرَّعدِ لم يَتقدَّمْ فيها شيءٌ مِن القصصِ الإخباريَّةِ، وإنَّما المُتقدِّمُ فيها تَفاصيلُ أحكامٍ مرْجِعُها بجُملتِها إلى اختِلافِ أحوالِ المُكلَّفينَ، وتفْصيلُ أحوالِهم بحَسَبِ ما قَدَّرَه سُبحانَه في أَزَلِه، وما حَكَمَ به عليهم، ثمَّ بيَّنَ تعالى حُكْمَ كلٍّ مِن الفَريقينِ بعدَ وصْفِهم، ثمَّ أعقَبَ بِمآلِ الفَريقينِ؛ فقال فيمَن هداه فعلِمَ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] إلى قولِه: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، وأَتْبَعَ بحالِ الآخَرينَ المَوصوفينَ بنَقْضِ عهْدِه سُبحانَه، وأخبَرَ بأنَّ لهمُ اللَّعنةَ ولهم سُوءَ الدَّارِ، وبيَّنَ تعالى حُكْمَه في بَسْطِ الرِّزقِ لِمَن يشاءُ وقبْضِه عمَّن يَشاءُ، وأعلَمَ اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦١).

تعالى أنَّه يُضِلُّ مَن يَشاءُ ويَهْدي إليه مَن أناب، ثمَّ وصَفَهم بإيمانِهم واطْمئنانِ قُلوبِهم بِذكْرِه، ودارتِ الآياتُ بعدُ على أنَّ كلَّ جارٍ في خلْقِه فبِتَقْديرِه، وتَناسَب ذلك إلى الآيةِ، وكلُّ ما تَقدَّمَ فهو حُكمُه السَّابِقُ في خَلْقِه، فأعقَبَ هذا بقولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]. ولَمَّا تقدَّمَ آيةَ سُورةِ طه قَصَصُ مُوسى عليه السَّلامُ، وما جرَى مِن فِتْنةِ قَومِه بعدَه بفعْلِ السَّامريِّ، وما كان مِن قولِ هارونَ عليه السَّلامُ وتذْكيرِه إيَّاهم، وقولِ بَني إسرائيلَ: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١] إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، ثمَّ أتبَعَ هذا بما يُلائِمُه إلى قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣]، أي: قَصَصًا مَقْروءًا بلِسانِ العرَبِ، مُذَكِّرًا مَن وُفِّقَ لاعتبارِه والاتِّعاظِ به: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]؛ فناسَبَ كلٌّ مِن العِبارتينِ مَوضِعَه أتَمَّ مُناسَبةٍ، ولم يكُنِ العكْسُ لِيُناسِبَ[(١)].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٨٢-٢٨٣).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يرُدُّ اللهُ تعالى على من كان يُنكِرُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تزَوُّجَه بالنِّساءِ قائلًا: لقد بَعَثْنا قبلَ هذا الرَّسولِ رُسُلًا مِن البَشَرِ، وجَعَلْنا لهم أزواجًا وذُرِّيَّةً، فما بالُكم تُنكِرونَ عليه ما كانوا عليه؟! ثمَّ ردَّ على الكُفَّارِ ما اقتَرَحوه على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الآياتِ بأنَّه ليس في قدرةِ رَسولٍ أن يأتيَ بمُعجزةٍ تدلُّ على صدقِه إلَّا بإذنِ اللهِ؛ لكُلِّ أمرٍ قضاه اللهُ ولكل أجَلٍ قدَّره كتابٌ أُثبِتَ فيه، يمحو اللهُ ما يشاءُ مِن الأقدارِ المكتوبةِ؛ مِن شَقاوةٍ أو سعادةٍ، أو رِزقٍ أو عُمُرٍ، وغيرِ ذلك، ويُبقي منها ما يشاءُ، وذلك فيما يكونُ في أيدي الملائكةِ مِن صحفٍ، وعِندَه أمُّ الكتابِ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ.

ثم يقولُ الله تعالى لنبيِّه: وإنْ أريناك- يا محمَّدُ- بعضَ العذابِ الذي توعَّدْنا به المشركين لكفرهم، أو توَفَّيناك قبلَ رؤية ذلك؛ فليس عليك إلَّا تبليغُ الرسالةِ، وعلينا لا عليك الحِسابُ والجَزاءُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا عَودٌ إلى الرَّدِّ على المُشرِكينَ في إنكارِهم آيةَ القُرآنِ، وتصميمِهم على المُطالبةِ بآيةٍ مِن مُقتَرَحاتِهم تُماثِلُ ما يُؤثَرُ مِن آياتِ موسى وآياتِ عيسى -عليهما السَّلامُ- ببيانِ أنَّ الرَّسولَ لا يأتي بآياتٍ إلَّا بإذنِ اللهِ، وأنَّ ذلك لا يكونُ على مُقتَرَحاتِ الأقوامِ(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾.

أي: ولَقد بَعَثْنا -يا محمَّدُ- إلى الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبلِك، فكانوا بشَرًا مِثلَهم، وجَعَلْنا لهم أزواجًا يَنكِحونَهنَّ، ورَزَقْناهم أولادًا؛ فلستَ أوَّلَ رَسولٍ بشَريٍّ أُرسِلَ إلى النَّاسِ، حتى يستغرِبَ قَومُك إرسالَك إليهم(٢).

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: ولا يَقدِرُ أيُّ رَسولٍ أرسَلَه اللهُ تعالى إلى قومٍ أن يأتيَ قَومَه بمُعجِزةٍ تدُلُّ على صِدقِه، إلَّا بأمرِ اللهِ؛ فهو الذي يأتي بالمُعجِزةِ، ويؤيِّدُ بها رسولَه متى شاء(٣).

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

أي: لكلِّ أجلٍ قدَّره الله، ولكلِّ أمرٍ قضاه، كتابٌ أُثبِت فيه، ووقت معلومٌ يقعُ فيه، لا يتقدَّمُ عليه ولا يتأخَّرُ، فلا تكونُ آيةٌ إلاَّ بأجلٍ قد قضاه الله تعالى في كتابٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦١-١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩).

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾.

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ﴾.

أي: يمحو اللهُ ما يشاءُ مِن الأقدارِ المكتوبةِ، فيمحو ما يشاءُ مَحوَه مِن شَقاوةٍ أو سعادةٍ، أو رِزقٍ أو عُمُرٍ، أو خيرٍ أو شَرٍّ، وغيرِ ذلك، ويُبقي منها ما يشاءُ[1]،

قال الواحدي: (المعنى: لأجلِ كُلِّ أمرٍ ووَقتِه كِتابةٌ مُثبتةٌ، لا يتقدَّمُ ذلك الأمرُ على وقتِه الذي كُتِبَ له ولا يتأخَّرُ عنه، هذا معنى قولِ أكثرِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٢/ ٣٧٦).

قال أبو حيان: (وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ لفظٌ عامٌّ في الأشياءِ التي لها آجالٌ؛ لأنَّه ليس منها شيءٌ إلَّا وله أجلٌ في بدئِه وفي خاتمتِه، وذلك الأجلُ مكتوبٌ محصورٌ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٧).

(١) وممَّن اختار هذا المعنى ورأى أنَّ ظاهِرَ الآيةِ يقتضي العمومَ: القرطبي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٥-١٠٦).

وممن قال بهذا القول من السلف: عمرُ بنُ الخطاب، وابنُ عبَّاس، وابنُ مسعود، وكعبٌ، والضحَّاك، وشقيقُ بن سلمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٩).

وقيل غير ذلك، يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٨ - ٤٧٠).

قال الواحدي: (﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اللَّوحُ المحفوظُ، يمحو منه ما يشاءُ ويُثبتُ ما يشاءُ، وظاهر هذه الآيةِ على العموم، وقال قومٌ: إلَّا السَّعادةَ والشَّقاوةَ، والموتَ والرِّزقَ، والخَلقَ والخُلُق). ((الوجيز)) (ص: ٥٧٥).

وقال ابنُ عطية: (وتخبَّط النَّاسُ في معنى هذه الألفاظِ، والذي يتخلَّصُ به مُشكِلُها: أن نعتَقِدَ أنَّ الأشياءَ التي قدَّرَها اللهُ تعالى في الأزَلِ وعَلِمَها بحالٍ ما: لا يَصِحُّ فيها محوٌ ولا تبديلٌ، وهي التي ثبَتَت في أُمِّ الكِتابِ وسبَقَ بها القَضاءُ، وهذا مرويٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ وغيرِه مِن أهلِ العِلمِ، وأمَّا الأشياءُ التي قد أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه يُبَدِّلُ فيها ويَنقُل، كعَفوِ الذُّنوبِ بعد تقريرِها، وكنَسخِ آيةٍ بعدَ تِلاوتِها واستِقرارِ حُكمِها- ففيها يقَعُ المحوُ والتَّثبيتُ فيما يُقَيِّدُه الحَفَظةُ ونحو ذلك، وأمَّا إذا رُدَّ الأمرُ للقضاءِ والقَدَرِ فقد محا اللهُ ما محا وثَبَّت ما ثَبَت، وجاءت العبارةُ مُستَقِلَّةً بمَجيءِ الحوادثِ وهذه الأمورِ فيما يُستأنَفُ مِنَ الزَّمانِ، فيَنتَظِرُ البَشَرُ ما يمحو أو ما يُثبِتُ، وبحَسَبِ ذلك خَوفُهم ورجاؤُهم ودعاؤُهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٧).

وذلك فيما يكونُ في أيدي الملائكةِ مِن صحفٍ[1].

وقال ابنُ جرير: (وأَولى الأقوالِ التي ذُكِرَت في ذلك بتأويلِ الآيةِ، وأشبَهُها بالصَّوابِ: القَولُ الذي ذكَرْناه عن الحسَنِ ومُجاهدٍ، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكرُه توَعَّدَ المُشركينَ الذين سألوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم الآياتِ- بالعُقوبةِ، وتهدَّدَهم بها، وقال لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] يُعلِمُهم بذلك أنَّ لقضائِه فيهم أجلًا مُثبَتًا في كتابٍ هم مؤخَّرونَ إلى وقتِ مجيءِ ذلك الأجَلِ، ثمَّ قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجَلُ يجيءُ اللهُ بما شاء ممَّن قد دنا أجَلُه، وانقطَعَ رِزقُه، أو حان هلاكُه، أو اتِّضاعُه مِن رِفعةٍ، أو هلاكُ مالٍ، فيَقضي ذلك في خَلقِه، فذلك مَحوُه، ويُثبِتُ ما شاء ممَّن بَقِيَ أجَلُه ورِزقُه وأكلُه، فيَترُكُه على ما هو عليه فلا يَمحوه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٦٩-٥٧٠).

وقال القاسمي :(قولُه تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فكم ترى مَن يَستَدِلُّ بها على العِلمِ المعَلَّقِ، ومحوِ ما في اللَّوحِ الذي يُسمُّونَه «لوحَ المحوِ والإثباتِ!» ويُورِدونَ من الإشكالاتِ والأجوبةِ ما لا يجِدُ الواقِفُ عليه مَقنَعًا ولا مُطْمأنًّا. مع أنَّ هذه الآيةَ لو تمعَّنَ فيها القارئُ لعَلِمَ أنَّها في معنى غيرِ ما يتوهَّمونَ؛ وذلك أنَّهم كانوا يقترِحونَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أوائِلِ البَعثةِ أن يأتيَ بآيةٍ كآيةِ موسى وعيسى؛ توهُّمًا أنَّ ذلك هو أقصى ما يدُلُّ على نبوَّةِ النبيِّ في كُلِّ زمانٍ ومَكانٍ، فأعلَمَهم اللهُ تعالى أنَّ دَورَ تلك الآياتِ الحِسِّيَّةِ انقضى دورُها وذهبَ عَصرُها، وقد استعَدَّ البَشَرُ للتنَبُّهِ إلى الآيةِ العَقليَّةِ، وهي آيةُ الاعتِبارِ والتبَصُّرِ، وأنَّ تلك الآياتِ مُحِيَت كما مُحِيَ عَصرُها، وقد أثبت تعالى غيرَها ممَّا هو أجلى وأوضَحُ وأدَلُّ على الدَّعوةِ، وهو قَولُه تعالى قَبلَها: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٨-٣٩]). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٩١).

(١) قال ابن تيمية: (... قال العلماءُ: إنَّ المَحْوَ والإثباتَ في صُحُفِ الملائكةِ، وأمَّا عِلمُ الله سبحانَه فلا يختلِفُ ولا يبدو له ما لم يكُن عالِمًا به، فلا محوَ فيه ولا إثباتَ، وأمَّا اللوحُ المحفوظُ، فهل فيه محوٌ وإثباتٌ، على قولين. واللهُ سبحانه وتعالى أعلَمُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٤٩٢).

وقال ابنُ عثيمين: (يقولُ رَبُّ العالَمينَ عزَّ وجلَّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوحُ المحفوظُ ليس فيه محوٌ ولا كِتابٌ، فما كُتِبَ في اللَّوحِ المَحفوظِ فهو كائنٌ ولا تَغييرَ فيه، لكِنْ ما كُتِبَ في الصُّحُفِ التي في أيدي الملائكةِ، فهذا: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾). ((شرح الأربعين النووية)) (ص: ٦٦).

وقال ابن حجر: (والحقُّ أنَّ ... الذي سبَقَ في عِلمِ الله لا يتغيَّرُ ولا يتبدَّلُ، وأنَّ الذي يجوزُ عليه التَّغييرُ والتَّبديلُ ما يبدو للنَّاسِ مِن عَمَلِ العامِلِ، ولا يَبعُدُ أن يتعلَّقَ ذلك بما في عِلمِ الحَفَظةِ والمُوكَّلين بالآدميِّ، فيقَعُ فيه المحوُ والإثباتُ، كالزِّيادةِ في العُمُرِ والنَّقصِ، وأمَّا ما في عِلمِ اللهِ

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

أي: وعندَ اللهِ أصلُ الكتابِ، وهو اللَّوحُ المَحفوظُ(١).

فلا محوَ فيه ولا إثباتَ، والعلمُ عندَ الله). ((فتح الباري)) (١١/ ٤٨٨).

وقال السعدي: (فالتَّغييرُ والتَّبديلُ يقَعُ في الفُروعِ والشُّعَبِ، كأعمالِ اليَومِ والليلةِ التي تَكتُبُها الملائِكةُ، ويجعَلُ اللهُ لثُبوتِها أسبابًا ولِمَحوِها أسبابًا، لا تتعَدَّى تلك الأسبابُ ما رُسِمَ في اللَّوحِ المحفوظِ، كما جعَلَ اللهُ البِرَّ والصِّلةَ والإحسانَ مِن أسبابِ طُولِ العُمُرِ وسَعةِ الرِّزقِ، وكما جعَلَ المعاصيَ سَببًا لِمَحقِ بَركةِ الرِّزقِ والعُمُرِ، وكما جعَلَ أسبابَ النَّجاةِ مِن المهالِكِ والمعاطِبِ سَببًا للسَّلامةِ، وجعل التعَرُّضَ لذلك سببًا للعَطَبِ؛ فهو الذي يدَبِّرُ الأمورَ بحَسَبِ قُدرتِه وإرادتِه، وما يُدَبِّرُه منها لا يخالِفُ ما قد عَلِمَه وكتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

ومن ذلك العمرُ، فالذي في علم الله لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ ويُقالُ له: القضاءُ المبرَمُ، والذي في علم المَلَكِ هو الذي يُمكنُ فيه الزيادةُ والنقصُ، ويُقالُ له القضاءُ المعلَّقُ، كأن يُقالَ للمَلَك مثلًا: إنَّ عمرَ فلانٍ مائةٌ مثلًا إن وصَل رحِمَه، وستُّون إن قطَعها، وقد سبَق في علمِ الله أنَّه يصِلُ أو يَقْطعُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤١٦).

وكذلك الرزقُ، فما في علمِ الله لا يتغيَّرُ، أمَّا ما كتَبه وأعلَم به الملائكةَ فهذا يزيدُ وينقصُ بحسبِ الأسبابِ، فإنَّ العبدَ يأمرُ الله الملائكةَ أن تكتبَ له رزقًا، وإن وصَل رحِمَه زاده الله، والأسبابُ التي يحصلُ بها الرزقُ هي مِن جملةِ ما قدَّره الله وكتَبه، ومِن الأدلةِ على ذلك ما ثبَت عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم أنَّه قال: ((مَن سرَّه أن يُبسطَ له في رزقِه، ويُنسأَ له في أثرِه فليَصِلْ رحمَه)). [البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧)]. وكذلك عمرُ داودَ زاد ستِّينَ سنةً فجعَله الله مائةً بعدَ أن كان أربعينَ. [الترمذي (٣٠٧٦) وقال: حسن صحيح]. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٠، ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٩)، ((شرح الأربعين النووية)) للعثيمين (ص: ٦٦).

قال الشوكاني: (قيل: إنَّ أمَّ الكتابِ هو عِلمُ الله تعالى بما خَلَق وما هو خالِقٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٦).

وقيل: المرادُ بـ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: كتابُ الأمورِ المجزومة التي قد سبق القضاءُ فيها بما هو كائنٌ وسبَقَ ألَّا تُبدَّلَ، ويبقى المحوُ والتثبيتُ في الأمورِ التي سبق في القضاءِ أن تُبَدَّلَ وتُمحى أو تُثبَت. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابن عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ باعتبارِ ما تُفيدُه مِن إبهامِ مُرادِ اللهِ في آجالِ الوعيدِ، ومواقيتِ إنزالِ الآياتِ، فبَيَّنَت هذه الجملةُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس مأمورًا بالاشتغالِ بذلك ولا بترَقُّبِه، وإنَّما هو مبَلِّغٌ عن اللهِ لعبادِه، واللهُ يعلَمُ ما يحاسِبُ به عبادَه، سواءٌ شهِدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذلك أم لم يَشهَدْه[١].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

أي: وإنْ أريناك -يا محمَّدُ- في حياتِك بعضَ العذابِ الذي نعِدُ به المُشرِكينَ

قال ابنُ عاشور: (والذي يلوحُ في معنى الآيةِ أنَّ ما في أمِّ الكِتابِ لا يقبَلُ محوًا، فهو ثابتٌ، وهو قَسيمٌ لِما يشاءُ اللهُ مَحْوَه، ويجوزُ أن يكونَ ما في أمِّ الكتابِ هو عينَ ما يشاءُ اللهُ مَحْوَه أو إثباتَه، سواءٌ كان تعيينًا بالأشخاصِ أو بالذَّواتِ أو بالأنواعِ، وسواءٌ كانت الأنواعُ مِن الذَّواتِ أو مِنَ الأفعالِ، وأنَّ جُملةَ ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أفادت أنَّ ذلك لا يطَّلِعُ عليه أحَدٌ. ويجوزُ أن يكونَ قَولُه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مرادًا به الكتابُ الذي كُتِبَت به الآجالُ، وهو قولُه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، وأنَّ المحوَ في غيرِ الآجالِ، ويجوزُ أن يكونَ «أمُّ الكتابِ» مرادًا به عِلمُ الله تعالى، أي: يمحو ويُثبِتُ، وهو عالمٌ بأنَّ الشَّيءَ سيُمحى أو يُثبَت... فإذا حُمِلَ المحوُ على ما يَجمَعُ معانيَ الإزالة، وحُمِلَ الإثباتُ على ما يجمَعُ معانيَ الإبقاءِ، وإذا حُمِلَ معنى «أم الكتابِ» على معنى ما لا يقبَلُ إزالةَ ما قُرِّرَ أنَّه حاصِلٌ أو أنَّه موعودٌ به، ولا يَقبَلُ إثباتَ ما قُرِّرَ انتِفاؤُه، سواءٌ في ذلك الأخبارُ والأحكامُ- كان ما في أمِّ الكتابِ قَسيمًا لِمَا يُمحَى ويُثبَتُ، وإذا حُمِلَ على أنَّ ما يَقبَلُ المحوَ والإثباتَ مَعلومٌ لا يتغيَّرُ عِلمُ اللهِ به، كان ما في أمِّ الكتابِ تنبيهًا على أنَّ التغييراتِ التي تطرأُ على الأحكامِ أو على الأخبارِ ما هي إلَّا تغييراتٌ مقرَّرةٌ مِن قَبلُ، وإنَّما كان الإخبارُ عن إيجادِها أو عن إعدامِها مُظهِرًا لِما اقتضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ في وقتٍ ما). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٦-١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٩).

لكُفرِهم، أو توفَّيناك قبلَ أن نُرِيَك عذابَهم؛ فليس عليك سوى تبليغِهم رسالةَ اللهِ في كِلا الحالَين[1].

﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

أي: وعلينا نحنُ -لا عليك- محاسَبةُ العبادِ، ومُجازاتُهم على أعمالِهم؛ ثوابًا أو عِقابًا[2].

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فيه أنَّ النِّكاحَ مِن سُنَّةِ المُرسَلينَ[3]، وفي ذلك ترغيبٌ في النكاحِ وحضٌّ عليه، ونهيٌ عن التبتلِ، وهو تركُ النكاحِ[4].

٢- استُدِلَّ على تفضيلِ النِّكاحِ على التَّخلي لنوافِلِ العبادةِ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ اختار النِّكاحَ لأنبيائِه ورُسُلِه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).
قال ابن عاشور: (قد أرى اللهُ نبيَّه بعضَ ما توعَّدَ به المُشركينَ مِن الهلاكِ بالسَّيفِ يومَ بدرٍ، ويومَ الفتحِ، ويومَ حُنَين وغيرها من أيَّام الإسلام في حياةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يُرِه بعضَه، مثل عذابِ أهلِ الرِّدَّة؛ فإنَّ مُعظمَهم كان من المكذِّبينَ المُبطِنين الكُفرَ مثل: مسيلِمة الكذاب). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢٧)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٧).

أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾، وقال في حقِّ آدمَ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[الأعراف: ١٨٩]، واقتطَعَ مِن زمَنِ كَليمِه عَشرَ سِنينَ في رعايةِ الغنَمِ مَهرًا للزَّوجةِ، ومعلومٌ مِقدارُ هذه السِّنينَ العَشرِ في نوافِلِ العباداتِ، واختار لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أفضَلَ الأشياءِ، فلم يُحِبَّ له تَركَ النِّكاحِ، بل زَوَّجَه بتِسعٍ فما فوقَهنَّ، ولا هَدْيَ فوقَ هَديِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ هذه الآيةُ صَريحةٌ في أنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَضاءِ الله وبقَدَرِه، وأنَّ الأمورَ مَرهونةٌ بأوقاتِها(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ أنَّ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يهديَ النَّاسَ هِدايةَ الدَّلالةِ والإرشادِ؛ أمَّا هدايةُ التَّوفيقِ فليسَت على الرَّسولِ، ولا إلى الرَّسولِ؛ فالرَّسولُ لا يجبُ عليه أنْ يهديَهم؛ وليس بقُدرتِه ولا استطاعتِه أنْ يهديَهم، ولو كان بقُدرتِه أن يهديَهم لَهَدى عَمَّه أبا طالبٍ، ولكنَّه لا يستطيعُ ذلك؛ لأنَّ هذا إلى الله سُبحانه وتعالى وَحدَه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ترْكيبُ (ما كان) يدلُّ على المُبالَغةِ في النَّفيِ(٤).

- قولُه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فيه الْتِفاتٌ، حيثُ لم يقُلْ: (إلَّا بإذْنِنا) على نَسَقِ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٣/ ٣٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٣).

﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿جَعَلْنَا﴾؛ لِتربيةِ المَهابةِ، ولِتَحقيقِ مَضمونِ الجُملةِ بالإيماءِ إلى العِلَّةِ(١).

- قولُه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ...﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّه أفادَ عُمومَ الآجالِ؛ فشَمِلَ أجَلَ الإتيانِ بآيةٍ مِن قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وذلك إبطالٌ لِتوهُّمِ المُشركينَ أنَّ تأخُّرَ الوعيدِ يَدُلُّ على عدَمِ صِدْقِه، وفي هذا الرَّدِّ تعريضٌ بالوعيدِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ الرُّومِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم: ٤٧]؛ فقُدِّمَ الرُّسلُ على المجرورِ في سُورةِ الرَّعدِ، وورَدَ في سُورةِ الرُّومِ بتَقْديمِ المَجرورِ على الرسلِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ المُتقرِّرَ في الكتابِ العزيزِ أنَّه إذا ورَدَ اسمُ نَبِيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع غَيرِه مِن الرُّسلِ عليهم السَّلامُ مُفْصحًا بأسمائِهم في آيةٍ واحدةٍ؛ فإنَّه يتقدَّمُ اسْمُه ظاهرًا كان أو مُضمرًا، ثمَّ يُذْكَرُ بعدَه مَن تَضمَّنَته الآيةُ منهم عليهم السَّلامُ، وجَمْعُ المذكَّرِ السَّالمُ مِن ألفاظِ العُمومِ عندَ الأُصوليينَ؛ فقولُه: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ يعُمُّ نَبيَّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وغيرَه مِن النَّبيِّينَ عليهم السَّلامُ. ثمَّ لَمَّا أفصَحَ بمَن ذُكِرَ في الآيةِ مِن أُولي العزْمِ؛ إشعارًا بِتَفضيلِهم على مَن سِواهم، بُدِئَ به عليه السَّلامُ، وقُدِّمَ المجرورُ في قولِه: ﴿مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ في سُورةِ الرُّومِ؛ لِمكانِ ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أمَّا آيةُ الرَّعدِ فمُوازِنٌ لها ومُناسِبٌ ما تَقدَّمَها من قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٤).

قَبۡلِكَ ﴾ [الرعد: ٣٢]؛ فتأخَّرَ الضَّميرُ في الآيتَينِ للمُوازَنةِ والتَّقابُلِ، والثَّانيةُ منهما مَحمولةٌ على الأُولى في رَعْيِ ما ذُكِرَ، وإنَّما تأخَّرَ ضَميرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآيةِ الأُولى عن ذِكرِ الرُّسلِ؛ لأنَّ ذِكْرَهم هنا عليهم السَّلامُ لم يَرِدْ مُعَرِّفًا بأحوالِهم وما مُنِحُوا مِن الاصطفاءِ والتَّكريمِ، وإنَّما ذُكِرَ هنا إساءةُ مُكذِّبي أُمَمِهم إليهم، ونَيْلُهم منهم ضُروبَ المَضرَّاتِ، وليس ذلك ممَّا يُعْرَفُ بِمَناصِبِهم في التَّفضيلِ، وإنَّما ذُكِرَ ذلك؛ لِيَتأسَّى بهم نَبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الصَّبرِ والتَّحمُّلِ، ولِيَقْتَديَ بِهُداهم، ثمَّ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم السِّيادةُ المَعروفةُ والمكانةُ المُتقرِّرةُ؛ فَتَقَدُّمُ ذِكْرِهم في قولِه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ [الرعد: ٣٢]، وتأخيرُ ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمَا ذُكِرَ، ثمَّ ورَدَتِ الآيةُ بعدُ؛ فجَرَى الإخبارُ فيها على ذلك؛ إحرازًا للمُناسَبةِ والمُوازنةِ أيضًا؛ فليس ذِكْرُهم مُجملًا غيرَ مُفصَّلٍ كذِكْرِهم على التَّعيينِ بأسمائِهم[1].

٢- قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ جُملةَ ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴾ تقْتَضي أنَّ الوعيدَ كائنٌ، وليس تأْخيرُه مُزيلًا له[2].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾

- قولُه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾ أصْلُه (إنْ نُرِكَ)، و(ما) مَزيدةٌ؛

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٨٣-٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٤).

لِتأكيدِ معنى الشَّرطِ، ومِن ثمَّةَ أُلْحِقَتِ النُّونُ بالفِعْلِ(١).

- والعُدولُ إلى صِيغَةِ الاستقبالِ ﴿نَعِدُهُمْ﴾؛ لاستحضارِ الصورةِ، أو للدلالةِ على التجدُّدِ والاستمرارِ؛ أي: نَعِدُهم وعدًا مُتجدِّدًا حسَبَما تقْتَضيه الحِكمةُ مِن إنذارٍ غِبَّ إنذارٍ(٢).

- وفي الإتيانِ بكلمةِ (بَعْضَ) رَمْزٌ إلى إرادةِ بعضِ الموعودِ، وإيماءٌ إلى أنَّه يرى البعْضَ، وفي هذا إنذارٌ لهم بأنَّ الوعيدَ نازلٌ بهم ولو تأخَّرَ(٣).

- قولُه: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ جُعِلَ التَّوفِّي كِنايةً عن عدَمِ رُؤيةِ حُلولِ الوعيدِ، بقَرينةِ مُقابَلتِه بقولِه: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾(٤).

- قولُه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ (إنَّما) للحصْرِ، والمحصورُ فيه هو البلاغُ؛ لأنَّه المُتأخِّرُ في الذِّكْرِ مِن الجُملةِ المدخولةِ لِحرْفِ الحَصْرِ، والتَّقديرُ: عليك البَلاغُ لا غيرُه؛ مِن إنزالِ الآياتِ، أو مِن تَعجيلِ العَذابِ؛ ولهذا قُدِّمَ الخبَرُ على المُبتدأِ؛ لِتَعيينِ المحصورِ فيه(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٧٠).

الآيات (٤١-٤٣)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿أَطْرَافِهَا﴾: أي: جَوانِبِها ونَواحيها، وأصلُ (طرف): يدُلُّ على حَدِّ الشَّيءِ وحَرْفِه(١).

﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾: أي: لا رادَّ لحكمِه، ولا يتعَقَّبُه أحَدٌ بتغييرٍ ولا نَقضٍ، والمُعَقِّبُ: الذي يَتْبَعُ الشَّيءَ فيَستَدرِكُه، وأصلُ (عقب): يدلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعد غَيرِه(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أوَلم يرَ هؤلاءِ الكُفَّارُ أن الله ينصُرُ المُسلِمينَ، ويفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، واللهُ سُبحانَه يحكُمُ ويقضي في خَلقِه بما يشاءُ لا نقضَ لحُكمِه ولا تغييرَ، وهو سبحانه سريعُ الحِسابِ.

وقد مكرَ الذين مِن قَبلِ مُشرِكي العرَبِ برُسُلِهم، وكفروا بهم، وأرادوا إخراجَهم مِن بلادِهم، فمكَرَ اللهُ بهم، وانتَقم منهم، فلِلَّه المكرُ كلُّه، فأسبابُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٦)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥).

بِيَدِه، يعلَمُ ما تعملُ كُلُّ نفسٍ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازيها على ما عمِلت، وسيعلَمُ الكُفَّارُ- يوم القيامة لِمَن تكونُ عاقِبةُ الدار الآخرة.

ويقولُ الذين كفروا لك -يا محمَّدُ-: لستَ رَسولًا مِن عندِ اللهِ، قُلْ لهم: يكفيني اللهُ شاهدًا بصِدقي وكَذِبكم، ومَن عِندَه عِلمُ التَّوراةِ والإنجيلِ مِن اليهودِ والنَّصارى، فإنَّهم يشهدونَ لي أنِّي رسولٌ مِن عندِ الله.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعَدَ اللهُ تعالى رسولَه بأنْ يُرِيَه بعضَ ما وُعِدوه أو يتوفَّاه قبلَ ذلك؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ آثارَ حُصولِ تلك المواعيدِ وعلاماتِها قد ظهَرَت وقَوِيَت، فقال تعالى[1]:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

أي: أوَلم يَنظُرِ الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم[2]؟

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٥١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧، ٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٨).

ومِمَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والزجَّاج، والزمخشري، وابنُ كثير، ونسبه البغويُّ إلى أكثرِ المفسِّرين. يُنظر: المصادر السابقة.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾.

ومِمن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والضحَّاكُ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠١).

قال ابنُ عطية: (وهذا... القَولُ لا يتأتَّى إلَّا بأن نقَدِّرَ نزولَ هذه الآيةِ بالمدينةِ، ومن قال: إنَّ الأرضَ اسمُ جِنسٍ جعَلَ الانتقاصَ مِن الأطرافِ بتخريبِ العُمرانِ الذي يُحِلُّه اللهُ بالكفرة- هذا قولُ ابنِ عباسٍ أيضًا ومجاهدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٩).

وقال ابن عاشور: (الرؤيةُ يجوزُ أن تكونَ بصريةً. والمرادُ: رؤيةُ آثارِ ذلك النقصِ، ويجوزُ أن تكونَ علميةً، أي: ألم يعملوا ما حلَّ بأرضي الأممِ السابقةِ مِن نقصٍ. وتعريفُ الأرض تعريفُ الجنسِ، أي: نأتي أيةَ أرضٍ مِن أرضي الأممِ... وذهَب كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ بالأرضِ أرضُ الكافرين مِن قُريشٍ، فيكونُ التَّعريفُ للعهد، وتكونُ الرؤية بصريةً، ويكونُ ذلك إيقاظًا لهم لِما غَلَب عليه المسلمون مِن أرضِ العدُوِّ فخَرَجت مِن سلطانِه، فتَنقُص الأرضُ التي كانت في تصرُّفِهم، وتزيدُ الأرضُ الخاضعةُ لأهلِ الإسلامِ. وبنوا على ذلك أنَّ هذه الآيةَ نزلت بالمدينةِ، وهو الذي حمَل فريقًا على القولِ بأنَّ سورة الرعد مدنيَّة، فإذا اعتُبِرَت مدنيَّةً صحَّ أنْ تفَسَّرَ الأطرافُ بطرفينِ، وهما مكةُ والمدينةُ؛ فإنَّهما طرفا بلادِ العربِ، فمكَّةُ طَرَفُها مِن جهةِ اليمنِ، والمدينةُ طرَفُ البلادِ مِن جهةِ الشام، ولم يزَلْ عددُ الكفَّارِ في البلدينِ في انتقاصٍ بإسلامِ كُفَّارِها، إلى أن تمحَّضَت المدينةُ للإسلامِ، ثم تمحَّضت مكَّةُ له بعدَ يومِ الفتح). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧١-١٧٢).

وقال ابن كثير: (﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤] اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ... وَأَحْسَنُ مَا فُسِّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الْأَحْقَافِ:٢٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥).

قال الشِّنقيطيُّ في تفسيرِ نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنبياءِ، وهي قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]: (ما ذكره ابنُ كثيرٍ صَوابٌ، واستقراءُ القُرآنِ العَظيمِ يدُلُّ عليه، وعليه فالمعنى: أفلا يرى كُفَّارُ مكَّةَ ومَن سار سَيرَهم في تكذيبك -يا نبيَّ اللهِ- والكُفرِ بما جئتَ به: أنَّا نأتي الأرضَ نَنقُصُها من أطرافِها، أي: بإهلاكِ الذين كذَّبوا الرُّسُلَ، كما أهلَكْنا قومَ صالحٍ وقومَ لوطٍ، وهم يمُرُّونَ بديارِهم، وكما أهلَكْنا قومَ هودٍ، وجعَلْنا سبأً أحاديثَ ومَزَّقْناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٥٧-١٥٨).

أي: واللهُ هو الذي يقضي في خَلقِه بما يشاءُ، ويُعاقِبُ مَن يشاءُ، ولا يُبطِلُ أحدٌ حُكمَه بردٍّ أو نقضٍ أو تغييرٍ، فما حكَمَ اللهُ به مِن العِقابِ لا يُبطِلُه أحدٌ، وهو واقِعٌ ولو تأخَّرَ(١).

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: والله سريعٌ مجيءُ حسابِه، ومجازاتِه لعبادِه، وهو واقعٌ لا محالةَ، لا يدفعُه دافعٌ، فلا يَسْتعجلوا بالعذابِ؛ فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ(٢).

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٢).
قال السَّعدي: (ويدخُلُ في هذا حُكمُه الشَّرعيُّ والقَدَريُّ والجزائيُّ، فهذه الأحكامُ التي يحكُمُ الله فيها، توجَدُ في غايةِ الحِكمةِ والإتقانِ، لا خلَلَ فيها ولا نقْصَ، بل هي مبنيَّةٌ على القِسطِ والعَدلِ والحَمد، فلا يتعقَّبُها أحد، ولا سبيلَ إلى القَدحِ فيها، بخلافِ حُكمِ غَيرِه؛ فإنَّه قد يوافِقُ الصَّوابَ، وقد لا يوافِقُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٣).
وقد تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الجملةِ في سورة آل عمران، الآية (١٩) مِن ((التفسير المحرر)) (٢/ ١٠١).
قال ابنُ كثيرٍ في نظيرِ هذه الآيةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١] قال: (يحتملُ أنْ يكونَ كقولِه تعالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ويحتملُ أنَّه في حالِ محاسبتِه لعبدِه سريعُ النَّجازِ؛ لأنَّه يعلمُ كلَّ شيءٍ، ولا يخفَى عليه خافيةٌ، وإنَّ جميعَ الخلقِ بالنِّسبةِ إلى قدرتِه كالواحدِ منهم، كقولِه تعالَى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنَى قولِ مجاهدٍ: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إحصاءً. ويحتملُ أنْ يكونَ المعنيانِ مرادينِ، واللَّهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣) ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٢٣٥).



أي: وقد مكرَ الذين مِن قَبلِ مُشرِكي العرَبِ برُسُلِهم، وكفروا بهم وكادُوا لهم، وأرادوا إخراجَهم مِن بلادِهم، فمكَرَ اللهُ بهم، وانتَقم منهم، وجعَل العاقبةَ لعِبادِه المتَّقينَ(١).

كما قال سبُحانه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۞ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠ - ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ [نوح: ٢٢].

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾.

أي: فلِلَّه المكرُ كُلُّه؛ لأنَّ أسبابَ المَكرِ بيَدِه، ومكْرُ الكفَّارِ مخلوقٌ لا يضُرُّ إلَّا بعد إذنِه، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُريشٍ يمكُرونَ بك يا محمَّدُ، واللهُ مُنَجِّيك مِن مَكرِهم، ومُلحِقٌ ضَرَّ مَكرِهم بهم دونَك(٢).

﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾.

أي: يعلَمُ اللهُ ما تعمَلُ كُلُّ نَفسٍ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازيها على جميعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

أعمالِها؛ الظَّاهرةِ والباطنةِ، ومِن ذلك عِلمُه بما يعمَلُ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قَومِك -يا محمَّدُ- وما يَسْعَون فيه مِن المَكرِ بك[1].

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

أي: وسيَعلمُ الكُفَّارُ يومَ القيامةِ لِمن تكونُ عاقبةُ الدارِ الآخرةِ حينَ يَدْخلون النارَ، ويدخلُ المؤمنونَ الجنةَ[2]؟

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ [الرعد: ٢٧]، عطَفَ عليه -بعدَ شَرحِ ما استَتبَعَه- قَولَه: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾؛ لِكَونِك لا تأتي بمُقتَرَحاتِهم، مع أنَّه لم يَقُلْ يومًا: إنَّه قادِرٌ عليها، فكأنَّه قيل: فما أقولُ لهم؟ فقال: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[3].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾.

أي: ويقولُ لك الكُفَّارُ -يا مُحمَّدُ- تكذيبًا بنُبوَّتِك: لستَ رَسولًا مِن عندِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩).

قال ابن كثير: (﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: لمنْ تكونُ الدائرةُ والعاقبةُ، لهم أو لأتباعِ الرسلِ؟ كلَّا بل هي لأتباعِ الرسلِ في الدُّنيا والآخرةِ، ولله الحمدُ والمنةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣).

وقال الشوكاني: (لِمَن العاقبةُ المحمودةُ مِنَ الفريقينِ في دارِ الدُّنيا، أوْ في الدَّارِ الآخرةِ، أوْ فيهما). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٠٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٦٧).

اللهِ[١]!

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قلْ لهم -يا محمَّدُ-: يكفيني اللهُ شاهِدًا عليَّ وعليكم بصِدقي وكَذِبكم[٢].

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أي: وأهلُ الكتابِ الذين عِندَهم عِلمُ التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّهم يشهدونَ لي أنِّي رسولٌ مِن عندِ اللهِ، فيَشهدونَ أنَّ الأنبياءَ السَّابقينَ أتَوا بمِثلِ ما أتيتُ به؛ كالأمرِ بعبادةِ اللهِ وَحدَه، والنَّهيِ عن الشِّركِ، والإخبارِ بيومِ القيامةِ والشَّرائعِ الكُلِّيَّة، ويشهدونَ أيضًا بما وردَ في كُتُبِهم مِن ذِكرِ صِفاتِي وبِشاراتِ الأنبياءِ بي[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣).

قال السعدي: (وشهادتُه: بقَولِه وفِعلِه وإقرارِه؛ أمَّا قولُه: فبما أوحاه اللهُ إلى أصدقِ خَلقِه ممَّا يُثبِتُ به رسالتَه. وأما فِعلُه: فلأنَّ الله تعالى أيَّد رسولَه ونصَرَه نصرًا خارجًا عن قدرتِه وقُدرةِ أصحابِه وأتباعِه، وهذا شهادةٌ منه له بالفعلِ والتأييد. وأمَّا إقراره: فإنه أخبَرَ الرسولُ عنه أنَّه رسولُه، وأنَّه أمر الناسَ باتِّباعه، فمَن اتَّبَعه فله رضوانُ الله وكرامتُه، ومن لم يتَّبِعْه فله النَّارُ والسَّخَط، وحلَّ له مالُه ودَمُه، والله يُقِرُّه على ذلك، فلو تقوَّلَ عليه بعضَ الأقاويلِ لعاجَلَه بالعقوبةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٢)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٠).

قال الرسعني: (قال جمهورُ المفسِّرين: الذي عندَه علمُ الكتابِ؛ عبدُ الله بنُ سلَامٍ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٠١).

وممن قال به من السلفِ: الحسنُ، ومجاهدٌ، وعِكرمةُ، وابنُ زيدٍ، وابنُ السائبِ، ومُقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٢).

لكن قال ابنُ كثيرٍ: (وهذا القولُ غريبٌ؛ لأنَّ هذه الآيةَ مكِّيَّةٌ، وعبدَ اللَّهِ بنَ سلَامٍ إنَّما أسلَم في

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

وقال سُبحانه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿... وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٦- ١٥٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لكَمالِ حِكمتِه وعِلمِه وعِزَّتِه- سُبحانَه- لا مُعَقِّبَ لحُكمِه، ولا يُعترَضُ عليه بالسُّؤالِ؛ لأنَّه لا يَفعَلُ شَيئًا سُدًى، ولا خلَقَ شَيئًا عَبَثًا، وإنَّما يُسألُ عن فِعلِه مَن خرجَ عن الصَّوابِ،

أوَّلِ مقدَمِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم المدينةَ. والأظهرُ في هذا ما قاله العوفيُّ، عن ابنِ عبَّاسٍ قال: هم مِنَ اليهودِ والنَّصارى... وكان سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ينكرُ أنْ يكونَ المرادُ بها عبدُ اللَّهِ ابنُ سلَامٍ، ويقولُ: هي مكِّيَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣).

وقال ابنُ عاشور: (ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ معيَّنًا، فهو ورقةُ ابنُ نوفل إذ علِم أهلُ مكةَ أنَّه شهِد بأنَّ ما أُوحي به إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم هو الناموسُ الذي أُنزِل على موسَى عليه السلامُ، كما في حديثِ بدءِ الوحيِ في الصحيحِ. وكان ورقةُ منفردًا بمعرفةِ التوراةِ والإنجيلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٦).

وقيل: المرادُ بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: الله عزَّ وجلَّ. وهو قولُ الحَسَنِ، وسعيدِ بن جُبير، والزجَّاج، والبقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٥١)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٦٨).

وقِيل: المعنَى مَن عندَه علمُ القرآنِ، وهم الراسخونَ في العلم، المدركونَ بلاغةَ القرآنِ وفصاحتَه وافتنانَ أساليبِ خطابِه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٠٢).

ولم يَكُنْ فيه مَنفعةٌ ولا فائِدةٌ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف أثبَتَ لهم مكرًا، ثمَّ نفاه عنهم بقولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؟

الجوابُ: معناه أنَّ مكرَ الماكرينَ مخلوقٌ له، ولا يضُرُّ إلَّا بإرادتِه؛ فإثباتُه لهم باعتبارِ الكَسبِ، ونفيُه عنهم باعتبارِ الخَلقِ(٢)، وقيل: وصَفهم بالمكْرِ، ثمَّ جعَل مكْرَهم كَلَا مَكْرٍ بالإضافةِ إلى مَكْرِه؛ فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، ثمَّ فسَّرَ ذلك بقولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لأنَّ مَن علِمَ ما تكسِبُ كلُّ نفْسٍ، وأعَدَّ لها جزاءها، فهو المكْرُ كلُّه؛ لأنَّه يأتيهم مِن حيث لا يعلَمونَ، وهم في غفلةٍ ممَّا يُرادُ بهم(٣)، وقيل: سمَّاها (مكرًا) على عُرفِ تسميةِ المعاقبةِ باسمِ الذنبِ(٤).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إنَّما أمَرَ اللهُ باستشهادِ أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم أهلُ هذا الشَّأنِ، وكلُّ أمرٍ إنَّما يُستشهَدُ فيه أهلُه، ومَن هم أعلَمُ به مِن غَيرِهم، بخلافِ مَن هو أجنبيٌّ عنه، كالأمِّيِّين مِن مشركي العرَبِ وغيرِهم، فلا فائدةَ في استشهادِهم؛ لعدمِ خِبرتِهم ومعرفتِهم، واللهُ أعلَمُ(٥).

٤- قال الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فمَن عنده عِلْمُ الكتابِ فإنه يَشهدُ بما في الكِتابِ الأوَّلِ، وهذا يُوجِبُ تصديقَ الرَّسولِ؛ لأنَّه يَشهدُ بالمِثْلِ، ويَشهدُ أيضًا بالعَينِ، وكُلٌّ مِن الشَّهادتينِ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٧٤).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٠).

كافيةٌ، فمتى ثَبَتَ الجنسُ عُلِمَ قطعًا أنَّ المُعَيَّنَ منه[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ دَلالةٌ على أنَّه ما كان مِن العِلْمِ المَوروثِ عن نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلنا أنْ نستشهِدَ عليه بما عند أهلِ الكِتابِ[٢].

٦- من الحجج المفيدة عند المناظرة أن تحتج على الطائفة بقول بعض علمائِها؛ قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، والواوُ للعطفِ على مُقَدَّرٍ يَقتَضيهِ المَقامُ، أي: أَأَنْكَروا نُزولَ ما وعَدْناهم، أو أَشَكُّوا، أو أَلَمْ ينْظُروا في ذلك ولم يَرَوا، والضَّميرُ عائدٌ إلى المُكذِّبينَ العائدِ إليهم ضميرُ ﴿نَعِدُهُمْ﴾، والكلامُ تهديدٌ لهم بإيقاظِهم إلى ما دَبَّ إليهم مِن أشباحِ الاضمحلالِ بإنقاصِ الأرضِ، أي: سُكَّانِها[٤]، وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- قولُه: ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ في لفْظِ (الإتيانِ) المُؤْذِنِ

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير سورة العنكبوت)) لابن عثيمين (ص: ٢٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧١).

بالاستِواءِ المحتومِ، والاستيلاءِ العظيمِ: مِن الفَخامةِ ما لا يَخْفى، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[1] [الفرقان: ٢٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ جِيءَ بها لِتأْكيدِ فَحْوى ما تَقدَّمَها، وفيه الْتفاتٌ بَليغٌ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ، حيثُ أظهَرَ اسمَ الجَلالةِ بعدَ الإضمارِ الذي في قولِه: ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾، فرجَعَ عن خِطابِ النَّفْسِ إلى الغَيبةِ، وبناءُ الحُكمِ على الاسمِ الجليلِ يَنْطَوي على أعظَمِ الأسرارِ وأبهَرِها؛ ففيه دَلالةٌ على الفَخامةِ، وتربيةِ المَهابةِ، وتَحقيقِ مَضْمونِ الخبَرِ بالإشارةِ إلى العِلَّةِ، وكذلك فيه تَذكيرٌ بما يَحتوي عليه الاسمُ العظيمُ مِن معنى الإلهيَّةِ والوَحدانيةِ المقتضيةِ عَدمَ المنازِعِ، وأيضًا لتكونَ الجملةُ مُستقِلَّةً بنَفْسِها؛ لأنَّها بمَنزلةِ الحِكمَةِ والمَثَلِ[2].

- وقولُه: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ اعتراضٌ في اعتراضٍ؛ لِبيانِ عُلُوِّ شأْنِ حُكمِه جلَّ جلالُه[3].

- قولُه: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ كِنايةٌ عنِ الجَزاءِ[4].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ هذا تَسليةٌ لِرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه لا عِبْرَةَ بمَكْرِهم ولا تأثيرَ، بل لا وجودَ له في الحقيقةِ، ولم يُصرِّحْ بذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٢- ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٣).

اكتفاءً بدَلالةِ القصْرِ المُستفادِ مِن تعليلِه، أي: قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾[(١)].

- وتقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ للاختِصاصِ، أي: لهُ لا لغيرِه؛ فالقصْرُ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ ادِّعائيٌّ، والعُمومُ في قولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ تنزيليٌّ؛ بتنزيلِ مكرِ غيرِ الله منزِلةَ العدَمِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ كالتَّفسيرِ لِمكْرِ اللهِ تعالى بهم، واللَّامُ تدلُّ على أنَّ المُرادَ بالعُقْبى العاقبةُ المحمودةُ[(٣)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الاستقبالِ (يقول)؛ لاستحضارِ صورةِ كلمَتِهم الشَّنعاءِ؛ تعجُّبًا منها، أو للدَّلالةِ على تجدُّدِ ذلك، واستمرارِه منهم[(٤)].

- قولُه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾ الباءُ الدَّاخِلةُ على اسمِ الجلالةِ، الَّذي هو فاعلُ (كفى) في المعنى؛ للتَّأكيدِ، وأصْلُ التَّركيبِ: كفى اللهُ[(٥)].

- والموصولُ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يَجوزُ أنْ يُرادَ به جنْسُ مَن يتَّصِفُ بالصِّلةِ، وإفرادُ الضَّميرِ المُضافِ إليه -لـ (عند)-؛ لِمُراعاةِ لفْظِ (مَن)[(٦)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ١٧٦).







تَفْسِيرُ

سُورَةِ إبراهيمَ







سورةُ إبراهيمَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسورةِ (إبراهيم)[(١)].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ إبراهيمَ مكِّيَّةٌ[(٢)]، وحُكِي الإجماعُ على كونِها مكيةً إلا آيةً منها، وقِيل: إلا آيتينِ[(٣)].

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مقاصدِ هذه السورةِ:

التذكيرُ بنِعَمِ الله على الناسِ، وتحريضُهم على شُكرِها، وتحذيرُهم مِن

(١) سُمِّيَتِ السُّورةُ بذلك؛ لِتَضمُّنِها قِصَّةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وما كان مِن إسكانِه ولَدَهُ إسماعيلَ بوادٍ غيرِ ذي زرْعٍ، وشُكْرِه للهِ تعالى على ما أنعَمَ عليه مِنَ الولَدَينِ: إسماعيلَ وإسحاقَ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٦٨).
قال ابنُ عاشورٍ: (ووَجْهُ تَسْميَتِها بهذا -وإنْ كان ذِكْرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ جَرى في كَثيرٍ مِنَ السُّورِ- أنَّها مِنَ السُّورِ ذَواتِ «الر»، وقد مُيِّزَ بَعضُها عن بَعضٍ بالإضافةِ إلى أسماءِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ الَّتي جاءت قِصَصُهم فيها، أو إلى مَكانِ بَعثةِ بَعضِهم، وهي سُورةِ «الحِجْرِ»؛ ولذلك لم تُضَفْ سُورةُ الرَّعدِ إلى مِثْلِ ذلك؛ لأنَّها مُتميِّزةٌ بفاتِحتِها بزيادةِ حَرْفِ مِيمٍ على ألْفٍ ولامٍ وراءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٧).
وقد جاءتْ بَعضُ الآثارِ عنِ السَّلفِ فيها تَسميةُ هذه السُّورةِ بسُورةِ إبراهيمَ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٢).

(٣) قال ابنُ الجوزي: (سورة إبراهيم وهي مكيَّةٌ مِن غيرِ خلافٍ عَلِمناه بينهم، إلَّا ما رُوي عن ابن عباس، وقتادة أنَّهما قالا: سوى آيتينِ منها، وهما قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] والتي بعدها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٣).
وقال الفيروزابادي: (السورةُ مكيةٌ إجماعًا، غيرَ آيةٍ واحدة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]). ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ٢٦٨).

جُحودِها وكفرِها[١].

موضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

١- ذِكرُ القُرآنِ الكريم، وأنَّه كِتابُ هدايةٍ وبَيانٍ، وذِكرُ مُلْكِ الله سُبحانه للسَّمواتِ والأرضِ، وأنَّه أرسَلَ الرُّسُلَ بلِسانِ قَومِهم؛ لِيُبَيِّنوا لهم مُرادَ الله سُبحانَه.

٢- ذِكرُ قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ونِعمةِ اللهِ على قَومِه إذ أنجاهم مِن آلِ فِرعونَ، وذِكرُ أخبارِ بعضِ الأنبياءِ مع أقوامِهم، ونماذجَ مِن المحاوراتِ التي دارتْ بينَ الرسلِ وبينَ مَن أُرسِلوا إليهم، وجزاءِ اللهِ تعالى للظَّالمينَ المكَذِّبين.

٣- المحاجَّةُ بين أهلِ النَّارِ الضُّعَفاءِ والذين استكبَروا، ومجادلةُ الشَّيطانِ لهم في النَّارِ، ثمَّ ذِكرُ حالِ أهلِ الجنَّةِ وما لهم من النَّعيمِ المُقيم، ثم ذِكرُ مثَلٍ لكلمتَيِ الإيمانِ والكفرِ، ثمَّ ذِكْرُ حالِ الكُفَّارِ؛ فقد بدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا، وأحَلُّوا قَومَهم دارَ البَوارِ، وذِكرُ المؤمنينَ الذين لم يُبَدِّلوا نعمةَ اللهِ كُفرًا، وأقاموا الصَّلاةَ، وأنفَقوا ممَّا رزقهم الله سرًّا وعلانيَةً.

٤- ذِكرُ بعضِ نِعَمِ الله تعالى على خَلقِه.

٥- خبرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وعبادتِه لله سبحانِه وتَركِه لعبادةِ الأصنام، ودَعوتِه لذُرِّيَّته بسَعةِ الرِّزقِ، وتَضَرُّعه إلى اللهِ سبحانه، ثمَّ بيَّنَ مُهِمَّةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي النِّذارةُ بيومِ القيامةِ.

٦- وخُتِمت السورةُ بآياتٍ فيها مِن التحذيرِ والوعيدِ، وذِكرِ أنواعٍ مِن العذابِ مما أعدَّه للظالمين، وذَكَر سُبحانَه أنَّه في يومِ القِيامةِ يكونُ الجزاءُ، فتُجزَى فيه

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٧/ ٥٠٧).

كلُّ نفسٍ بما كسَبَت، فهو سريعُ الحِسابِ.



الآيات (١-٣)

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السورةُ العظيمة بالحروف المقطَّعة؛ لبيان إعجاز القرآن؛ إذ تُبرِزُ عجزَ الخَلْق عن معارضته بالإتيان بشيءٍ من مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها!

ثُمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ كتابٌ أنزله إلى رَسولِه الكريم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليُخرِجَ به البشَرَ مِن الكُفرِ والجَهلِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والعِلم والطَّاعةِ -بإذنِ رَبِّهم وتوفيقِه لهم- إلى طريقِ الحَقِّ الواضح المُستقيم الذي نصَبَه اللهُ لعبادِه، وجَعَله مُوصِلًا إلى العزيزِ الحميدِ؛ اللهِ الذي له ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ؛ وويلٌ للذين كفروا من عذابٍ شَديدٍ ينالُهم يومَ القيامةِ. وهؤلاءِ الكافِرونَ هم الذين يختارونَ الحياةَ الدُّنيا الفانيةَ، ويَترُكونَ الآخِرةَ الباقيةَ، ويَصْرِفونَ النَّاسَ عن اتِّباعِ دِينِ اللهِ، ويُريدونَه طَريقًا مُعوَجًّا؛ ليُوافِقَ أهواءَهم، أولئك في ضلالٍ بعيدٍ عن الحقِّ.

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

لفظُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾: بدلٌ مُطابقٌ[1] من ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ مجرورٌ، وقُرِئَ بالرفعِ

(١) ولا يصِحُّ أن يُعربَ صِفةً لِما قبلَه؛ لأنَّه علَمٌ، والعلَمُ لا يوصَفُ به. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٧٣).

على أنَّه خبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو الله، و ﴿ٱلَّذِى﴾ صِفةٌ لاسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ أو على أنه مبتدأٌ وخبرُه الموصولُ وصلتُه. وقيلَ غيرُ ذلك(١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾.

﴿الٓر﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ(٢).

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: هذا القُرآنُ كتابٌ عظيمٌ أنزَلْناه إليك -يا مُحمَّدُ- لتُخرِجَ به النَّاسَ -عرَبَهم وعَجَمَهم- مِن ظُلماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ، وذلك بإرادةِ اللهِ تعالى وتوفيقِه لهم؛ فهو الهادي لِمَن قدَّرَ له الهدايةَ على يَدَي رسولِه المبعوثِ عن أمرِه سُبحانَه(٣).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وأيضًا فإنَّ جميعَ الأسماءِ تأتي تابعةً لهذا الاسمِ العظيم، ولايأتي تابعًا لها إلَّا في هذه الآيةِ، لكنَّه هنا بدلٌ، وليس صفةً. يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٤).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٦٦-٦٧).

(٢) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ البقرةِ (١/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

أي: لتُخرِجَ النَّاسَ مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ الذي هو طريقُ الحَقِّ الواضحِ المُستقيمِ الذي نصَبَه اللهُ لعبادِه، وجَعَله مُوصِلًا إلى العزيزِ الذي لا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ، المُستحِقِّ وَحدَه لكمالِ الحَمدِ في جميعِ أقوالِه وأفعالِه، وشَرعِه وقَدَرِه[1].

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: أنزَلْنا إليك القُرآنَ؛ لتدعوَ النَّاسَ إلى سُلوكِ صِراطِ العزيزِ الحميدِ؛ اللهِ المُستحِقِّ للعبادةِ وَحدَه، الذي مِن صِفتِه أنَّه يَملِكُ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، والخَلقُ كُلُّهم مِلكُه وعَبيدُه[2].

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لمَّا أفاد قولُه: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تعريضًا بالمُشركينَ، عُطِفَ الكلامُ إلى تَهديدِهم وإنذارِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

بقولِه[١]:

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾.

أي: وَهَلاكٌ وشِدَّةٌ[٢] لِمَن كَفَروا باللهِ وبِرَسولِه، مِن عذابٍ شديدٍ ينالُهم في الآخرةِ[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: ويلٌ للكافرينَ الذين يحِبُّونَ الحياةَ الدُّنيا، ويَختارونَها ويُؤْثِرونَها على الآخرةِ، فَرَضُوا واطمأنُّوا بها، وغَفَلوا عن الأعمالِ الصالحةِ التي تنفَعُهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٣).

(٢) قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَوَيۡلٞ﴾ معناه: وشِدَّةٌ وبَلاءٌ ونحوُه. أي: يلقَونَه من عذابٍ شديدٍ ينالُهم اللهُ به يوم القيامة، ويحتملُ أن يريدَ في الدنيا، هذا معنى قوله: ﴿وَوَيۡلٞ﴾. وقال بعضهم: «وَيْلٌ» اسمُ وادٍ في جهنَّمَ يسيلُ مِن صَديدِ أهلِ النَّارِ. قال القاضي أبو محمد: وهذا خبرٌ يَحتاجُ إلى سنَدٍ يقطَعُ العُذرَ، ثمَّ لو كان هذا لقَلِقَ تأويلُ هذه الآيةِ؛ لقوله: ﴿مِنۡ عَذَابٖ﴾، وإنما يحسُنُ تأوُّلُه في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] وما أشبهَه، وأمَّا هنا فإنَّما يحسُنُ في ﴿وَيۡلٞ﴾ أن يكونَ مصدرًا، ورَفْعُه على نحوِ رَفعِهم: سَلامٌ عليك، وشِبهِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٢).

وقال الشنقيطي: (كلمةُ ﴿وَوَيۡلٞ﴾، قال فيها بعضُ أهلِ العلم: إنَّها مصدرٌ لا فعلَ له مِن لَفظِه، ومعناه الهلاكُ الشَّديدُ، وقيل: هو وادٍ في جهنَّمَ تستعيذُ مِن حَرِّه، والذي سوَّغَ الابتداءَ بهذه النَّكرةِ أنَّ فيها معنى الدُّعاءِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٧٢-٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٣).

وفسَّره ابنُ جريرٍ بأنَّه الوادي الذي يسيلُ مِن صديدِ أهلِ جهنمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٠-٥٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٦، ٤٧٧).

الدارِ الآخرةِ[١].

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾.

أي: ويَصْرِفونَ النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ويُريدونَ أن يكونَ مائِلًا عن الحَقِّ المُستقيمِ، بتَحريفِه وتبديلِه وغيرِ ذلك؛ لموافقةِ أهوائِهم وقَضاءِ أغراضِهم، ومنها تنفيرُ النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ- الموصوفونَ بهذه الصِّفاتِ- في ذَهابٍ بعيدٍ عن الحَقِّ[٣].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ هذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ طُرُقَ الكُفرِ والبِدعةِ كَثيرةٌ، وأنَّ طَريقَ الخيرِ ليس إلَّا الواحِدَ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فعبَّرَ عن الجهلِ والكُفرِ بالظُّلماتِ، وهي صيغةُ جَمعٍ، وعبَّرَ عن الإيمانِ والهدايةِ بالنُّورِ، وهو لفظٌ مُفردٌ، وذلك يدُلُّ على أنَّ طُرُقَ الجَهلِ كثيرةٌ، وأمَّا طريقُ العِلمِ والإيمانِ فليس إلَّا الواحِدَ[٤].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: لا يحصُلُ منهم المرادُ المحبوبُ لله إلَّا بإرادةٍ مِن اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٨).

ومَعُونةٍ؛ ففيه حثٌّ للعبادِ على الاستعانةِ بربِّهم[1].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ في ذِكرِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بعد ذِكرِ الصِّراطِ المُوصِلِ إليه، إشارةٌ إلى أنَّ مَن سَلَكه فهو عزيزٌ بعِزِّ اللهِ، قَوِيٌّ ولو لم يكُنْ له أنصارٌ إلَّا اللهُ، محمودٌ في أمورِه، حسَنُ العاقبةِ[2]، ففي ذِكرِه تَنبيهٌ على أنَّه لا يذلُّ سالِكُه ولا يخيبُ سابِلُه، وترغيبٌ في سُلوكِه ببيانِ ما فيه مِن الأمْنِ والعاقبةِ الحميدةِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أضاف الله -تعالى ذِكرُه- إخراجَ النَّاسِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذنِ ربِّهم لهم بذلك؛ إلى نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو سبحانَه الهادي خَلْقَه، والموَفِّقُ مَن أحبَّ منهم للإيمانِ؛ إذ كان منه -صلَّى الله عليه وسلَّم- دعاؤُهم إليه، وتعريفُهم ما لهم فيه وعليهم؛ فبَيِّنٌ بذلك صِحَّةُ قَولِ أهلِ الإثباتِ الذين أضافوا أفعالَ العبادِ إليهم كسْبًا، وإلى الله جلَّ ثناؤه إنشاءً وتدبيرًا، وفسادُ قَولِ أهلِ القَدَرِ الذين أنكَروا أن يكونَ لله في ذلك صُنعٌ[4].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أسنَدَ الإخراجَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سياقِ تعليلِ إنزالِ الكتابِ إليه، فأعلَمَ أنَّ إخراجَه إيَّاهم مِن الظُّلُماتِ بسبَبِ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨-٥٨٩).

الكتابِ المُنْزَلِ، أي: بما يشتَمِلُ عليه مِن معاني الهدايةِ[1].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، تعليلُ الإنزالِ بالإخراجِ مِن الظُّلُماتِ دَلَّ على أنَّ الهدايةَ هي مرادُ اللهِ تعالى من النَّاسِ، وأنَّه لم يترُكْهم في ضلالِهم، فمَن اهتدى فبإرشادِ الله، ومن ضَلَّ فبإيثارِ الضَّالِّ هوى نفسِه على دلائِلِ الإرشادِ، وأمرُ اللهِ لا يكونُ إلَّا لحِكَمٍ ومصالحَ بعضُها أكبَرُ مِن بعضٍ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ صحةُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلوم؛ لِقَولِه: ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ يعني: أنت -مع أنَّ المُخْرِجَ حقيقةً هو اللهُ- ولهذا قَيَّدَه بقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ حتى لا يُظَنَّ أنَّ السببَ مُسْتَقِلٌّ، فإضافةُ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلومِ أمرٌ جائزٌ، ولا أحَدَ يُنكِرُه؛ فقد جاءت به السُّنَّةُ، وجاء به القرآنُ، إذا كان السَّببُ مَعلومًا، إمَّا بالشَّرعِ وإمَّا بالحِسِّ والواقِعِ، ولكنْ يجِبُ العلمُ بأنَّ هذا السبَّبَ ليس مؤثِّرًا بنَفسِه، بل بإذنِ اللهِ الذي جعَلَه سَببًا؛ ولهذا قال هنا: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ قولُه: ﴿ٱلنَّاسَ﴾ عامٌّ؛ إذ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مبعوثٌ إلى الخَلقِ كُلِّهم[4].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إنَّما شَبَّهَ الكُفرَ بالظُّلماتِ؛ لأنَّه نهايةُ ما يتحيَّرُ الرَّجلُ فيه عن طريقِ الهدايةِ، وشَبَّه الإيمانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((شرح مقدمة التفسير)) لابن عثيمين (ص: ١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٦).

بالنُّورِ؛ لأنَّه نهايةُ ما ينجلي به طريقُ هدايتِه[١].

٧- قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ حجَّةٌ على المعتزلةِ والقدريَّةِ بيِّنةٌ، لحُكمِه بالإخراجِ عليه، واشتراطِه إذنَه. والإذنُ: الإطلاقُ، لا مجرَّد العلمِ كما يزعمونَ[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ كما أنَّ له مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ؛ خَلقًا ورِزقًا وتدبيرًا، فله الحُكمُ على عبادِه بأحكامِه الدِّينيَّةِ؛ لأنَّهم مِلكُه، ولا يليقُ به أن يترُكَهم سُدًى[٣].

٩- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ كُلُّ مَن آثرَ الدُّنيا وزهرَتَها، واستحَبَّ البقاءَ في نعيمِها على النَّعيمِ في الآخرةِ، وصَدَّ عن سبيلِ اللهِ -أي: صرَفَ النَّاسَ عنه، وهو دينُ اللهِ، الذي جاءت به الرُّسُل- فهو داخِلٌ في هذه الآيةِ، وقد قال صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((إنَّما أخافُ على أُمَّتي الأئمةَ المضلِّينَ))[٤]....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢١) و(٤/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وأحمد (٢٢٣٩٣) من حديث ثوبان رضي الله عنه.
أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٦٧١٤)، وقال أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٣٢٨): (ثابت من حديث أيوب عن أبي قلابةَ، وفيه ألفاظٌ تفرَّد بها عن النبيِّ ثوبانُ)، وقال ابنُ تيميةَ في ((تلبيس الجهمية)) (٤/ ١٨٩): (محفوظٌ وأصلُه في الصحيحِ)، ووثَّق رجالَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٤٢)، وصحَّحه السخاوي في ((البلدانيات)) (١٠٥)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٢٥٢).

وما أكثَرَهم في هذه الأزمانِ، واللهُ المستعانُ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾

- قولُه: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ في إسنادِ الإنزالِ إلى نُونِ العَظَمةِ ومُخاطبتِه بقولِه: ﴿إِلَيۡكَ﴾، وإسنادِ الإخراجِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: تَنويهٌ عَظيمٌ، وتشريفٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن حيثُ المُشاركةُ في تحصيلِ الهدايةِ بإنزالِه تعالى، وبإخراجِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إذ هو الدَّاعي والمُنذِرُ، وإنْ كان الهادي في الحَقيقةِ هو اللهَ سبحانه وتعالى[(٢)].

- قولُه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ذُكِرَ هنا الفاعلُ بينما حُذِفَ الفاعلُ في آيةِ سُورةِ الأعرافِ في قولِه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ٢]، وهو مُقْتضى الظَّاهِرِ والإيجازِ، ولكنَّه ذُكِرَ هنا؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ الامتنانِ على النَّاسِ، وهو مُستَفادٌ مِن التَّعليلِ بقولِه: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، ومِن ذِكْرِ صِفةِ الرُّبوبيَّةِ بقولِه: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، بخِلافِ آيةِ سُورةِ الأعرافِ؛ فإنَّها في مَقامِ الطَّمأنَةِ والتَّصبيرِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فكان التَّعرُّضُ لِذكْرِ المُنْزَلِ إليه، والاقتصارُ عليه أهمَّ في ذلك المَقامِ، مع ما فيه مِن قَضاءِ حقِّ الإيجازِ؛ أمَّا التَّعرُّضُ للمُنْزَلِ إليه هنا فللتَّنويهِ بشأْنِه، وليُجْعَلَ له حَظٌّ في هذه المِنَّةِ وهو حظُّ الوَساطةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، ولِمَا فيه مِن غَمِّ المُعاندينَ والمُبْغضينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولأجْلِ هذا المَقصِدِ وقَعَ إظهارُ صِفاتِ فاعِلِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩-٣٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٥).

الإنزالِ ثلاثَ مرَّاتٍ في قولِه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، بعدَ أنْ كان المَقامُ للإضمارِ تَبَعًا لِقولِه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾[1].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سؤالٍ، كأنَّه قيل: إلى أيِّ نورٍ؟ فقيل: إلى صِراطِ العزيزِ الحميدِ. أو بدلٌ مِن قولِه: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بإعادةِ العامِلِ (إلى). وإضافةُ الصِّراطِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه مَقصِدُه، أو المُظْهِرُ والمُبَيِّنُ له[2].

- اختيرَ وصْفُ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ مِن بَينِ الصِّفاتِ العُلَا لمزيدِ مُناسبتِها للمقامِ؛ لأنَّ (العزيز) الذي لا يُغلَب، وإنزالَ الكتابِ بُرهانٌ على أحقيَّةِ ما أرادَه اللهُ مِن الناسِ؛ فهو به غالبٌ للمُخالِفين، مُقيمٌ الحُجَّةَ عليهم. و(الحَميد): بمعنى المحمود؛ لأنَّ في إنزالِ هذا الكتابِ نِعمةً عَظيمةً تُرشِدُ إلى حَمْدِه عليه، وبذلك استوعَبَ الوصفانِ الإشارةَ إلى الفَريقينِ مِن كُلِّ مُنساقٍ إلى الاهتداءِ مِن أوَّلِ وهلةٍ، ومِن مُجادِلٍ صائرٍ إلى الاهتداءِ بعدَ قِيامِ الحُجَّةِ، ونفادِ الحِيلةِ[3].

- وفي قولِه: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ تَقدَّمَت صِفةُ العزيزِ؛ لِتقدُّمِ ما دلَّ عليها، وتَلِيها صِفةُ الحميدِ؛ لِتُلُوِّ ما دلَّ عليها[4].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٦).

- قولُه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ فيه وعيدٌ لِمَن كفَرَ بالكتابِ ولم يخرُجْ به مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ بالويلِ، وهو نقيضُ (الوَأْلِ) وهو النَّجاةُ، و(ويل) كَلِمةُ وعيدٍ وتَهديدٍ، ورُفِعتْ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ، كـ(سلامٌ عليك)[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾

- قولُه: ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ بمعنى يُحِبُّونَ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّأكيدِ، مِثْلَ: استقدَمَ واستأخَرَ[٢].

- قولُه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه الاقتصارُ على إضافةِ ﴿سَبِيلِ﴾ إلى الاسمِ الجليلِ المُنْطوي على كلِّ وصْفٍ جميلٍ؛ لِرَوْمِ الاختصارِ[٣].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما وُصِفُوا به مِن الضَّلالِ بسبَبِ صَدِّهم عن سَبيلِ الحقِّ، وابتغائِهم سَبيلَ الباطِلِ، ووصْفُ الضَّلالِ بالبعيدِ: يجوزُ أنْ يُرادَ وصْفُه بالبُعْدِ على تَشبيهِهِ بالطَّريقِ الشَّاسعةِ الَّتي يَتعذَّرُ رُجوعُ سالِكِها، أي: ضلالٌ قَويٌّ يَعسُرُ إقلاعُ صاحِبِه عنه؛ ففيه استبعادٌ لاهتداءِ أمثالِهم[٤].

- قولُه: ﴿فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ دلَّ حرْفُ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ على أنَّ الضَّلالَ مُحيطٌ بهم، وجَلْبَبَهم بِسَوادِهِ؛ فهم مُتمكِّنونَ منه، ومُنغمِسونَ فيه إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٤-١٨٥).

الأذقانِ، يتخبَّطونَ في مَتاهاتِه، ويتعسَّفونَ في ظُلماتِه[١]، ففي جعْلِ الضَّلالِ مُحيطًا بهم إحاطةَ الظَّرفِ بما فيه ما لا يخفى مِن المُبالَغةِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣١).

الآيات (٤-٨)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن
يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ
ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ
ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ
ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن
رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن
كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ
ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾: أي: نَعمائِه وبَلائِه، وقيل: بوقائعِه في الأُممِ[(١)].

﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾: أي: يُولونكم ويَبغونكم؛ مِن قَولِهم: سامَه: إذا كلَّفَه العمَلَ الشَّاقَّ، وأصلُ (سوم): يدلُّ على الذَّهابِ في ابتغاءِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾: أي: يَستبقُونهنَّ أحياءً، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٦٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

﴿تَأَذَّنَ﴾: أي: أعلَمَ. وهو من آذنتُك بالأمرِ: أي أعلمْتُك، وأصلُ (أذن): يدُلُّ على العِلمِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وما أرسَلْنا مِن رسولٍ قَبلَك -أيُّها النبيُّ- إلا بلُغةِ قَومِه؛ ليوضِّحَ لهم أمرَ دينهم، فيُضِلُّ اللهُ من يشاءُ عن الهُدى، ويَهدي من يشاءُ إلى الحَقِّ، وهو العزيزُ الحكيمُ.

ولقد أرسَلْنا موسى إلى بني إسرائيلَ، وأيَّدناه بالآياتِ العظيمةِ الدَّالَّةِ على صِدقِه، وأمَرْناه أن يَدعُوَهم إلى طريقِ الحَقِّ؛ ليُخرِجَهم من الضَّلالِ إلى الهُدى، ويُذَكِّرَهم بأيامِ نعمِ اللهِ، وبأيَّامِ نِقَمِه، إنَّ في هذا التذكيرِ لَدَلالاتٍ لكلِّ صبَّارٍ شكورٍ.

واذكُرْ -أيُّها الرَّسولُ- لقَومِك قصَّةَ موسى حين قال لبني إسرائيلَ: اذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم حين أنجاكم مِن فِرعونَ وأتباعِه، يُذيقُونَكم أشَدَّ العذابِ، ويُذبِّحونَ أبناءَكم الذُّكورَ، ويَستَبْقونَ نساءَكم للخِدمةِ والامتهانِ، وفي ذلكم اختبارٌ لكم مِن رَبِّكم عظيمٌ. وقال لهم موسى: اذكُروا حين أعلَمَ رَبُّكم إعلامًا مُؤكَّدًا: لئِنْ شَكَرتُموه على نِعَمِه لَيزيدَنَّكم مِن النِّعَمِ، ولئن كَفَرتُم نِعمةَ اللهِ فإنَّ عِقابَه لِمَن كفَرَ به شديدٌ. وقال لهم: إنْ تكفُروا بنِعَمِ اللهِ أنتم وجميعُ أهلِ الأرض، فإنَّ الله لَغنيٌّ حميدٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٤﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ في أوَّلِ السورةِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] كان هذا إنعامًا على الرَّسولِ، مِن حيثُ إنَّه فَوَّضَ إليه هذا المنصِبَ العظيمَ، وإنعامًا أيضًا على الخَلقِ، مِن حيثُ إنَّه أرسل إليهم مَن خَلَّصَهم مِن ظُلماتِ الكُفرِ وأرشَدَهم إلى نورِ الإيمان، فذكَرَ في هذه الآيةِ ما يجري مجرى تكميلِ النِّعمةِ والإحسانِ في الوَجهينِ؛ أمَّا بالنِّسبةِ إلى الرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فلِأنَّه تعالى بيَّنَ أنَّ سائِرَ الأنبياءِ كانوا مَبعوثينَ إلى قَومِهم خاصَّةً، وأمَّا أنت- يا محمَّدُ- فمَبعوثٌ إلى عامَّةِ الخَلقِ، فكان هذا الإنعامُ في حَقِّك أفضَلَ وأكمَلَ. وأمَّا بالنِّسبةِ إلى عامَّةِ الخَلقِ، فهو أنَّه- تعالى- ذكَرَ أنَّه ما بعث رَسولًا إلى قومٍ إلَّا بلسانِ أولئك القومِ، فإنَّه متى كان الأمرُ كذلك، كان فَهمُهم لأسرارِ تلك الشَّريعةِ ووقوفُهم على حقائِقِها أسهَلَ، وعن الغَلَطِ والخطأِ أبعَدَ[١].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

أي: وما أرسَلْنا رسُولًا إلى أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا بلُغةِ قَومِه الَّذين أرسَلْناه إليهم؛ ليُفهِمَهم ويُوضِّحَ لهم أمرَ دينِهم[٢].

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

أي: فبعدَ البَيانِ وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم يضِلُّ اللهُ من يشاءُ إضلالَه، فيخذُلُه عن اتِّباعِ الحَقِّ، ويُوَفِّقُ مَن يشاءُ هدايتَه إلى الحَقِّ، فالتَّوفيقُ والخِذلانُ بيَدِ اللهِ عزَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٠)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

وجلَّ[١].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: وهو العزيزُ الذي لا يُغْلَبُ على مشيئتِه، فما شاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، ومِن ذلك مشيئتُه بالإضلالِ أو الهدايةِ، وانفرادُه بهما، وهو الحكيمُ الذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائقِ به، ومِن حِكمتِه أنَّه لا يضَعُ هِدايتَه ولا إضلالَه إلَّا بالمحَلِّ اللائقِ به، فيُضِلُّ من يستحِقُّ الإضلالَ، ويهدي مَن هو أهلٌ لذلك[٢].

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّه إنَّما أرسلَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى النَّاسِ؛ ليُخرِجَهم مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ، وذكَرَ كَمالَ إنعامِه عليه وعلى قومِه في ذلك الإرسالِ، وفي تلك البَعثةِ- أتبَعَ ذلك بشَرحِ بَعثةِ سائرِ الأنبياءِ إلى أقوامِهم وكيفيَّةِ مُعاملةِ أقوامِهم معهم؛ تصبيرًا للرَّسولِ -عليه السَّلامُ- على أذَى قومِه، وإرشادًا له إلى كيفيَّةِ مُكالمتِهم ومُعاملتِهم، فذكَرَ تعالى -على العادةِ المألوفةِ- قَصَصَ بعضِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، فبدأ بذكرِ قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ[٣].

وأيضًا لَمَّا كانت الآياتُ السَّابقةُ مَسوقةً للرَّدِّ على من أنكَروا أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن الله؛ أعقَبَ الرَّدَّ بالتمثيلِ بالنَّظيرِ: وهو إرسالُ موسى عليه السَّلامُ إلى قومِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٤).

بمِثلِ ما أُرسِلَ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبمِثلِ الغايةِ التي أُرسِلَ لها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليُخرِجَ قَومَه مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ(١).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا موسى بآياتِنا العظيمةِ الدَّالَّةِ على صِدقِه، وصِحَّةِ ما جاء به(٢).

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾.

أي: أمَرْنا موسى قائلينَ له: ادْعُ قومَك بني إسرائيلَ إلى طريقِ الحَقِّ؛ لِيَخرُجوا مِن ظُلماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ(٣).

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾.

أي: وذَكِّرْ -يا موسى- قومَك بني إسرائيلَ بأيامِ نعمِ اللهِ وإحسانِه، وبأيَّامِ نِقَمِه وبَطشِه وانتقامِه(٤)؛ ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).
قال أبو حيان: (الجمهورُ على تفسيرِ قَولِه: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أنَّها تسعُ الآياتِ التي أجراها اللهُ على يدِ موسى عليه السَّلام. وقيل: يجوزُ أن يُرادَ بها آياتُ التوراةِ، والتقديرُ: كما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- بالقرآنِ بلِسانٍ عربيٍّ، وهو آياتُنا، كذلك أرسَلْنا موسى بالتوراةِ بلِسانِ قَومِه). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١).

(٤) قال ابنُ جرير: (أيَّامٌ كانت مَعلومةً عندهم، أنعَمَ اللهُ عليهم فيها نِعمًا جَليلةً، أنقَذَهم فيها مِن آلِ فِرعونَ بَعدَما كانوا فيما كانوا مِنَ العذابِ المُهينِ، وغرَّقَ عَدُوَّهم فِرعونَ وقَومَه، وأورَثَهم أرْضَهم ودِيارَهم وأموالَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤).
وقال ابنُ جزي: (﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾، أي: عُقوباتِه للأُمَمِ المُتقدِّمةِ، وقِيلَ: إنْعامِه على بني إسرائيلَ، واللَّفظُ يعُمُّ النِّعمَ والنِّقَمَ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٨).
وقال السِّعدي: (بنِعَمِه عليهم وإحسانِه إليهم، وبأيَّامِه في الأُمَمِ المُكذِّبينَ، ووَقائعِه بالكافرينَ).

وذلك ليشكُروا اللهَ، ويَحذَرُوا عذابَه[١].

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّه بينما موسى عليه السَّلامُ في قَومِه يُذَكِّرُهم بأيَّامِ اللهِ -وأيَّامُ اللهِ: نَعماؤُه وبَلاؤُه- إذ قال...)) الحديث[٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أي: إنَّ في التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ وأيَّامِه لَدَلالاتٍ وعِبَرًا ومَواعِظَ لكُلِّ مَن كان عظيمَ الصَّبرِ على الطَّاعةِ، وعن المعصيةِ، وعلى البلاءِ والضَّرَّاءِ، عظيمَ الشُّكرِ لله على السَّرَّاءِ والنَّعماءِ[٣].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨١-٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

قال ابن عاشور: (واسمُ الإشارةِ في قَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ عائدٌ إلى ما ذُكِرَ من الإخراجِ والتَّذكيرِ؛ فالإخراجُ من الظُّلُماتِ بعدَ توغُّلِهم فيها، وانقضاءِ الأزمنةِ الطويلةِ عليها: آيةٌ من آياتِ قُدرةِ الله تعالى. والتذكيرُ بأيَّامِ الله يشتمِلُ على آياتِ قُدرةِ الله وعِزَّتِه، وتأييدِ من أطاعَه، وكلُّ ذلك آياتٌ كائنةٌ في الإخراجِ والتذكيرِ على اختلافِ أحوالِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٠).

أنَّه لَمَّا تقدَّمَ أمرُ الله تعالى لموسى -عليه السَّلامُ- بالتَّذكيرِ بأيَّامِ الله؛ امتثَلَ أمرَ رَبِّه، فذكَّرَهم بما أنعَمَ تعالى عليهم مِن نَجاتِهم مِن آلِ فِرعونَ، وفي ضِمنِها تَعدادُ شَيءٍ ممَّا جرى عليهم مِن نِقماتِ اللهِ(١).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- قولَ موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: اذكُروا بقُلوبِكم وألسِنتِكم إنعامَ اللهِ عليكم، حين أنجاكم مِن فِرعونَ وقَومِه(٢).

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: يُذيقُكم آلُ فِرعونَ عذابًا سيِّئًا شَديدًا(٣).

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

أي: ويُذَبِّحونَ أبناءَكم الذُّكورَ المَولودين(٤).

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

أي: ويَترُكونَ إناثَكم(٥) ....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٨، ٥٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩١).

قال البقاعي: (﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فِرعونَ نَفسِه وأتباعِه، استعمالًا للمُشتَرَكِ في معنيَيه؛ فإنَّ الآلَ [يُطلَقُ] على الشَّخصِ نَفسِه وعلى أهلِ الرجُلِ وأتباعِه وأوليائِه). ((نظم الدرر)) (١٠/ ٣٨٣-٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٤).

(٥) قال الماورديُّ: (وأمَّا اسمُ النِّساءِ؛ فقد قِيلَ: إنَّه يَنطلِقُ على الصِّغارِ والكِبارِ، وقِيلَ: بل يَنطلِقُ

دونَ قَتلٍ؛ مِن أجلِ جعلِهم خدمًا وأرقَّاء(١).

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي: وفي عذابِ آلِ فِرعونَ لكم اختبارٌ مِن اللهِ لكم عظيمٌ، وفي إنجائِنا لكم مِنهم نِعمةٌ مِن اللهِ عَظيمةٌ(٢).

على الكِبارِ، وإنَّما سُمِّيَ الصِّغارُ نِساءً على معنَى: أنَّهنَّ يَبْقَينَ حتَّى يَصِرنَ نِساءً. ((تفسير الماوردي)) (١/ ١١٨).

وقال أبو حيان: (المعنى: يَتْرُكون بَناتِكم أحياءً للخِدمةِ، أو يُفتِّشونَ أرحامَ نِسائِكم... وقد قِيلَ: إنَّ الاستحياءَ هنا مِنَ «الحياءِ» الَّذي هو ضِدُّ القَحَةِ، ومعناهُ: أنَّهم يأتونَ النِّساءَ مِنَ الأعمالِ بما يَلْحَقُهم منه الحياءُ... واستحياءُ النِّساءِ على القولِ الأوَّلِ ليس بعذابٍ، لكنَّه يقَعُ العذابُ بسببِه؛ مِن جِهَةِ إبْقائِهنَّ خَدمًا، وإذاقَتِهنَّ حَسرةَ ذَبْحِ الأبناءِ، إنْ أُرِيدَ بالنِّساءِ الكِبارُ، أو ذَبْحِ الإخوةِ، إنْ أُرِيدَ الأطفالُ، وتَعلُّقِ العارِ بهنَّ؛ إذ يَبْقَيْنَ نِساءً بلا رجالٍ، فيَصِرنْ مُفترَشاتٍ لِأعدائِهنَّ). ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣١٤).

وقال الشِّنقيطيُّ: (أمَّا استحياءُ البناتِ، وهو قولُه: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ فأين وَجْهُ كَونِ هذا مِن سُوءِ العذابِ، مع أنَّ بقاءَ البَعضِ قد يَظهَرُ للنَّاظرِ أنَّه أحسَنُ مِن تَذبيحِ الكلِّ؟ الجَوابُ عن هذا: أنَّ استحياءَهم للنِّساءِ استحياءٌ هو مِن جُملةِ العذابِ؛ لأنَّهم يَسْتَحْيونَهم لِيُعَمِّلُوهم في الأعمالِ الشَّاقَّة، ولِيَفْعَلوا بهم ما لا يَلِيقُ مِنَ العارِ والشَّنارِ، وبَقاءُ البِنْتِ- وهي عَورةٌ- تحتَ يَدِ عدُوٍّ لا يُشفِقُ عليها، يَفعَلُ بها ما لا يَليقُ، ويُكلِّفُها ما لا تُطيقُ؛ هذا مِن سُوءِ العذابِ بلا شَكٍّ، وقد قال جَلَّ وعلَا: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، والعرَبُ كانوا ربَّما قَتَلوا بَناتِهم؛ شَفَقةً وخَوفًا عليهم ممَّا يُلاقُونَه ممَّا لا يَلِيقُ بَعدَ مَوتِ الآباءِ، وهو كَثيرٌ في شِعْرِهم). ((العذب النمير)) (١/ ٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٩)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، أي: نِعمةٌ عَظيمةٌ منه عليكم في ذلك، أنتم عاجِزونَ عنِ القيامِ بشُكْرِها. وقِيلَ: وفيما كان يَصنَعُه بكم قَومُ فِرعونَ مِن تلك الأفاعيلِ، ﴿بَلَآءٌ﴾، أي: اختبارٌ عَظيمٌ. ويَحْتمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ هذا وهذا- واللهُ أعلَمُ- كما

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَّرَهم بنعمةِ الأمنِ، رغَّبَهم فيما يزيدُها، ورهَّبَهم ممَّا يُزيلُها، فقال[(١)]:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾.

أي: واذكُروا حين أعلَمَكم ربُّكم: لَئِن شَكَرتُم اللهَ على نِعَمِه بطاعتِه في أمرِه ونَهيِه، ليزيدَنَّكم من النِّعَم[(٢)].

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾.

أي: ولئِنْ كَفَرتُم نعمةَ اللهِ عليكم فلم تشكُروه عليها بطاعتِه في أمرِه ونهيِه؛ فإنَّ عِقابَه لِمَن كفَرَ به شديدٌ، فيُصيبُكم منه ما يسلُبُ تلك النِّعَمَ، ويُحِلُّ بكم النِّقَمَ[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٠، ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩).

قال القرطبي: (قيل: هو مِن قولِ موسى لقومِه. وقيل: هو من قولِ الله، أي: واذكُرْ- يا محمَّدُ- إذ قال ربُّك كذا). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٣).

قال ابنُ كثير: (ويحتملُ أن يكونَ المعنى: وإذ أقسمَ رَبُّكم وآلى بعزَّتِه وجلالِه وكبريائِه، كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٤).

قال الثعالبي: (والكُفْرُ هنا: يحتملُ أن يكون على بابِه، ويحتملُ أنْ يكون كفرَ النِّعَمِ). ((تفسير

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا بيَّنَ أنَّ الاشتغالَ بالشُّكرِ يُوجِبُ تزايُدَ الخَيراتِ في الدُّنيا وفي الآخرةِ، والاشتغالَ بكُفرانِ النِّعَمِ يُوجِبُ العذابَ الشديدَ، وحصولَ الآفاتِ في الدُّنيا والآخرةِ[١]- بيَّنَ بعدَه أنَّ منافِعَ الشُّكرِ ومضارَّ الكُفرانِ لا تعودُ إلَّا إلى صاحِبِ الشُّكرِ وصاحِبِ الكُفرانِ، أمَّا المعبودُ والمشكورُ فإنَّه مُتعالٍ عن أن ينتفِعَ بالشُّكرِ أو يَستضِرَّ بالكُفرانِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان مَن حَثَّ على شيءٍ وأثابَ عليه، أو نهى عنه وعاقبَ على فعلِه، يكونُ لغَرضٍ له؛ بيَّنَ أنَّ اللهَ سبحانَه مُتعالٍ عن أن يَلحَقَه ضَرٌّ أو نفعٌ، وأنَّ ضَرَّ ذلك ونَفْعَه خاصٌّ بالعبدِ، فقال تعالى حاكِيًا عنه[٣]:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ ﴾.

أي: وقال موسى لقَومِه: إن تكفُروا بنِعَمِ اللهِ أنتم وجميعُ مَن في الأرضِ، فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن جميعِ خَلقِه، وعن شُكرِهم له، محمودٌ قد اسْتَوْجَب الحمدَ لِذاتِه لكثرةِ إنعامِه، وإنْ لم تَشْكُروه[٤] وهو حميدٌ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه[٥].

كما قال تعالى: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن

الثعالبي)) (٣/ ٣٧٥).

(١) وذلك على القولِ بأنَّ قائلَ هذه الجملةِ هو موسَى عليه السلامُ.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي: (١٠/ ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

﴿تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [التغابن: ٦].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا مَن هَدَيتُه، فاستهدُوني أهْدِكم، يا عبادي كُلُّكم جائِعٌ إلَّا مَن أطعَمتُه، فاستطعِموني أُطعِمْكم، يا عبادي كلُّكم عارٍ إلَّا مَن كسَوتُه، فاسْتَكْسُوني أكْسُكم، يا عبادي إنَّكم تُخطِئونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وأنا أغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا، فاستغفِروني أغفِرْ لكم، يا عبادي إنَّكم لن تَبلُغوا ضُرِّي فتضُرُّوني، ولن تبلُغوا نفعي فتَنفَعوني، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرِكَم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتقى قلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم؛ ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجَرِ قَلبِ رجلٍ واحدٍ؛ ما نقص ذلك مِن مُلكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألَته، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ))[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ في هذا دليلٌ على مشروعيةِ الوَعظِ المُرَقِّقِ للقُلوبِ، المُقَوِّي لليقينِ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ مَعرِفةُ هذه الأيَّامِ تُوجِبُ للعبدِ استبصارَ العِبَرِ، وبحَسَبِ مَعرفتِه بها تكونُ عِبرَتُه وعِظَتُه؛ قال الله تعالى ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[٣] [يوسف: ١١١].

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٨٨).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٧).

٣- قال الله تعالى لموسَى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ ٱللَّهِ﴾ وهي تتناولُ أيَّامَ نِعَمِه وأيَّامَ نِقَمِه؛ ليشكُروا ويَعتَبِروا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإنَّ ذِكرَ النِّعَمِ يدعو إلى الشُّكرِ، وذِكْرَ النِّقَمِ يقتضي الصَّبرَ على فِعلِ المأمورِ- وإن كَرِهَتْه النَّفسُ- وعن المحظورِ، وإن أحَبَّتْه النَّفسُ؛ لئَلَّا يُصيبَه ما أصاب غيرَه مِن النِّقمةِ(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إذا اعتبَرَ العبدُ الدِّينَ كُلَّه، رآه يرجِعُ بجُملتِه إلى الصَّبرِ والشُّكرِ(٢).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ يجِبُ ألَّا يخلوَ زَمانه عن أحدِ هذينِ الأمرينِ، فإن جرى الوقتُ على ما يلائِمُ طَبعَه ويوافِقُ إرادتَه، كان مشغولًا بالشُّكرِ، وإن جرى بما لا يلائِمُ طَبعَه، كان مشغولًا بالصَّبرِ(٣).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في صيغةِ المُبالغةِ إشارةٌ إلى أنَّ عادتَه تعالى جَرَت بأنَّه إنما ينصُرُ أولياءَه بعد طولِ الامتحانِ بعظيمِ البلاءِ؛ ليتبيَّنَ الصَّادِقُ مِن الكاذبِ ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠]، ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[العنكبوت: ١، ٢]؛ وذلك أنَّه لا شيءَ أشَقُّ على النُّفوسِ مِن مُفارقةِ المألوفِ، لا سيَّما إن كان دِينًا، ولا سيَّما إن كان قد درجَ عليه الأسلافُ، فلا يقومُ بالدُّعاءِ إلى الدِّينِ إلَّا من بلغَ الذِّروةَ في الصَّبرِ(٤).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ١٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٥).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ الآيةُ نَصٌّ في أنَّ الشُّكرَ سببُ المزيدِ[١]، فالشكرُ معه المزيدُ أبدًا، فمتَى لم تَرَ حالَك في مزيدٍ، فاسْتقْبِلِ الشُّكرَ[٢].

٨- لا شَكَّ أنَّ النِّعَمَ تستوجِبُ مِنَّا الشُّكرَ؛ لأنَّنا إذا شَكَرْنا اللهَ عزَّ وجَلَّ فقد قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] فبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه بالشُّكرِ يزيدُ النِّعَم، أمَّا إذا قُوبِلَت بالكُفرِ فإنَّ اللهَ تعالى سيعذِّبُ هؤلاء الذين أنعَمَ الله عليهم، فبَدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مَن بَلَغَه القرآنُ بلغةٍ لا يفهَمْ منها شيئًا؛ فإنه لا تقومُ عليه الحُجَّةُ؛ لقولِه تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، وقولِه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٤] [الزخرف: ٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ إن قيلَ: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما بُعِثَ للعَرَبِ خاصَّةً، فكيف الجمعُ بين هذه الآيةِ وبين الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على عموم رِسالتِه؟

والجوابُ عن ذلك:

أنَّ الله تعالى قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ولم يقُلْ: (وما أرسَلْنا مِن رسولٍ إلَّا إلى قومِه)[٥]، فلا تعارضَ بينهما.

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٣).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((اللقاء الشَّهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٥٤-٥٥).

وأيضًا فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُرسِلَ إلى النَّاسِ كافَّةً بلسانِ قَومِه، وهم العرَبُ، ونزولُه بلِسانِهم مع التَّرجمةِ لباقي الألسُنِ كافٍ لحُصولِ الغَرَض بذلك، ولأنَّه أبعَدُ عن التَّحريفِ والتَّبديلِ، وأسلَمُ مِن التَّنازُعِ والاختلافِ[1]. فالله عزَّ وجلَّ لم يرسِلْه إلَّا بلسانِ قَومِه الذين خاطَبهم أوَّلًا، ليبيِّنَ لقَومِه، فإذا بيَّنَ لقَومِه ما أراده حصل بذلك المقصودُ لهم ولغيرِهم؛ فإنَّ قومَه الذين بلَّغَ إليهم أوَّلًا يمكِنُهم أن يبَلِّغوا عنه اللَّفظَ، ويُمكِنُهم أن ينقُلوا عنه المعنى لِمَن لا يعرِفُ اللُّغةَ، ويُمكِنُ لغَيرِهم أن يتعَلَّمَ منهم لسانَه، فيعرف مرادَه، فالحُجَّةُ تقومُ على الخَلقِ ويحصُلُ لهم الهُدى بمن ينقُل عن الرَّسولِ: تارةً المعنى، وتارةً اللَّفظ؛ ولهذا يجوزُ نقلُ حديثِه بالمعنى، والقرآنُ يجوزُ تَرجمةُ معانيه لِمَن لا يعرِفُ العربيَّةَ، باتِّفاقِ العُلَماءِ[2].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ عُلومَ العربيَّةِ المُوصِلةَ إلى تبيينِ كلامِه تعالى وكلامِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أمورٌ مَطلوبةٌ مَحبوبةٌ لله؛ لأنَّه لا يتِمُّ مَعرِفةُ ما أُنزِلَ على رسولِه إلَّا بها، إلَّا إذا كان النَّاسُ بحالةٍ لا يحتاجونَ إليها، وذلك إذا تمَرَّنوا على العربيَّة، ونشأ عليها صغيرُهم وصارت طبيعةً لهم، فحينئذٍ قد كُفُوا المُؤنةَ، وصَلَحوا لأن يتلَقَّوا عن اللهِ وعن رَسولِه ابتداءً، كما تلقَّى عنهم الصَّحابةُ رَضِيَ الله عنهم[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ لا حُجَّةَ للعَجَمِ وغيرِهم في هذه الآيةِ؛ لأنَّ كُلَّ مَن تُرجِمَ له ما جاء به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ترجمةً يفهَمُها؛ لَزِمَته الحُجَّةُ، وقد قال الله تعالى: ﴿

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٥٤-٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢١).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((والذي نفسي بيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ؛ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمَّ لم يؤمِنْ بالذي أُرسِلْتُ به- إلَّا كان مِن أصحابِ النَّارِ))(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ أنَّه لا بدَّ أن يكونَ الرسولُ مبيِّنًا لقومِه ما أُرسِل به، ويتفرع على هذه الفائدة أهميَّةُ التَّرجمةِ، وأنَّ على المُسلِمينَ أن يُترجِموا الشَّريعةَ إلى لغةِ مَن يُخاطِبونَهم بها حتى تتِمَّ الحُجَّةُ؛ فمَن أراد أن يذهَبَ إلى قومٍ يدعوهم إلى اللهِ، لا بُدَّ أن يتعَلَّمَ لُغتَهم حتى يتمكَّنَ مِن دَعوتِهم، أو يصطَحِبَ شَخصًا يُترجِمُ له يكونُ عالِمًا باللُّغتَينِ: الأصليَّةِ والفرعيَّةِ، ويكونُ له إلمامٌ بموضوعِ ما يُترجِمُه، فإذا كان يريدُ أن يُترجِمَ كلامًا في التوحيدِ لا بد أن يكونَ عنده إلمامٌ بذلك؛ لئلَّا يُفهِمَ الأمرَ على خلافِه(٢)!

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ وحَّدَ اللِّسانَ، وإن أضافه إلى القَومِ؛ لأنَّ المرادَ اللُّغةُ، فهي اسمُ جِنسٍ يقَعُ على القليلِ والكثيرِ(٣)، واللسانُ يُطلقُ على «القَولِ» كثيرًا في اللُّغةِ العربيَّةِ، فقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ أي: بلُغتِهم(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ يُبيِّنونَ للنَّاسِ بيانًا تامًّا لا يُحتاجُ معه إلى

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٠).
والحديثُ أخرجه مسلم (١٥٣) مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٠).
(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٧٤).

إيضاحٍ[(١)]، فالرُّسُلُ هي التي تُبَيِّنُ، والله هو الذي يُضِلُّ مَن يشاءُ، ويهدي مَن يشاءُ بعِزَّتِه وحِكمتِه، قال تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[(٢)].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾، استُدِلَّ به على أنَّه لا يُشتَرَطُ أن تكونَ خطبةُ الجمعةِ بالعربيَّةِ، بل تكونُ بلُغةِ القَومِ الذين يخطبُ فيهم؛ فالخُطبتانِ ليستا ممَّا يُتعَبَّدُ بألفاظِهما[(٣)].

٩- تعلُّمُ غيرِ العربيَّةِ من اللغات ليس حرامًا، بل قد يكونُ واجبًا إذا توقَّفَت دعوةُ غيرِ العربيِّ على تعلُّمِ لُغتِه، فيصير تعلُّمُ لغتِه فرضَ كفايةٍ؛ لأنَّه لا بدَّ من تبليغِهم دينَ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[(٤)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الهُدى والضَّلالَ إنَّما يكونُ بعدَ البَيانِ[(٥)].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾، وقال ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤]، فكلُّ ما بيَّنَه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعَن ربِّه سُبحانَه بَيَّنَه بأمرِه وإذنِه[(٦)].

١٢- اللهُ سُبحانَه يُرسِلُ الرُّسُلَ مِن جِنسِ المُرسَلِ إليهم؛ لأنَّه أتمُّ لحُصولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٥/ ٥٩)، وهو مذهبُ الحنفيةِ، أما الجمهورُ فعلى خلافِ ذلك، ويُنظر: ((مختصر فقه الصلاة)) إعداد القسم العلمي بالدُّرر السَّنية (ص: ٦٥٧).

(٤) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٣).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٧٩).

(٦) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٨٦).

المقصودِ بالرِّسالةِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[١].

١٣- الاستدلالُ بالقُرآنِ إنَّما يكونُ بحَملِه على لُغةِ العَربِ التي أُنزِلَ بها، بل قد نزل بلُغةِ قُرَيشٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٥] فليس لأحدٍ أن يَحمِلَ ألفاظَ القُرآنِ على غيرِ ذلك، مِن عُرفٍ عامٍّ، واصطلاحٍ خاصٍّ، بل لا يحمِله إلَّا على تلك اللُّغةِ[٢].

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ[٣].

١٥- أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه إنَّما ينتفِعُ بآياتِه ويتَّعِظُ بها الصَّبَّارُ الشَّكورُ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾، وقال تعالى في (لُقمانَ): ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [لقمان: ٣١]، وقال في قِصَّةِ (سبأٍ): ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [سبأ: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ * إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣]؛ فهذه أربعةُ مَواضِعَ في القُرآنِ تدُلُّ على أنَّ آياتِ الرَّبِّ إنَّما يَنتفِعُ بها

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٨).

أهْلُ الصَّبرِ والشُّكرِ[١].

١٦- الإيمانُ نِصفانِ: نِصفٌ صَبرٌ، ونِصفٌ شُكرٌ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن أصابَتْه سرَّاءُ شكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خيرًا له))[٢]، فمنازِلُ الإيمانِ كُلُّها بين الصبرِ والشُّكرِ[٣].

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لَمَّا كان المرادُ بالتَّذكيرِ بالأيَّامِ زيادةَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ أشار إلى أنَّ مَقامَ الترهيبِ هنا أهَمُّ- للحَثِّ على تَركِهم الضَّلالَ- بتَركِ عادتِه في الترفُّقِ، بمثلِ ما في البقرةِ والمائدةِ مِن الاستعطافِ بعاطفةِ الرَّحِم بقَولِه: ﴿يَا قَوْمِ﴾، فأسقَطَها هنا؛ إشارةً إلى أنَّ المقامَ يقتضي الإبلاغَ في الإيجازِ في التَّذكيرِ؛ للخَوفِ مِن مُعاجَلتِهم بالعذابِ[٤].

١٨- حيثُ ذُكِرَ في الكتابِ والسُّنَّةِ «آلُ فُلانٍ»، كان «فلانٌ» داخِلًا فيهم، كقَولِه تعالى: ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، فالرجلُ حيثُ أُضيف إلى آلِه دخَل فيه هو[٥].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ عبَّرَ بالنِّعمةِ عن الإنعامِ؛ حَثًّا

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ٧٤).
(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٣).
(٥) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢١٣)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٤).

على الاستدلالِ بالأثَرِ على المؤثِّر[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ فيه قَصْرٌ بـ(ما... إلَّا)، وإذا كانت صِيغَةُ القصْرِ مُستعملَةً في ظاهِرِها، ومُسلَّطَةً على مُتعلِّقي الفعْلِ المقصورِ، كان قصرًا إضافيًّا لِقلْبِ اعتقادِ المُخاطَبينَ؛ فيتعيَّنُ أنْ يكونَ ردًّا على فريقٍ مِن المُشركينَ قالوا: هلَّا أُنْزِلَ القُرآنُ بلُغةِ العَجَمِ؟ وإذا كانت صِيغَةُ القصْرِ جاريةً على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ، ولم يكُنْ ردًّا لمقالةِ بعضِ المُشركينَ، يكُون تَنزيلًا للمُشركينَ مَنزلةَ مَن ليسوا بعربٍ؛ لعدَمِ تأثُّرِهم بآياتِ القُرآنِ، وقولُه: ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ إدماجٌ في الاستثناءِ المُتسلِّطِ عليه القصْرُ، أو يكونُ مُتعلِّقًا بفعْلِ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ مُقدَّمًا عليه[2].

- والعُدولُ إلى صِيغَةِ الاستقبالِ ﴿فَيُضِلُّ﴾ ﴿وَيَهۡدِي﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ، أو للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ حسَبَ تَجدُّدِ البَيانِ مِن الرُّسلِ المُتعاقبةِ عليهم السَّلامُ[3].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ الْتفاتٌ بإسنادِ الفِعلينِ إلى الاسمِ الجَليلِ المُنْطوي على الصِّفاتِ؛ لِتفخيمِ شأنِهما، وتَرشيحِ مناطِ كلٍّ منهما[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٣٥).

- وتقديمُ الإضلالِ على الهدايةِ؛ لأنَّه متقَدِّمٌ عليها، إذ هو إبقاءٌ على الأصلِ، والهدايةُ إنشاءُ ما لم يكُنْ[١]، أو للمُبالَغةِ في بيانِ أنْ لا تأثيرَ للتَّبيينِ والتَّذكيرِ مِن قِبَلِ الرُّسلِ، وأنَّ مَدارَ الأمرِ إنَّما هو مشيئتُه تعالى بإيهامِ أنْ ترتُّبَ الضَّلالةِ على ذلك أسرَعُ مِن ترتُّبِ الاهتِداءِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ بإضافةِ الأيَّامِ إلى الاسمِ الجليلِ؛ للإيذانِ بفَخامةِ شأْنِها، والإشعارِ بعدَمِ اختِصاصِ ما فيها مِن المُعاملَةِ بالمخاطَبِ وقومِه- كما تُوهِمُه الإضافةُ إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ- أي: عِظْهُم بالتَّرغيبِ التَّرهيبِ، والوعْدِ والوعيدِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ تأكيدُ الإخبارِ عن إرسالِ موسى عليه السَّلامُ بلامِ القَسَمِ، وحرْفِ التَّحقيقِ (لَقَدْ)؛ لِتنزيلِ المُنْكرينَ رِسالةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَنزلةَ مَن يُنْكِرُ رسالةَ موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّ حالَهم في التَّكذيبِ برسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقْتَضي ذلك التَّنزيلَ؛ لأنَّ ما جاز على المِثلِ يجوزُ على المُماثِلِ، على أنَّ منهم مَن قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، والباءُ في ﴿بِآيَاتِنَا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٣٣).

للمُصاحَبةِ، أي: إرسالًا مُصاحِبًا للآياتِ الدَّالةِ على صِدْقِه في رِسالتِه، كما أُرْسِلَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُصاحِبًا لآيةِ القُرآنِ الدَّالِّ على أنَّه مِن عندِ اللهِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صِفتَا مُبالَغةٍ، وهما مُشعِرَتانِ بأنَّ أيَّامَ اللهِ المُرادُ بهما: بَلاؤُه ونَعْماؤه، أي: صبَّارٍ على بلائِه، شَكورٍ لِنَعمائِه؛ فإذا سمِعَ بما أنزَلَ اللهُ مِن البلاءِ على الأُمَمِ، أو بما أفاض عليهم مِن النِّعَمِ، تَنبَّهَ على ما يجِبُ عليه مِن الصَّبرِ إذا أصابه بلاءٌ، ومِن الشُّكرِ إذا أصابَتْه نَعماءُ(٢).

- وخُصَّ الصَّبَّارُ والشَّكورُ؛ لأنَّهما هما اللَّذانِ يَنتفِعانِ بالتَّذكيرِ والتَّنبيهِ ويتَّعظانِ به، فصارت كأنَّها ليست آياتٍ إلَّا لهما، كما في قَولِه تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقيل: لا يَبعُدُ أن يُقالَ: الانتفاعُ بهذا النَّوعِ مِن التذكيرِ لا يُمكِنُ حُصولُه إلَّا لِمَن كان صابِرًا أو شاكِرًا، أمَّا الذي لا يكونُ كذلك، فلم ينتفِعْ بهذه الآياتِ، وقيل: أراد لكلِّ مُؤمنٍ ناظِرٍ لنفْسِه؛ لأنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ مِن سجايا أهلِ الإيمانِ، وعبَّرَ عنه بذلك؛ تَنبيهًا على أنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ عنوانُ المُؤمنِ(٣)، وقيل: لَمَّا كانت الآياتُ مُختلفةً؛ بعضُها آياتُ مَوعِظةٍ وزَجرٍ، وبَعضُها آياتُ مِنَّةٍ وترغيبٍ- جُعِلَت متعلِّقةً بـ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ إذ الصبرُ مناسِبٌ للزَّجرِ؛ لأنَّ التخويفَ يبعَثُ النَّفسَ على تحمُّلِ مُعاكَسةِ هواها؛ خيفةَ الوقوعِ في سُوءِ العاقبةِ، والإنعامَ يبعَثُ النَّفسَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٠).

الشُّكرِ، فكان ذِكرُ الصِّفَتينِ تَوزيعًا لِما أجمَلَه ذِكرُ أيَّامِ اللهِ، مِن أيامِ بُؤسٍ وأيَّامِ نَعيمٍ[١].

- وقُدِّمَ الصَّبَّارُ على الشَّكُورِ؛ لكونِ الشُّكرِ عاقبةَ الصَّبرِ[٢].

- واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ عائدٌ إلى ما ذُكِرَ مِن الإخراجِ والتَّذكيرِ، وهي آياتٌ كائنةٌ في الإخراجِ والتَّذكيرِ على اختِلافِ أحوالِه، وقد أحاط بمعنى هذا الشُّمولِ حرْفُ الظَّرفيَّةِ مِن قولِه: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ تجمَعُ أشياءَ مُختلفةً يحتَويها الظَّرفُ؛ ولذلك كان لِحرْفِ الظَّرفيَّةِ هنا موقِعٌ بليغٌ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فيه التَّعبيرُ بِصيغةِ الإفعالِ ﴿أَنجَاكُم﴾ دُونَ صِيغةِ التَّفعيلِ ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾ الذي اقتَضاه سِياقُ سورةِ البَقرةِ؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا قد طالَ صَبرُهم جدًّا بما طالَ مِن بَلائِهم مِن فِرعونَ على وَجهٍ لا يُمكِنُ في العادةِ خَلاصُهم منه، وإنْ أمكنَ على بُعدٍ لم يَكُنْ إلَّا في أزمنةٍ طِوالٍ جدًّا بتَعبٍ شَديدٍ؛ أشارَ بِصيغةِ الإفعالِ ﴿أَنجَاكُم﴾ إلى إسراعِه بخَلاصِهم بالنِّسبةِ إليه لو جرَى على مُقتضَى العادةِ جزاءً لهم على طُولِ صَبرِهم[٤]. إضافةً إلى تَذكيرِهم بنِعمةِ اللهِ في نَجاتِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٠-١٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٣).

والتَّذكيرُ بِنعمةِ اللهِ في (أنْجى) أبلَغُ مِن (نَجَّى)؛ لِمَا فيه مِن الإسراعِ في النَّجاةِ، وإنْ كان كلٌّ منهما مِن جَليلِ النِّعمِ. وقِيلَ: استعمَلَ ﴿أَنجَىٰكُم﴾؛ لِمَا زادَ على ما في البقرةِ مِنَ العَذابِ؛ فإنَّه فَسَّرَ سُوءَ العَذابِ بقولِه: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، في حينِ عَطَفَ تَذبيحَ الأبناءِ على سُوءِ العذابِ في آيةِ إبراهيمَ، فجعَلَ تَذْبيحَ الأبناءِ أمْرًا آخَرَ غيرَ سُوءِ العذابِ؛ فلمَّا زاد في العذابِ اقْتَضى ذلك الإسراعَ في الإنجاءِ[١].

- قولُه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، وفي سُورةِ (البقرةِ) قال: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي (الأعرافِ) قال: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤١]؛ فهاهنا ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ مع الواوِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ التَّذبيحَ حيثُ طُرِحَ الواوُ جُعِلَ تَفسيرًا للعَذابِ وبَيانًا له، وحيث أُثْبِتَ جُعِلَ التَّذبيحُ- لأنَّه أَوْفى على جنْسِ العَذابِ، وزادَ عليه زِيادةً ظاهرةً- كأنَّه جِنْسٌ آخَرُ؛ فحُذِفتِ الواوُ في سُورةِ البَقرةِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ تَفسيرٌ لقولِه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، وفي التَفسيرِ لا يَحسُنُ ذِكرُ الواوِ، كما تقولُ: جاءني القومُ زيدٌ وعمرٌو، إذا أردتَ تَفسيرَ القومِ، وأمَّا دخولُ الواوِ هنا في هذِه السُّورةِ؛ فلأنَّ آلَ فِرعونَ كانوا يُعذِّبونهم بأنواعٍ مِن العذابِ غيرِ التذبيحِ وبالتذبيحِ أيضًا؛ فقولُه: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ نوعٌ آخَرُ مِن العذابِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ

(١) يُنظر: ((بلاغة الكلمة في التعبير القرآني)) للسامرائي (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩).

إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾، أي: آذَنَ إيذانًا بليغًا لا تَبقَى معه شائبةٌ؛ فـ﴿تَأَذَّنَ ﴾ بمعنى آذَنَ، كـ(توعَّدَ وأوعَدَ)، غيرَ أنَّه أبلَغُ؛ لأنَّ في صِيغَةِ (تفعَّل) زيادةَ معنًى على صِيغَةِ (أفْعَل)، ولِمَا في التَّفعُّلِ مِن معنى المُبالَغةِ، والتَّكلُّفِ المُحمولِ في حقِّه سبحانه على غايَتِه الَّتي هي الكمالُ[١].

- قولُه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، وكأنَّه راعَى ظاهِرَ المُقابَلةِ في قولِه: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، وجاء التَّركيبُ على ما عُهِدَ في القُرآنِ؛ مِن أنَّه إذا ذُكِرَ الخيرُ أُسْنِدَ إليه تعالى، وإذا ذُكِرَ العَذابُ بعدَه عُدِلَ عن نسبَتِه إليه، فقال: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾؛ فنسَبَ الزِّيادةَ إليه، وقال: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، ولم يأتِ التَّركيبُ: (لأُعذِّبنَّكم)، وخرَجَ في ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ بالمفعولِ، وهنا لم يُذْكَرْ، وإنْ كان المعنى عليه، أي: إنَّ عذابي لكم لَشديدٌ؛ فمِن عادةِ الكِرامِ التَّصريحُ بالوعْدِ، والتَّعريضُ بالوعيدِ، فما الظَّنُّ بأكرَمِ الأكرمينَ؟ ويجوزُ أنْ يكونَ المذكورُ تعليلًا للجوابِ المحذوفِ، أي: لَأُعذِّبنَّكم، فاستغنَى بـ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ عن (لأُعذِّبنَّكم عذابًا شديدًا)؛ لكونِه أعمَّ وأوجزَ، ولكونِ إفادةِ الوعيدِ بضربٍ مِن التعريضِ أوْقَعَ في النَّفْسِ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٣).

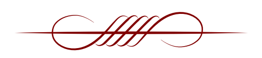
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان))٦/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٤).

حَمِيدٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ ... ﴾ فيه إعادةُ فعْلِ القَولِ في عطْفِ بعضِ كلامِ موسى عليه السَّلامُ على بعضٍ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ هذا ممَّا تأذَّنَ به الرَّبُّ، وإنَّما هو تنبيهٌ على كلامِ اللهِ، وفي إعادةِ فعْلِ القولِ اهتمامٌ بهذه الجُملةِ وتَنويهٌ بها؛ حتَّى تبرُزَ مُستقلَّةً، وحتَّى يُصْغِيَ إليها السَّامعونَ للقُرآنِ[١].

- وحُذِفَ جوابُ ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾؛ لدَلالةِ المعنى عليه، والتَّقديرُ: فإنَّما ضرَرُ كُفْرِكم لاحقٌ بكم، واللهُ تعالى مُتَّصفٌ بالغِنى المُطلَقِ والحمدِ، سواءٌ كفَروا أم شَكَروا، وفي خِطابِه لهم تَحقيرٌ لشأْنِهم، وتعظيمٌ للهِ تعالى، وكذلك في ذِكْرِ هاتينِ الصِّفتَينِ[٢].

- وقولُه: ﴿جَمِيعًا﴾ تأْكيدٌ لـ﴿مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتَّنصيصِ على العُمومِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان))٦/ ٤١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٥).

الآيات (٩-١٢)

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ
أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾
۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم
مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ
أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ
رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا
كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مُرِيبٍ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والرِّيبةُ: التهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قسمٌ مِن الشكِّ، والريبةُ: قَلَقُ النَّفسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[(١)].

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: خالِقِهما ومُبدِعِهما ومُبتدئِهما، وأصلُ (فطر): الشَّقُّ طولًا، ويدلُّ على فتْحِ شيءٍ، وإبرازِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ألم يأتِكم خبَرُ الأمَمِ التي سبقَتْكم؛ قوم نُوحٍ، وقَومِ هُودٍ وثمودَ، وأممٌ كثيرةٌ مِن بعدِهم، لا يعلمُ عدَدَهم وأخبارَهم إلَّا اللهُ وحدَه، جاءَتْهم رسُلُهم بالبراهينِ الواضِحاتِ، فرَدُّوا أيديَهم إلى أفواهِهم؛ ليَعَضُّوها غيظًا ممَّا جاءت به الرسُلُ، وقالوا لرُسُلِهم: إنَّا كفَرْنا بما جِئتُمونا به، وإنَّا لفي شَكٍّ يوجِبُ لنا التُّهمةَ والرِّيبةَ مِن حقيقةِ ما جِئتُمونا به.

قالت لهم رسُلُهم: أفي اللهِ وعبادتِه -وَحْدَه- شكٌّ، وهو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومُنشِئُهما من العدَمِ على غيرِ مثالٍ سابِقٍ، وهو يَدعوكم إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه؛ ليغفِرَ لكم بعضَ ذُنوبِكم، ويؤخِّرَ بَقاءَكم في الدُّنيا إلى نهاية آجالِكم، دونَ أن يُعاجلَكم في الدُّنيا بالعذابِ.

فقالوا لرُسُلِهم: ما نراكم إلَّا بشَرًا صِفاتُكم كصِفاتِنا، لا فضْلَ لكم علينا يؤهِّلُكم أن تكونوا رسُلًا، تُريدونَ أن تمنَعونا مِن عبادةِ ما كان يعبُدُه آباؤنا مِن الأصنامِ والأوثانِ، فأْتُونا بحُجَّةٍ دامغةٍ، ومُعجزةٍ ظاهرةٍ تشهَدُ على صِحَّةِ ما تدعونَنا إليه.

قالت لهم رسلهم: حقًّا ما نحنُ إلا بشَرٌ مِثلُكم، ولكِنَّ اللهَ يتفضَّلُ على مَن يشاءُ مِن عبادِه بالنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ، ويُفَضِّلُهم على كثيرٍ مِن خَلْقِه، ولا يمكِنُ لنا أن نأتيَكم بما اقترحتُم مِن حجةٍ أو آيةٍ إلَّا بإذنِ اللهِ، وعلى اللهِ وَحدَه يعتَمِدُ المؤمِنونَ في كلِّ أمورِهم، وكيف لا نعتَمِدُ على اللهِ، وهو الذي أرشَدَنا إلى سُلوكِ الطَّريقِ المُوصِلِ إلى رَحمتِه، المُنَجِّي مِن سَخَطِه ونِقمَتِه؟ ولنصبِرَنَّ على إيذائِكم لنا، وعلى اللهِ وَحدَه فليعتَمِدِ المتوَكِّلونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا حَذَّرَهم انتقامَ اللهِ إن كَفَروا، ذكَّرَهم أيامَه في الأمَمِ الماضيةِ[١].

﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ ﴾.

أي: ألم يأتِكم خَبَرُ الأُمَمِ الذين مَضَوا مِن قَبلِكم؛ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ[٢]؟

﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

أي: وأمَمٌ كثيرةٌ مِن بعدِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، لا يعلَمُ عدَدَهم وأخبارَهم إلَّا اللهُ وَحدَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

قيل: هذا من تمامِ قولِ موسى لقومِه، وممن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٣).

وقيل: هو خبرٌ مُستأنَفٌ مِن الله تعالى لهذه الأمَّة، وممن قال بذلك: ابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٠-٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٥).

وقال الشوكاني: (يحتمِلُ أن يكون هذا خطابًا مِن موسَى لقومِه، فيكون داخلًا تحتَ التذكيرِ بأيام الله، ويحتملُ أن يكونَ مِن كلامِ الله سبحانَه ابتداءً خطابًا لقوم موسى، وتذكيرًا لهم بالقرونِ الأُولَى وأخبارِهم ومجيءِ رسُلِ الله إليهم، ويحتمِلُ أنَّه ابتداءُ خِطابٍ مِن الله سبحانه لقومِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم؛ تحذيرًا لهم عن مخالفتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٦).

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥ - ٣٨].

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: جاء كُلَّ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ السَّابقةِ رَسولُهم الذي أرسَلَه اللهُ إليهم، بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّامغةِ، والمُعنجِزاتِ الظَّاهِرةِ الدَّالَّةِ على صِدقِ الرُّسُلِ، وصِحَّةِ دعوتِهم النَّاسَ إلى توحيدِ الله وطاعتِه[١].

﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

أي: فرَدَّ المكَذِّبونَ مِن الأُمَمِ السَّابقةِ أيديَهم إلى أفواهِهم؛ ليَعَضُّوها غيظًا ممَّا جاءت به الرسُلُ مِن توحيدِ اللهِ، الذي فيه تسفيهُ أحلامِهم، وإبطالُ آلهتِهم[٢].

قال الزمخشري: (﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ مِن مبتدإٍ وخبرٍ، وقعتْ اعتراضًا: أو عطَف «الذين من بعدِهم» على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾. و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ اعتراضٌ. والمعنى: أنَّهم مِن الكثرةِ بحيثُ لا يعلمُ عددَهم إلَّا الله). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٩)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٥).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، والنَّحَّاس، والقرطبي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٥).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾.

أي: وقالوا لرُسُلِهم: إنَّا كَفَرْنا بالذي تزعُمونَ أنَّكم أُرسِلتُم به، مِن الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللهِ، وتَركِ الإشراكِ به[1].

وقال الشوكاني: (﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: جعلوا أيديَ أنفُسِهم في أفواهِهم؛ ليعَضُّوها غيظًا ممَّا جاءت به الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾؛ لأنَّ الرُّسُل جاءتهم بتسفيهِ أحلامِهم وشَتمِ أصنامِهم... وقال أبو عبيدةَ- ونِعمَ ما قال-: هو ضَربُ مَثَلٍ، أي: لم يؤمِنوا ولم يُجيبوا، والعربُ تقول للرجلِ إذا أمسك عن الجوابِ وسكت: قد ردَّ يدَه في فيه، وهكذا قال الأخفش، واعترَض ذلك القتبيُّ، فقال: لم يُسمَعْ أحدٌ من العرب يقولُ: ردَّ يدَه في فيه: إذ ترك ما أُمِرَ به، وإنما المعنى: عَضُّوا على الأيدي حنَقًا وغيظًا... وهذا هو القولُ الذي قدَّمناه على جميع هذه الأقوال... وهو أقربُ التفاسيرِ للآية إن لم يصِحَّ عن العربِ ما ذكره أبو عبيدةَ والأخفش، فإن صَحَّ ما ذَكَراه فتفسيرُ الآية به أقربُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٦). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٣٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٠).

وعن ابن عباس ﴿رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: (هَذَا مَثَلٌ، كَفُّوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ). علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٦/ ٩٩).

وممن اختار قولَ أبي عبيدةَ: البقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٠/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

واختار ابنُ عاشور أنَّ المراد: أنَّهم وضعوا أيديَهم على أفواهِهم؛ إخفاءً لشِدَّةِ الضَّحِك من كلامِ الرُّسُل؛ كراهيةَ أن تظهَرَ دواخِلُ أفواهِهم. وذلك تمثيلٌ لحالة الاستهزاءِ بالرسُلِ- عليهم السلام. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٦).

وفي الآيةِ الكريمةِ أقوالٌ؛ مِنها: أنَّهم لَمَّا سَمِعوا كِتابَ اللهِ، عَجِبوا ورَجَعوا بأيدِيهم إلى أفواهِهم مِنَ العجَبِ. ويُرْوَى عن ابنِ عبَّاسٍ. ومِنها: أنَّهم كانوا إذا قال لهم نَبِيُّهم: أنا رسولُ اللهِ إليكم، أشاروا بأصابِعِهم إلى أفواهِهم أنِ اسْكُتْ؛ تكذيبًا له، وردًّا لقولِه. ويُرْوَى هذا عن أبي صالحٍ. ومِنها: أنَّهم وَضَعوا أيدِيَهم على أفواهِ الرُّسلِ؛ ردًّا لِقَولِهم، قالَهُ الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦).

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّا لفي شَكٍّ يوجِبُ لنا التُّهمةَ والرِّيبةَ مِن حقيقةِ ما جِئتُمونا به؛ فلَسْنا نصَدِّقُكم فيه[1].

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾.

أي: قالت الرُّسُلُ لأُمَمِهم: أفي وجودِ اللهِ وإفرادِه بالعبادةِ دُونَ غيرِه شَكٌّ[2]؟!

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: خالقِ السَّمواتِ والأرضِ، ومُوجِدِهما مِن العدَمِ على غيرِ مِثالٍ سابقٍ[3].

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٢).
قال القرطبي: (أي: نظُنُّ أنَّكم تطلبونَ المُلك والدنيا). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٣٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).
قال ابن كثير: (هذا يحتمِلُ شيئين: أحدُهما: أفي وجودِه شَكٌّ؟! فإنَّ الفِطَرَ شاهدةٌ بوجوده، ومجبولةٌ على الإقرار به، فإنَّ الاعتراف به ضروريٌّ في الفِطَر السليمة، .. والمعنى الثاني في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: أفي إلهيَّته، وتفرُّدِه بوجوب العبادة له شكٌّ؟! وهو الخالِقُ لجميع الموجوداتِ، ولا يستحِقُّ العبادةَ إلَّا هو وَحدَه لا شريك له؛ فإنَّ غالبَ الأمَم كانت مقِرَّةً بالصانع، ولكن تعبُدُ معه غيرَه من الوسائط التي يظنُّونها تنفعُهم أو تقرِّبُهم مِن الله زلفى). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦).

أي: يَدعوكم اللهُ على ألسنةِ رُسُلِه وفي كُتُبِه إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه؛ لِيستُرَ عليكم بعضَ[1] ذُنوبِكم، ويتجاوزَ عن مؤاخَذتِكم بها، فلا يعاقِبَكم عليها[2].

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

---

(١) قال القرطبيُّ: (قال أبو عُبيدٍ: «مِن» زائدةٌ. وقال سِيبويْهِ: هي للتَّبعيضِ، ويَجوزُ أنْ يُذكَرَ البَعضُ والمُرادُ منه الجميعُ. وقِيلَ: «مِن» للبدَلِ، وليستْ بزائدةٍ ولا مُبعِّضَةٍ، أي: لِتَكونَ المَغفِرةُ بدلًا مِنَ الذُّنوبِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦-٣٤٧).

وممَّن ذهب إلى كونِ «مِن» بمعنى التبعيضِ: ابنُ جريرٍ، والزمخشري، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٨).

قال ابنُ عطية: (وهو معنى صحيحٌ؛ وذلك أنَّ الوعدَ وقَع بغُفران الشركِ وما معه مِن المعاصي، وبقِيَ ما يستأنفُه أحدُهم بعدَ إيمانِه مِن المعاصي مسكوتًا عنه؛ ليبقَى معه في مشيئةِ الله تعالى، فالغفرانُ إنما نفَذ به الوعدُ في البعضِ، فصَحَّ معنى ﴿مِن﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٨).

وقال زينُ الدِّين الرازيُّ: (فإنْ قِيلَ: ما معنَى التَّبعيضِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؟

قُلْنا: ما جاء هكذا إلَّا في خِطابِ الكافرينَ؛ كقولِه تعالى في سُورةِ نُوحٍ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤]، وقولِه تعالى في سُورةِ الأحقافِ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقال تعالى في خِطابِ المُؤمنينَ في سُورةِ الصَّفِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٠-١٢]، وقال في آخرِ سُورةِ الأحزابِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، وكذا باقي الآياتِ في خِطابِ الفريقينِ إذا تَتبَّعْتَها، وما ذلك إلَّا للتَّفرقةِ بيْن الخِطابينِ؛ لئلَّا يُسَوَّى بيْن الفريقينِ في الوعْدِ، مع اختلافِ رُتْبَتِهما، لا لأنَّه يَغفِرُ للكُفَّارِ مع بَقائِهم على الكُفْرِ بَعضَ ذُنوبِهم. والَّذي يُؤيِّدُ ما ذَكَرناهُ مِنَ العِلَّةِ: أنَّه في سُورةِ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي سُورةِ الأحقافِ وعَدَهُم مَغفرةَ بَعضِ الذُّنوبِ بشَرطِ الإيمانِ، لا مُطْلقًا. وقِيلَ: معنَى التَّبعيضِ: أنَّه يَغفِرُ لهم ما بيْنهم وبيْنه، لا ما بيْنهم وبيْن العِبادِ مِنَ المَظالِمِ ونَحوِها). ((أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل)) (ص: ٢٣٣-٢٣٤).

ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٢).

أي: ويؤخِّرَكم في الدُّنيا إلى مُنتهَى أعمارِكم، فلا يُعاجِلكم بالعذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

أي: قال الكُفَّارُ لرُسُلِهم: ما أنتم إلَّا بشَرٌ مِثلُنا في الصُّورةِ والهيئةِ؛ تأكلونَ ممَّا نأكُلُ، وتشربونَ ممَّا نشرَبُ، ولستُم ملائكةً، فكيف نُطيعُكم؟ وكيف تَفضُلونَنا بالنبوَّةِ والرِّسالةِ؟! إنَّما تريدونَ بدَعوتِكم هذه أن تَصرِفونا عن عبادةِ ما كان يعبُدُ آباؤُنا مِن الأوثانِ والأصنامِ[2].

﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: فأْتُونا بمُعجزةٍ ظاهرةٍ، وحُجَّةٍ دامغةٍ تُبَيِّنُ لنا صِحَّةَ ما تدعونَنا إليه، فنعلَمَ أنَّكم على الحَقِّ[3].

﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾.

﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٢).

قال السعدي: (ومرادُهم: بيِّنةٌ يقترِحونها هم، وإلَّا فقد تقدَّمَ أنَّ رسُلَهم جاءتهم بالبيِّناتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

أي: قالت الرُّسُلُ لأولئك الكفَّارِ مِن أقوامِهم: صدَقْتُم، ما نحنُ إلَّا بشَرٌ مِن بني آدَمَ، مِثلُكم في البشَريَّة[١].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ يتفضَّلُ على من يشاءُ مِن عبادِه بالرِّسالةِ والنُّبُوَّة، ويُفَضِّلُهم على كثيرٍ مِن خَلْقِه[٢].

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا نقدِرُ أن نأتيَكم بحُجَّةٍ وآيةٍ كما تقترِحونَ، إلَّا بمشيئةِ اللهِ وأمرِه[٣].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحدَه فلْيعتمِدِ المؤمنونَ في جَلبِ مَصالِحِهم، ودفْعِ مَضارِّهم، ولْيَثِقوا به في تيسيرِ جميعِ أمورِهم[٤].

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾.

أي: قالت الرُّسُلُ لأُمَمِهم: وأيُّ عذرٍ لنا في ألَّا نعتَمِدَ على اللهِ ونَثِقَ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٠، ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٢).

والحالُ أنَّه قد فعل بنا ما يوجِبُ توكُّلَنا عليه؛ فقد أرشَدَنا ووفَّقَنا لسُلوكِ الطَّريقِ المُوصِلِ إلى رَحمتِه، المُنَجِّي مِن سَخَطِه ونِقمَتِه[١]؟

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾.

أي: واللهِ، لنَصبِرَنَّ على ما نَلقَى منكم مِنَ الأذَى بسبَبِ استمرارِنا في الدَّعوةِ إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له[٢].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحدَه فلْيَعتمِدِ المتوَكِّلونَ الواثِقونَ باللهِ، ولْيَثبُتوا على توكُّلِهم على اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وجوبُ التوكُّلِ على اللهِ وحدَه، وإفرادُه بالتوكُّلِ يُؤخَذُ مِن تقديمِ المعمولِ على عامِلِه؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، وهذه قاعِدةٌ[٤]، فلا يجوزُ التوكُّلُ إلَّا على اللهِ، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يحتملُ أن تكونَ مِن بقيَّة كلامِ الرسُل .. ويحتملُ أن تكونَ من كلامِ الله تعالى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٦٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ التوكُّلَ مِن مقتَضياتِ الإيمانِ؛ لأنَّه عَلَّقَ الحُكمَ على وصفٍ- وهو الإيمانُ- فدلَّ ذلك على أنَّه كلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيَ التوكُّلُ على اللهِ، وكلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التوكُّلُ على اللهِ(١)، فالتوكلُ مِن العباداتِ الكِبارِ التي يحِبُّها اللهُ ويرضاها؛ لِتوقُّفِ سائرِ العباداتِ عليه(٢).

٣- قالت الرُّسُلُ لِقَومِهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ فعَجِبوا مِن تَركِهم التوكُّلَ على اللهِ، وهو هَداهم، وأقرُّوا أنَّ ذلك لا يكونُ أبدًا، وهذا دليلٌ على أنَّ الهِدايةَ والتوكُّلَ مُتلازِمانِ؛ فصاحِبُ الحَقِّ -لعِلمِه بالحَقِّ، وليَقينِه بأنَّ اللهَ وليُّ الحَقِّ وناصِرُه- مُضطَرٌّ إلى توكُّلِه على اللهِ، لا يجِدُ بُدًّا مِن توكُّلِه؛ فإنَّ التوكُّلَ يجمَعُ أصلينِ: علمَ القَلبِ وعَمَلَه؛ أمَّا عِلمُه: فيقينُه بكفايةِ وَكيلِه، وكمالِ قيامِه بما وكَلَه إليه، وأنَّ غيرَه لا يقومُ مَقامَه في ذلك. وأمَّا عمَلُه: فسُكونُه إلى وَكيلِه، وطمأنينتُه إليه، وتفويضُه وتسليمُه أمْرَه إليه، وأنَّ غيرَه لا يقومُ مقامَه في ذلك، ورضاه بتصَرُّفِه له فوقَ رضاه بتصَرُّفِه هو لنفسِه، فبهذين الأصلينِ يتحقَّقُ التوكُّلُ، وهما جِماعُه(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ عيَّنَ منهم الثَّلاثةَ الأولى؛ لأنَّهم كانوا أشَدَّهم أبدانًا، وأكثَرَهم أعوانًا، وأقواهم آثارًا، وأطوَلَهم أعمارًا؛ لأنَّ البَطشَ إذا برزَ إلى الوجودِ كان أهوَلَ، لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٧).

النَّفسَ للمحسوسِ أقبَلُ[(١)].

٢- في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ أنَّ مَن ادَّعى عِلْمَ شيءٍ ممَّن سَبَقَ، فهو كاذبٌ، إلَّا ببُرهانٍ[(٢)].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ كيف ذكَروا فيه أنَّهم كافِرونَ بِرسالتِهم، وذكَروا بعد ذلك كونَهم شاكِّينَ مُرتابينَ في صِحَّةِ قَولِهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾؟

والجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجه الأول: كأنَّهم قالوا إمَّا أن نكونَ كافرينَ بِرسالتِكم، أو أن ندَعَ هذا الجَزمَ واليقينَ، فلا أقلَّ مِن أن نكونَ شاكِّينَ مُرتابينَ في صِحَّةِ نبُوَّتِكم، وعلى التقديرينِ فلا سبيلَ إلى الاعترافِ بنبوَّتِكم[(٣)].

الوجه الثاني: أنَّهم بادروا أوَّلًا إلى الكُفرِ، وهو التكذيبُ المحضُ، ثمَّ أخبَروا بأنَّهم في شَكٍّ، وهو التردُّدُ، كأنَّهم نظروا بعضَ نَظرٍ اقتضى أن انتَقَلوا من التكذيبِ المحضِ إلى التردُّدِ.

الوجه الثالث: هما قولانِ مِن طائفتَينِ: طائفةٍ بادَرت بالتَّكذيبِ والكُفرِ، وطائفةٍ شَكَّت، والشَّكُّ في مِثلِ ما جاءت به الرُّسُلُ كُفرٌ[(٤)].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ لَمَّا كان ردُّ الرِّسالةِ جامِعًا للكفرِ، وكانوا غيرَ مُسلِّمينَ أنَّ المُرسِلَ لهم هو الله؛ بَنَوا للمفعولِ قَولَهم:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٣-٤١٤).

﴿أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾[(١)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ والمعنى: ما في الله شَكٌّ، وأنتم تعلمونَ أنَّه ليس في اللهِ شَكٌّ، ولكِنْ تجحدونَ انتفاءَ الشَّكِّ جُحودًا تستَحِقُّونَ أن يُنكَرَ عليكم هذا الجَحدُ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّه ليس في اللهِ شَكٌّ عند الخَلْقِ المُخاطَبينَ، وهذا يُبيِّنُ أنَّهم مفطورونَ على الإقرارِ به سُبحانَه[(٢)].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ يعْنُونَ أنَّ ذلك عطيَّةٌ مِن اللهِ تعالى، يُعْطِيها مَن يَشاءُ مِن عِبادِه بمحْضِ الفَضلِ والامتنانِ، مِن غيرِ داعيةٍ توجِبُه[(٣)]، ولم يصَرِّحوا بما تميَّزوا به مِن وَصفِ النبُوَّةِ، ولم يخُصُّوا أنفُسَهم بمَنِّ اللهِ، بل أدرَجوها في عُمومِ مَن شاء الله؛ كلُّ ذلك تواضُعًا منهم واعترافًا بالعبوديَّةِ[(٤)].

٧- قولُ الرُّسلِ: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ جوابٌ بِطَريقِ القَولِ بالموجِبِ في عِلْمِ آدابِ البحْثِ، وهو تَسليمُ الدَّليلِ مع بَقاءِ النِّزاعِ ببيانِ محَلِّ الاستدلالِ غيرَ تامِّ الإنتاجِ، وفيه إطماعٌ في المُوافقةِ، ثمَّ كَرَّ على استِدلالِهم المقصودِ بالإبطالِ بِتَبْيينِ خطَئِهم، وهذا النَّوعُ مِن القوادِحِ في علْمِ الجدَلِ، شديدُ الوقْعِ على المُناظِرِ؛ فليس قولُ الرُّسلِ: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ تقريرًا للدَّليلِ، ولكنَّه تمهيدٌ لِبيانِ غلَطِ المُستدِلِّ في الاستنتاجِ مِن دَليلِه، ومحَلُّ البيانِ هو الاستدراكُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، والمعنى: أنَّ المُماثلَةَ في البشريَّةِ لا تقْتَضي المُماثلَةَ في زائدٍ عليها؛ فالبشَرُ كلُّهم عِبادُ اللهِ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٩٠).
(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٣٩٤).

والله يمُنُّ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه بنِعَم لم يُعْطِها غيرَهم؛ فالاستدراكُ رفعٌ لِمَا توهَّموه مِن كونِ المُماثلَةِ في البشريَّةِ مُقْتضى الاستواءِ في كلِّ خَصلةٍ[١].

٨- قال الله تعالى حكايةً عن الرسُلِ في حديثِهم مع قَومِهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ثمَّ أعادوا قولَهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فما الفائِدةُ في تَكرارِ الأمرِ؟

والجوابُ عن ذلك من أوجُهٍ:

الوجه الأول: الفائِدةُ فيه أنَّهم أمَروا أنفُسَهم بالتوكُّلِ على اللهِ، في قولِه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثمَّ لَمَّا فرَغوا من أنفُسِهم، أَمَروا أتباعَهم بذلك، وقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وذلك يدلُّ على أنَّ الآمِرَ بالخيرِ لا يُؤَثِّرُ قَولُه إلَّا إذا أتى بذلك الخَيرِ أوَّلًا.

الوجه الثاني: أنَّ قَولَه: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المرادُ منه أنَّ الذين يطلُبونَ سائِرَ المُعجِزاتِ وجب عليهم أن يتوكَّلوا في حُصولِها على اللهِ تعالى لا عليها، فإن شاء أظهَرَها، وإن شاء لم يُظهِرْها، وأمَّا قَولُه في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ المرادُ منه: الأمرُ بالتوكُّلِ على اللهِ في دَفعِ شَرِّ النَّاسِ الكُفَّارِ وسَفاهتِهم، وعلى هذا التقديرِ فالتَّكرارُ غيرُ حاصلٍ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ واردٌ في موضعينِ مُختلفَينِ بحسَبِ مَقصودينِ مُتَغايرينِ.

الوجه الثالث: أنَّ الأوَّلَ ذُكِرَ لاستحداثِ التوكُّلِ، والثانيَ للسَّعيِ في إبقائِه وإدامتِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٥-٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٩-٤١٠)، ((تفسير

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ هذا الكلامُ استئنافٌ ابتدائيٌّ رجَعَ به الخطابُ إلى المُشركينَ مِن العرَبِ على طريقةِ الالتِفاتِ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ ...﴾؛ لأنَّ المُوجَّهَ إليه الخِطابُ هنا هم الكافِرونَ المَعْنيونَ بقولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[١].

- والاستفهامُ بقولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ إنكاريٌّ؛ لأنَّهم قد بلغَتْهم أخبارُهم[٢]، وقيل: للتَّقريرِ والتَّوبيخ[٣].

- قولُه: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ على القولِ بأنَّها جُملةٌ اعتراضيَّةٌ[٤]؛ فإنَّها تُفيدُ أنَّهم مِن الكثْرةِ بحيثُ لا يعلَمُ عدَدَهم إلَّا اللهُ[٥].

- قولُه: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ في تَصديرِ العِبارةِ بالحرْفِ المُؤكِّدِ (إنَّ)، ومُواجهةِ الرُّسلِ بضَمائرِ الخطابِ، وإعادةِ ذلك: مُبالغةٌ في التَّأكيدِ، دلَّ على قُنوطِهم بالمرَّةِ[٦].

أبي حيان)) (٦/ ٤١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٢).

(٤) فقد قيل: ليستْ هذه جُملةَ اعْتراضٍ؛ لأنَّ جُملةَ الاعتِراضِ تكونُ بين جُزءينِ يطلُبُ أحدُهما الآخَرَ.

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- الحاشية)) (٢/ ٥٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٦٥).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أُدْخِلَت همزةُ الإنكارِ على الظَّرفِ ﴿أَفِي﴾؛ لأنَّ الكلامَ ليس في الشَّكِّ، إنَّما هو في المَشكوكِ فيه، أي: إنَّما ندْعوكم إلى اللهِ، وهو لا يَحتمِلُ الشَّكَّ؛ لكثرةِ الأدلَّةِ وظهورِ دَلالتِها عليه، وأشاروا إلى ذلك بقولِهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، وهو استِفهامٌ إنكاريٌّ، ومَوْرِدُ الإنكارِ هو وُقوعُ الشَّكِّ في وُجودِ اللهِ؛ فقُدِّمَ مُتعلِّقُ الشَّكِّ ﴿أَفِي ٱللَّهِ﴾؛ للاهتمامِ به، ولو قال: (أشكٌّ في اللهِ)، لم يكُنْ له هذا الوقْعُ، فكان أبلَغَ، وعُلِّقَ اسمُ الجلالةِ بالشَّكِّ، والاسمُ العَلَمُ يدلُّ على الذَّاتِ، والمُرادُ إنكارُ وُقوعِ الشَّكِّ في أهمِّ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، وهي صِفَةُ التَّفرُّدِ بالإلهيَّةِ، أي: صفةُ الوحدانيَّةِ. وأُتبِعَ اسمُ الجلالةِ بالوصفِ الدَّالِّ على وُجودِه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهو وُجودُ السَّمواتِ والأرضِ الدَّالُّ على أنَّ لهما خالقًا حَكيمًا؛ لاستحالةِ صُدورِ تلك المخلوقاتِ العجيبةِ المُنظَّمَةِ عن غيرِ فاعلٍ مُختارٍ، وذلك معلومٌ بأدْنَى تأمُّلٍ، وذلك تأييدٌ لإنكارِ وُقوعِ الشَّكِّ في انفرادِه بالإلهيَّةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالخَلقِ يَقْتَضي انفرادَه باستحقاقِه عِبادةَ مخلوقاتِه[2].

- وجُملةُ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ قيدٌ لِمَا دلَّ عليه الحصْرُ في جُملةِ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، مِن جحْدِ كونِهم رُسلًا مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٨- ١٩٩).

اللهِ بالدِّينِ الَّذي جاؤوهم به مُخالفًا لِدينِهم القديم؛ فبذلك الاعتِبارِ كان موقِعُ التَّفريعِ لجُملةِ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّ مُجرَّدَ كونِهم بشَرًا لا يقْتَضي مُطالبتَهم بالإتيانِ بسُلطانٍ مُبينٍ، وإنَّما اقتضاه أنَّهم جاؤوهم بإبطالِ دِينِ قَومِهم، وهو مضمونُ ما أُرْسِلُوا به[١].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ جاء التَّعبيرُ هنا بـ﴿لَهُمْ﴾؛ لاختِصاصِ الكلامِ بهم، حيث أُريدَ إلْزامُهم، بخلافِ ما سلَفَ مِن إنكارِ وُقوعِ الشَّكِّ في اللهِ سبحانه؛ فإنَّ ذلك عامٌّ، وإنِ اختَصَّ بهم ما يعقُبُه ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٢]. وأيضًا زيادةُ ﴿لَهُمْ﴾ تُؤْذِنُ بالدَّلالةِ على توجُّهِ الرُّسُلِ إلى قومِهم بالجوابِ؛ لِمَا في الجوابِ عن كلامِهم مِن الدِّقَّةِ المُحتاجةِ إلى الاهتمامِ بالجوابِ بالإقبالِ عليهم؛ إذ اللَّامُ الدَّاخِلةُ بعد فعْلِ القولِ في نحوِ: أقولُ لك، لامُ تعليلٍ، أي: أقولُ قولي لأجْلِك[٣].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] خِطابٌ لِمَن عانَدَ فيه، وهو كالمُعانِدِ في الأمْرِ الضَّروريِّ؛ فلذلك أُسْقِطَ المجرورُ؛ لأنَّ المُجيبَ عن ذلك يُجيبُ به مِن حيثُ الجُملةُ، ولا يُقْبِلُ بالجوابِ على المُخاطَبِ؛ لِغَباوتِه عندَه ومُعانَدَتِه، فيُجيبُ وهو مُعرِضٌ عنه، بخِلافِ قولِهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ لأنَّه يُقرِّرُ لِمَقالَتِهم ويُثْبِتُ لها، والمُقِرُّ لِمَقالةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٢).

خَصْمِه يُقْبِلُ عليه بالجوابِ؛ لأنَّه لم يُبْطِلْ كلامَه بالإطلاقِ، بل يُقرِّرُه، ويَزيدُ فيه زياداتٍ تُبْطِلُ قولَ خَصْمِه. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ﴾ مَقالةٌ خاصَّةٌ، أو هي جوابٌ عن قولٍ صدَرَ منهم. والمَقالةُ الأُولى لهم ولغيرِهم[1].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه: نفْيُ ذلك الأمْرِ جُملةً؛ لأنَّ مثْلَ هذه العِبارةِ إذا قالها الإنسانُ عن نفْسِه، أو قِيلَت له فيما يقَعُ تحت مَقدورِه، فمعناها النَّهيُ والحَظْرُ، وإنْ كان ذلك فيما لا قُدرةَ له عليه، فمعناها نفْيُ ذلك الأمْرِ جُملةً، وكذا هي آيتُنا. وقيل: لَفظُها لفْظُ الحظْرِ، ومعناها النَّفيُ[2].

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا أمْرٌ مِن الرُّسلِ للمُؤمنينَ كافَّةً بالتَّوكُّلِ، وقَصَدوا به أنفُسَهم قصْدًا أوَّليًّا وأمَرُوهم به؛ كأنَّهم قالوا: ومِن حقِّنا أنْ نتوكَّلَ على اللهِ في الصَّبرِ على مُعاندتِكم ومُعاداتِكم وما يجْري علينا منكم[3].

- وفيه تقديمُ المجرورِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، وهو مُؤْذِنٌ بالحصْرِ، وأنَّهم لا يَرْجون نصرًا مِن غيرِ اللهِ تعالى؛ لِضعْفِهم وقلَّةِ ناصرِهم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّهم واثقونَ بنصْرِ اللهِ[4].

- وفي قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال ذلك هنا، وقال بَعدَه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ سابقٌ على التَّوكُّلِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٤)،

٤- قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ ﴾ ﴿مَآ﴾ استفهاميَّةٌ، والاستفهامُ هنا معناه النَّفيُ، أي: لا مانِعَ لنا ولا عُذْرَ نَتشبَّثُ بأهدابِه[1]؛ فهو استفهامٌ إنكاريٌّ لانتِفاءِ توكُّلِهم على اللهِ، أتَوا به في صُورةِ الإنكارِ بناءً على ما هو معروفٌ مِن استِحْماقِ الكُفَّارِ إيَّاهم في توكُّلِهم على اللهِ، فجاؤوا بإنكارِ نفْيِ التَّوكُّلِ على اللهِ، ومعنى ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ ﴾: ما ثبَتَ لنا مِن عدَمِ التَّوكُّلِ؛ فاللَّامُ للاستِحقاقِ، وزادوا قومَهم تأييسًا مِن التَّأثُّرِ بالأذى، فأقْسَموا على أنَّ صبْرَهم على أذى قومِهم سيستمِرُّ؛ فصِيغَةُ الاستقبالِ المُستفادَةُ مِن المُضارِعِ المُؤكَّدِ بنُونِ التَّوكيدِ ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾ دلَّت على أذًى مُستقبلٍ، ودلَّت صِيغَةُ المُضِيِّ المُنتزَعُ منها المصدرُ: ﴿مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا﴾ على أذًى مَضَى؛ فحصَلَ مِن ذلك معنى: نصبِرُ على أذًى مُتوقَّعٍ كما صبَرْنا على أذًى مَضَى، وهذا إيجازٌ بديعٌ[2].

- قولُه: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا﴾ جوابُ قسَمٍ محذوفٍ، أكَّدوا به توكُّلَهم على اللهِ، وعدَمَ مُبالاتِهم بما يَجْري مِن الكُفَّارِ عليهم[3].

- وجُملةُ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ مِن بقيَّةِ كلامِ الرُّسلِ؛ فتكونَ تذييلًا وتأْكيدًا لجُملةِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾؛ فكانتْ تذييلًا لِمَا فيها مِن العُمومِ الزَّائدِ في قولِه: ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ على

((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٣).
(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٤).

عُموم ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وكانتْ تأكيدًا؛ لأنَّ المُؤمنينَ مِن جُملةِ المُتوكِّلينَ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ مِن كلامِ اللهِ تعالى؛ فهي تَذْييلٌ للقصَّةِ، وتنويهٌ بشأْنِ المُتوكِّلينَ على اللهِ، أي: لا ينْبَغي التَّوكُّلُ إلَّا عليه[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٤).

الآيات (١٢-١٨)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي
مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ
بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ
عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ
يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ
غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ
عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مِلَّتِنَا﴾: أي: دينِنا، وطريقتِنا، وإنَّما سُمِّيَ الدِّينُ مِلَّةً؛ لأنَّه يُمَلُّ، أي: يُملَى على المَدعُوِّ إليه، فالملةُ تُبنَى على مَسموعٍ ومتلوٍّ[(١)].

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾: أي: استَنصَروا وسألوا الفتحَ من اللهِ- وهو القَضاءُ، وأصلُ (فتح): يدلُّ على خلافِ الإغلاقِ[(٢)].

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾: أي: مِن أمامِه، والوَراءُ: مِنَ الأضدادِ، يكونُ بمعنى خَلْف وقُدَّام[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣- ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٤)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٣٠).

﴿صَدِيدٍ﴾: قيحٍ ودَمٍ، واشتِقاقُه مِن الصَّدِّ؛ لأنَّه يصُدُّ النَّاظِرينَ عن رُؤيتِه[(١)].

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾: أي: يتحَسَّاه مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، لا مَرَّةً واحدةً؛ لِمَرارتِه وحرارتِه، وأصلُ (جرع): يدُلُّ على قِلَّةِ الشَّيءِ المَشروبِ[(٢)].

﴿يُسِيغُهُ﴾: أي: يُجيزُه ويَبتَلِعُه، وأصلُ (سوغ): يدُلُّ على سُهولةِ الشَّيءِ، واستمرارِه[(٣)].

﴿عَاصِفٍ﴾: أي: شديدِ هُبوبِ الرِّيحِ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[(٤)].

المعنى الإجماليُّ:

يخبر الله تعالى عن ضيقِ صدورِ الكُفَّار ممَّا قالته الرسُلُ، وأنهم قالوا لهم: لنطرُدَنَّكم مِن بلادِنا إلَّا أن تعودُوا إلى دينِنا، فأوحى اللهُ إلى رسُلِه أنَّه سيُهلِكُ الظالمينَ، وسيجعَلُ العاقبةَ الحسَنةَ للرُّسُلِ وأتباعِهم، بإسكانِهم أرضَ الكافرينَ بعدَ إهلاكِهم، ذلك النَّصرُ في الدُّنيا على الكُفَّارِ، والتَّمكينُ في الأرضِ محقَّقٌ لِمَن خافَ مقامَه بينَ يدَيِ الله يومَ القيامةِ، وخَشِيَ وعيدَه وعَذابَه.

ولجأ الرسُلُ إلى ربِّهم، وسألوه النَّصرَ على أعدائِهم وإهلاكَهم، وهَلَك كلُّ متكبِّرٍ لا يقبَلُ الحَقَّ ولا يُذعِنُ له، ومِن أمامِ هذا الكافِرِ جهنَّمُ تنتظِرُه؛ ليَلْقى

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٢)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٥).

عذابَها في الآخرةِ، ويُسقَى فيها مِنَ القَيحِ والدَّمِ الذي يَخرجُ مِن أجسامِ أهلِ النَّارِ. يشربُه قهرًا- وذلك لشدةِ عطشِه- على جرعاتٍ، ولا يَكادُ يَبتَلِعُه؛ لقذارتِه وحرارتِه ومرارتِه، ويأتيه الموت وشِدَّتُه وآلامُه مِن كُلِّ عضوٍ ومَوضِعٍ مِن جَسَدِه، ومِن كُلِّ الجِهاتِ، وما هو بميِّتٍ فيستريحَ، وله مِن بعد هذا العذابِ عذابٌ آخَرُ قَويٌّ شديدٌ مُؤلِمٌ.

ثم يضربُ الله المثلَ لأعمالِ الكفَّارِ، فيقولُ: مثَلُ أعمالِ البرِّ التي يعملها الكُفَّارِ في الدُّنيا كرَمادٍ فرَّقَتْه وطيَّرَتْه الرِّيحُ القَويَّةُ في يوم اشتدَّ فيه هُبوبُها، فلم يبقَ منه شيءٌ، فكذلك أعمالُهم يُبطِلُها الكُفرُ- فلا يجِدونَ منها ما ينفَعُهم عندَ الله- ويُذهِبُ ثَوابَها، كما تُذهِبُ تلك الريحُ الشَّديدةُ الرَّمادَ. ذلك السعيُ والعمَلُ الذي لم يكن على استقامةٍ وهُدىً، هو الضَّلالُ البعيدُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ دَعوَةَ الرُّسُلِ لِقَومِهم، ودوامَهم على ذلك، وعدَمَ مَلَلِهم؛ ذكَرَ مُنتهَى ما وصَلَت بهم الحالُ مع قَومِهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ أنَّهم اكتَفَوا في دفعِ شُرورِ أعدائِهم بالتوكُّلِ عليه، والاعتمادِ على حِفظِه وحياطتِه؛ حكى عن الكُفَّارِ أنَّهم بالَغوا في السَّفاهةِ[(٢)]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٦).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

أي: وقال الذين كَفَروا باللهِ لرسلِ الله الذين يَدْعونهم للتوحيدِ: واللهِ، لنطرُدَنَّكم من بلادِنا إلا أن تعودوا إلى دينِنا[1].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ قومِ شُعَيبٍ له ولِمَن آمن به: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال سُبحانه حاكيًا قَولَ قَومِ لُوطٍ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وقال عزَّ وجَلَّ مُخبِرًا عن مُشركي قُريشٍ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فأوحَى اللهُ إلى رسُلِه قائلًا لهم: لنُهلِكَنَّ المُشرِكينَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٣).

قال ابن العربي: (قال الطبري: «معناه: لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا إِلَّا أَنْ تَعُودُوا فِي مِلَّتِنَا». وهو غيرُ مفتقرٍ إلى هذا التقدير، فإن ﴿أَوۡ﴾ على بابِها من التخيير، خيَّر الكفارُ الرسُلَ بين أن يعودوا في مِلَّتِهم أو يُخرِجوهم من أرضِهم). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٦).

بوَضعِهم العبادةَ في غَيرِ مَوضِعِها، وصَرفِها لِمَن لا يستحِقُّها[(١)].

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾.

أي: ولننصُرَنَّكم وأتباعَكم المؤمنينَ على الكفَّارِ، ونجعَلُكم تسكُنونَ أرضَهم مِن بعدِ إهلاكِنا لهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨- ١٢٩].

وقال سُبحانه: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾.

أي: ذلك النَّصرُ في الدُّنيا على الكُفَّارِ، والتَّمكينُ في الأرضِ، يتحَقَّقُ لِمَن خاف مَقامَه بينَ يدَيَّ يومَ القيامةِ، وخاف مِن وعيدي وعذابي، فاتَّقاني بطاعتي، وتجنَّبِ مَعصِيتي[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير))

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ ﴾.

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾.

أي: طلبَت الرسُلُ مِن اللهِ النَّصرَ على أقوامِهم وإهلاكَهم[1].

(٤/ ٤٨٤).

قال السمعاني في قولِه تعالى: ﴿خَافَ مَقَامِى﴾: (أجمَع أهلُ التَّفسيرِ أنَّ معناه: ذلك لمن خَافَ مقامَه بينَ يَديَّ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٠٨).

وقال الشوكاني: (وقيل: إنَّ المقامَ هنا مصدرٌ بمعنَى القيام، أي: لِمَنْ خافَ قيامي عليه، ومُراقبتي له، كقولِه تعالى: ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ﴾ [الرعد: ٣٣] وقال الأخفشُ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِى﴾، أي: عذابي). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١١٩)، وقيل غيرُ ذلك، يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الذين استفتحوا هم الرسُلُ عليهم السلام: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، وأبو السعودِ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ جريجٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٧).

وقيل: إنَّ الذين استفتحوا هم الكفارُ، وممَّن ذهب إلى ذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

ومن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٧).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾ أي: استنصَرَت الرسُلُ ربَّها على قومِها. قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ. وقال عبدُالرحمن بنُ زيدِ بن أسلمَ: استفتَحَت الأُمَمُ على أنفُسِها، كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الأنفال: ٣٢]. ويحتملُ أن يكونَ هذا مرادًا وهذا مرادًا، كما أنَّهم استفتحوا على أنفُسِهم يومَ بدر، واستفتحَ رسولُ الله واستنَصر، وقال اللهُ تعالى للمشركين: ﴿ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٤). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٩).

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

أي: وخَسِرَ وهلَك كُلُّ متكبِّرٍ على الحَقِّ، مُعاندٍ له(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤ - ٢٦].

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦)﴾.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾.

أي: مِن أمامِ كُلِّ جبَّارٍ عَنيدٍ نارُ جَهنَّمَ تنتَظِرُه، فهو صائِرٌ إليها في الآخرةِ(٢).

﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾.

أي: ويُسقَى في جهنَّمَ مِن القَيحِ والدَّمِ الذي يسيلُ مِن أبدانِ أهلِ النَّارِ(٣).

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾.

أي: يتحسَّى ذلك الجبَّارُ العنيدُ الصَّديدَ، ويشرَبُه قَهرًا- مِن شِدَّةِ عَطَشِه-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٥).

قال ابن كثير: (﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النَّارِ، ليس له شرابٌ إلَّا من حميم أو غسَّاقٍ، فهذا في غايةِ الحرارة، وهذا في غايةِ البَردِ والنَّتن، كما قال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٧- ٥٨]. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٥).

على جَرعاتٍ، ولا يَكادُ يَبتَلِعُه؛ مِن شِدَّةِ خُبثِه وكراهتِه(١).

﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾.

أي: ويأتيه الموتُ وآلامُه وشِدَّتُه مِن كُلِّ مَوضِعٍ في جسَدِه، ومِن كُلِّ الجِهاتِ، وهو مع ذلك لا يموتُ فيستريحَ مِن العذابِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ * وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ - ١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾.

أي: ومِن أمامِه عذابٌ آخَرُ قَويٌّ شديدٌ ينتظرُه غيرُ ما هو فيه مِن العَذابِ(٣).

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٥)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنواعَ عذابِ الكُفَّارِ في الآيةِ المتقَدِّمة؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أعمالَهم بأسْرِها تصيرُ ضائعةً باطِلةً لا ينتَفِعونَ بشَيءٍ منها، وعند هذا يظهَرُ كَمالُ خُسرانِهم؛ لأنَّهم لا يجِدونَ في القيامةِ إلَّا العِقابَ الشَّديدَ، وكُلُّ ما عَمِلوه في الدُّنيا وجَدوه ضائِعًا باطِلًا، وذلك هو الخُسرانُ الشَّديدُ(١).

وأيضًا لَمَّا فرَغَ من محاوراتِهم وما تَبِعَها ممَّا بَيَّنَ فيه أنَّه لا يُغنيهم مِن بَطشِه شَيءٌ؛ ضرَبَ لهم في ذلك مَثلًا(٢)، فقال تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾.

أي: مثَلُ أعمالِ الذين كفَروا بربِّهم كرمادٍ طيَّرَتْه وفرَّقَتْه الرِّيحُ القَويَّةُ في يوم يشتَدُّ فيه هُبوبُها، فلم يبقَ مِن الرَّمادِ شَيءٌ، فكذلك أعمالُ البِرِّ والخيرِ التي يعمَلُها الكافِرونَ؛ يُبطِلُها الكُفرُ، ويُذهِبُ ثَوابَها، كما تُذهِبُ تلك الريحُ الشَّديدةُ الرَّمادَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨٠-٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٥).

والقولُ بأنَّ المرادَ بأعمالِ الكفَّارِ هنا: أعمالُ الخيرِ والبرِّ ،كالصدقاتِ وغيرِها، هو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، والقرطبيِّ، وابنِ القيمِ، وابنِ كثيرٍ، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرازي: (اختلفوا في المرادِ بهذه الأعمالِ على وجوهٍ:

الوجه الأول: أن المراد منها ما عَمِلوه من أعمال البِرِّ، كالصَّدَقة وصِلة الرَّحم وبِرِّ الوالدين وإطعام الجائع؛ وذلك لأنها تصير مُحبَطةً باطلة بسبَبِ كفرهم، ولولا كفرُهم لانتفعوا بها.

والوجه الثاني: أن المرادَ مِن تلك الأعمال عبادتُهم للأصنام وما تكلَّفوه مِن كفرهم الذي ظنوه

كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

أي: لا يجِدُ الكُفَّارُ في الآخرةِ أيَّ ثوابٍ لأعمالِ البِرِّ التي عَمِلوها في الدُّنيا، ولا يَرَونَ لها أيَّ منفعةٍ، مثلما لا يُقدَرُ على جَمعِ الرَّمادِ في اليومِ العاصِفِ[1].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

أي: أعمالُهم التي بطَلَت وفقَدوا ثوابَها لم تكُنْ على هُدًى واستقامةٍ، فكانوا في خطأٍ وانحرافٍ بعيدٍ عن طريقِ الصَّوابِ، لا يُمكِنُ معه تدارُكُ تلك الخَسارةِ الكبيرةِ[2].

إيمانًا وطريقًا إلى الخلاص، والوجهُ في خسرانهم أنَّهم أتعبوا أبدانَهم فيها الدهرَ الطويلَ؛ لكي ينتفعوا بها، فصارت وَبالًا عليهم.

والوجه الثالث: أنَّ المرادَ مِن هذه الأعمالِ كلا القسمينِ؛ لأنَّهم إذا رأوا الأعمالَ التي كانت في أنفُسِها خيراتٍ قد بطَلَت، والأعمالَ التي ظنُّوها خيراتٍ وأفنَوا فيها أعمارَهم قد بطلت أيضًا، وصارت مِن أعظمِ المُوجِباتِ لعذابِهم؛ فلا شَكَّ أنَّه تَعظُم حسرتُهم وندامتُهم؛ فلذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨١).

وقال السعدي: (إمَّا أن المراد بها الأعمالُ التي عَمِلوها لله، بأنَّها في ذَهابها وبُطلانِها واضمحلالِها كاضمحلالِ الرَّمادِ -الذي هو أدَقُّ الأشياءِ وأخَفُّها- إذا اشتدَّت به الريحُ في يوم عاصف شديدِ الهبوب، فإنَّه لا يُبقي منه شيئًا، ولا يُقدَرُ منه على شيءٍ، يذهب ويضمَحِلُّ، فكذلك أعمالُ الكفار... وإمَّا أنَّ المرادَ بذلك أعمالُ الكفَّار التي عَمِلوها ليَكيدوا بها الحَقَّ، فإنَّهم يَسعَونَ ويكدحون في ذلك ومَكرُهم عائدٌ عليهم، ولن يضرُّوا اللهَ ورُسُلَه وجُندَه وما معهم من الحَقِّ شيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَن توكَّلَ على ربِّه في دَفعِ عَدُوِّه، كفاه اللهُ أمرَ عَدُوِّه[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾، وقولُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] فوعَدَ اللهُ بنصرِ الدُّنيا وبثوابِ الآخرةِ لأهلِ الخَوفِ، وذلك إنَّما يكونُ لأنَّهم أدَّوا الواجِبَ؛ فدلَّ على أنَّ الخوفَ يستلزِمُ فِعْلَ الواجِبِ، ولهذا يُقال للفاجِرِ: لا يخافُ اللهَ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن عَمِلَ لغيرِ اللهِ رجاءَ أن يَنتفعَ بما عَمِلَ له؛ كانت صفقتُه خاسرةً[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ فيه سؤالٌ: هذا يُوهِمُ أنَّهم كانوا على مِلَّتِهم في أوَّلِ الأمرِ حتى يعودوا فيها.

والجوابُ من وجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّ أولئك الأنبياءَ عليهم السَّلامُ إنَّما نشؤوا في تلك البلادِ، وكانوا مِن تلك القبائلِ، وفي أوَّلِ الأمرِ ما أظهَروا المخالفةَ مع أولئك الكُفَّارِ، بل

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٦٥).

كانوا في ظاهِرِ الأمرِ معهم مِن غيرِ إظهارِ مُخالفةٍ؛ فالقومُ ظَنُّوا لهذا السَّبَبِ أنَّهم كانوا في أوَّلِ الأمرِ على دينِهم؛ فلهذا السَّبَبِ قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

الوجه الثاني: أنَّ هذا حِكايةُ كلامِ الكُفَّارِ، ولا يجِبُ في كلِّ ما قالوه أن يكونوا صادِقينَ فيه، فلعلَّهم توهَّموا ذلك، مع أنَّه ما كان الأمرُ كما توهَّموه.

الوجه الثالث: لعلَّ الخِطابَ وإن كان في الظاهِرِ مع الرُّسُلِ إلَّا أنَّ المقصودَ بهذا الخطابِ أتباعُهم وأصحابُهم، ولا بأسَ أن يقال: إنَّهم كانوا قبل ذلك الوَقتِ على دينِ أولئك الكُفَّارِ[١].

الوجه الرابع: أنَّ (العَوْدَ) هنا بمعنى الصيرورةِ، وهو كثيرٌ في كلامِ العَرَبِ[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ خَصَّصَ تعالى الظالمينَ مِن الذين كفروا؛ إذ جائزٌ أن يؤمِنَ مِن الكَفَرةِ الذين قالوا المقالةَ ناسٌ، فإنَّما توعَّدَ بالإهلاكِ مَن خلُصَ للظُّلمِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ نَسَبوها إلى أنفُسِهم وزعَموا أنَّ الرُّسُلَ لا حَقَّ لهم فيها، وهذا من أعظَمِ الظُّلمِ؛ فإنَّ الله أخرجَ عِبادَه إلى الأرضِ، وأمَرَهم بعبادتِه، وسَخَّرَ لهم الأرضَ وما عليها؛ يستعينونَ بها على عبادتِه[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الخوفَ مِن الله تعالى غيرُ الخَوفِ مِن وَعيدِه؛ لأنَّ العَطفَ يقتضي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٦-٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٤).
ويُنظر ما تقدَّم في ((التفسير المحرر)) (٥/ ٣٥٨) في تفسيرِ الآيةِ (٨٨) من سورةِ الأعرافِ.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٣).

المُغايرةَ(١).

٥- قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ هذه الآيةُ دليلٌ على أنَّ الكافرَ لا يَنتَفِعُ في الآخرةِ بشَيءٍ مِن الحَسَناتِ بحالٍ(٢).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ قَدَّمَ ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ على ما بَعدَه؛ لأنَّ الكَسبَ هو المقصودُ بالذِّكرِ، بقرينةِ ما قَبلَه، وإن كان القياسُ عكسَ ذلك، كما في البقرةِ؛ حيث قال تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة: ٢٦٤]؛ لأنَّ ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ صِلةٌ لـ ﴿يَقۡدِرُونَ﴾ و﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ صفةٌ لشَيءٍ(٣).

٧- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ لَمَّا كان هذا خُسرانًا لا يُمكِنُ تَدارُكُه، سَمَّاه بعيدًا(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه إضْمارُ القولِ، أو إجراءُ الإيحاءِ مَجْراهُ؛ لأنَّه نوعٌ من القولِ(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٣٥٦).
(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٨٣).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٥).

وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ...﴾، فيه مَجيءُ ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ﴾ بضَميرِ الخِطابِ؛ تشريفًا لهم بالخِطابِ، ولم يأْتِ بضَميرِ الغَيبةِ كما في قولِه: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ إشارةٌ إلى المُوحَى به؛ وهو إهلاكُ الظَّالمينَ وإسكانُ المُؤمنينَ دِيارَهم، وهذا مأخوذٌ مِن: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ﴾، ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ﴾، أي: ذلك الأمْرُ مُحقَّقٌ ثابتٌ، وعاد إليهما اسمُ الإشارةِ بالإفرادِ بتأْويلِ (المذكور)[(٢)].

- قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿خَافَ مَقَامِى ﴾ أي: المقامَ بينَ يديَّ، وأضافَ ذلك إليه؛ لاختصاصِه به[(٣)]. وقيل: لَفْظُ (مَقام) مُقْحَمٌ؛ للمُبالَغةِ في تعلُّقِ الفِعْلِ بمفعولِه، لأنَّ المقامَ أصلُه مكانُ القِيامِ، وأُريدَ فيه بالقيامِ مُطلَقُ الوجودِ؛ لأنَّ الأشياءَ تُعتبَرُ قائمةً، فإذا قيل: ﴿خَافَ مَقَامِى ﴾ كان فيه مِن المبالغةِ ما ليس في (خافَني). بحيثُ إنَّ الخوفَ يَتعلَّقُ بمكانِ المَخُوفِ منه[(٤)].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

- قولُه: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ في إسنادِ الخَيبةِ إلى كلٍّ منهم ما لا يخْفَى مِن المُبالَغةِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩).

٤- قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾

- قولُه: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ فيه عطْفُ ﴿وَيُسۡقَىٰ﴾ على مَحذوفٍ، تقديرُه: مِن ورائِه جهنَّمُ، يَلْقَى فيها ما يَلْقَى، ويُسْقَى مِن ماءٍ صديدٍ[1]، أو معطوفٌ على مُقَدَّرٍ جوابًا عن سُؤالِ سائلٍ؛ كأنَّه قيل: فماذا يكون إذنْ؟ فقيل: يَلْقَى فيها، ويُسْقَى...[2].

- وبيَّنَ الماءَ بالصَّديدِ، فقال: ﴿صَدِيدٖ﴾؛ تهويلًا لأمْرِه[3].

- وخَصَّ هذه الحالةَ بالذِّكرِ مع أنَّ عذابَ أهلِ النَّارِ مِن وُجوهٍ كثيرةٍ. لأنه يُشبِهُ أن تكونَ هذه الحالةُ أشَدَّ أنواعِ العذابِ، فخُصِّصَت بالذِّكرِ مع قوله: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾[4].

٥- قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾

- قولُه: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ استئنافٌ مبْنِيٌّ على السُّؤالِ؛ كأنَّه قيل: فماذا يفعَلُ به؟ فقيل: يتجرَّعُه، أي: يتكلَّفُ جَرْعَه مرَّةً بعدَ أُخرى؛ لِغلَبَةِ العطَشِ، واستيلاءِ الحرارةِ عليه[5].

- وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ (تجرَّع) تَفعَّل، ويَحتمِلُ هنا وُجوهًا: أنْ يكونَ للمُطاوعَةِ، أي: جرَّعَه فتجرَّعَ، وأنْ يكونَ للتَّكلُّفِ، نحوَ: تحلَّمَ، وأنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٣٩).

لِمُواصلَةِ العَمَلِ في مُهْلَةٍ، نحوَ: تفهَّمَ، أي: يأخُذُه شيئًا فشيئًا، وأنْ يكونَ مُوافقًا للمُجرَّدِ، أي: جرعَه[١]، وفي جميعِ هذه الأحوالِ استَقْصى غايةَ ما يمكِنُ أنْ يتناوَلَه شارِبُ الماءِ؛ ففيه ما يُعرَف بالاستِقصاءِ، وهو أنْ يتناوَلَ المُتكلِّمُ معنًى، فيستقصِيَه، أي: يأتِيَ بجميعِ عوارِضِه ولوازِمِه بعد أنْ يَستقصِيَ جميعَ أوصافِه الذَّاتيَّةِ، بحيثُ لا يترُكُ لِمَن يتناولُه بعدَه فيه مقالًا يقولُه، فقدِ استَقْصى المعنى الَّذي أرادَهُ في الآيةِ؛ وهو كراهيةُ الصَّديدِ الَّذي يشرَبُه بأنَّه يتجرَّعُه، وفيه أيضًا تَتميمُ المُبالَغةِ؛ فقد قال: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، ولو قال: (جرَعَه) لَمَا أفاد المعنى الَّذي أرادَه؛ لأنَّ (جرَعَ الماءَ) لا يُشيرُ إلى معنى الكراهيةِ، ولكنَّه عندما أُتِيَ بالتَّاءِ على صِيغَةِ التَّفعُّلِ، أفهَمَ أنَّه يتكلَّفُ شُرْبَه تكلُّفًا، وأنَّه يُعاني مِن جرَّاءِ شُرْبِه ما لا يأْتي الوصفُ عليه؛ مِن تَقزُّزٍ وكراهيةٍ، ثمَّ احتاط للأمْرِ؛ لأنَّه قد يُوهِمُ بأنَّه تكلَّفَ شُرْبَه ثمَّ هان عليه الأمْرُ بعدَ ذلك؛ فأُتِيَ بالكَيْدُودَةِ، أي: أنَّه تكلَّفَ شُرْبَه وهو لا يكادُ يشرَبُه، ولو اكْتَفى بالكَيْدُودَةِ لَصَحَّ المعنى دونَ مُبالَغةٍ، ولكنْ عندما جاءتْ ﴿يُسِيغُهُۥ﴾، أفهَمَ أنَّه لا يُسيغُه بل يغَصُّ به، فيشرَبُه بعدَ اللَّتيَّا والَّتي جُرْعَةً غِبَّ جُرْعَةٍ؛ فيَطولُ عَذابُه؛ تارةً بالحرارةِ، وتارةً بالعطَشِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ دخَلَ الفعْلُ (كاد)؛ للمُبالَغةِ، يعني: ولا يُقارِبُ أنْ يُسيغَه؛ فكيف تكونُ الإساغةُ[٣]؟!

- قولُه: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ كأنَّ أسبابَ الموتِ وأصنافَه كلَّها قد تألَّبَتْ عليه، وأحاطَتْ به مِن جميعِ الجِهاتِ؛ تفظيعًا لِمَا يُصيبُه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤١٨).

الآلامِ[١].

- ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ في وصْفِ العذابِ بالغِلظةِ: كِنايةٌ عن قوَّتِه واتِّصالِه؛ لأنَّ الغِلظةَ تستوجِبُ القوَّةَ، وتستَدْعي أنْ يكونَ مُتَّصلًا تتصِلُ به الأزمنةُ كلُّها، فلا انفصالَ بينها[٢].

- وفي ألفاظِ الآياتِ الوَاردةِ مَوْرِدَ التَّهديدِ والوعيدِ «مُراعاةُ النَّظيرِ»؛ فجميعُ ألفاظِها مُتضافِرةٌ على التَّعبيرِ عنِ المُخيفِ القارِعِ للقُلوبِ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾

- قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ...﴾ فيه تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ فالمُشبَّهُ مُركَّبٌ، وهو الَّذين كَفَروا وأعمالُهم الصَّالحةُ الَّتي يقومونَ بها في حَياتهم؛ كصلة يَرفِدونَ[٤] بها المُحتاجَ، وصَدقةٍ يَجبُرونَ بها المكسورَ، وعِلْمٍ يعُمُّ نفْعُه العِبادَ، والمُشبَّهُ به: الرَّمادُ -وهو ما سحَقَتْه النَّارُ مِن الأجرامِ- واشتِدادُ الرِّيحِ، واليومُ العاصفُ، ووجْهُ الشَّبهِ: أنَّ الرِّيحَ العاصِفَ تُطَيِّرُ الرَّمادَ، وتُفرِّقُ أجْزاءَه بحيثُ لا يَبْقَى له أثرٌ، فكذلك كُفْرُهم أبطَلَ أعمالَهم وأحبَطَها بحيث لا يبْقَى لها أثرٌ؛ فالمعنى: حالُ أعمالِهم، بقَرينةِ الجُملةِ المُخبَرِ عنها؛ لأنَّه مهما أُطْلِقَ (مثَلُ كذا) إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥١).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٧٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٧١).
(٤) يَرفِدونَ: يُعطونَ ويُعينونَ ويَصِلون، والرِّفْدُ بالكسرِ: العطاءُ والصِّلة. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٤٧٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٧٥٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٤١).

والمُرادُ حالٌ خاصَّةٌ مِن أحوالِه يُفسِّرُها الكلامُ، فهو مِن الإيجازِ المُلتَزمِ في الكلامِ. فقولُه: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، و﴿كَرَمَادٍ﴾ خبرٌ عنه، والجُملةُ خبرٌ عن المبتدأِ الأوَّلِ. ولمَّا جُعِلَ الخبرُ عن مثَلِ الَّذين كفَروا ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، آلَ الكلامُ إلى أنَّ مثَلَ أعمالِ الَّذين كَفَروا كرَمادٍ؛ شُبِّهَت أعمالُهم المُتجمِّعةُ العديدةُ برمادٍ مُكدَّسٍ، فإذا اشتدَّتِ الرِّياحُ بالرَّمادِ انتَشَرَ وتفرَّقَ تفرُّقًا لا يُرْجى معه اجتماعُه، ووجْهُ الشَّبهِ هو الهيئةُ الحاصِلةُ مِن اضمحلالِ شيءٍ كثيرٍ بعدَ تجمُّعِه، والهيئةُ المُشبَّهةُ معقولةٌ. ومِن لَطائفِ هذا التَّمثيلِ أنِ اخْتيرَ له التَّشبيهُ بهيئةِ الرَّمادِ المُتجمِّعِ؛ لأنَّ الرَّمادَ أثَرٌ لأفْضَلِ أعمالِ الَّذين كَفَروا وأشْيَعِها بينهم وهو قِرَى الضَّيفِ، حتَّى صارتْ كثرةُ الرَّمادِ كِنايةً في لِسانِهم عنِ الكرَمِ[(١)]، وأيضًا ففي تَشبيهِ أعمالِهم بالرَّمادِ سِرٌّ بديعٌ؛ وذلك للتشابُهِ الذي بين أعمالِهم وبين الرَّمادِ في إحراقِ النَّارِ وإذهابِها لأصلِ هذا وهذا، فكانت الأعمالُ التي لغيرِ الله وعلى غيرِ مُرادِه طُعمةً للنَّارِ، وبها تُسعَّرُ النَّارُ على أصحابِها[(٢)].

- قولُه: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ لِبيانِ مثَلِهم، على تقديرِ سُؤالٍ؛ كأنَّه قيل: كيف مثَلُهم؟ أو: ما بالُ أعمالِهم الَّتي عمِلوها في وُجوهِ البرِّ؛ مِن صلةِ الأرحامِ، وإعتاقِ الرِّقابِ، وفِداءِ الأسارى، وإغاثةِ المَلْهوفينَ، وقِرَى الأضيافِ، وغيرِ ذلك ممَّا هو مِن بابِ المَكارمِ، حتَّى آلَ أمْرُهم إلى هذا المآلِ؟ فأُجِيبَ بأنَّ: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ...﴾، وكأنَّه قيل: المُتحصِّلُ مثالًا في النَّفْسِ للَّذين كَفَروا هذه الجُملةُ المذكورةُ؛ وهي: أعمالُهم في فسادِها وقْتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٢-٢١٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٧٣-١٧٥).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣١-١٣٢).

الحاجةِ وتلاشيها كالرَّمادِ الَّذي تذْرُوه الرِّيحُ، وتفرِّقُه بشدَّتِها حتَّى لا يبْقَى له أثرٌ، ولا يجتمِعُ منه شيءٌ(١).

- قولُه: ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾ العصْفُ: اشتِدادُ الرِّيحِ؛ وُصِفَ به زَمانُه للمُبالَغةِ، فجُعِلَ العصْفُ لليومِ، وهو لِمَا فيه، وهو الرِّيحُ أو الرِّياحُ؛ فشَبَّهَ هذه الأعمالَ- في حُبوطِها، وذَهابِها هباءً مَنثورًا؛ لِبنائِها على غيرِ أساسٍ مِن معرفةِ اللهِ والإيمانِ به، وكونِها لِوجْهِه- برمادٍ طَيَّرَتْه الرِّيحُ العاصِفُ(٢).

- وقولُه: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ فَذْلَكةُ التَّمثيلِ، وبيانٌ لِجُملةِ التَّشبيهِ، أي: ذهَبَتْ أعمالُهم سُدًى، فلا يَقدِرونَ أنْ ينتَفِعوا بشيءٍ منها(٣)، والاكتفاءُ ببيانِ عدَمِ رُؤيةِ الأثَرِ لأعمالِهم للأصنامِ، مع أنَّ لها عُقوباتٍ هائلةً؛ للتَّصريحِ ببُطلانِ اعتقادِهم، وزَعمِهم أنَّها شُفعاءُ لهم عندَ اللهِ تعالى، وفيه تهكُّمٌ بهم(٤)، وذلك على أحدِ أوجهِ التفسيرِ.



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦ / ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦))، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٠).

الآيات (١٩-٢١)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ
هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿وَبَرَزُوا۟﴾: أي: ظَهَروا وخَرَجوا مِن قُبورِهم، وأصلُ (برز): يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُدُوِّه[(١)].

﴿أَجَزِعْنَآ﴾: الجزعُ: حزنٌ يصرِفُ الإنسانَ عمَّا هو بصددِه، ويقطعُه عنه، وأصلُ الجزعِ: قطعُ الحبلِ مِن نصفِه[(٢)].

﴿مَّحِيصٍ﴾: أي: مَعدِلٍ ومَهرَبٍ، وأصلُ (حيص): يدلُّ على المَيلِ في جَورٍ[(٣)].

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ألم تَرَ أنَّ اللهَ خلقَ السَّمواتِ والأرضَ لأمرٍ عظيمٍ؛ وذلكَ ليعبدَه الخلقُ، ولا يُشرِكوا به شَيئًا، وليعرِفوا ما له مِن صفاتِ الكمالِ، وأنَّه القادِرُ على إعادةِ الخَلقِ يومَ القيامةِ، فهو سبحانَه لم يخلُقِ السَّمواتِ والأرضَ عَبَثًا؟ إنْ شاءَ أن يُذهِبكم -أيُّها البشرُ- إن عَصَيتُموه، أذهَبكم، ويأتِ بِقومٍ غيرِكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨).
(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٤، ١٩٥).
(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

أطوعَ لله منكم، وما إذهابُكم والإتيانُ بغَيرِكم بمتعذِّرٍ ولا مُمتنِعٍ على اللهِ، بل هو سَهلٌ يَسيرٌ عليه.

ثمَّ يحْكي الله تعالَى جانبًا مِن الحوارِ الذي يجري يومَ القيامةِ بينَ الأتباعِ والمتبوعينَ، فيقولُ تعالى: وظهَروا جميعًا مِن قُبورِهم يومَ القيامةِ لله الواحِدِ القَهَّار؛ مجتمعينَ في أرضٍ مُستَويةٍ، لا يخفَى فيها أحدٌ منهم، فيقولُ الأتباعُ لقادتِهم الذين كانوا يستكبِرونَ في الدُّنيا عن اتِّباعِ الحَقِّ: إنَّا كنَّا لكم في الدُّنيا أتباعًا، نأتمِرُ بأمرِكم، فأضلَلْتُمونا، فهل أنتم اليومَ دافِعونَ عنَّا مِن عذابِ اللهِ شَيئًا، ولو قليلًا؟ فيقولُ الرُّؤساءُ: لو هدانا اللهُ إلى الإيمانِ لأرشَدْناكم إليه، ولكِنَّه لم يوَفِّقْنا، فضَلَلْنا وأضلَلْناكم، سواءٌ علينا الجَزَعُ مِن العذابِ والصَّبرُ عليه، فليس لنا في كلا الحالَينِ مَهربٌ من العذابِ ولا مَنجًى.

تَفسيرُ الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ أعمالَ الكافرينَ تَصيرُ باطِلةً ضائِعةً، بيَّنَ أنَّ ذلك البُطلانَ والإحباطَ إنَّما جاء بسبَبٍ صدرَ منهم، وهو كُفرُهم باللهِ وإعراضُهم عن العبوديَّة؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يُبطِلُ أعمالَ المُخلِصينَ ابتداءً، وكيف يليقُ بحِكمتِه أن يفعَلَ ذلك، وإنَّه تعالى ما خلقَ كُلَّ هذا العالَمِ إلَّا لداعيةِ الحِكمةِ والصَّوابِ[١].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨١-٨٢).

أي: ألم ترَ[1] أنَّ الله خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وَحدَه بغَيرِ ظَهيرٍ ولا مُعينٍ، لأمرٍ عظيمٍ؛ ليعبدَه الخلقُ، ويعرِفوا ما له من صِفاتِ الكَمالِ، وأنَّه القادِرُ على إعادةِ الخَلقِ يومَ القيامةِ، فهو سبحانَه لم يخلُقْهنَّ عَبَثًا[2]؟

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وقال سُبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

---

(١) قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرُّؤيةُ هنا هي القلبيَّةُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٣).
والخطابُ فيه: قيل: هو خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمُرادُ به أُمَّتُه. وقيل: خِطابٌ لكلِّ واحدٍ مِن الكَفَرةِ. وقيل: خطابٌ لكلِّ مَن يصلحُ للخطابِ غيرَ معيَّنٍ، وكلِّ مَن يُظَنُّ به التساؤلُ عن إمكانِ إهلاكِ المشركينَ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٤).
قال ابنُ جَرير: (يقولُ عَزَّ ذِكْرُه لِنَبيِّه محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ألَمْ تَرَ- يا محمَّدُ- بعَينِ قَلْبِك، فتَعلَمَ أنَّ اللهَ أنشأَ السَّمواتِ والأرضَ بالحقِّ مُنفرِدًا بإنشائِها بغَيرِ ظَهيرٍ ولا مُعينٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٤).
قال أبو حيان: (ومعنى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قال الزَّمخشريُّ: بالحِكمةِ، والغرَضِ الصَّحيحِ، والأمْرِ العظيمِ، ولم يَخلُقْها عبَثًا ولا شَهوةً. وقال ابنُ عطيَّةَ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بما يَحِقُّ مِن جِهَةِ مَصالحِ عِبادِه، وإنفاذِ سابِقِ قَضائِه، وليَدُلَّ عليه وعلى قُدرَتِه. وقِيلَ: بقولِه وكَلامِه. وقِيلَ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حالٌ، أي: مُحِقًّا). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٢).

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾.

أي: إنَّ القادِرَ الذي تفرَّدَ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ إن شاء أن يُفنِيَكم- أيُّها النَّاسُ- إن عَصَيتُموه، أفناكم، ويأتِ بقومٍ غيرِكم أفضَلَ وأطوَعَ لله منكم(١).

كما قال الله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨].

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾.

أي: وما إذهابُكم -أيُّها النَّاسُ- والإتيانُ بخَلقٍ آخَرَ مَكانَكم، بمُمتَنِعٍ على اللهِ ولا مُتعَذِّرٍ، بل هو سَهلٌ يَسيرٌ عليه سُبحانَه(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٥).
قال السعديُّ: (يَحتمِلُ أنَّ المعنَى: إنْ يشَأْ يُذْهِبْكم ويأْتِ بقَومٍ غيرِكم يَكونونَ أطوَعَ للهِ منكم، ويَحتمِلُ أنَّ المُرادَ أنَّه: إنْ يشَأْ يُفْنِيكم، ثمَّ يُعِيدُهم بالبَعثِ خلْقًا جديدًا، ويدُلُّ على هذا الاحتمالِ ما ذكَرَهُ بَعدَه مِن أحوالِ القيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أصنافَ عذابِ هؤلاءِ الكُفَّارِ، ثمَّ ذكَرَ عَقيبَه أنَّ أعمالَهم تصيرُ مُحبَطةً باطِلةً؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ كيفيَّةَ خَجالتِهم عندَ تمسُّكِ أتباعِهم، وكيفيَّةَ افتضاحِهم عندَهم. وهذا إشارةٌ إلى العذابِ الرُّوحانيِّ الحاصِلِ بسبَبِ الفَضيحةِ والخَجالةِ[1].

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

أي: وظهَروا[2] جميعًا مِن قُبورِهم لله وَحدَه يومَ القيامةِ، مجتمعينَ في أرضٍ مُستَويةٍ لا يخفَى فيها أحدٌ منهم[3].

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

وقال سُبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨٢).

(٢) قيل: المرادُ بهم: الذين كفروا. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والعليمي. ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥١٥).
وقيل: المرادُ: جميعُ النَّاسِ برُّهم وفاجِرُهم. وممَّن اختار هذا القولَ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾.

أي: فقال الأتباعُ لقادتِهم وسادتِهم الذين كانوا يستكبِرونَ في الدُّنيا عن اتِّباعِ الحَقِّ: إنَّا كنَّا لكم في الدُّنيا أتباعًا نُطيعُكم ونقَلِّدُكم، فأضلَلْتُمونا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

أي: فهل أنتم دافِعونَ عنَّا اليومَ شَيئًا- ولو قليلًا- مِن عذابِ اللهِ(٢)؟

﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾.

أي: قال القادةُ المَتبوعونَ لأتباعِهم: لو هَدانا اللهُ إلى الحَقِّ، لهدَيناكم إليه، فلمَّا أضلَّنا أضلَلْناكم، فحقَّ علينا وعليكم عذابُ اللهِ(٣).

كما قال تعالى حاكيًا قولَ القادةِ لأتباعِهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ * فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ﴾ [الصافات: ٣١-٣٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ *

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨).

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾.

أي: سواءٌ علينا أجزِعْنا مِن العذابِ أم صَبَرْنا عليه، ما لنا في كِلا الحالَينِ مِن مَهرَبٍ ولا ملجأٍ نَفِرُّ إليه مِن عذابِ اللهِ(١).

كما قال سُبحانه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ جيءَ في هذه الآيةِ بوَصفِ حالِ الفِرَقِ يومَ القيامةِ، ومُجادلةِ أهلِ الضَّلالةِ مع قادتِهم، مع كونِ المؤمنينَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٤).
قال القاسميُّ: (استظهَرَ ابنُ كثيرٍ هذه المُراجعةَ في النَّارِ بَعدَ دُخولِهم إليها؛ لِآيةِ: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]. ولا يَخفى أنَّ الآيةَ في هذه السُّورةِ تَصدُقُ بالتَّخاصُمِ في الموقفِ وفي النَّارِ؛ لإفادَتِها أنَّ ذلك أثَرُ بُروزِهم، وهو صادِقٌ بما ذكَرْنا، فلا قَرينةَ فيها لكَونِ ذلك في النَّارِ فقطْ، كما ادَّعاهُ. وربَّما كان قولُه: ﴿وَبَرَزُواْ﴾ يدُلُّ للمَوقِفِ بمعناه المُتقدِّمِ. ثمَّ إنَّ هذا التَّخاصُمَ يَجوزُ أنْ يكونَ مُتعدِّدَ المواطِنِ؛ لظاهِرِ قولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وقولِه: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾، ويَجوزُ أنْ يكونَ مرَّةً واحدةً). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٨).

شُغُلٍ عن ذلك بنُزُلِ الكرامةِ، والغرَضُ من ذلك تنبيهُ النَّاسِ إلى تدارُكِ شَأنِهم قبل الفَواتِ، فالمقصودُ: التحذيرُ ممَّا يُفضي إلى سُوءِ المَصيرِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الرُّؤيةُ: مُستعملةٌ في العِلمِ النَّاشئِ عن النَّظرِ والتأمُّلِ؛ لأنَّ السَّمواتِ والأرضَ مُشاهَدةٌ لكُلِّ ناظرٍ، وأمَّا كونُها مخلوقةً لله فمُحتاجٌ إلى أقَلِّ تأمُّلٍ؛ لسُهولةِ الانتقالِ مِن المُشاهدةِ إلى العِلمِ، وأمَّا كونُ ذلك مُلتَبِسًا بالحَقِّ فمُحتاجٌ إلى تأمُّلٍ عَميقٍ، فلمَّا كان أصلُ ذلك كُلِّه رؤيةَ المخلوقاتِ المذكورةِ، عُلِّقَ الاستدلالُ على الرُّؤيةِ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ فيه بَيانٌ لإبعادِهم في الضَّلالِ، وعَظيمِ خَطْبِهم في الكُفْرِ باللهِ؛ لِوضوحِ آياتِه الشَّاهدةِ له، الدَّالَّةِ على قُدرتِه الباهرةِ، وحِكمتِه البالِغةِ، وأنَّه هو الحقيقُ بأنْ يُعْبَدَ، ويُخافَ عِقابُه، ويُرْجَى ثوابُه في دارِ الجزاءِ(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ فيه إعلامٌ منه سبحانه باقْتِدارِه على إعدامِ الموجودِ، وإيجادِ المعدومِ، وأنَّه يَقدِرُ على الشَّيءِ، وجنْسِ ضدِّه(٤).

٤- قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فرتَّبَ قُدرتَه تعالى على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٧).
قال الطِّيبيُّ: (قوله: «وجنسِ ضِدِّه»، مُبالَغةٌ في الاقتدارِ، يعني: أنَّه ليس بقادرٍ على الضِّدِّ فقطْ، بلْ هو قادِرٌ على الضِّدِّ وأمثالِه؛ كالتَّبايُنِ والتَّماثُلِ والتَّقابُلِ، والنَّظيرِ والنِّدِّ، وغَيرِها). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٨/ ٥٧٦).

ذلك على قُدرتِه تعالى على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ على هذا النَّمطِ البَديعِ؛ إرشادًا إلى طَريقِ الاستِدلالِ؛ فإنَّ مَن قدَرَ على خَلْقِ مِثْلِ هاتيك الأجرامِ العَظيمةِ، كان على تبْديلِ خلْقٍ آخرَ بهم أقدَرَ[(١)].

٥- إنْ قيل: كيفَ قال اللهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ معَ كونِه سبحانَه عالِمًا بهم، لا تخفَى عليه خافيةٌ مِنْ أحوالِهم؛ بَرَزوا أوْ لم يَبْرُزوا؟

والجواب: لأنَّهم كانُوا يَسْتَتِرونَ عن العُيونِ عندَ فعلِهم للمعاصي، ويظُنُّونَ أنَّ ذلك يخفَى على اللَّهِ تعالَى، فالكلامُ خارجٌ على ما يَعتقدونَه[(٢)]، فإذا ظهَرتْ فضائحُهم، وشهِدتْ عليهم جوارحُهم يومَ القيامةِ علِموا حينئذٍ، وتيقَّنوا أنَّهم بَرزوا لله جميعًا، وأنَّه لا يخفَى شيءٌ مِن أعمالِهم وأحوالِهم. وقيل: إذا خَرجوا مِن قبورِهم بَرزوا لموقفِ الحسابِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ، ناشئٌ عن جُملةِ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]؛ فإنَّ هَلاكَ فِئةٍ كاملةٍ شَديدةِ القُوَّةِ والمِرَّةِ أمْرٌ عَجيبٌ، يُثيرُ في النُّفوسِ السُّؤالَ: كيف تُهْلَكُ فِئةٌ مِثْلُ هؤلاء؟! فيُجابُ بأنَّ اللهَ الَّذي قدَرَ على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ في عظَمَتِها قادرٌ على إهلاكِ ما هو دُونَها؛ فمَبْدَأُ الاستئنافِ هو قولُه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٢٥).

بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩]، وموقِعُ جُملةِ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [إبراهيم: ١٩] مَوقِعُ التَّعليلِ لجُملةِ الاستئنافِ؛ قُدِّمَ عليها كما تُجعَلُ النَّتيجةُ مُقدَّمةً في الخَطابةِ والجِدالِ على دَليلِها، ومُناسَبةُ مَوقعِ هذا الاستئنافِ ما سبَقَهُ مِن تفرُّقِ الرَّمادِ في يَومٍ عاصفٍ[١].

- قوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ المقصودُ منه: التَّعريضُ بالمُشركينَ خاصَّةً؛ تأكيدًا لِوعيدِهم الذي اقتضاه قولُه: ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤]، أي: إن شاء أعدمَ الناسَ كلَّهم، وخَلَق ناسًا آخرينَ، وقد جِيءَ في الاستدلالِ على عَظيمِ القُدرةِ بالحُكمِ الأعمِّ؛ إدماجًا للتعليمِ بالوعيدِ، وإظهارًا لعظيمِ القُدرةِ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه يُذهِبُ الجبابرةَ المعانِدين، ويأتي في مَكانِهم في سِيادةِ الأرضِ بالمؤمنينَ؛ ليُمكِّنَهم من الأرضِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ فيه مَجيءُ الفعْلِ ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ الَّذي يكونُ في المستقبَلِ بلفْظِ الماضي؛ وإنَّما ذُكِرَ بلفظِ الماضي لِتحقُّقِ وُقوعِه؛ لِصدْقِ المُخبِرِ به؛ لأنَّ ما أخبَرَ به عزَّ وعلا -لِصدْقِه- كأنَّه قد كان ووُجِدَ ووقَعَ، وكان مُقتضَى الظاهرِ أن يقولَ: (ويَبرُزون لله)؛ فعدَلَ عن المضارعِ إلى الماضي؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه حتى كأنَّه قد وقَع[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٣-٢١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير أبي

- و﴿جَمِيعًا﴾ تأكيدٌ؛ لِيشمَلَ جميعَهم[1].

- قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾ السِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾؛ للمُبالَغةِ في الكِبْرِ[2]. و﴿تَبَعًا﴾ جمْعُ تابِعٍ، كـ(غائبٌ وغَيَبٌ)، أو مصدرٌ نُعِتَ به للمُبالَغةِ، أو على إضمارِ مُضافٍ، أي: ذوي تَبَعٍ[3].

- قولُه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ الاستفهامُ مِن بابِ التَّبكيتِ والتَّوبيخِ والعِتابِ والتَّقريعِ؛ لأنَّهم قد علِموا أنَّهم لا يَقدِرونَ على الإغناءِ عنهم، أي: فأظْهِروا مكانتَكم عندَ اللهِ الَّتي كنْتُم تدَّعونَها وتُغْرونَنا بها في الدُّنيا. والفاءُ في قولِه: ﴿فَهَلۡ﴾؛ للدَّلالةِ على سببيَّةِ الاتِّباعِ للإغناءِ؛ فهي لِتفريعِ الاستِكبارِ على التَّبعيَّةِ؛ لأنَّها سَببٌ يقْتَضي الشَّفاعةَ لهم[4].

- قولُه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ فيه تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَنتُم﴾ على المُسنَدِ ﴿مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾؛ لأنَّ المُستفهَمَ عنه كونُ المُستكبرينَ يُغْنونَ عنهم، لا أصلُ الغَناءِ عنهم؛ لأنَّهم آيسونَ منه لَمَّا رأَوا آثارَ الغضبِ الإلهيِّ عليهم وعلى سادَتِهم، كما تدلُّ عليه حِكايةُ قولِ المُستكبرينَ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾؛ فعلِموا أنَّهم قد غرُّوهم في الدُّنيا[5].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قيل: إنها للتَّبيينِ، و(من) في قوله:

حيان)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٨- ٥٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٦).

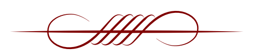
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٦).

﴿مِن شَيۡءٖ﴾ قيل: إنها للتَّبعيضِ؛ كأنَّه قيل: هل أنتم مُغْنونَ عنَّا بعضَ الشَّيءِ الَّذي هو عَذابُ اللهِ؟ ويجوزُ أنْ تكونَا للتَّبعيضِ معًا، بمعنى: هل أنتم مُغْنونَ عنَّا بعضَ شيءٍ هو بعضُ عذابِ اللهِ؟ أي: بعضَ بعضِ عذابِ اللهِ[١]، وقيل: (مِن) في ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ لاستِغراقِ الجنْسِ، زائدةٌ للتَّوكيدِ؛ لِوقوعِ مَدْخولِها في سياقِ الاستفهامِ بحرف (هل)، والمعنى: هل تمْنَعونَ عنَّا شيئًا[٢]؟

- قولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ الهَمزةُ و(أَمْ) لِتأكيدِ التَّسويةِ، وإنَّما أسنَدُوهما، ونسَبوا استِواءَهما إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ المُنتظِمِ للمُخاطَبينَ أيضًا؛ مُبالَغةً في النَّهيِ عنِ التَّوبيخِ، بإعلامِ أنَّهم شُركاءُ لهم فيما ابْتُلوا به، وتسليةً لهم[٣].

- وجُملةُ ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ واقعةٌ موقِعَ التَّعليلِ لمعنى الاستواءِ، أي: حيثُ لا مَحيصَ ولا نجاةَ فسواءٌ الجزَعُ والصَّبرُ[٤].

- قولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ اتَّصَلَ بما قبلَه -أي: لم يُعطَفْ عليه- مِن حيثُ إنَّ عِتابَهم لهم كان جزَعًا ممَّا هم فيه مِن العذابِ، فقالوا: سواءٌ علينا جميعًا نحن وأنتم، أجزِعْنا أم صبرْنا؛ فلا فائِدةَ مِن هذا الجزَعِ والتَّوبيخِ، كما لا فائدةَ في الصَّبرِ، وأتْبَعوا الإقناطَ مِن النَّجاةِ، فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤٩).

الآيتان (٢٢-٢٣)

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ بِمُصۡرِخِكُمۡ ﴾: أي: بمُغيثِكم ومُنقِذِكم، وأصلُ (صرخ): يدلُّ على صَوتٍ رَفيعٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالَى عن الشَّيطانِ -بعد أن يقضيَ اللهُ الأمرَ، ويُدخِلَ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلَ النَّارِ النارَ- أنَّه يقولُ: إنَّ اللهَ وعَدَكم على ألسِنةِ رُسُلِه وعدًا حقًّا بالبَعثِ والجزاءِ، وأنَّ فِي اتِّبَاعِ هؤلاء الرسلِ النَّجاةَ وَالسَّلامَةَ، فوفَى بوَعدِه، ووعدتُكم وعدًا باطِلًا؛ أنَّه لا بَعْثَ ولا جزاءَ، ووعدتُكم النُّصرةَ، فأخلَفتُكم وعدي، وما أظهرتُ لكم أيَّ حجَّةٍ تدُلُّ على صِدقي فيما وعدتُكم به، ولكِنْ دَعوتُكم إلى الكُفرِ باللهِ والإشراكِ به ومَعصيتِه فاتَّبَعتُموني بلا بُرهانٍ، فلا تلوموني ولُوموا أنفُسَكم، ما أنا بمُغيثِكم ومُنقِذِكم من النَّارِ، ولا أنتم بمُغيثيَّ ومنقِذِيَّ منها، إني تبرَّأتُ مِن جَعْلِكم لي شريكًا مع اللهِ في طاعتِه وعبادتِه في الدُّنيا، إنَّ الظَّالمينَ -الذين وضعوا العِبادةَ والطَّاعةَ في غيرِ مَوضِعِها- لهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

عذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ. وأُدخِلَ الذين آمنوا بالله ورَسولِه وعَمِلوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها وتحت كل ما علا منها الأنهارُ، لا يخرُجونَ منها أبدًا بإذنِ رَبِّهم، تحيةُ بعضِهم لبعضٍ، وتحيةُ اللهِ لهم، وتحيةُ الملائكةِ إيَّاهم: سلامٌ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ مُحاورةَ الأتباعِ لرُؤسائِهم الكَفَرةِ؛ ذكَرَ مُحاورةَ الشَّيطانِ وأتباعِه مِن الإنسِ؛ وذلك لاشتراكِ الرُّؤساءِ والشَّياطينِ في التلبُّسِ بالإضلالِ[1].

وأيضًا فقد أفْضَتْ مجادلةُ الضعفاءِ وسادتِهم في تغريرِهم بالضلالةِ إلى نطقِ مصدرِ الضلالةِ، وهو الشَّيطانُ[2].

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ ﴾.

أي: وقال إبليسُ -وهو أوَّلُ المُستَكبرينَ المتبوعينَ في الضَّلالِ- لأتباعِه لَمَّا أدخَلَ اللهُ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلَ النَّارِ النَّارَ: إنَّ الله وعَدَكم على ألسِنةِ رُسُلِه وعدًا صادِقًا متحَقِّقًا لا يُخلَفُ بوقوعِ البَعثِ، وإثابةِ المُطيعِ بالجنَّةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٨).

والعاصي بالنَّارِ، ووعَدكم أنَّ فِي اتِّبَاعِ هؤلاء الرسلِ النَّجاةَ وَالسَّلامَةَ، فوفَى بوَعدِه، ووَعَدتُكم أنْ لا بعثَ، ولا جَنَّةَ ولا نارَ، ولَا ثوابَ ولَا عِقابَ، ووعدتُكم النُّصرةَ، فأخلفْتُ وعدي لكم، وكذَبْتُ عليكم(١).

كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

أي: قال إبليسُ لأهلِ النَّارِ: وما أظهرتُ لكم أيَّ حجَّةٍ تدُلُّ على صِدقي فيما وعدتُكم به، ولكِنْ دعوتُكم إلى الكُفرِ باللهِ والإشراكِ به ومَعصيتِه، فأطعتُموني واتَّبعتُموني بلا بُرهانٍ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٩).
قال ابن عاشور: (وشَمِلَ وعدُ الحَقِّ جميعَ ما وعَدهم اللهُ بالقرآنِ على لسانِ رسولِه عليه الصلاةُ والسلامُ، وشَمِلَ الخُلْفُ جميعَ ما كان يعِدُهم الشيطانُ على لسانِ أوليائِه، وما يعِدُهم إلَّا غُرورًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).
وممن اختار أنَّ السلطانَ هنا بمعنَى الحجةِ والبرهانِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ القيمِ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.
وقِيل: المرادُ بالسُّلطانِ هنا: التسلطُ والقهرُ. وممن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، والبقاعي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٧)، ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٩).
قال ابنُ عطيةَ: (يحتمِلُ أن يريدَ بـ «السلطان» في هذه الآيةِ الغلبةَ والقدرةَ والملكَ، أي: ما اضْطررتُكم، ولا خوَّفْتُكم بقوةٍ منِّي، بل عرضْتُ عليكم شيئًا، فأتَى رأيُكم عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٤).
وجمَع الثعلبيُّ بينَ المعنيين، فقال: (﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ ولايةٍ ومملكةٍ، وحجةٍ وبصيرةٍ). ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٣١٣).

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾.

أي: فلا تَلوموني اليومَ على طاعتِكم واتِّباعِكم لي بلا حُجَّةٍ، ولوموا أنفُسَكم على ذلك؛ فأنتم السَّبَبُ في دخُولِكم النَّارَ؛ لأنَّكم مُؤاخَذونَ بكَسبِكم، ولكم قُدرةٌ واختيارٌ، فاختَرتُم الشَّرَّ على الخيرِ(١).

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾.

أي: ما أنا بمُغيثِكم ومُنقِذِكم من النَّارِ، وما أنتم بُمغيثينَ ومُنقذينَ لي من النَّارِ؛ فكلٌّ مِنَّا له قِسْطُه من العذابِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ * قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ * فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ * فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ * فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الصافات: ٢٧ - ٣٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ * وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٩].

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: إنِّي جَحَدْتُ وتبرَّأتُ مِن جَعْلِكم لي شَريكًا لله في العبادةِ والطَّاعةِ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٨، ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٨٩، ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

قَبلُ في الدُّنيا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ * وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥- ٦].

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: إنَّ الكافرينَ -الذين ظلَموا أنفُسَهم بوَضعِهم العِبادةَ والطَّاعةَ في غيرِ مَوضِعِها- لهم عَذابٌ مُوجِعٌ[٢].

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).
قال أبو حيان: (الظاهِرُ أنَّه من تمام كلامِ إبليسَ، حكى اللهُ عنه ما سيقولُه في ذلك الوقت؛ ليكونَ تنبيهًا للسَّامعين على النَّظرِ في عاقِبَتِهم، والاستعدادِ لِما لا بُدَّ منه... وقيل: هو من كلامِ الخزَنةِ يوم ذاك. وقيل: مِن كلام الله تعالى). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا جمَعَ اللهُ تعالى الفَريقينِ في قَولِه: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وذكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ الكُفَّارِ؛ ذكَرَ ما آل إليه أمرُ المؤمنينَ مِن إدخالِهم الجنَّةَ[1]، فقال:

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: وأُدخِلَ الذين آمنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ، فأطاعوا اللهَ تعالى واجتَنَبوا مَعصِيتَه؛ بساتينَ تجري الأنهارُ سارِحةً مِن تحتِ ما علا منها، كالغُرَفِ والمباني والأشجارِ وغيرِها[2].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ماكثينَ في الجنَّةِ بأمرِ رَبِّهم[3].

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

أي: تحيةُ بعضِهم لبعضٍ، وتحيةُ اللهِ لهم، وتحيةُ الملائكةِ إيَّاهم[4]: ....

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨٩)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٣).

ممن اختار أنَّ الله يحيِّيهم بهذه الكلمةِ، والملائكةَ يحيُّونَهم بها، وبعضَهم يحيِّي بعضًا بها: الرازي، والرسعني، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: المصادر السابقة.

قال محمَّد رشيد رضا في قولِه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]: (وهذه التَّحيَّةُ تكونُ مِنْه عَزَّ وَجَلَّ لهمْ؛ كما قال في سُورةِ الأحْزاب: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وفي سُورةِ (يس): ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وتكونُ مِنَ الملائكةِ لهم عندَ دُخولِ الجنَّةِ؛ كما قال في سُورةِ الزُّمَرِ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾

سلامٌ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ

[الزمر: ٧٣] ومِثْلُهُ في سُورةِ النَّحلِ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وفي كلِّ وقْتٍ يَدْخُلون فيه عليهِمْ؛ كما قال في سُورةِ الرَّعْدِ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وتكونُ منهمْ بَعضِهمْ لِبَعضٍ، وهو المُتَبادَرُ مِن قولِه تَعالى في سُورةِ مريمَ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]، وفي سُورةِ الواقعةِ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]؛ فإنَّ اللَّغْوَ والتَّأثيمَ مِن شَأْنِ كَلامِ البشَرِ، فلمَّا نَفَى وُقُوعَهُما منهُمْ في الجنَّةِ، واسْتَدْرَكَ على نَفْيِهِ باستِثْناءِ كَلِمةِ سَلامٍ مُنْقَطِعًا؛ تَرَجَّحَ أنْ يكونَ المُرادُ به سَلامَ بَعضِهمْ على بَعضٍ، أو عامًّا يَشمَلُه. والجُملةُ في آيَتِنا: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ تَشمَلُ الأنواعَ كُلَّها). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٥٣).

وقال الواحدي: (قولُه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مَصدرٌ مُضافٌ؛ فإنْ جَعلْتَه مُضافًا إلى الفاعِلِ، فهو تَحيَّةُ بَعضِهم بعضًا، وإنْ جَعلْتَه مُضافًا إلى المفعولِ، فهو تَحيَّةُ اللهِ إيَّاهم والملائكةِ، وقد ذكَرَ ابنُ عبَّاسٍ الوَجْهينِ). ((البسيط)) (١٢/ ٤٦٢).

وقيل: المراد: تُحَيِّيهم الملائكةُ. وهذا ظاهر اختيار ابن جرير، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١٣).

وممَّنْ قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جريجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٤).

وقيل: المراد: يحَيِّي أهلُ الجنَّة بعضُهم بعضًا بالسلامِ. وممن اختار ذلك: السعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٤).

وقيل: المرادُ: تحيَّتُهم فيما بينهم وتحيَّة الملائكةِ لهم. وممن اختار هذا القول: ابن أبي زمنين، والبغوي، والبقاعي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥١٨). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥١، ٢٤٧).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ السَّلامَ مشتَقٌّ من السلامة، والأظهرُ أنَّ المرادَ أنهم سَلِموا من آفاتِ الدنيا وحَسراتِها أو فنون آلامِها وأسقامِها، وأنواع غمومها وهمومها). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨٩).

وقال البقاعي: (﴿فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: عافيةٌ وسلامةٌ وبقاءٌ، وقولُ كُلٍّ منهم للآخر: أدامَ اللهُ سلامتَك، ونحو هذا من الإخبارِ بدوامِ العافيةِ). ((نظم الدرر)) (١٠/ ٤١٠).

تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩-١٠].

وقال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ ...﴾ حِكايةُ هذه المُحاورةِ لِتَنبيهِ السَّامعينَ على النَّظَرِ في العواقِبِ، والاستعدادِ لذلك اليومِ قبل ألَّا يكونَ إلَّا النَّدمُ وقَرعُ السِّنِّ وعَضُّ اليَدِ[١]. ولإثارةِ بُغضِ الشَّيطانِ في نُفوسِ أهلِ الكُفرِ؛ ليأخُذوا حِذرَهم بدِفاعِ وِسْواسِه؛ لأنَّ هذا الخِطابَ الذي يُخاطِبُهم به الشَّيطانُ مَليءٌ بإضمارِ الشَّرِّ لهم فيما وعَدَهم في الدُّنيا ممَّا شَأنُه أن يستفِزَّ غَضَبَهم مِن كَيدِه لهم وسُخريتِه بهم، فيُورِثَهم ذلك كراهيةً له وسُوءَ ظَنِّهم بما يتوقَّعونَ إتيانَه إليهم مِن قِبَلِه، وذلك أصلٌ عَظيمٌ في المَوعِظةِ والتَّربيةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ ساقَه على صُورةِ الاستثناءِ -وإن لم يكُنْ دُعاؤُه من السُّلطانِ في شَيءٍ، فهو استثناءٌ منقطعٌ- لأنَّ السُّلطانَ أخَصُّ مِن البُرهانِ؛ إذ معناه: برهانٌ يتسَلَّطُ به على إبطالِ مَذهَبِ الخَصمِ، إشارةً إلى أنَّهم تَبِعوه ولا قُدرةَ له على غيرِ هذا الدُّعاءِ الذي لا سُلطانَ فيه، وترَكوا دُعاءَ مَن أنزل إليهم مِن كُلِّ سُلطانٍ مُبينٍ، مع تهديدِهم بما هو قادِرٌ عليه، وضَربِهم ببَعضِه، وفاعِلُ مثلِ ذلك لا لومَ له على

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١٨).

غيرِ نَفسِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ ذكَرَ الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّه ليس للشَّيطانِ عليهم سُلطانٌ، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠]، فأثبتَ له سُلطانًا، ولكِنَّ السُّلطانَ الذي أثبَتَه له عليهم غيرُ السُّلطانِ الذي نفاه، وذلك مِن وَجهينِ:

الأول: أنَّ السُّلطانَ الذي نفاه عنه هو سُلطانُ الحُجَّةِ والدَّليل، فليس له حُجَّةٌ أصلًا على ما يدعو إليه، وإنَّما نهايةُ ذلك أن يُقيمَ لهم مِن الشُّبَهِ والتَّزيينات ما به يتجَرَّؤون على المعاصي، وإطلاقُ السُّلطانِ على البرهانِ كثيرٌ في القرآنِ، وأمَّا السُّلطانُ الذي أثبَتَه فهو التسَلُّط بالإغراءِ على المعاصي لأوليائِه يَؤُزُّهم إلى المعاصي أزًّا.

الثاني: أنَّ الله لم يجعَلْ له عليهم سُلطانًا ابتداءً البتَّةَ، ولكِنَّهم هم الذين سَلَّطوه على أنفُسِهم بطاعتِه ودُخولِهم في حِزبِه، فلم يتسَلَّطْ عليهم بقُوَّةٍ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وإنَّما تسَلَّط عليهم بإرادتِهم واختيارِهم، فهم الذين سَلَّطوه على أنفُسِهم بموالاتِه والالتحاقِ بحِزبِه، ولهذا ليس له سُلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلونَ[٢].

٣- قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٦)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٤-١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فالشَّيطانُ قام لهم في هذا اليومِ مقامًا يقصِمُ ظُهورَهم ويُقَطِّعُ قُلوبَهم؛ فقد أوضَحَ لهم أوَّلًا: أنَّ مواعيدَه الَّتي كان يعِدُهم بها في الدُّنيا باطلةٌ، ومعارِضةٌ لِوَعْدِ الحقِّ مِن اللهِ سبحانه. ثانيًا: أنَّه أخلَفَهم ما وعَدَهم مِن تلك المواعيدِ، ولم يَفِ لهم بشيءٍ منها. ثالثًا: أوضَحَ لهم أنَّهم قَبِلوا قولَه بما لا يوجِبُ القَبولَ، ولا ينفَقُ على عقْلِ عاقلٍ؛ لعدَمِ الحُجَّةِ الَّتي لا بدَّ للعاقِلِ منها في قَبولِ غيرِه. رابعًا: أوضَحَ لهم أنَّه لم يكُنْ منه إلَّا مُجرَّدُ الدَّعوةِ العاطِلةِ عنِ البُرهانِ، الخاليةِ مِن أيسَرِ شيءٍ ممَّا يتمسَّكُ به العُقلاءُ. خامسًا: ثمَّ نعَى عليهم ما وقَعوا فيه، ودفَعَ لومَهم له، وأمَرَهم بأنْ يلوموا أنفُسَهم؛ لأنَّهم هم الَّذين قَبِلوا الباطلَ البحْتَ، الَّذي لا يلتَبِسُ بُطلانُه على مَن له أدنى مُسْكَةٍ مِن عقْلٍ. سادسًا: أوضَحَ لهم أنَّه لا نصْرَ عندَه ولا إغاثةَ، ولا يستطيعُ لهم نفعًا، ولا يدفَعُ عنهم ضرًّا، بل هو مِثْلُهم في الوُقوعِ في البليَّةِ والعجْزِ عنِ الخُلوصِ مِن هذه المِحنةِ. سابعًا: ثمَّ صرَّحَ لهم بأنَّه قد كفَرَ بما اعتقَدوه وأثبَتوه له، فتضاعَفَت عليهمُ الحَسراتُ، وتوالَتْ عليهمُ المَصائبُ. وإذا كانت جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مِن تتمَّةِ كلامِه- كما ذهَبَ إليه بعضُ المُفسِّرينَ- فهو نوعٌ ثامنٌ مِن كلامِه الَّذي خاطَبَهم به(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ ردٌّ على المُعتزلةِ والقَدَريَّةِ فيما يزعُمون أنَّ «الإِذْنَ مِن اللهِ بمعنى العِلمِ» لا أنَّه إطلاقٌ؛ فِرارًا مما يَلزَمُهم في قَولِه: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، فلو كان كما يقولونَ،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٨٢- ١٨٣).

لكان المُدْخِلُ إيَّاهم الجنَّةَ في هذه الآيةِ غيرَه، وهذا كُفْرٌ(١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ ...﴾ لَمَّا كان الشَّيطانُ أعظَمَ المُستكبِرينَ، ورأسَ المضلِّين؛ خُصَّ بالإفرادِ بالجوابِ، حيثُ ذُكِرَ جوابُه دونَ سائرِ أجوبةِ بقيَّةِ المستكبِرين المتْبوعِينَ في الضَّلالِ الذين أضلُّوا أقوامَهم(٢).

- ومجموعُ الجُملتينِ ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ يُفيدُ معنى القصْرِ(٣).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ تعرَّضَ لذلك، مع أنَّه لم يكُنْ في حيِّزِ الاحتمالِ؛ مُبالَغةً في بيانِ عدَمِ إصراخِه إيَّاهم، وإيذانًا بأنَّه أيضًا مُبْتَلًى بمثْلِ ما ابْتُلوا به، ومحتاجٌ إلى الإصراخِ، فكيف مِن إصراخِ الغيرِ؟! ولذلك آثَرَ الجُملةَ الاسميَّةَ؛ فكأنَّ ما مضَى كان جوابًا منه عن تَوبيخِهم وتقريعِهم، وهذا جوابٌ عنِ استغاثَتِهم واستعانَتِهم به في استِدْفاعِ ما دهَمَهم منَ العذابِ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾

- قولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى العِنايةِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٢).

والاهتِمامِ؛ فهو إذْنٌ أخصُّ مِن أمْرِ القضاءِ العامِّ[١]. وفي التَّعرُّضِ لِوصفِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِهم في قولِه: ﴿رَبِّهِمْ﴾: إظهارُ مزيدٍ مِن اللُّطفِ بهم[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٣).

الآيات (٢٤-٢٧)

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿اجْتُثَّتْ﴾: أي: استُؤصِلَت وقُطِعَت، وأصلُ (جثث): يدلُّ على تجَمُّعِ الشَّيءِ؛ لأنَّه لا يكونُ الشيءُ مجثوثًا إلَّا وقد قُلِعَ بجَميعِ أصولِه وعُروقِه حتى لا يُترَكَ منه شيءٌ[(١)].

﴿قَرَارٍ﴾: أي: أصلٍ وثَباتٍ، وأصلُ (قرر): يدلُّ على تمَكُّنٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ألم تعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف ضرَبَ اللهُ مَثَلًا، وشبَّه شَبَهًا كلمةً طَيِّبةً، وهي كَلِمةُ التَّوحيدِ -لا إلهَ إلَّا اللهُ- بشَجرةٍ طيبةِ الثمرةِ، جذورُها ثابتةٌ في الأرضِ، وأغصانُها مرتفِعةٌ نحوَ السَّماءِ؟ تُعطي ثمرَها كامِلًا كثيرًا طَيِّبًا كُلَّ وقتٍ بمَشيئةِ رَبِّها وأمْرِه، وكذلك كلمةُ التَّوحيدِ؛ لا تزالُ تُثمِرُ الأعمالَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٤).

الصَّالحةَ للمُؤمِنِ في كُلِّ وَقتٍ، ولا يزالُ يُرفَعُ له عمَلٌ صالِحٌ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، في كلِّ حينٍ، ويضرِبُ اللهُ الأمثالَ للنَّاس؛ ليتذَكَّروا حُجَّةَ الله عليهم، ويتَّعِظوا، ويفعَلوا ما أمَرَهم به، ويجتَنِبوا ما نهاهم عنه.

ومثَلُ كَلِمةٍ خَبيثةٍ -وهي كَلِمةُ الكُفرِ- كشَجرةٍ كريهةِ الطَّعمِ، لا أصلَ لها ثابِتٌ في الأرضِ، ولا ارتفاعَ لفُروعِها في السَّماءِ، وليس لها ثمرةٌ ولا مَنفعةٌ، وكذلك كُفرُ الكافِرِ؛ لا ثباتَ له ولا خيرَ فيه، ولا يصعدُ له عمَلٌ صالِحٌ إلى اللهِ، ولا يُتقبَّلُ منه. يثبِّتُ اللهُ المؤمنينَ بالقَولِ الصَّادقِ الحَقِّ الثابتِ في قُلوبِهم، وهو شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله، يُثَبِّتُهم اللهُ به في الحياةِ الدُّنيا على إيمانِهم، وعند مَماتِهم بالخاتمةِ الحسَنةِ، وفي القبرِ عندَ سُؤالِ المَلَكينِ، ويَخذُلُ اللهُ الكافرينَ والمُنافِقينَ- بسبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم، ويفعَلُ اللهُ ما يشاءُ مِن هدايةِ المؤمنينَ وتَثبيتِهم، وإضلالِ الظَّالمينَ وخِذلانِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى أحوالَ الأشقياءِ وأحوالَ السُّعداءِ، ذكر مثالًا يبيِّنُ الحالَ في حُكمِ هذين القِسمَينِ، وهو هذا المَثَلُ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى مثَلَ أعمالِ الكُفَّارِ، وأنَّها كرَمادٍ اشتَدَّت به الرِّيحُ في يومٍ عاصِفٍ؛ ذكَرَ مَثَلَ أقوالِ المؤمنينَ وغيرِها[(٢)]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٩).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾.

أي: ألم تعلَمْ- يا محمَّدُ[١]- كيف مثَّلَ اللهُ مَثَلًا، وشبَّه شَبَهًا كلمةً طَيِّبةً- وهي كلمةُ التَّوحيدِ، وشهادة أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ- كشَجَرةٍ طَيِّبةِ الثَّمرةِ، كالنَّخلةِ[٢]؟

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: جُذورُ هذه الشَّجرةِ الطَّيِّبةِ ثابِتةٌ في الأرضِ، وأغصانُها مرتفعةٌ نحوَ السَّماءِ، فكذلك كلمةُ التَّوحيدِ؛ أصلُها ثابِتٌ وراسِخٌ في قلبِ المؤمِنِ، وفرُوعُها مِن الأعمالِ الصَّالحةِ صاعِدةٌ إلى السَّماءِ، مَرفوعةٌ إلى الرَّبِّ سُبحانَه[٣].

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

(١) وقيل: الخطابُ لكلِّ مَن يصلحُ للخطابِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٧٤)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٧٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٤).

والقولُ بأنَّ المُرادَ بالشَّجرةِ الطَّيِّبةِ النَّخلةُ، هو قَولُ أكثرِ أهلِ التَّأويلِ، يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٦٣).

قال ابنُ القيِّم: (ومِنَ السَّلفِ مَن قال: إنَّ الشَّجرةَ الطَّيِّبةَ هي النَّخلةُ، ويدُلُّ عليه حديثُ ابنِ عمَرَ الصَّحيحُ، ومنهم مَن قال: هي المُؤمِنُ نفْسُه... ولا اختلافَ بيْن القولينِ؛ والمقصودُ بالمَثَلِ المُؤمِنُ، والنَّخلةُ مُشبَّهةٌ به، وهو مُشبَّهٌ بها، وإذا كانتِ النَّخلةُ شَجرةً طَيِّبةً، فالمُؤمِنُ المُشبَّهُ بها أَولى أنْ يكونَ كذلك، ومَن قال مِنَ السَّلفِ: إنَّها شَجرةٌ في الجنَّةِ، فالنَّخلةُ مِن أشرَفِ أشجارِ الجنَّةِ). ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (١/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٥٨، ١٥٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٤).

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

أي: تُخرِجُ هذه الشَّجرةُ الطَّيِّبةُ ثَمَرَها كامِلًا كثيرًا طَيِّبًا في كلِّ وقتٍ وساعةٍ مِن ليلٍ ونهارٍ، وصيفٍ وشِتاءٍ، بمَشيئةِ خالِقِها وأمْرِه وتيسيرِه، وكذلك كَلِمةُ التَّوحيدِ؛ لا تزالُ تُثمِرُ الأعمالَ الصَّالحةَ للمُؤمِنِ في كُلِّ وَقتٍ، ولا يزالُ يُرفَعُ له عمَلٌ صالِحٌ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، في كلِّ حينٍ[1].

عن ابنِ عُمَرَ رَضيَ الله عنهما، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، فقال: أخبِروني بشَجَرةٍ تُشبهُ أو كالرجُلِ المُسلِمِ لا يتحاتُّ[2] وَرَقُها، ولا ولا ولا. تُؤتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ؟ قال ابنُ عُمَرَ: فوقعَ في نفسي أنَّها النَّخلةُ، ورأيتُ أبا بكرٍ وعُمَرَ لا يتكَلَّمانِ، فكَرِهتُ أن أتكَلَّمَ، فلمَّا لم يقولوا شيئًا، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هي النَّخلةُ. فلمَّا قُمْنا قلتُ لِعُمَرَ: يا أبَتاه، واللهِ لقد كان وقَعَ في نفسي أنَّها النَّخلةُ، فقال: ما منَعَك أن تكَلَّمَ؟ قال: لم أرَكم تَكلَّمونَ،

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٥، ٦٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٤١، ٢٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

قال ابنُ كثير: (قال الضحَّاكُ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وعكرمةُ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ: إنَّ ذلك عبارةٌ عن المؤمنِ، وقَولِه الطيِّبِ، وعمَلِه الصالحِ، وإنَّ المؤمنَ كالشَّجرةِ من النَّخلِ؛ لا يزال يُرفَعُ له عمَلٌ صالحٌ في كلِّ حينٍ ووَقتٍ، وصباحٍ ومَساءٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩١).

وقال ابنُ القيِّم: (شَبَّه شجرةَ التوحيدِ في القلبِ بالشجرةِ الطيِّبةِ الثابتةِ الأصلِ، الباسقةِ الفَرعِ في السماء عُلُوًّا، التي لا تزالُ تؤتي ثمرتَها كلَّ حينٍ، وإذا تأمَّلتَ هذا التشبيهَ رأيتَه مُطابقًا لشجرةِ التوحيدِ الثابتةِ الرَّاسخةِ في القلبِ، التي فروعُها مِن الأعمالِ الصالحةِ صاعدةٌ إلى السماءِ، ولا تزالُ هذه الشَّجرةُ تُثمِرُ الأعمالَ الصالحةَ كلَّ وقتٍ؛ بحسَبِ ثباتِها في القلبِ، ومحبَّةِ القلبِ لها، وإخلاصِه فيها، ومعرفتِه بحقيقتِها، وقيامِه بحقوقِها، ومراعاتِها حَقَّ رعايتِها). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٣٢).

(٢) لا يتحاتُّ: أي: لا يتناثَرُ ويتساقَطُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٥٥).

فكَرِهتُ أن أتكَلَّمَ أو أقولَ شَيئًا، قال عمرُ: لَأنْ تكونَ قُلتَها أحَبُّ إليَّ مِن كذا وكذا))(١).

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: ويمثِّلُ اللهُ الأمثالَ(٢) للنَّاسِ، ويُشبِّهُ لهم الأشْباهَ، ويُبيِّنُها لهم؛ ليتذكَّروا حُجَّةَ الله عليهم، ويَفهَموا ما أراد اللهُ منهم، فيتَّعِظوا، ويفعَلوا ما أمَرَهم به، ويجتَنِبوا ما نهاهم عنه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾.

أي: ومَثَلُ كَلِمةٍ خَبيثةٍ -وهي كَلِمةُ الكُفرِ واعتقادُ الشِّركِ- كشَجَرةٍ كريهةِ الطَّعمِ، مِثْل الحَنظلِ، فلا أصلَ لها ثابِتٌ في الأرضِ، ولا ارتفاعَ لفُروعِها في السَّماءِ، وليس لها ثمرةٌ ولا مَنفعةٌ، وكذلك كُفرُ الكافِرِ؛ فلا يعمَلُ مع كُفْرِه خيرًا ولا يَقولُه، ولا يجعَلُ اللهُ فيه بركةً ولا مَنفعةً، ولا يصعَدُ عَمَلُه ولا قَولُه إلى

(١) رواه البخاري (٤٦٩٨) واللفظ له، ومسلم (٦٤).
(٢) قال ابنُ القيِّم: (الأمثالُ:... تَشبيهُ شَيءٍ بشَيءٍ في حُكْمِه، وتَقريبُ المعقولِ مِنَ المحسوسِ، أو أحدِ المَحسوسينِ مِنَ الآخَرِ، واعتبارُ أحدِها بالآخرِ). ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (١/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

السَّماءِ[١].

﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

أي: استُؤصِلَت هذه الشَّجرةُ الخبيثةُ، واقتُلِعَت مِن أصلِها؛ فليس لها عُروقٌ وجُذورٌ ثابِتةٌ في الأرضِ تُمسِكُها، وكذلك الكُفرُ؛ لا أصلَ له ولا فَرعَ، ولا يَثبُتُ ثُبوتًا نافِعًا في قَلبِ صاحِبِه، ولا يصعَدُ للكافِرِ عمَلٌ، ولا يُتقبَّلُ منه شَيءٌ[٢].

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا كان المثلُ مضروبًا للحقِّ والباطلِ في الثباتِ وعدمِه، والقصدُ أهلُهما؛ صرَّح بهما، فقال[٣]:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أي: يثبِّتُ اللهُ المُؤمِنينَ بالقَولِ الصَّادقِ الحَقِّ، الذي ثبَتَ في قُلوبِهم، وتمكَّنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥٢، ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦١)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٧٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).
قال ابنُ جريرٍ: (اختلَفَ أهْلُ التَّأويلِ فيها: أيُّ شَجرةٍ هي؟ فقال أكثَرُهم: هي الحَنْظَلُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥٢).
وقال ابنُ عطيَّةَ: (والشَّجرةُ الخَبيثةُ، قال أكثَرُ المُفسِّرينَ: هي شَجرةُ الحَنْظلِ. قالَهُ أنسُ بنُ مالكٍ، ورواهُ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وهذا عِندي على جِهَةِ المِثالِ... والظَّاهرُ عِندي: أنَّ التَّشبيهَ وقَعَ بشَجرةٍ غَيرِ مُعيَّنةٍ إذا وُجِدَت فيها هذه الأوصافُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١٤).

فيها، واطمأنَّتْ إليه نفوسُهم- وهو شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ- فيُثَبِّتُهم اللهُ في حياتِهم الدُّنيا على إيمانِهم باللهِ تعالى وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُسلِّمُهم من الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، ويُثَبِّتُهم أيضًا في قُبورِهم[(١)] عندَ سؤالِ الملكينِ[(٢)].

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُسلِمُ إذا سُئِلَ في القبرِ يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ. فذلك قولُه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾))[(٣)].

وعن أبي سعيد الخُدريِّ رَضيَ الله عنه، قال: ((شَهِدتُ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِنازةً، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّها النَّاسُ، إنَّ هذه الأمَّةَ تُبتَلَى في قُبورِها، فإذا الإنسانُ دُفِنَ فتفرَّقَ عنه أصحابُه، جاءه ملَكٌ في يَدِه مِطراقٌ فأقعَدَه، قال: ما تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فإن كان مؤمِنًا قال: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: صَدَقتَ، ثمَّ يُفتَحُ له بابٌ إلى النَّارِ، فيقولُ: هذا كان مَنزِلَك لو كفَرْتَ برَبِّك، فأمَّا إذ آمنتَ فهذا مَنزِلُك، فيُفتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ، فيريدُ أن ينهَضَ إليه، فيقولُ له: اسكُنْ، ويُفسَحُ له في قَبرِه.

---

(١) قال الواحدي: (ومعنى ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾: قال ابنُ عبَّاس: يريدُ في القبرِ. وهذا قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ؛ قالوا: إنَّ هذه الآيةَ وردَتْ في فتنةِ القبرِ، وسُؤالِ المَلَكين، وتلقينِ اللهِ المؤمنَ كَلِمةَ الحَقِّ في القبرِ عندَ السؤالِ، وتثبيتِه إيَّاه بها على الحَقِّ). ((البسيط)) (١٢/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥٧، ٦٦٧)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٣، ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٥).
وقولُه تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ وإنْ كان وَرَدَ أنَّه في عذابِ القَبرِ، فلا يَبعُدُ أن يَتناولَ يومَ الموقِفِ أيضًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٢٨).

(٣) رواه البخاري (٤٦٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٨٧١).

وإن كان كافِرًا أو مُنافِقًا يقولُ له: ما تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فيقولُ: لا أدري، سَمِعتُ النَّاسَ يقولونَ شيئًا! فيقولُ: لا دَرَيتَ، ولا تَلَيتَ[(١)]، ولا اهتَدَيتَ، ثمَّ يُفتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ فيقولُ: هذا مَنزِلُك لو آمنْتَ بربِّك، فأمَّا إذ كفَرْتَ به فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أبدَلَك به هذا، ويُفتَحُ له بابٌ إلى النَّارِ، ثمَّ يَقمَعُه قَمعةً بالمِطراقِ يَسمَعُها خَلقُ اللهِ كُلُّهم غيرَ الثَّقَلينِ. فقال بعضُ القَومِ: يا رسولَ اللهِ، ما أحدٌ يقومُ عليه ملَكٌ في يَدِه مطراقٌ إلاَّ هِيلَ[(٢)] عند ذلك! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾))[(٣)].

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: ويَخذُلُ اللهُ الكافرينَ والمُنافِقينَ -بسبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم- فيَجعَلُهم في حَيرةٍ وعَمايةٍ، فلا يُوَفِّقُهم إلى الحَقِّ في الحياةِ الدُّنيا، ولا يوَفِّقُهم في قُبورِهم إلى القَولِ الصَّائِبِ حين يُسألُونَ عن الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٤)].

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

---

(١) تَلَيتَ: أصلُه: تَلَوتَ؛ من تلا يَتلو: إذا قرأ، فقُلِبَت الواوُ ياءً إتباعًا لـ (دريت)؛ يعني: لا تقدِرُ أن تقرأَ وتقولَ ما هو الحَقُّ والصوابُ في القبرِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (١/ ٢٢١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٧/ ٩١).

(٢) هِيلَ: أي: فَزِعَ وَخافَ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ١٦٦).

(٣) أخرجه أحمد (١١٠٠٠)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٨٦٥)، والبزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٣/ ٥٠).
صحَّحه ابنُ القيِّم في ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٦٤)، وقال ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٤/ ٤١٧): إسنادُه لا بأسَ به، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٥٠): رجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّح إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٦).

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى ما فعَل بكلٍّ واحدٍ مِن القسمينِ؛ ذكَر أنَّه لا يمكِنُ اعتراضٌ فيما خصَّ به كلَّ واحدٍ منهما؛ إذ ذاك راجعٌ إلى مشيئتِه تعالى، إنَّ الله يفعلُ ما يشاءُ، لا يُسئلُ عما يفعلُ[(١)].

﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: ويفعَلُ اللهُ ما يشاءُ مِن هدايةِ المؤمنينَ وتَثبيتِهم، وإضلالِ الظَّالمينَ وخِذلانِهم[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَا﴾ وكذلك شَجرةُ الإيمانِ؛ أصلُها ثابتٌ في قَلبِ المُؤمِنِ؛ عِلمًا واعتقادًا، وفرعُها- مِن الكَلِمِ الطَّيِّبِ، والعملِ الصَّالحِ، والأخلاقِ المَرضيَّةِ، والآدابِ الحَسَنةِ- في السَّماءِ، دائِمًا يصعَدُ إلى الله منه مِن الأعمالِ والأقوالِ التي تُخرِجُها شَجَرةُ الإيمانِ ما ينتَفِعُ به المؤمِنُ، ويَنفَعُ غيرَه[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ دليلٌ على أنَّ كَلِمةَ الإخلاصِ جامِعةٌ للخيرِ، ناميَةٌ للحَسَناتِ، جالِبةٌ على قائلِها -كُلَّمَا لفَظَ بها- ثوابًا مُجرَّدًا، مُثمِرةٌ له كلَّ ما يُقِرُّ اللهُ به عينَه في مَعادِه إذا وَردَ عليه؛ وأنَّ كَلِمةَ الكفرِ غيرُ مُثمِرةٍ لقائِلِها خيرًا، بل

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).

حَاطَّةٌ عنه خَيرًا -إنْ كان له- تاركةٌ قائلَها مُفلِسًا، لا تَنْمي له شَيئًا يُقِرُّ اللهُ به عينَه إذا وَرَدَ عليه[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ كذلك كَلِمةُ الكُفرِ والمعاصي؛ ليس لها ثُبوتٌ نافِعٌ في القَلبِ، ولا تُثمِرُ إلَّا كُلَّ قَولٍ خَبيثٍ، وعَمَلٍ خَبيثٍ يَستضِرُّ به صاحِبُه، ولا ينتفِعُ، فلا يصعَدُ إلى اللهِ منه عمَلٌ صالِحٌ، ولا ينفَعُ نفسَه، ولا ينتَفِعُ به غيرُه[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ فيه إرشادٌ إلى الإقبالِ عليه تعالى، وإلقاءِ أزِمَّةِ الافتقارِ إليه[3].

٥- تحتَ قَولِه تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ كنزٌ عظيمٌ مَن وُفِّقَ لِمَظِنَّتِه، وأحسَنَ استخراجَه واقتناءَه، وأنفَقَ منه؛ فقد غَنِمَ، ومَن حُرِمَه فقد حُرِمَ؛ وذلك أنَّ العبدَ لا يستغني عن تثبيتِ اللهِ له طَرفةَ عَينٍ، فإنْ لم يثبِّتْه وإلَّا زالت سَماءُ إيمانِه وأرضُه عن مكانِهما، وقد قال تعالى لأكرَمِ خَلقِه عليه؛ عبدِه ورَسولِه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى لأكرَمِ خَلقِه: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال تعالى لرَسولِه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]، فالخَلقُ كُلُّهم قِسمانِ: مُوفَّقٌ بالتَّثبيتِ، ومَخذولٌ بتَركِ التَّثبيتِ، ومادةُ التَّثبيتِ أصلُه ومَنشؤُه من القَولِ الثَّابتِ، وفِعلِ ما أُمِرَ به العبدُ، فبِهما يُثَبِّتُ اللهُ عَبدَه،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤١٥).

فكُلُّ من كان أثبَتَ قَولًا وأحسَنَ فِعلًا، كان أعظمَ تَثبيتًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، فأثبَتُ النَّاسِ قلبًا أثبَتُهم قولًا، والقولُ الثَّابِتُ هو القولُ الحَقُّ والصِّدقُ، وهو ضِدُّ القَولِ الباطِلِ الكَذِبِ؛ فالقولُ نوعان: ثابتٌ له حقيقةٌ، وباطِلٌ لا حقيقةَ له، وأثبَتُ القَولِ كَلِمةُ التوحيدِ ولوازِمُها؛ فهي أعظَمُ ما يُثَبِّتُ اللهُ بها عبدَه في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا ترى الصَّادِقَ من أثبَتِ النَّاسِ، وأشجَعِهم قَلبًا، والكاذِبَ مِن أمهَنِ النَّاسِ وأجبَنِهم، وأكثَرِهم تلوُّنًا، وأقلِّهم ثباتًا[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ في هذا المثَلِ مِن الأسرارِ والعُلومِ والمعارفِ ما يليقُ به ويقتضيه عِلمُ الذي تكَلَّمَ به وحِكمَتُه:

فمِن ذلك أنَّ الشَّجَرةَ لا بُدَّ لها مِن عُروقٍ وساقٍ وفُروعٍ ووَرَقٍ وثَمَرٍ، فكذلك شَجَرةُ الإيمانِ والإسلامِ؛ ليُطابِقَ المُشَبَّهُ المشَبَّهَ به، فعُروقُها العِلمُ والمَعرِفةُ واليقينُ، وساقُها الإخلاصُ، وفروعُها الأعمالُ، وثَمرتُها ما تُوجِبُه الأعمالُ الصالحةُ مِن الآثارِ الحَميدةِ، والصِّفاتِ الممدوحةِ، والأخلاقِ الزَّكيَّةِ، والسَّمتِ الصَّالحِ، والهَدْيِ والدَّلِّ المَرْضِيِّ، فيُستدَلُّ على غَرسِ هذه الشَّجَرةِ في القَلبِ وثُبوتِها فيه بهذه الأمورِ، فإذا كان العِلمُ صَحيحًا مُطابِقًا لِمَعلومِه الذي أنزَلَ اللهُ كِتابَه به، والاعتقادُ مُطابِقًا لِمَا أخبَرَ به عن نفسِه، وأخبَرَت به عنه رسُلُه، والإخلاصُ قائمًا في القَلبِ، والأعمالُ مُوافِقةً للأمرِ، والهَديُ والدَّلُّ والسَّمتُ مُشابهًا لهذه الأصولِ مُناسِبًا لها- عُلِمَ أنَّ شَجَرةَ الإيمانِ في القَلبِ أصلُها ثابتٌ وفَرعُها في السَّماءِ، وإذا كان الأمرُ بالعَكسِ عُلِمَ أنَّ القائِمَ بالقلبِ

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٦).

إنَّما هو الشَّجَرةُ الخبيثةُ التي اجتُثَّت من فوقِ الأرضِ ما لها مِن قَرارٍ.

ومنها: أنَّ الشَّجَرةَ لا تبقَى حَيَّةً إلَّا بمادَّةٍ تَسقيها وتُنَمِّيها، فإذا قُطِعَ عنها السَّقيُ أوشك أن تيبَس، فهكذا شجرةُ الإسلامِ في القَلبِ؛ إن لم يتعاهَدْها صاحِبُها بسَقْيِها كُلَّ وقتٍ بالعِلمِ النَّافِعِ والعمَلِ الصَّالحِ والعَودِ بالتذَكُّرِ على التفكُّر، والتفَكُّرِ على التذَكُّر، وإلَّا أوشكَ أن تيبَسَ، وفي الحديثِ قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الإيمانَ لَيَخلُقُ[1] في جوفِ أحدِكم، كما يَخلُقُ الثَّوبُ الخَلَقُ، فسَلوا الله أن يجدِّدَ الإيمانَ في قلوبِكم))[2]. وبالجملةِ: فالغَرسُ إن لم يَتعاهَدْه صاحِبُه أوشَكَ أن يَهلِكَ، ومن هنا تعلَمُ شِدَّةَ حاجةِ العبادِ إلى ما أمَرَ اللهُ به مِن العباداتِ على تَعاقُبِ الأوقاتِ، وعَظيمِ رَحمتِه، وتمامِ نِعمتِه وإحسانِه إلى عبادِه بأنْ وظَّفَها عليها، وجعَلَها مادَّةً لِسَقيِ غِراسِ التَّوحيدِ الذي غرَسَه في قلوبِهم.

ومنها: أنَّ الغَرسَ والزَّرعَ النافِعَ قد أجرى اللهُ سُبحانَه العادةَ أنَّه لا بُدَّ أن يخالِطَه دَغَلٌ[3] ونَبتٌ غَريبٌ ليس مِن جِنسِه، فإنْ تعاهَدَه رَبُّه ونقَّاه وقَلَعَه، كَمَلَ الغَرسُ والزَّرعُ واستوى، وتمَّ نباتُه، وكان أوفَرَ لثَمرتِه، وأطيبَ وأزكى،

---

(١) لَيَخلُقُ: يُقالُ: خَلُقَ الثَّوبُ: إذا بَلِيَ ودَنِسَ، وأصبَح قديمًا مُمزَّقًا، والمراد: أنَّ الإيمان لا يَستمرُّ على هيئتِه، ويُدَنَّسُ بسُوءِ أفعال العَبدِ؛ فإذا عادَ وتاب فقد جدَّد ما أخْلَقَ وطَهَّر ما دَنَّس. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧١)، ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (١/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني (١٤/ ٧٠) (١٤٦٦٨) واللفظ له، والحاكم (٥) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
قال الحاكمُ: رواتُه مصريونَ ثقاتٌ. وحسَّن إسنادَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٥٧)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٥٩٠).

(٣) الدَّغَل: الفَسادُ، ويقال: أدغَلْتُ في هذا الأمرِ: إذا أَدْخَلْتَ فيه ما يُخالِفُه ويفسِده، وأصلُ الدَّغَلِ: الشَّجرُ الكثيرُ الملتفُّ الذي يَكْمُنُ أهلُ الفَسادِ فيه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦٩٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦٤٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٢٣).

وإن تركَه أوشكَ أن يغلِبَ على الغَرسِ والزَّرعِ، ويكونَ الحُكمُ له، أو يُضعِفَ الأصلَ ويجعَلَ الثَّمرةَ ذَميمةً ناقِصةً بحسَبِ كَثرتِه وقِلَّتِه، ومَن لم يكُنْ له فِقهُ نَفسٍ في هذا ومَعرِفةٌ به، فإنَّه يفوتُه رِبحٌ كبيرٌ وهو لا يشعُرُ؛ فالمؤمِنُ دائِمًا سَعيُه في شيئينِ: سَقيِ هذه الشَّجرةِ، وتنقيةِ ما حَولَها، فبِسَقيِها تبقَى وتدومُ، وبتنقيةِ ما حَولَها تكمُلُ وتَتِمُّ، واللهُ المُستَعانُ وعليه التُّكْلانُ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ شَبَّهَ سُبحانه وتعالى الكَلِمةَ الطيبةَ بالشَّجَرةِ الطَّيِّبةِ؛ لأنَّ الكَلِمةَ الطيبةَ تُثمِرُ العمَلَ الصالحَ؛ والشجرةَ الطيبةَ تُثمِرُ الثَّمرَ النَّافعَ(٢).

٣- ضرَب الله المَثَل لِكَلِمةِ الإيمانِ بالشَّجَرَةِ، فقال الله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فالشَّجرةُ كُلَّما قَوِيَ أصلُها وعرَّقَ ورَوِيَ، قَوِيَت فروعُها، وفروعُها أيضًا إذا اغتَذَت بالمطَرِ والرِّيحِ أثَّرَ ذلك في أصلِها، وكذلك الإيمانُ في القلبِ، والإسلامُ علانيةً(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، ففي ضَربِ الأمثالِ زِيادةُ إفهامٍ، وتذكيرٌ، وتصويرٌ للمعاني(٤)، وتقريبٌ للمعاني المَعقولةِ مِن الأمثالِ المَحسوسةِ، ويتبيَّنُ المعنى الذي أراده اللهُ غايةَ البيانِ،

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٣-١٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٣٨١).

ويتَّضِحُ غايةَ الوضوحِ، وهذا مِن رَحمتِه وحُسنِ تَعليمِه، فللَّه أتمُّ الحمدِ وأكمَلُه وأعَمُّه(١).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على فِتنةِ القَبرِ وعَذابِه، ونَعيمِه، كما تواتَرَت بذلك النصوصُ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الفِتنةِ، وصِفتِها، ونعيمِ القَبرِ وعَذابِه(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ دليلٌ على أنَّ القَبرَ مِن منازِلِ الآخرةِ(٣).

٧- العبدُ يَحتاجُ إلى الثَّباتِ في طُولِ حياتِه، وأحوَجُ ما يَحتاجُ إليه عندَ مماتِه، ويَحتاجُ إلى الثَّباتِ أيضًا بعد الموتِ؛ قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾(٤).

٨- قَولُه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ تثبيتَ المُؤمِنينَ وإضلالَ الظَّالِمينَ فِعلُه؛ فإنَّه يفعَلُ ما يشاءُ، وأمَّا الثَّباتُ والضَّلالُ فمَحضُ أفعالِهم(٥)، ففيه حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّة(٦).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ أنَّ أفعالَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٥)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ١٠٨).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤١).
(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٩).
(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٨).

اللهِ- سبحانه وتعالى- اختياريَّةٌ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ...﴾ إيقاظٌ للذِّهْنِ؛ لِيَترقَّبَ ما يَرِدُ بعدَ هذا الكلامِ، ولم يكُنْ هذا المثَلُ ممَّا سبَقَ ضرْبُه قبلَ نُزولِ الآيةِ، بل الآيةُ هي الَّتي جاءتْ به؛ فالكلامُ تشويقٌ إلى عِلْمِ هذا المثَلِ، وصَوغُ التَّشويقِ إليه في صِيغَةِ الزَّمنِ الماضي الدَّالِّ عليها حرْفُ (لَمْ) الَّتي هي لِنفْيِ الفعْلِ في الزَّمنِ الماضي، والدَّالِّ عليها فعْلُ ﴿ضَرَبَ﴾ بصِيغَةِ الماضي؛ لِقصْدِ الزِّيادةِ في التَّشويقِ لِمعرفةِ هذا المثَلِ وما مُثِّلَ به[٢].

- والاستفهامُ في ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ...﴾ إنكاريٌّ، نُزِّلَ فيه المُخاطَبُ مَنزِلَةَ مَن لم يَعلَمْ، فأنكَرَ عليه عدَمَ العِلْمِ، أو هو مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن عدَمِ العِلْمِ بذلك، مع أنَّه ممَّا تتوفَّرُ الدَّواعي على علْمِه، أو هو للتَّقريرِ، وهو كِنايةٌ عنِ التَّحريضِ على العِلْمِ بذلك، وإيثارُ ﴿كَيْفَ﴾ هنا للدَّلالةِ على أنَّ حالةَ ضرْبِ هذا المثَلِ ذاتُ كيفيَّةٍ عجيبةٍ مِن بلاغَتِه وانْطباقِه[٣].

- قولُه: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه حُسْنُ التَّقسيمِ؛ إذ جاء ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، يُريدُ بالفرعِ: أعلاها ورأْسَها،

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإنْ كان المُشبَّهُ به ذا فُروعٍ، فيكونُ مِن بابِ الاكتِفاءِ بلفْظِ الجِنْسِ[١]؛ فيجوزُ أنَّ المرادَ: وفُروعُها، أي: أفناؤُها، على الاكتفاءِ بلفْظِ الجِنسِ؛ لاكتسابِه الاستغراقَ مِن الإضافةِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ المُشبَّهُ هو: الهيئةُ الحاصِلةُ مِن البَهجةِ في الحسِّ، والفرَحِ في النَّفسِ، وازديادِ أُصولِ النَّفعِ باكتسابِ المَنافِعِ المُتتاليةِ بهيئةِ رُسوخِ الأصْلِ، وجمالِ المَنظَرِ، ونَماءِ أغصانِ الأشجارِ، ووفْرةِ الثِّمارِ، ومُتعةِ أكْلِها[٣].

- وفي الآيتينِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ تَشبيهٌ تمثيليٌّ في تشبيهِ الكلمةِ الطَّيِّبةِ الموصوفةِ بثلاثِ صِفاتٍ، وهي إيتاءُ الأُكُلِ كلَّ حينٍ، أي: مِن وقْتِ أنْ تُؤْكَلَ إلى حينِ انصرامِها، ووجْهُ الشَّبهِ في تَمثيلِ الإيمانِ بالشَّجرةِ: أنَّ الشَّجرةَ لا تكونُ شجرةً إلَّا بثلاثةِ أشياءَ: عِرْقٍ راسِخٍ، وأصلٍ قائمٍ، وفرْعٍ عالٍ، كذلك الإيمانُ لا يَتِمُّ إلَّا بثلاثةِ أشياءَ: تصديقٍ بالقلْبِ، وقولٍ باللِّسانِ، وعمَلٍ بالأبدانِ؛ فوُجودُ الصِّفاتِ الثَّلاثِ في جانِبِ المُشبَّهِ به حِسِّيَّةٌ، بينما هي في جانِبِ المُشبَّهِ معنويَّةٌ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٤).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٨٧، ١٨٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٢).

٣- قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ فيه تَشبيهٌ تمثيليٌّ أيضًا في تَشبيهِ الكلمةِ الخبيثةِ بالشَّجرةِ الخبيثةِ غيرِ الثَّابتةِ؛ كأنَّها اجْتُثَّتْ، أو كأنَّها مُلقاةٌ على وجْهِ الأرضِ، فلا تغوصُ إلى الأرضِ، بل عُروقُها في وجْهِ الأرضِ، ولا غُصونَ لها تمتدُّ صُعُدًا إلى السَّماءِ، وهذا معنى قولِه: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[1].

- قولُه: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ في مُقابَلةِ قولِه في صِفَةِ الشَّجرةِ الطَّيِّبةِ: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[2]، و﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ تصويرٌ لـ ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾، وجُملةُ ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ تأْكيدٌ لِمعنى الاجْتِثاثِ؛ لأنَّ الاجْتِثاث مِن انْعدامِ القرارِ[3].

٤- قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ جُملةٌ مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، ناشئًا عمَّا أثاره تمثيلُ الكلمةِ الطَّيِّبةِ بالشَّجرةِ الثَّابتةِ الأصلِ، بأنْ يُسْأَلَ عنِ الثَّباتِ المُشبَّهِ به: ما أثَرُه في الحالةِ المُشبَّهةِ؟ فيُجابُ بأنَّ ذلك الثَّباتَ ظهَرَ في قُلوبِ أصحابِ الحالةِ المُشبَّهةِ، وهم الَّذين آمنوا إذا ثبَتوا على الدِّينِ ولم يتزَعْزَعوا فيه؛ لأنَّهم استَثْمَروا مِن شجرةٍ أصلُها ثابتٌ[4].

- وفيه حُسْنُ ترتيبٍ؛ فإنَّه لمَّا تقدَّمَ تَشبيهُ الكلمةِ الطَّيِّبةِ على تشبيهِ الكلمةِ الخبيثةِ، تقدَّمَ في هذا الكلامِ مَن نُسِبَت إليه الكلمةُ الطَّيِّبةُ، وتلاه مَن نُسِبَت إليه الكلمةُ الخبيثةُ[5].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٤).

- قولُه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في الموضعَيْنِ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لِقصْدِ أنْ تكونَ كلُّ جُملةٍ مِن الجُمَلِ الثَّلاثِ مُستقلَّةً بدَلالتِها؛ حتَّى تَسيرَ مَسيرَ المثَلِ[1]، وفيه مِن الفَخامةِ وتربيةِ المَهابةِ ما لا يَخفَى، مع ما فيه مِن الإيذانِ بالتَّفاوُتِ في مبدَأِ التَّثبيتِ والإضلالِ؛ فإنَّ مبْدَأَ صُدورِ كلٍّ منهما عنه سبحانَه وتعالى مِن صفاتِه العلا غيرُ ما هو مبْدَأُ صُدورِ الآخرِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ كالتَّذييلِ لِمَا قبلَها، وتحتَ إبهامِ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وعُمومِه مَطَاوٍ كثيرةٌ؛ مِن ارتباطِ ذلك بمَراتِبِ النُّفوسِ، وصَفاءِ النِّيَّاتِ في تطلُّبِ الإرشادِ، وتربيةِ ذلك في النُّفوسِ بنمائِه في الخيرِ والشَّرِّ، حتَّى تبلُغَ بذُورُ تَيْنِك الشَّجرتَينِ مُنْتَهى أَمَدِهما؛ مِن ارتفاعٍ في السَّماءِ، واجتثاثٍ مِن فوقِ الأرضِ، المُعبَّرِ عنهما بالتَّثبيتِ والإضلالِ، وفي كلِّ تلك الأحوالِ مَراتبُ ودرجاتٌ لا تبلُغُ عُقولُ البشَرِ تَفصيلَها[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٧).

الآيات (٢٨-٣١)

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿الْبَوَارِ﴾: أي: الهَلاكِ، وأصلُ (بور): يدلُّ على هلاكِ الشَّيءِ[١].

﴿خِلَالٌ﴾: أي: مُخالَّةٌ ومُصادَقةٌ، مصدرُ: خاللتُه خِلالًا ومُخالَّةً، وأصلُ (خلل): يدُلُّ على فُرجةٍ، ومنه سُمِّيَ الخَليلُ؛ لأنَّه تخلَّلَ أحوالَ الآخَرِ، وعرَفَ سرائِرَه، أو لتخَلُّلِ كلِّ واحدٍ مِنهما قلبَ الآخَرِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

﴿يُقِيمُوا﴾ فِعلٌ مُضارِعٌ مَجزومٌ؛ وفي سبَبِ جَزمِه أوجهٌ؛ أحدها: أنَّه مجزومٌ بلامِ أمرٍ محذوفةٍ، تقديرُه: لِيُقيموا، فحُذِفَتْ وبَقِيَ عملُها، فهو أمرٌ مُستأنَفٌ. والثاني: أنَّه واقِعٌ في جَوابِ الأمرِ ﴿قُل﴾. الثالثُ: أنَّه واقِعٌ في جوابِ شَرطٍ مُقدَّرٍ بعدَ ﴿قُل﴾، أي: إن تقُلْ لهم أقيمُوا يُقيموا. وقيلَ غيرُ ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((تفسير الراغب)) (١/ ٥٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٤٠٥-٤٠٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٦٩-٧٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٠٤-١٠٦).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ألمْ تَنظُرْ -يا محمَّدُ- إلى المكَذِّبينَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، الذين غَيَّروا نِعمةَ اللهِ عليهم بإرسالِك إليهم مِن اللهِ، فكَفَروا باللهِ، ولم يُؤمِنوا برِسالتِك، ويَشكُروا اللهَ عليها؟ وأنزَلوا أتباعَهم من قريشٍ دارَ الهَلاكِ، وهي جهنَّمُ، يدخُلونَها، ويُقاسُونَ حَرَّها، وبئس المستقَرُّ جهنمُ. وجعَلَ أولئكَ الكُفَّارُ لله شُرَكاءَ عَبَدوهم معه؛ ليُضلُّوا النَّاسَ عَن دِينِه. قلْ لهم- يا محمدُ: استَمتِعوا في حياتِكم الدُّنيا؛ فإنَّها فانيةٌ، وإنَّ مَرجِعَكم إلى عذابِ النارِ، وقلْ - يا مُحمَّدُ- لعبادي المؤمنين يُقيموا الصَّلواتِ الخمسَ المفروضةَ بحُدودِها في أوقاتِها، وينفقوا مما أعطيناهم مِن فضلِنا في الحقوقِ الواجِبةِ، مُسرِّين ذلك ومُعلِنينَ، من قبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الذي لا سبيلَ فيه إلى استدراكِ ما فات، لا بمُعاوَضةِ بَيعٍ وشراءٍ، ولا بهِبَةِ خَليلٍ وصَديقٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أنْ ذكَر الله تعالى فيما مضَى بعضَ أوصافِ الكفارِ وأحوالِهم؛ عادَ إلى وَصفِ أحوالِهم في هذه الآيةِ(١).

وأيضًا فإنَّه تعالى أعقَبَ تمثيلَ الدِّينَينِ ببيانِ آثارِهما في أصحابِهما، وابتُدِئَ بذِكرِ أحوالِ المُشرِكينَ؛ لأنَّها أعجَبُ، والعبرةَ بها أَولى، والحذَرَ منها مقَدَّمٌ على التحلِّي بضِدِّها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٧).



وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ المُؤمِنينَ وهُداهم، وحالَ الكافرينَ وإضلالَهم؛ ذكَرَ السَّبَبَ في إضلالِهم[1]، فقال:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾.

أي: ألم تنظُرْ -يا محمَّدُ- إلى كفَّارِ قُرَيشٍ، الذين غَيَّروا نِعمةَ اللهِ عليهم ببَعثِك رسولًا إليهم مِن اللهِ، فكَفَروا باللهِ وكَذَّبوك، فلم يُؤمِنوا برِسالتِك، ويَشكُروا اللهَ عليها[2]؟!

﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾.

أي: وأنزَلوا قَومَهم- الذين اتَّبَعوهم مِن قُرَيشٍ- دارَ الهَلاكِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ * وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾.

أي: ودارُ الهَلاكِ هي جهنَّمُ يَدخُلونَها، ويُحيطُ بهم حَرُّها مِن جميعِ جَوانبِهم، وبِئسَ المُستقَرُّ جهنَّمُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٨، ٦٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٥).

ممَّن قال مِن المفسِّرين بأنَّ جهنَّمَ تفسيرٌ لدارِ البوارِ: ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري،

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن الكافرينَ أنَّهم بدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا؛ ذكَرَ أنَّهم بعد أن كَفَروا باللهِ جَعَلوا له أندادًا[1].

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

وابنُ الجوزي، والرازي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٣)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٠-١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٣).

وقيل: المراد بـ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾: الهلاكُ في الدنيا بالقَتلِ والخِزيِ، كما وقع يومَ بدر لمُشركي قريش.

قال ابنُ عطيةَ: (يحتملُ أن يُريدَ بـ﴿ٱلۡبَوَارِ﴾: الهلاكَ في الآخرة، ففسَّرَه حينئذٍ بقولِه: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا﴾ يحترِقون في حَرِّها ويحتملونَه، ويحتمِلُ أن يريدَ بـ﴿ٱلۡبَوَارِ﴾: الهلاكَ في الدنيا بالقتلِ والخزيِ، فتكون «الدار» قليبَ بدرٍ ونحوه. وقال عطاءٌ: نزلَتْ هذه الآيةُ في قتلَى بدرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٨).

وممن جمَع بينَ القولين: السعدي، وابنُ عاشور.

قال السِّعديُّ: (﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ وهي النَّارُ؛ حيث تَسبَّبوا لإضلالِهم، فصاروا وَبالًا على قَومِهم، مِن حيثُ يُظَنُّ نفْعُهم، ومِن ذلك: أنَّهم زَيَّنوا لهم الخُروجَ يومَ بدْرٍ؛ لِيُحارِبوا اللهَ ورسولَهُ، فجَرَى عليهم ما جَرى، وقُتِلَ كثيرٌ مِن كُبرائِهم وصَناديدِهم في تلك الوَقْعةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

وقال ابنُ عاشورٍ: (البَوارُ: الهَلاكُ والخُسرانُ. ودارُهُ: مَحَلُّه الَّذي وقَعَ فيه. والإحلالُ بها: الإنزالُ فيها، والمُرادُ بالإحلالِ: التَّسبُّبُ فيه، أي: كانوا سبَبًا لِحُلولِ قَومِهم بدارِ البوارِ، وهي جهنَّمُ في الآخرةِ، ومَواقِعُ القَتْلِ والخِزْيِ في الدُّنيا؛ مِثْلُ مَوقِعِ بدْرٍ، فيجوزُ أنْ يكونَ ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ جهنَّمَ، وبه فَسَّرَ عليٌّ وابنُ عبَّاسٍ وكثيرٌ مِنَ العُلماءِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ أرضَ بدْرٍ، وهو رِوايةٌ عن عليٍّ، وعن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٤).

أي: وجعَل أولئك الكُفَّارُ لله نُظراءَ وشُرَكاءَ، يعبُدونَهم معه؛ كي يُضِلُّوا الناسَ عن دينِ اللهِ الحَقِّ، وإخلاصِ العِبادةِ له وَحدَه(١).

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ: استمتِعوا(٢) في حياتِكم الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّ مَرجِعَكم في الآخرةِ إلى النَّارِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩- ٧٠].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠٩).

قال الشوكاني: (قَرَأ ابنُ كثير، وأبو عمرو: ﴿لِيَضِلُّوا۟﴾ بفتح الياءِ، أي: لِيَضِلُّوا أنفسَهم عن سبيلِ اللَّه، وتكونُ اللَّامُ لِلعاقبةِ أي: لِيَتَعَقَّبَ جعلَهم لِلَّهِ أندادًا ضلالُهم؛ لأنَّ العاقلَ لا يريدُ ضلالَ نَفْسِه، وحَسُنَ استعمالُ لامِ العاقبةِ هنا لأنَّها تُشْبِهُ الغرضَ والغايةَ مِن جهةِ حصولِها في آخرِ المراتِبِ... وقَرَأ الباقونَ بضمِّ الياءِ، لِيُوقِعوا قومَهم في الضَّلالِ عن سبيلِ اللَّهِ، فهذا هو الغرضُ مِنْ جَعْلِهم للَّهِ أندادًا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣١).

(٢) قال الشوكاني: (﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ بما أنتم فيه مِنَ الشَّهواتِ، وما زَيَّنَتْه لكم أنفسُكم مِنْ كفرانِ النِّعَمِ وإضلالِ النَّاسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ الكُفَّارِ، وكُفرَهم نِعمَتَه، وجعْلَهم له أندادًا، وتهدَّدَهم؛ أمرَ المؤمنينَ بلُزومِ الطاعةِ، والتيقُّظِ لأنفُسِهم، وإلزامِ عَمودَيِ الإسلامِ: الصَّلاةِ والزَّكاةِ، قبل مجيءِ يومِ القيامةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى كُفرَ الكافرينَ وضَلالَهم عن السَّبيلِ، وما أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بأن يقولَ لهم، وكان ذلك محرِّكًا لنفسِ السَّامِعِ إلى الوقوفِ على ما يُقالُ لِمَن خلَع الأندادَ، وكان أوثَقُ عُرى السَّبيلِ بعدَ الإيمانِ وأعمُّها الصَّلاةَ النَّاهيةَ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، والنَّفَقةَ الشَّامِلةَ لوُجوهِ البِرِّ- أمَرَه تعالى أن يندُبَ أولياءَه إلى الإقبالِ إلى ما أعرَضَ عنه أعداؤُه، والإعراضِ عمَّا أقبلوا بالتمَتُّعِ عليه مِن ذلك[2]، فقال:

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لعبادي المُؤمِنينَ يُقيموا الصَّلَواتِ الخَمسَ المَفروضةَ عليهم، بحُدودِها في أوقاتِها[3].

﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾.

أي: ويُنفِقوا ممَّا رَزَقناهم مِن فَضلِنا، فيُؤَدُّوا ما أوجبْتُ عليهم مِن الحقوقِ سرًّا وإعلانًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٩).

ومِمن اختار أنَّ المرادَ بالنَّفَقةِ: النفقةُ الواجبةُ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٧٠).

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الذي لا يَقدِرونَ فيه على ذلك، ولا سبيلَ إلى استدراكِ ما فات، لا بمُعاوَضةِ بَيعٍ وشراءٍ، ولا بهِبَةِ خَليلٍ وصَديقٍ؛ فكُلُّ امرئٍ له شأنٌ يُغنِيه(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ تحذيرٌ مِن كُفرانِ النِّعمةِ، وصَرفِها فيما لا يُرضي اللهَ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ

ومِمن قال مِن السلفِ أنَّ المرادَ بها: الزكاةُ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٠).
وقيل: الآيةُ تشمَلُ النَّفَقاتِ الواجبةَ والمُستحبَّة. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).
وقال ابنُ عطيَّةَ: (والسِّرُّ: صَدقةُ التَّنفُّلِ، والعَلانيةُ: المفروضةُ، وهذا هو مُقْتضى الأحاديثِ. وفسَّرَ ابنُ عبَّاسٍ هذه الآيةَ بزَكاةِ الأموالِ مُجمَلًا، وكذلك فسَّرَ الصَّلاةَ بأنَّها الخَمسُ، وهذا منْه عِندي تَقريبٌ للمُخاطَبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣٩)، ويُنظر: ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٢٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٧٩، ٦٨٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للأصفهاني (ص: ٢٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٠)، ((حاشية الخفاجي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).
قال الشَّوكانيُّ: (فالجُملةُ- أعني: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]- لِتأكيدِ مَضمونِ الأمرِ بالإنفاقِ ممَّا رزَقَهم اللهُ، ويُمكِنُ أنْ يكونَ فيها أيضًا تأْكيدٌ لمَضمونِ الأمْرِ بإقامةِ الصَّلاةِ؛ وذلك لأنَّ تَرْكَها كثيرًا ما يكونُ بسبَبِ الاشتغالِ بالبَيعِ ورِعايةِ حُقوقِ الأخِلَّاءِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ١٩٣).

سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ الإنسانُ بعد الفراغِ مِن الإيمانِ، لا قُدرةَ له على التصَرُّفِ في شَيءٍ إلَّا في نفسِه أو في مالِه؛ أمَّا النَّفسُ فيجبُ شَغلُها بخِدمةِ المعبودِ في الصَّلاةِ، وأمَّا المالُ فيجبُ صَرفُه إلى البَذلِ في طاعةِ اللهِ تعالى، فهذه الثَّلاثةُ هي الطَّاعاتُ المُعتبَرةُ، وهي الإيمانُ والصَّلاةُ والزَّكاةُ[1].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾، أي: لا ينفَعُ فيه شَيءٌ، ولا سبيلَ إلى استدراكِ ما فات، فلْيُقَدِّمِ العبدُ لنَفسِه، ولْيَنظُرْ ما قدَّمَه لغَدٍ، ولْيتفقَّدْ أعمالَه، ويُحاسِبْ نَفسَه قبلَ الحِسابِ الأكبرِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ لعلَّه سِيقَ سِياقَ الشَّرطِ؛ تنبيهًا لهم على أنَّ مُجرَّدَ قولِه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم أقوى الأسبابِ، فيَجبُ عليهم ألَّا يتخلَّفوا عنه أصلًا[3].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ زيادةُ ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ للتَّذكيرِ بالنِّعمةِ تَحريضًا على الإنفاقِ؛ ليكونَ شُكرًا للنِّعمةِ[4].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٢).

نفى المُخالَّةَ هنا، مع أنَّه تعالى أثبَتَها في قَولِه: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]؟

الجوابُ: أنَّ الآيةَ الدَّالَّةَ على نفيِ المُخالَّةِ مَحمولةٌ على نفيِ المُخالَّة بسبَبِ مَيلِ الطَّبيعةِ، ورَغبةِ النَّفسِ، والآيةُ الدالَّةُ على ثبوتِ المُخالَّةِ مَحمولةٌ على حُصولِ المُخالَّةِ الحاصلةِ بسببِ عُبوديَّةِ الله تعالى، ومحبَّةِ الله تعالى[١].

٤- عن قتادةَ رحمه الله في قَولِه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ قال: (إنَّ اللهَ تعالى قد عَلِمَ أنَّ في الدنيا بيوعًا وخِلالًا يتخالُّونَ بها في الدُّنيا، فلينظُرْ رجُلٌ مَن يُخالِلُ، وعلامَ يُصاحِبُ؟ فإنْ كان لله فلْيُداوِمْ، وإن كان لغيرِ اللهِ فلْيَعلَمْ أنَّ كُلَّ خُلَّةٍ ستصيرُ على أهلِها عداوةً يومَ القيامةِ إلَّا خُلَّةَ المتَّقينَ)[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا ...﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّشويقِ إلى رُؤيةِ ذلك[٣]، وفيه تَعجُّبٌ ممَّا صنَعَ الكَفَرةُ مِن الأباطيلِ الَّتي لا تَكادُ تصدُرُ عمَّن له أدْنى إدراكٍ، ومِن أعمالِهم الَّتي لا تمُتُّ إلى الحِلْمِ بِصِلَةٍ؛ فقد بدَّلوا نفْسَ النِّعمةِ كُفرًا، وجَنَوْا على أنفُسِهم وعلى قومِهم[٤].

- وفي قولِه: ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ مُحَسِّنٌ بَديعيٌّ هو الاحتِباكُ، وتقديرُ الكلامِ: بدَّلوا نِعمةَ اللهِ وشُكرَها كفْرًا بها، ونِقمةً منه، كما دلَّ عليه قولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٦).
(٢) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٩٥).

﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ...﴾[1].

- قولُه: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ فيه عدمُ التَّعرُّضِ لِحُلولِهم هم؛ لدَلالةِ الإحلالِ عليه؛ إذ هو فرْعُ الحُلولِ، كقولِه تعالى عن فرعونَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾[2] [هود: ٩٨].

- واستعمالُ صِيغَةِ المُضِيِّ في ﴿أَحَلُّوا﴾؛ لِقصدِ التَّحقيقِ؛ لأنَّ الإحلالَ مُتأخِّرٌ زمنُه؛ فإنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ هذا مِن البيانِ بَعدَ الإبهامِ، وفيه ما لا يَخْفَى مِن التَّهويلِ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فيه تَغييرُ التَّرتيبِ؛ إذ مُقْتَضى ظاهِرِ النَّظمِ أنْ يُذْكَرَ كُفرانُهم نِعمةَ اللهِ تعالى، ثمَّ كُفرُهم بذاتِه تعالى باتِّخاذِ الأندادِ، ثمَّ إضلالُهم لِقومِهم المُؤدِّي إلى إحلالِهم دارَ البَوارِ؛ ولعلَّ ذلك لِتثنيةِ التَّعجُّبِ وتكريرِه، والإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ، مِن وضْعِ الكُفرِ موضِعَ الشُّكرِ، وإحلالِ القومِ دارَ البوارِ، واتِّخاذِ الأندادِ للإضلالِ؛ أمْرٌ يَقْضِي منه العجبُ، ولو سِيقَ النَّظمُ على نَسَقِ الوجودِ لَرُبَّما فُهِمَ التَّعجُّبُ مِن مجموعِ الهَنَاتِ[5] الثَّلاثِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٥).
(٥) الهَنَات: خِصالُ سُوءٍ وشَرٍّ مَكْرُوهَةٍ، ولا تُقالُ في الخيرِ. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (٢/ ٤٨٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٧٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٥).

- وقولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فيه دُخولُ اللَّامِ على ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ مع أنَّ الضَّلالَ والإضلالَ لم يكُنْ غرضَهم في اتِّخاذِ الأندادِ؛ لأنَّه لمَّا كان الضَّلالُ والإضلالُ نتيجةَ اتِّخاذِ الأندادِ، دخَلَتِ اللَّامُ على طريقِ التَّشبيهِ والتَّقريبِ؛ فليس ذلك غرضًا حقيقيًّا لهم مِن اتِّخاذِ الأندادِ، لكنْ لمَّا كان ذلك نَتيجةً له شُبِّهَ بالغرضِ؛ فاللَّامُ لامُ الصَّيرورةِ والمآلِ؛ لمَّا كانتْ نَتيجةُ جَعْلِ الأندادِ آلهةً الضَّلالَ أو الإضلالَ، جرَى مجْرى لامِ العِلَّةِ في قولِك: جئْتُك لِتُكرِمَني، على طريقةِ التَّشبيهِ[١]. أو جُعِلَ الإضلالُ عِلَّةً لِجعْلِهم للهِ أندادًا، وإنْ كانوا لم يَقصِدوا تضليلَ النَّاسِ، وإنَّما قصَدوا مقاصِدَ هي مُساويةٌ للتَّضليلِ؛ لأنَّها أوقَعَتِ النَّاسَ في الضَّلالِ، فعُبِّرَ على مَساوي التَّضليلِ بالتَّضليلِ؛ لأنَّه آيلٌ إليه وإنْ لم يَقصِدوه؛ فكأنَّه قيل: للضَّلالِ عن سَبيلِه؛ تَشنيعًا عليهم بغايةِ فعْلِهم، وهم ما أضَلُّوا إلَّا وقد ضَلُّوا، فعُلِمَ أنَّهم ضلُّوا وأضَلُّوا، وذلك إيجازٌ[٢].

- وجُملةُ ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ المُخاطَبَ بـ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا﴾ إذا عَلِمَ هذه الأحوالَ يتساءلُ عنِ الجزاءِ المُناسبِ لِجُرمِهم، وكيف ترَكَهم اللهُ يرْفُلونَ في النَّعيمِ؟ فأُجِيبَ بأنَّهم يَصيرونَ إلى النَّارِ، أي: يموتونَ فيصيرونَ إلى العَذابِ[٣].

- والأمْرُ بالتَّمتُّعِ ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾ أمْرُ تهديدٍ ووعيدٍ، على حدِّ قولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]، وفي التَّهديدِ بصِيغَةِ الأمْرِ إيذانٌ بأنَّ المُهدَّدَ عليه كالمطلوبِ؛ لإفضائِه إلى المُهدَّدِ به، وأنَّ الأمرينِ كائنانِ لا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٣١).

مَحالةَ؛ ولذلك علَّلَه بقولِه: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وأنَّ المُخاطَبَ لانْهِماكِه فيه كالمأمورِ به مِن آمِرٍ مُطاعٍ؛ ففيه إيذانٌ بأنَّهم لانْغِماسِهم في التَّمتُّعِ بالحاضرِ، وأنَّهم لا يعرِفونَ غيرَه ولا يريدونَه: مأْمورونَ به؛ قد أمَرَهم آمِرٌ مُطاعٌ لا يسَعُهم أنْ يُخالِفوه، ولا يملِكونَ لأنفُسِهم أمرًا دونَه، وهو أمْرُ الشَّهوةِ؛ والمعنى: إنْ دُمْتُم على ما أنتُم عليه مِن الامتثالِ لأمْرِ الشَّهوةِ ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ استِئنافٌ نشَأَ عن ذكْرِ حالِ الفريقِ الَّذي حَقَّت عليه الكلمةُ الخبيثةُ بذكْرِ حالِ مُقابِلِه، وهو الفريقُ الَّذي حَقَّتْ عليه الكلمةُ الطَّيِّبةُ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خصَّهم بالإضافةِ إليه؛ تنويهًا لهم، وتَنبيهًا على أنَّهم المُقيمونَ لِوظائفِ العُبوديَّةِ، المُوفونَ بحُقوقِها، وتُرِكَ العاطِفُ بين الأمرينِ؛ للإيذانِ بتبايُنِ حالِهما باعتبارِ المقولِ تَهديدًا وتَشريفًا[(٣)].

- قولُه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لمَّا كان المُؤمنونَ يُقيمونَ الصَّلاةَ مِن قبْلُ، ويُنفِقونَ مِن قبْلُ؛ تعيَّنَ أنَّ المُرادَ الاستزادةُ مِن ذلك؛ ولذلك اخْتِيرَ المُضارِعُ مع تَقديرِ لامِ الأمْرِ دونَ صِيغَةِ فعْلِ الأمْرِ؛ لأنَّ المُضارِعَ دالٌّ على التَّجدُّدِ، فهو مع لامِ الأمْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٦).

يُلاقي حالَ المُتلبِّسِ بالفعْلِ الَّذي يُؤْمَرُ به بخِلافِ صِيغَةِ (افْعَلْ)؛ فإنَّ أصلَها طلَبُ إيجادِ الفعْلِ المأمورِ به ممَّن لم يكُنْ مُلْتبِسًا به، فأصْلُ ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: لِيُقيموا؛ فحُذِفَت لامُ الأمْرِ تخفيفًا[(١)].

- واقتصرَ على هاتينِ الخَلَّتينِ ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ لأنَّه لم يكُنْ فُرِضَ في مكَّةَ غيرُهما، مع ما فيهما من الفَضلِ العَظيمِ[(٢)].

- وتقديمُ السِّرِّ على العلانيةِ في قوله: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ تنبيهٌ على أنَّه أَولى الحالَينِ؛ لبُعدِه عن خواطِرِ الرِّياءِ، ولأنَّ فيه استبقاءً لبَعضِ حياءِ المتصَدَّقِ عليه[(٣)].

- قولُه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ فيه إدخالُ حرْفِ الجرِّ على اسمِ الزَّمانِ (قَبْل)؛ لِتأكيدِ القَبْلِيَّةِ؛ لِيُفْهَمَ معنى المُبادَرةِ[(٤)].

- قولُه: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيه تَخصيصُ البيعِ بالذِّكْرِ للإيجازِ، مع المُبالَغةِ في نفْيِ العَقدِ؛ إذ انتفاءُ البيعِ يَستَلزِمُ انتِفاءَ الشِّراءِ على أبلَغِ وجْهٍ، وانْتِفاؤه رُبَّما يُتَصَوَّرُ مع تحقُّقِ الإيجابِ مِن قِبَلِ البائعِ[(٥)]. وقيل: خصَّ البيعَ؛ لما في المبايعةِ مِن المعاوضةِ، فيظنُّ أنَّ ذلك كالفداءِ في النجاةِ عما أُوعدوا به، فصار في المعنى كقوله: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾[(٦)] [الأنعام: ٧٠].

- وفي قولِه: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٠٩).
(٦) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٧٦٦).

وَلَا خِلَٰلٌ﴾ طابَقَ الأمْرُ بالإنفاقِ وصْفَ اليومِ بأنَّه لا بَيْعٌ فيه ولا خِلالٌ؛ لأنَّ النَّاسَ يُخرِجونَ أَموالَهم في عُقودِ المُعاوضاتِ، فيُعْطُونَ بدلًا لِيأْخُذوا مِثْلَه، وفي المُكارماتِ ومُهاداةِ الأصدقاءِ؛ لِيستَجِرُّوا بهداياهم أَمثالَها أو خيرًا منها، وأمَّا الإنفاقُ لِوجْهِ اللهِ خالصًا، كقولِه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ * إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الليل: ١٩، ٢٠]، فلا يفعَلُه إلَّا المُؤمنونَ الخُلَّصُ، فَبُعِثُوا عليه؛ لِيأْخُذوا بدَلَه في يومِ لا بيعٌ فيه ولا خِلالٌ، أي: لا انتفاعَ فيه بمُبايعةٍ ولا بمُخالَّةٍ، ولا بما يُنفِقونَ به أَموالَهم مِن المُعاوضاتِ والمُكارماتِ، وإنَّما يُنْتَفَعُ فيه بالإنفاقِ لِوجْهِ اللهِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٦).

الآيات (٣٢-٣٤)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿دَآئِبَيْنِ﴾: دائِمَينِ، لا يَفتُرانِ، والدُّؤُوبُ: مُرورُ الشَّيءِ في العمَلِ على عادةٍ جاريةٍ فيه، وأصلُ (دأب): يدلُّ على مُلازمةٍ ودَوامٍ(١).

﴿تُحْصُوهَآ﴾: أي: تحصرُوها، وتضبِطوا عدَّها، وتُطيقوا إحصاءَ عددِها، وأصلُ الإحصاءِ: العدُّ والإطاقةُ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى أنَّه هو الذي أنشأ السَّمَواتِ والأرضَ من العدَمِ، وأنزل المطَرَ مِن السَّحابِ فأخرجَ به مِن الثَّمراتِ المُتنوِّعةِ رِزقًا لكم، وذَلَّلَ لكم السُّفُنَ؛ لتسيرَ في البحرِ بإذنِه، وذلَّل لكم الأنهارَ؛ لتشربُوا مِن مياهِها، وتَسقُوا بها زُروعَكم وأنعامَكم، إلى غيرِ ذلك من المنافعِ، وذلَّل لكم الشَّمسَ والقمَرَ لا يَفْتُرانِ عن حرَكتِهما، فيتعاقَبانِ عليكم بلا انقطاعٍ؛ لتتحقَّقَ مصالحُكم بهما، وذلَّل لكم اللَّيلَ؛ لتسكُنوا فيه؛ راحةً لأبدانِكم، والنَّهارَ لتبتَغوا فيه مِن فَضلِه،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

وأعطاكم -أيُّها النَّاسُ- مِن كُلِّ ما طلبتُموه، وإن تعدُّوا نِعَمَ اللهِ عليكم لا تُطيقُوا عَدَّها، ولا القيامَ بحَصرِها فضلًا عن شُكرِها؛ لِكثرتِها وتنوُّعِها، إنَّ الإنسانَ لَعظيمُ الظُّلمِ لنَفسِه، شديدُ الجُحودِ لنِعَم الله عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أطال اللهُ تعالى الكلامَ في وصفِ أحوالِ السُّعَداءِ، وأحوالِ الأشقياءِ، وكانت العُمدةَ العُظمى والمنزلةَ الكُبرى في حُصولِ السَّعاداتِ مَعرِفةُ اللهِ تعالى بذاتِه وبصفاتِه، وفي حُصولِ الشَّقاوةِ فِقدانُ هذه المَعرفةِ- لا جرَمَ ختَمَ تعالى وصْفَ أحوالِ السُّعَداءِ والأشقياءِ بالدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على وجودِ الصَّانعِ، وكمالِ عِلمِه وقُدرتِه[1]، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾.

أي: اللهُ المُستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه هو الذي أنشأ السَّمواتِ والأرضَ مِن العدَمِ، وأبدعَهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ[2].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾.

أي: وأنزَلَ مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأخرجَ به مِن الثَّمراتِ المُتَنوِّعةِ رِزقًا لكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

تعيشونَ به(١).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

أي: وذلَّلَ لكم السُّفُنَ لتجريَ بكم في البحرِ بإذنِه، فهو الذي يسَّرَ لكم صُنعَها، وأقدَرَكم عليها، وجعَلَها طافيةً على البَحرِ بتَيسيرِه، وحَفِظَها على تيَّارِ الماءِ لتحمِلَكم، مع كَفِّ العواصِفِ عنها وإعانتِها بالرِّيحِ الطَّيِّبةِ، فتركبونَها لتنتَقِلوا عَبْرَها من مكانٍ إلى آخرَ، وتَحمِلوا فيها أمتِعتَكم مِن بلدٍ إلى بلدٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿... وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۞ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢ - ٣٣].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾.

أي: وذلَّلَ لكم الأنهارَ(٣) لتشربُوا مِن مياهِها، وتَسقُوا بها زُروعَكم وأنعامَكم، وذلَّلَها لكم بالرُّكوبِ عليها، والإجراءِ لها إلى حيثُ تُريدونَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٥).

(٣) قال ابن عاشور: (وتسخيرُ الأنهار: خَلْقُها على كيفيةٍ تقتضي انتقالَ الماء من مكانٍ إلى مكان، وقرارَه في بعضِ المُنخَفَضات، فيستقي منه مَن تمُرُّ عليه وينزِلُ على ضِفافه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي))

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾.

أي: وذلَّلَ لكم الشَّمسَ والقمَرَ يَدأَبانِ في سَيرِهما، فيتعاقَبانِ عليكم بلا انقطاعٍ؛ لتَحقيقِ مَصالِحِكم، كحِسابِ أزمِنَتِكم، وضَبطِ أوقاتِكم، ونفعِ أبدانِكم، وحيواناتِكم، وزُروعِكم، وثمارِكم، وغيرِ ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

وقال سُبحانه: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [النحل: ١٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ يتعاقبانِ عليكم؛ فجعل الليلَ لِتَسكُنوا فيه؛ راحةً لأبدانِكم، وجعل النَّهارَ لِتَبتَغوا فيه مِن فَضلِه[2].

(٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨١)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠-١١].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى تلك النِّعمةَ العظيمةَ؛ بَيَّنَ بعد ذلك أنَّه لم يقتصِرْ عليها، بل أعطَى عبادَه مِن المنافِعِ والمُراداتِ ما لا يأتي على بَعضِها التَّعديدُ والإحصاءُ، فقال:[1]

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

أي: وأعطاكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- مِن كُلِّ ما رَغِبتُم إليه أن يَرزُقَكم إيَّاه، وهيَّأَ لكم كلَّ ما تحتاجونَ إليه، ممَّا تَسْألونَه إيَّاه، سواءً بلسانِ حالِكم أو مقالِكم[2].

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

(٩/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٨-٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٢، ٦٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٦).

أي: وإن تعُدُّوا -أيُّها النَّاسُ- نِعَمَ اللهِ عليكم، لا تُطيقوا إحصاءَ عَدَدِها، والقيامَ بحَصرِها؛ لكَثرتِها، فضلًا عن القيامِ بشُكرِها، فلِمَ تُبَدِّلونَ نِعمةَ اللهِ كُفرًا؟! وهلَّا استعَنتُم بها على طاعتِه[١]؟

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ[٢] لعَظيمُ الظُّلمِ لنَفسِه، بوضعِه العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها، وشُكرِه غيرَ مَن أنعَمَ عليه، وتجَرُّئِه على عصيانِ ربِّه، شديدُ الجُحودِ لنِعَمِ اللهِ عليه، فلا يشكُرُه عليها، ولا يقومُ بحقِّه سُبحانَه[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ في هذه الآياتِ مِن أصنافِ نِعَمِ اللهِ على العبادِ شَيءٌ عَظيمٌ- مُجمَلٌ ومُفصَّلٌ- يدعو اللهُ به العبادَ إلى القيامِ بشُكرِه وذِكرِه، ويَحُثُّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١١).

(٢) قيل: المرادُ به: الكافرُ على وجه الخصوصِ، فذلك شأنه وديدنُه. وممن قال بذلك في الجملة: الزجاج، وابن جرير، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٧).

وقيل: المرادُ به جنسُ الإنسان من حيث هو؛ فتلك طبيعته. وممَّن اختار ذلك: الرازي، واستظهره الشوكاني، واختاره السعدي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

على ذلك، ويرَغِّبُهم في سؤالِه ودُعائِه آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ، كما أنَّ نِعَمَه تتكَرَّرُ عليهم في جميعِ الأوقاتِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أنَّه ينبغي لِمن أرادَ أنْ يُضيفَ الشَّيءَ إلى سببِه؛ أنْ يُضيفَه إلى اللهِ مقرونًا بالسَّببِ[2].

٣- لا أحدَ أعظَمُ إحسانًا مِن اللهِ سُبحانه؛ فإنَّ إحسانَه على عبدِه في كلِّ نفَسٍ ولَحظةٍ، وهو يتقَلَّبُ في إحسانِه في جميعِ أحوالِه، ولا سبيلَ له إلى ضبطِ أجناسِ هذا الإحسانِ فَضلًا عن أنواعِه أو عن أفرادِه، ويكفي أنَّ مِن بَعضِ أنواعِه نِعمةَ النَّفَسِ التي لا تكادُ تخطُرُ ببالِ العبدِ، فإنَّه يتنفَّسُ في اليومِ والليلةِ أربعةً وعِشرينَ ألفَ نَفَسٍ، وكلُّ نفَسٍ نِعمةٌ منه سُبحانه، فإذا كان أدنى نعمةٍ عليه في كلِّ يوم أربعةً وعشرينَ ألفَ نِعمةٍ، فما الظنُّ بما فوقَ ذلك وأعظَمُ منه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، هذا إلى ما يُصرَفُ عنه من المضَرَّات، وأنواعِ الأذى التي تَقصِدُه، ولعلَّها تُوازِنُ النِّعَمَ في الكثرةِ، والعبدُ لا شُعورَ له بأكثَرِها أصلًا، واللهُ سُبحانَه يَكلَؤُه منها باللَّيلِ والنَّهارِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[3] [الأنبياء: ٤٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ الانتفاعُ بما يَنبُتُ مِن الأرضِ إنَّما يَكمُلُ بوُجودِ الفُلكِ الجاري في البَحرِ؛ وذلك لأنَّه تعالى خَصَّ كُلَّ طَرَفٍ مِن أطرافِ الأرضِ بنَوعٍ آخَرَ مِن أنْعُمِه، حتى

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (١/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣١٥).

إنَّ نِعمةَ هذا الطَّرَفِ إذا نُقِلَت إلى الجانبِ الآخَرِ مِن الأرضِ وبالعكسِ، كَثُرَ الرِّبحُ في التِّجاراتِ، ثمَّ إنَّ هذا النَّقلَ لا يُمكِنُ إلَّا بسُفُنِ البرِّ، وهي الجِمالُ، أو بسُفُنِ البَحرِ، وهي الفُلْكُ المذكورةُ في هذه الآيةِ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، وأنَّها لا تكونُ مؤثِّرةً إلَّا بإرادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فيه أنَّ اللهَ- عزَّ وجلَّ- مُنعِمٌ على الإنسانِ، كافرًا كان أو مُؤمِنًا(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ فأضافَ ذلك التَّسخيرَ إلى أمرِه؛ لأنَّ المَلِكَ العظيمَ قَلَّما يُوصَفُ بأنَّه فعَلَ، وإنَّما يقالُ فيه: إنَّه أمَرَ بكذا؛ تعظيمًا لِشأنِه، ومنهم مَن حمَلَه على ظاهِرِ قَولِه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٤) [النحل: ٤٠].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ تكذيبٌ لِمَا يُقال مِن أنَّ «الشَّمسَ ثابتةٌ لا تدورُ»(٥).

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ٧]، وقولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٧-٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (١/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٨).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٩٦).

٧٢] هذه كلُّها وصفٌ لِشَأْنِ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضلِ رَبِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه، فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نِعمةٍ فمِنَ اللهِ وَحدَه، فهو الذي حبَّبَ إلى عبدِه الإيمانَ، وزَيَّنَه في قَلبِه، وكَرَّهَ إليه الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، وهو الذي كتب في قَلبِه الإيمانَ، وهو الذي يثَبِّتُ أنبياءَه ورُسُلَه وأولياءَه على دينِه، وهو الذي يَصرِفُ عنهم السُّوءَ والفَحشاءَ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]؛ فهو رَبُّ جميعِ العالَمِ رُبوبيَّةً شامِلةً لجَميعِ ما في العالَمِ مِن ذَواتٍ وأفعالٍ وأحوالٍ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ استِئنافٌ واقِعٌ موقِعَ الاستِدلالِ على ما تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ...﴾ الآيةَ، وقد فُصِلَ بينَه وبينَ المُستدَلِّ عليه بجُملةِ: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ الآيةَ، وأُدْمِجَ في الاستدلالِ تَعدادُهم لنِعَمٍ تستحِقُّ الشُّكرَ عليها؛ لِيظهَرَ حالُ الَّذين كفَرُوها، وبالضِّدِّ حالُ الَّذين شكَرُوا عليها، ولِيزدادَ الشَّاكِرونَ شُكْرًا؛ فالمقصودُ الأوَّلُ هو الاستِدلالُ على أهلِ الجاهليَّةِ(٢).

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ باسمِ

---

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٤).

الخالِقِ المُوجِدِ؛ لأنَّ تعيينَه هو الغرَضُ الأهمُّ، وأُخْبِرَ عنه بالموصولِ؛ لأنَّ الصِّلةَ معلومةُ الانتسابِ إليه والثُّبوتِ له[١]. وأيضًا في جَعْلِ المُبتدأِ الاسمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهُ﴾، والخبَرِ الاسمَ الموصولَ بِتلك الأفاعيلِ العَظيمةِ؛ مِن خلْقِ هذه الأجرامِ العِظامِ، وإنزالِ الأمطارِ، وإخراجِ الثَّمراتِ، وما يتْلوها مِن الآثارِ العجيبةِ- ما لا يَخْفى مِن تربيةِ المَهابةِ، والدَّلالةِ على قوَّةِ السُّلطانِ[٢].

- وبدأ بذِكرِ السَّمواتِ والأرضِ هاهنا؛ لأنَّهما هما الأصلانِ اللَّذانِ يتفرَّعُ عليهما سائرُ الأدِلَّةِ المذكورةِ بعدَ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فيه تقديمُ المجرورِ على المنصوبِ؛ إمَّا باعتِبارِ كونِه مَبدأً لِنُزولِه، أو لتَشريفِه- كما يُقال: أعطاه السُّلطانُ مِن خِزانتِه مالًا- أو للتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بدونِ (لكم)، وقاله في سُورةِ النَّملِ بذكْرِ (لكم) في قولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل: ٦٠]، فجاء لفْظُ (لكم) مُؤخَّرًا في سُورةِ إبراهيمَ عن لفْظِ (أَنْزَلَ)، ومُقدَّمًا في آيةِ النَّملِ؛ وذلك لِمُناسبةٍ حَسَنةٍ، وهي أنَّ آيةَ سُورةِ إبراهيمَ قد تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقد علِمَ المُؤمنونَ أنَّ اللهَ غنِيٌّ عنِ العالمينَ، وأنَّ المُنزَّلَ مِن ماءِ السَّماءِ إنَّما هو رَحمةٌ للعِبادِ، وإحياءٌ للأرضِ بعدَ موتِها؛ لِيخرُجَ ما بَثَّ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٧).

فيها سُبحانَه مِن أنواعِ الحُبوبِ والثَّمراتِ وغيرِ ذلك، ممَّا به صَلاحُ أحوالِ العِبادِ، وتتْميمُ معائشِهم، ولم يغِبْ عنِ المُؤمنينَ المَذكورينَ قبلُ أنَّ ربَّهم غنِيٌّ عن ذلك كلِّه، ومُنفرِدٌ بخلْقِه والإنعامِ به؛ فلم يُحْتَجْ هنا إلى تَنبيهِهم بأنَّ ذلك لهم؛ إذ حالُهم التَّذكُّرُ، ومُوالاةُ الاعتبارِ لا الغفلةُ، وأُخِّرَ ذِكْرُ ذلك إلى ذِكرِ الرِّزقِ؛ لِيجرِيَ مع قولِه في الزِّينةِ والطَّيِّبِ مِن الرِّزقِ: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. أمَّا آيةُ (النَّملِ) فقد تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]؛ فلمَّا تضمَّنَت تعنيفًا للمُشركينَ على سُوءِ مُرْتَكَبِهم، وعَمَاهم عنِ التَّفكُّرِ والاعتبارِ، قُصِدَ تحريكُهم وإيقاظُهم مِن رَقْدةِ الغَفلةِ، فقيل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ [النمل: ٦٠]؛ فحصَلَ تنْبيهُهم وإعلامُهم أنَّ إنزالَ الماءِ مِن السَّماءِ إنَّما هو لهم، وأنَّه لا حاجةَ به سُبحانَه إليه، فاستجَرَّ الكلامُ تعنيفَهم، ويشهَدُ لهذا قولُه تعالى عَقِبَ الآيةِ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، أي: يعدِلونَ بربِّهم غيرَه، ويعدِلونَ بعبادتِه إلى عِبادةِ غيرِه، وكلُّ هذا شِركٌ لا فلاحَ معه، فلمَّا قُصِدَ في الآيةِ الثَّانيةِ ما ذكَرْنا قُدِّمَ المَجرورُ، وشأْنُه أبدًا إذا قُدِّمَ إحرازُ معنى التَّنبيهِ، حيثُ يُقْصَدُ التَّحريكُ والإيقاظُ لِذي غفلةٍ، أمَّا إذا تأخَّرَ فلا يُحْرِزُ هذا المعنى على الصِّفةِ الَّتي يُحْرِزُه مُتقدِّمًا(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أبرَزَ كلَّ واحدةٍ منها في جُملةٍ مُستقلَّةٍ؛ تَنويهًا لِشأْنِها، وتَنبيهًا على رِفعةِ مكانِها، وتَنصيصًا على كونِ كلٍّ منها نِعمةً جَليلةً مُستوجِبةً للشُّكرِ. وفي التَّعبيرِ عنِ التَّصريفِ المُتعلِّقِ بما ذُكِرَ مِن الفُلكِ والأنهارِ -في الآيةِ السَّابقةِ- والشَّمسِ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٨٦-٢٨٧).

والقمَرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ- في هذه الآيةِ- بالتَّسخيرِ؛ مِن الإشعارِ بما فيها مِن صُعوبةِ المَأخَذِ، وعِزَّةِ المَنالِ، والدَّلالةِ على عِظَمِ السُّلطانِ، وشِدَّةِ المِحالِ- ما لا يَخفَى. وتأْخيرُ تسخيرِ الشَّمسِ والقمَرِ عن تَسخيرِ ما تقدَّمَه مِن الأُمورِ المعدودةِ، مع ما بينه وبينَ خلْقِ السَّمواتِ مِن المُناسبةِ الظَّاهِرةِ؛ لاسْتِتباعِ ذكْرِها لِذكْرِ الأرضِ، المُستَدْعي لِذكْرِ إنزالِ الماءِ منها إليها، المُوجِبِ لِذكْرِ إخراجِ الرِّزْقِ الَّذي مِن جُملَتِه ما يحصُلُ بواسطةِ الفُلكِ والأنهارِ، أو للتَّفادي عن توهُّمِ كونِ الكلِّ -أي: خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وتَسخيرِ الشَّمسِ والقمرِ- نِعمةً واحدةً(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

- قولُه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ كلمةُ ﴿كُلِّ﴾ للتَّكثيرِ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وقيل: الأصلُ (وآتاكم مِن كلِّ ما سألْتُموه وما لم تسْألوه)؛ فحُذِفَ الثَّاني لدَلالةِ ما أُبْقِيَ على ما أُلْقِيَ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ صِيغَتَا المُبالَغةِ في ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ اقتَضاهما كثْرةُ النِّعمِ المُفادُ مِن قولِه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ إذ بمقدارِ كثرَةِ النِّعمِ يكثُرُ كُفْرُ الكافرينَ بها؛ إذ أعْرَضوا عن عِبادةِ المُنعِمِ، وعبَدوا ما لا يُغْني عنهم شَيئًا، فأمَّا المُؤمنونَ فلا يَجحَدونَ نِعَمَ اللهِ، ولا يعبُدونَ غيرَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٧).

- وفيه التَّأكيدُ الَّذي جعَلَ الخبرَ إنكاريًّا بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾؛ فقد اشتمَلَتْ هذه الآيةُ على أربعةِ تأكيداتٍ، وهي: (إنَّ)، واللَّامُ المُزَحْلَقَةُ أو لامُ التَّأكيدِ، وصِيغَةُ (ظَلومٍ)، وصِيغَةُ (كَفَّارٍ)[1].

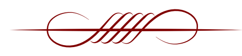
- وفي قولِه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ النَّحلِ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]؛ فأعقَبَ في الأُولى قولَه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ بغَيرِ ما أعقَبَ في الثَّانيةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ آيَةَ (إبراهيمَ) تَقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، ثمَّ قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، ثمَّ ذكَرَ إنعامَه على عِبادِه في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢] إلى قولِه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ فناسَبَ وصْفُ الإنسانِ بأنَّه ظَلومٌ كَفَّارٌ ما ذكَرَه تعالى مِن توالي إنعامِه ودُرورِ إحسانِه، ومُقابلةِ ذلك مِن العَبيدِ بالتَّبديلِ، وجَعْلِ الأندادِ. أمَّا آيةُ النَّحلِ فلم يتقدَّمْها غيرُ ما نبَّهَ سُبحانَه عبادَه المُؤمنينَ مِن توالي آلائِه وإحسانِه، وما ابْتدَأهم به مِن نعمةٍ، مِن لَدُنْ قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤]، ثمَّ توالَتْ آياتُ الامتنانِ والإحسانِ، فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: ٥]، فذكَرَ تعالى بِضعًا وعشرينَ مِن أُمَّهاتِ النِّعمِ إلى قولِه- مُنبِّهًا ومُوقِظًا مِن الغَفلةِ والنِّسيانِ-: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ثمَّ أُتْبِعَ بقولِه سُبحانَه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]؛

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ١٩٦).

فناسَبَ خِتامُ هذا بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].

وقيل في سببِ اخْتِلافِ الفاصلتينِ مع أنَّ المُحَدَّث عنه واحِدٌ: كأنَّه يقولُ: إذا حَصَلتِ النِّعَمُ الكثيرةُ فأنت آخِذُها وأنا مُعْطيها، فحصلَ لك عندَ أخْذِها وصفانِ: كونُكَ ظلومًا، وكوْنُكَ كفَّارًا، يَعْني لعدمِ وفائِكَ بشُكْرِها، ولي عندَ إعطائِها وصفانِ، وهما: أنِّي غفورٌ رَحيمٌ، أقابِلُ ظلمَكَ بغُفراني، وكفرَكَ برحْمَتي، فلا أُقابِلُ تَقْصيرَك إلَّا بالتَّوقيرِ، ولا أُجازي جفاكَ إلَّا بالوفاءِ. وقيل: إنَّما خَصَّ سورةَ إبراهيمَ بوصفِ المنعَمِ عليه، وسورةَ النَّحلِ بوصفِ المنعِمِ؛ لأنَّه في سورةِ إبراهيمَ في مَساقِ وَصفِ الإنسانِ، وفي سورةِ النَّحلِ في مساقِ صفاتِ اللَّهِ، وإثباتِ أُلوهيَّتِه[2].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٥٠).

الآيات (٣٥-٤١)

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ
ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى
فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن
شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ
وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا
وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿تَهْوِىٓ﴾: أي: تَنزِعُ، وتَميلُ، وأصلُ (هوي): يدُلُّ على مَيلِ النَّفسِ، وانحرافِها نحوَ الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين دعا إبراهيمُ ربَّه قائلًا: ربِّ اجعَلْ مكَّةَ حَرَمًا آمِنًا يأمَنُ كلُّ مَن فيها، وأبعِدْني وأبنائي عن عبادةِ الأصنامِ، ربِّ إنَّ الأصنامَ قد حرفت كَثيرًا مِن النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ، فمن تبِعني على التوحيدِ، فإنَّه مِن أهلِ ديني يَستَنُّ بسُنَّتي، ومَن خالفَني فكفَر، فإنَّك غفورٌ رحيمٌ؛ بتوبتِك عليهم حتَّى يُؤْمنوا، وهدايتِهم إلى التوحيدِ. ربَّنا إنِّي أسكَنتُ مِن ذُرِّيتي في وادٍ ليس فيه زَرعٌ ولا ماءٌ عند بَيتِك المُحرَّمِ، ربَّنا إنَّني فعلتُ ذلك وأسكنتُهم في هذا الوادي؛ لكي يُقيموا الصَّلاةَ، ويَعْمُروه بذِكرِك وعبادتِك، فاجعَلْ قُلوبَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٩٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٤).

بَعضِ الناسِ تُسرِعُ إليهم شوقًا إلى حجِّ بَيتِك الحَرامِ، وارزُقْهم مِن أنواعِ الثِّمارِ؛ لِيَشكُروك على ما رزَقْتَهم، ويكونَ عَونًا لهم على طاعتِك. فاستجابَ اللهُ دُعاءَه.

ربَّنا، إنَّك تعلَمُ ما نُخفِيه وما نجهرُ به ونُظهِرُه، وما يخفى عن عِلمِ اللهِ شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ. ثمَّ أثنَى إبراهيمُ عليه السلامُ على اللهِ تعالى، فقال: الحمدُ لله الذي رَزَقني رغمَ كِبَرِ سِنِّي إسماعيلَ وإسحاقَ؛ فإنَّ رَبِّي يسمعُ الدُّعاءَ ممَّن دعاه، ويجيبُه، وقد دَعوتُه ولم يخيِّبْ رَجائي. ربِّ، اجعَلْني مقيمًا للصَّلاةِ على أتَمِّ وُجوهِها، واجعَلْ مِن ذُرِّيَّتي مَن يقيمُها كذلك، ربَّنا واستجِبْ لي دُعائي، ربَّنا اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ، ولجميعِ المُؤمنينَ يومَ تُحاسِبُ عِبادَك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى بالدَّلائلِ أنَّه لا مَعبودَ إلَّا هو سُبحانَه، وأنَّه لا يجوزُ عِبادةُ غيرِه تعالى البَتَّةَ؛ حكى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ مُبالغَتَه في إنكارِ عِبادةِ الأوثانِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى التَّعجيبَ مِن الذينَ بَدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا، وجعلوا لله أندادًا- وهم قُريشٌ، ومَن تابَعَهم من العربِ، الذين اتَّخذوا آلهةً مِن دونِ اللهِ- وكان مِن نِعَمِ اللهِ عليهم إسكانُه إيَّاهم حَرَمَه؛ أردَفَ ذلك بذِكرِ أصلِهم إبراهيمَ، وأنَّه- صَلواتُ اللهِ عليه- دعا اللهَ تعالى أن يجعَلَ مكَّةَ آمِنةً، ودعا بأن يَجنُبَ بنيه عبادةَ الأصنامِ، وأنَّه أسكَنَه وذُرِّيَّتَه في بيتِه؛ ليَعبُدوه وَحدَه بالعبادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٠).

التي هي أشرَفُ العبادةِ، وهي الصَّلاةُ؛ لينظُروا في دينِ أبيهم، وأنَّه مُخالِفٌ لِما ارتكَبوه من عبادةِ الأصنامِ، فيَزدَجِروا ويَرجِعوا عنها[1].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾.

أي: واذكُرْ- يا محمَّدُ- إذ قال إبراهيمُ: رَبِّ، اجعَلْ مكَّةَ حَرَمًا آمِنًا لأهلِه وسُكَّانِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا دعا بالأمنِ مِن فَسادِ الأموالِ والأبدانِ؛ أتبَعَه بالدُّعاءِ بالأمنِ مِن فَسادِ الأديانِ، فقال[3]:

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

أي: وأبْعِدْني وأبنائي عن عبادةِ الأصنامِ، واجْعَلْنا في جانبٍ، والأصنامَ في جانبٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).
قال السمعاني: (قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أجمعُوا أنَّ البلدَ هو مَكَّةُ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١١٩).

(٣) ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((القول المفيد)) لابن عثيمين (١/ ١١٥).
قال ابن عثيمين: قولُه: (﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ قيل: المرادُ ببنيه: بنوه لصلبِه، ولا نعلمُ له مِن صلبِه سوَى إسماعيلَ وإسحاقَ. وقيل: المرادُ ذريتُه وما توالدَ مِن صلبِه، وهو الأرجحُ؛ وذلك للآياتِ التي دلَّت على دعوتِه للناسِ مِن ذريتِه... وأيضًا يمنعُ مِن الأوَّلِ: أنَّ

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما دعا الله أن يُجَنَّبَ هو وبَنوه عبادةَ الأصنامِ؛ ذكَرَ سَببَ طَلَبِه[١]، والمُوجِبَ لخَوفِه عليه وعلى بَنيه بكثرةِ مَن افتُتِنَ وابتُلِيَ بعبادتِها، فقال[٢]:

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: قال إبراهيم: ربِّ، إنَّ الأصنامَ قد حَرَفَت كثيرًا مِن النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ؛ بسبَبِ افتِتانِهم بها، وعِبادتِها[٣].

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾.

أي: فمَن تَبِعَني على الإيمانِ بك وتوحيدِك وفِراقِ عبادةِ الأصنامِ؛ فإنَّه مِن أهلِ دِيني، يَستَنُّ بسُنَّتي، ويعمَلُ بمِثلِ عَمَلي[٤].

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومَن عصاني فكفَرَ[٥]، وخالَفَ أمْري، فإنَّك غفورٌ رحيمٌ؛ بتوبتِكَ عليهم حتَّى

الآيةَ بصيغةِ الجمعِ، وليس لإبراهيمَ مِن الأبناءِ سوَى إسحاقَ وإسماعيلَ). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (١/ ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦).

(٥) قال ابنُ عطيةَ: (وقولُه: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ظاهرُه بالكفرِ، بمعادلةِ قولِه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤١).

يُؤْمنوا، وهدايتِهم إلى التوحيدِ، وتوفيقِهم للرُّجوعِ مِن المعصيةِ إلى الطاعةِ(١).

عن عبد الله بنِ عَمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآيةَ، وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفعَ يديهِ، وقال: اللهمَّ، أُمَّتي أُمَّتي، وبكى. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يا جبريلُ، اذهب إلى محمدٍ -وربُّكَ أعلمُ- فسَلهُ: ما يُبكيكَ؟ فأتاهُ جبريلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فسَألهُ، فأخبرهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بما قالَ -وهو أعلمُ-، فقال اللهُ: يا جبريلُ، اذهبْ إلى محمدٍ، فقلْ: إنَّا سنُرضيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسُوؤُك))(٢).

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٢٦).
ومِمن اختار هذا المعنى المذكورَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ عطيةَ، وابنُ القيمِ، والعليمي. يُنظر: المصادر السابقة.
قال مقاتلُ بنُ سليمانَ: (نظيرُها- في الأحزابِ ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٤]). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٠٨).
وقيل: المرادُ: ومَن عصاني فيما دونَ الشركِ. ومِمن اختاره: مقاتلُ بنُ حيان، والواحدي، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).
وقيل: هذا تفويضٌ للأمرِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وردٌّ إلى مشيئتِه، لا طَلَبٌ ودعاءٌ بالمغفرةِ لهم. ومِمن اختار هذا المعنَى: ابنُ كثيرٍ، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير المنار)) (١٠/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).
قال ابنُ عاشورٍ: (المعنى: ومَن عصاني أُفَوِّضُ أمْرَه إلى رَحمَتِك وغُفرانِك. وليس المَقصودُ الدُّعاءَ بالمَغفرةِ لمَن عصى. وهذا مِن غَلبةِ الحِلْمِ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ، [وخَشيتِه] مِن استئصالِ عُصاةِ ذُرِّيَّتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢).

﴿يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دَعا بدَرءِ المفاسِدِ النَّاشِئةِ مِن نوعَيِ الإنسانِ والشَّيطانِ، بأمنِ البلَدِ وإيمانِه؛ ذكَرَ السبَبَ الحامِلَ له على تخصيصِه بذلك، مُستجلِبًا للمَصالِحِ، فقال[1]:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾.

أي: ربَّنا، إنِّي أسكَنتُ بعضَ ولَدِي- وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ- في وادٍ لا زَرْعَ فيه ولا ماءَ، عند بَيتِك الذي يَحرُمُ استِحلالُ حُرُماتِه والتَّهاوُنُ به، والاستخفافُ بحَقِّه، والتعرُّضُ له أو لأهلِه بسُوءٍ[2].

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

أي: رَبَّنا، إنِّي أسكنتُ بعضَ ذُرِّيَّتي في هذا الوادي المقْفِرِ؛ كي يُقيمُوا الصَّلاةَ عند بيتِك المحَرَّمِ، ويَعْمُروه بذِكرِك وعبادتِك وَحدَك، فاجعَلْ قُلوبَ بعضِ النَّاسِ[3] تُسرِعُ إليهم شوقًا إلى حجِّ بَيتِك الحَرامِ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٩، ٦٩٦، ٦٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤١).
قال ابن كثير: (هذا دعاءٌ ثانٍ بعد الدُّعاءِ الأوَّلِ الذي دعا به عندما ولَّى عن هاجرَ وولَدِها، وذلك قبل بناء البيتِ، وهذا كان بعد بنائه؛ تأكيدًا ورغبةً إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤١).

(٣) قال ابن كثير: (قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة النَّاسِ» لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناسُ كلُّهم، ولكنْ قال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فاختَصَّ به المُسلِمون). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

أي: وارزُقْهم مِن ثِمارِ النَّباتِ والأشجارِ بأنواعِها المُختَلِفة، بجَلْبِها إليهم؛ ليَشكُروك على ما رزَقْتَهم، ويكونَ عَونًا لهم على طاعتِك[1].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا طلَبَ إبراهيمُ -عليه السَّلامُ- مِن اللهِ تيسيرَ المنافِعِ لأولادِه، وتَسهيلَها عليهم؛ ذكَرَ أنَّه لا يعلَمُ عواقِبَ الأحوالِ، ونِهاياتِ الأمورِ في المُستقبَل، وأنَّه

السعدي)) (ص: ٤٢٧).

قال ابنُ جزي: (﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: اللَّامُ يحتملُ أنْ تكونَ لامَ الأمْرِ بمعنَى الدُّعاءِ، أو لامَ كيْ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٢).

وممن قال: إنَّها لامُ (كي): ابنُ جرير، والزمخشري، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤١).

قال القاسمي: (﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: لكي يَأْتوا بعبادتِك...، وهو متعلِّقٌ بـ﴿أَسْكَنتُ﴾ أي: ما أسكنتُهم هذا الوادي إلَّا ليُقيموا الصلاةَ عندَ بيتِك المحرَّم، ويَعْمُروه بذكرِك وعبادتِك وحدَك). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣١٩).

وممن قال: هي بمعنى الدُّعاء: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

وقال الرَّسعنيُّ: (قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: أسكنْتُهم لِيُقيموا الصَّلاةَ. ويَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ مُتعلِّقةً بقولِه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، أي: اجْنُبْهم لِيُقيموا الصَّلاةَ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٠، ٧٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

تعالى هو العالِمُ بها، المحيطُ بأسرارِها[١]، فقال:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾.

أي: ربَّنا، إنَّك تعلَمُ ما نُخفي في قُلوبِنا عند مسألتِنا ودُعائِك، وفي غيرِ ذلك من أحوالِنا، وتعلَمُ ما نجهَرُ به مِن دُعائِنا، وغيرِ ذلك مِن أقوالِنا وأعمالِنا[٢].

﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: ولا يخفى على اللهِ أيُّ شَيءٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ[٣].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

قال ابن جرير: (هذا خبَرٌ مِن الله تعالى ذِكرُه عن استشهادِ خَليلِه إبراهيم إيَّاه على ما نوى وقصد، بدُعائِه وقِيلِه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] الآية، وأنَّه إنما قصدَ بذلك رضا الله عنه في محبَّتِه أن يكون ولَدُه من أهل الطاعةِ لله، وإخلاصِ العبادةِ له على مِثلِ الذي هو له). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠١).

وقال القرطبي: (وقال ابن عباس ومقاتل: تعلَمُ جميعَ ما أُخفيه وما أعلنُه، من الوجدِ بإسماعيلَ وأمِّه؛ حيث أُسكِنَا بوادٍ غير ذي زَرعٍ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥).

وقال السعدي: (أي: أنت أعلَمُ بنا منَّا، فنسألُك من تدبيرِك وتربيتِك لنا أن تُيسِّرَ لنا من الأمورِ التي نعلَمُها، والتي لا نعلَمُها ما هو مقتضى عِلمِك ورحمتِك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

ذهب جمهورُ المفسِّرينَ إلى أنَّ هذا مِن قولِ الله عزَّ وجلَّ تصديقًا لما قاله إبراهيمُ مِن أنَّه سبحانه يعلمُ بما يخفيه العبادُ وما يعلنونه. وممن عزا هذا المعنى إلى الجمهورِ: البغوي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٥).

وقيل: هذا مِن كلامِ إبراهيمَ عليه السلام تتمةً لدعائِه. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تمَّ إبراهيمُ ما دعا به من النَّزاهةِ عن رَجاسةِ الشِّركِ، وتبيَّنَ بتَقديمِه أنَّ أهَمَّ المُهِمَّاتِ البراءةُ منه؛ أتبَعَه الحمدَ على ما رُزِقَ مِن النِّعَم، وما تَبِعَ ذلك من الإشارةِ إلى وجوبِ الشُّكرِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا دعا إبراهيمُ -عليه السَّلامُ- اللهَ تعالى لأهَمِّ ما يُهِمُّه، وهو إقامةُ التوحيدِ، وكان يرجو إجابةَ دَعوتِه، وأنَّ ذلك ليس بعجَبٍ في أمرِ اللهِ- خطَرَ ببالِه نِعمةُ الله عليه بما كان يسألُه، وهو أن وهَبَ له ولَدَينِ في إبَّانِ الكِبَرِ، وحينَ اليأسِ مِن الولادةِ، فناجى اللهَ فحَمِدَه على ذلك، وأثنى عليه بأنَّه سميعُ الدُّعاءِ- أي: مُجيبٌ، أي: متَّصِفٌ بالإجابةِ وَصفًا ذاتيًّا- تمهيدًا لإجابة دعوتِه هذه، كما أجاب دعوتَه سلَفًا، فهذا مناسَبةُ مَوقِعِ هذه الجُملةِ بعد ما قَبلَها بقرينةِ قَولِه: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[(٢)].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

أي: الحَمدُ لله الذي رزَقَني-رَغْمَ كِبَرِ سِنِّي- إسماعيلَ وإسحاقَ[(٣)].

﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

أي: وهَبَ لي ربِّي الولَدَينِ؛ لأنَّه يسمَعُ دُعاءَ مَن يدعوه، ويُجيبُ طلَبَ مَن يسألُه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٧) و(١٥/ ١١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أتمَّ إبراهيمُ عليه السلامُ الحمدَ على النِّعمةِ بعد الدُّعاءِ بالتخَلِّي مِن كلِّ ما ينافي السَّعادةَ، وختَمَه بالحمدِ على إجابةِ الدُّعاءِ- انتهَزَ الفُرصةَ في إتباعِه الدُّعاءَ بالتحَلِّي بحِليةِ العبادةِ التي أخبَرَ أنَّها قَصدُه بإسكانِه مِن ذُرِّيتِه[1]، فقال:

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

أي: ربِّ، وفِّقْني لإقامةِ الصَّلَواتِ، بالمحافظةِ على أدائِها بحُدودِها، واجعَلْ مِن ذُرِّيتي مَن يقيمُها كذلك[2].

قال ابن تيمية: (أمَّا قولُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فالمرادُ بالسَّمعِ هاهنا السَّمعُ الخاصُّ، وهو سمعُ الإجابةِ والقبولِ، لا السَّمعُ العامُّ؛ لأنَّه سميعٌ لكلِّ مسموعٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٤).

قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، دعا إبراهيمُ عليه السلامُ في أمرٍ كان مثابرًا عليه، متمسِّكًا به، ومتى دعا الإنسانُ في مثلِ هذا فإنَّما القصدُ إدامةُ ذلك الأمرِ، واستمرارُه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٣).

و(من) في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتبعيضِ، وممن اختاره: الرازي، والبيضاوي، والخازنُ، وأبو حيان، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٢٩).

قال الرَّازيُّ: (﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، أي: واجعَلْ بَعضَ ذُرِّيَّتي كذلك؛ لأنَّ كلمةَ «مِن» في قولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتَّبعيضِ، وإنَّما ذكَرَ هذا التَّبعيضَ؛ لأنَّه علِمَ بإعلامِ اللهِ تعالى أنَّه يكونُ في ذُرِّيَّتِه جمْعٌ مِنَ الكُفَّارِ، وذلك قولُه: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧).

وقيل: إنَّ (من) ابتدائيةٌ، وممن اختاره: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٤).

قال ابن عاشور: (و«مِنْ» ابْتِدائيَّةٌ، وليست للتَّبعيضِ؛ لأنَّ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- لا يسألُ اللَّهَ إلَّا أكملَ ما يُحِبُّه لنفسِه ولذرِّيَّتِه. ويجوزُ أنْ تكونَ مِن للتَّبعيضِ بناءً على أنَّ اللَّهَ أعْلَمَه بأنْ

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾.

أي: رَبَّنا، واستجِبْ لي دُعائي فيما سألتُك فيه(١).

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ربَّنا اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ(٢) ولجميعِ المؤمنينَ يومَ تُحاسِبُ عِبادَك يومَ القيامةِ(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى على لسانِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وقال أيضًا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ...﴾، وقال أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة:

يكونَ مِنْ ذُرِّيَّتِه فريقٌ يُقيمونَ الصَّلاةَ، وفريقٌ لا يُقيمونَها، أي لا يؤمنونَ. وهذا وجهٌ ضعيفٌ؛ لأنَّه يقتضي أنْ يكونَ الدُّعاءُ تحصيلًا لحاصِلٍ، وهو بعيدٌ، وكيفَ وقد قالَ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ولم يقُلْ: «ومِن بَنِيَّ»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

(٢) قال ابنُ جرير: (هذا دعاءٌ مِن إبراهيم صلواتُ اللهِ عليه لوالديه بالمغفرة، واستغفارٌ منه لهما، وقد أخبر الله عزَّ ذِكرُه أنَّه لم يكن ﴿ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٤).

قيل: معنى ﴿يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: يَثبُتُ. وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والشوكاني، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).

وقيل المعنى: يقومُ النَّاسُ للحِسابِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥).

قال ابنُ جَريرٍ: (قولُه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾، يعني: يقومُ النَّاسُ للحسابِ، فاكْتَفى بذِكْرِ الحِسابِ مِن ذِكْرِ النَّاسِ؛ إذ كان مَفهومًا معناهُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٣).

١٢٨] فينبغي للإنسانِ أنْ يَشملَ ذريَّتَه في الدُّعاءِ؛ لأنَّ الذُّرِّيَّةَ الصالحةَ مِن آثارِ الإنسانِ الصَّالحةِ، فالذُّرِّيَّةُ صلاحُها له شأنٌ كبيرٌ بالنِّسبةِ للإنسانِ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ هذا الدُّعاءُ مِن الخليلِ عليه السلامُ يقتضي إفراطَ خَوفِه على نفسِه، ومَن حصَلَ في رُتبتِه، فكيف يخافُ أن يَعبُدَ صَنمًا؟! لكنْ هذه الآيةُ ينبغي أن يُقتَدى بها في الخوفِ وطلَبِ الخاتمةِ[٢]، فإذا كان إبراهيمُ عليه السَّلامُ يَخافُ الشِّركَ على نفسِه- وهو خليلُ الرَّحمنِ، وإمامُ الحنفاءِ- فما بالُك بنا نحنُ إذن؟! فلا ينبغي أن نأمَنَ الشِّركَ، ولا أن نأمَنَ النِّفاقَ؛ إذْ لا يأمَنُ النِّفاقَ إلَّا مُنافِقٌ، ولا يَخافُ النِّفاقَ إلَّا مُؤمِنٌ[٣]. عن إبراهيمَ التَّيميِّ قال: (مَن يَأْمَنُ البلاءَ بعدَ قولِ إبراهيمَ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾؟!)[٤].

٣- قولُه: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ليس مُرادُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّ اللهَ يَغفِرُ لكافرٍ، لكنَّه حمَلَهُ على هذه العِبارةِ ما كان يأخُذُ نفْسَه به مِن القَولِ الجميلِ، والنُّطقِ الحسنِ، وجَميلِ الأدَبِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. قال قَتادةُ: اسْمَعوا قولَ الخليلِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واللهِ ما كانوا طعَّانِينَ ولا لَعَّانينَ، وكذلك قال نَبيُّ اللهِ عِيسى: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[٥] [المائدة: ١١٨].

(١) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٢/ ٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ١٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨٨).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جملةُ: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تعليلٌ للدَّعوةِ بإجنابه عِبادتَها بأنَّها ضلالٌ راجَ بين كثيرٍ مِن النَّاسِ، فحُقَّ للمؤمِنِ الضَّنينِ بإيمانِه أن يخشَى أن تجترِفَه فتنتُها[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصودَ للعاقلِ مِن منافعِ الدُّنيا أن يتفرَّغَ لأداءِ العباداتِ، وإقامةِ الطَّاعاتِ؛ فإنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بيَّنَ أنَّه إنما طلَبَ تيسيرَ المنافعِ على أولادِه؛ لأجلِ أن يتفرَّغوا لإقامةِ الصَّلَواتِ، وأداءِ الواجباتِ[٢].

٦- إقامةُ الصَّلاةِ مِن أخَصِّ وأفضَلِ العباداتِ الدِّينيةِ، فمَن أقامَها كان مقيمًا لدينِه؛ لذا قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٣]، ولأهميةِ إقامةِ الصلاةِ لن تكادَ تجدُ ذكرَ الصلاةِ في موضعٍ مِن التنزيلِ إلا مقرونًا بإقامتِها، فالمصلُّون في الناسِ قليلٌ، ومقيمُ الصلاةِ منهم أقلُّ القليلِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى- عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دليلٌ على أهميَّةِ الصَّلاةِ، ولا سيَّما في مكَّةَ عندَ بيتِ اللهِ الحرامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).
(٤) يُنظر: ((الصلاة)) لابن القيم (ص: ١٤٠).
(٥) يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن عثيمين (٥/ ٢٩٢).

٨- أنَّ هِمَّةَ الصَّالحينَ في إقامةِ الدِّينِ، فقد علَّق إبراهيم عليه السلامُ ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ بـ﴿أَسۡكَنتُ﴾، أي: علةُ الإسكانِ بذلك الوادي عندَ ذلك البيتِ أن لا يشغلَهم عن إقامةِ الصلاةِ في ذلك البيتِ شاغلٌ، فيكون البيتُ معمورًا أبدًا، وتهيَّأَ بذلك أنْ يُفرِّعَ عليه الدُّعاءَ لهم بأنْ يجعَلَ أفئدةً مِن النَّاس تَهْوي إليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[1].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه تعليمٌ مِن إبراهيمَ عليه السَّلامُ لأهلِه وأتباعِه بعُمومِ عِلمِ اللهِ تعالى؛ حتى يُراقِبوه في جميعِ الأحوالِ، ويُخلِصوا النيَّةَ إليه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ دعا ربَّه أنْ يَجعَلَ مَكَّةَ آمِنةً، إلَّا أنَّه قد وقَعَ فيها ما أخَلَّ بالأمنِ، وأخافَ أهْلَها؟

والجوابُ عن هذا السُّؤالِ مِن وَجْهينِ:

الأوَّل: أنَّ المُرادَ جَعْلُ تلك البلدةِ آمِنةً مِنَ الخَرابِ[3]، وهذا مَوجودٌ بحمْدِ اللهِ، ولم يقْدِرْ أحدٌ على خَرابِ مكَّةَ.

الثَّاني: أنْ يكونَ المُرادُ: اجعَلْ أهْلَ هذا البلَدِ آمنينَ، كقولِه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وهذا الوَجْهُ عليه أكثَرُ العُلماءِ مِنَ المُفسِّرينَ وغيرِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٤٣).

(٣) قال الخازن: (وأُورِدَ على هذا ما ورَدَ في الصَّحيح عن أبي هُريرةَ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «يُخرِّبُ الكعبةَ ذو السُّويقتَينِ مِن الحبشةِ». أخرجاهُ في الصَّحيحين. وأُجِيبَ عنه بأنَّ قولَه: ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾، يعني: إلى قُربِ القيامةِ وخَرابِ الدُّنيا. وقيل: هو عامٌّ مَخصوصٌ بقِصَّةِ «ذو السُّويقتَينِ»؛ فلا تعارُضَ بين النَّصَّينِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩).

وعلى هذا فقدِ اختُصَّ أهْلُ مكَّةَ بزِيادةِ الأمْنِ في بلَدِهم، كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى بقولِه: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وأهْلُ مكَّةَ آمِنونَ مِن ذلك، حتَّى إنَّ مَن الْتجأَ إلى مكَّةَ أَمِنَ على نفْسِه ومالِه مِن ذلك، وحتَّى إنَّ الوُحوشَ إذا كانت خارِجةً مِنَ الحرَمِ استوحَشَتْ، فإذا دخَلَتِ الحرَمَ أَمِنَتْ واستأْنَسَتْ؛ لِعِلْمِها أنَّها لا يُهيِّجُها أحدٌ في الحرَمِ، وهذا القدْرُ مِنَ الأمْنِ حاصِلٌ بحمْدِ اللهِ بمكَّةَ وحرَمِها(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ لا يَعْبُدون الوثَنَ الْبَتَّةَ، وإذا كان كذلك؛ فما الفائدةُ في قولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾؟

والجوابُ مِن وَجْهينِ:

الأوَّل: أنَّ معناهُ: ثَبِّتْني على اجتنابِ عِبادتِها، كما قال: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، أي: ثَبِّتْنا على الإسلامِ.

الثَّاني: أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وإنْ كان يَعلَمُ أنَّه تعالى يَعصِمُه مِن عِبادةِ الأصنامِ، إلَّا أنَّه ذكَرَ ذلك؛ هَضْمًا للنَّفسِ، وإظهارًا للحاجةِ والفاقةِ إلى فَضْلِ اللهِ في كلِّ المَطالِبِ(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- طلبَ مِن الله تعالى ألَّا يجعَلَ أبناءَه مِن عبَدةِ الأصنامِ، وكُفَّارُ قُرَيشٍ كانوا من أولادِه، وكانوا يعبُدونَ الأصنامَ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠١).

والجوابُ من وجوه:

الوجه الأول: قال بعضُهم: أراد مِن أولادِه وأولادِ أولادِه كلَّ مَن كانوا موجودينَ حالَ الدُّعاءِ، ولا شُبهةَ أنَّ دَعوتَه مُجابةٌ فيهم.

الوجه الثاني: أنَّ هذا الدُّعاءَ مختَصٌّ بالمؤمنينَ مِن أولاده، والدَّليلُ عليه أنَّه قال في آخر الآية: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾، وذلك يفيدُ أنَّ مَن لم يتَّبِعْه على دينِه، فإنَّه ليس منه، ونظيرُه قولُه تعالى لنوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

الوجه الثالث: لعلَّه وإن كان عمَّمَ في الدُّعاءِ إلَّا أنَّ الله تعالى أجاب دعاءَه في حَقِّ البَعضِ دونَ البَعضِ[(١)]، وذلك لا يُوجِبُ تحقيرَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، ونظيرُه قولُه تعالى في حقِّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)] [البقرة: ١٢٤].

٤- قولُه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ قدَّمَ طلَبَ الأمنِ على سائرِ المطالِبِ المذكورةِ بَعدَه، وذلك يدُلُّ على أنَّه أعظَمُ أنواعِ النِّعَمِ والخيراتِ، وأنَّه لا يَتِمُّ شَيءٌ مِن مصالحِ الدِّينِ والدُّنيا إلَّا به؛ فإنَّه إذا انتفَى الأمنُ لم يَفرُغِ الإنسانُ لشيءٍ آخَرَ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا[(٣)].

---

(١) قال الشنقيطي: (قولُه تعالَى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ الآيةَ. لم يُبيِّنْ هنا هل أجابَ دعاءَ نبيِّه إبراهيمَ هذا، ولكنَّه بَيَّن في مواضعَ أُخَرَ أنَّه أجابَه في بعضِ ذُرِّيَّته دُونَ بعضٍ، كقولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقولِه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ الآيةَ [الزخرف: ٢٨]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٤٨).
وقال ابنُ عثيمينَ: (كان مِن حكمةِ الله أن لا تجابَ دعوتُه في بعضِهم، كما أنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم دعا الله أن لا يجعلَ بأسَ أمتِه بينَهم فلم يُجبِ اللهُ دعاءَه). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠١-١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٣-١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣٤).

٥- قولُه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ عِصمةَ الأنبياءِ بتَوفيقِ الله تعالى وحِفظِه إيَّاهم(١).

٦- قولُه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف جعَلَ الأصنامَ مُضِلَّةً، والمُضِلُّ ضارٌّ، وقد نَفَى عنهم الضَّررَ بقولِه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس: ١٨]؟

الجَوابُ: أنَّ نِسبةَ الإضلالِ إليها مِن بابِ نِسبةِ الشَّيءِ إلى سببِه، كما يُقالُ: فَتَنَتْهم الدُّنيا، فهي سببٌ للإضلالِ، وفاعِلُه حقيقةً هو اللهُ تعالى(٢). وأيضًا فنفْيُ ضَررِها باعتبارِ أنَّها لا تُوصِلُ إليهم مَكروهًا كما كان يَعتقِدُ عابِدُوها.

٧- قولُ الخليلِ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ولم يقُلْ: (فإنَّك عزيزٌ حكيمٌ)؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ استرحامٍ، وتَعريضٍ بالدُّعاءِ(٣).

٨- في قَولِه تعالى على لسانِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ دلالةٌ ظاهرةٌ على أنَّ أسماءَ الرَّبِّ تعالى مشتقَّةٌ مِن أوصافٍ ومعانٍ قامت به، وأنَّ كلَّ اسمٍ يُناسِبُ ما ذُكِرَ معه، واقترنَ به مِن فِعلِه وأمْرِه(٤).

٩- قال الله تعالى على لسانِ إبراهيمَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ في هذا القولِ منه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- دليلٌ على أنَّه لم يكُنْ هنالك يومَئذٍ ماءٌ؛ لأنَّه لو كان هنالك ماءٌ، لم يَصِفْه بأنَّه غيرُ ذي زرعٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٩٤).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٩-٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٠).

عند بيتِك الذي حرَّمْتَه على جميعِ خَلْقِك أن يستحِلُّوه[١].

١٠- قال اللهُ تعالى على لِسانِ إبراهيمَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾. هذه الآيةُ تَقْتَضي أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قد كان علِمَ مِنَ اللهِ تعالى أنَّه لا يُضيِّعُ هاجَرَ وابْنَها في ذلك الوادي، وأنَّه يَرزُقُهما الماءَ، وإنَّما نظَرَ النَّظَرَ البعيدَ للعاقبةِ، فقال: ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، ولو لم يَعلَمْ ذلك مِنَ اللهِ لَقال: (غيرِ ذي ماءٍ)، على ما كانتْ عليه حالُ الوادي عندَ ذلك[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ لا يجوزُ لأحدٍ أن يتعلَّقَ به في طَرحِ عيالِه ووَلَدِه بأرضٍ مَضْيَعةٍ؛ اتِّكالًا على العزيزِ الرَّحيمِ، واقتداءً بفِعلِ إبراهيمَ، كما تقولُ الغُلاةُ مِن الصوفيَّةِ في حقيقةِ التوكُّلِ؛ فإنَّ إبراهيمَ فعَلَ ذلك بأمرِ اللهِ[٣].

١٢- افتَرضَ الله حجَّ هذا البيتِ الذي أسكَنَ به ذُرِّيَّةَ إبراهيمَ، وجعَلَ فيه سِرًّا عجيبًا جاذِبًا للقُلوبِ، فهي تحُجُّه، ولا تقضي منه وطَرًا على الدَّوامِ، بل كلَّما أكثَرَ العبدُ التردُّدَ إليه، ازداد شَوقُه، وعَظُمَ ولَعُه وتَوْقُه، وهذا سِرُّ إضافتِه تعالى إلى نفسِه المقدَّسةِ؛ قال الله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[٤].

١٣- في قَولِه تعالى- عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ لم يقُلْ: «أفئدةَ النَّاسِ»؛ لأنَّ الحجَّ لا يجِبُ على كلِّ أحدٍ، إنما يجبُ على مَن كان قادِرًا. قال بعضُ العُلَماءِ: لو قال: «أفئدةَ النَّاسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٩٦)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

تهوي إليهم» وأجابَه اللهُ، لوجبَ على جميعِ النَّاسِ أنْ يَحُجُّوا، وفي هذا مِن المشَقَّةِ ما هو ظاهرٌ، لكنَّ اللهَ ألْهَمَ إبراهيمَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يقولَ: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[١].

١٤- عن السُّدِّيِّ رحمه الله، في قولِه تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ يقولُ: (خُذ بقُلوبِ النَّاسِ إليهم؛ فإنَّه حيث يَهوى القلبُ يذهَبُ الجسَدُ؛ فلذلك ليس مِن مؤمنٍ إلَّا وقَلبُه معَلَّقٌ بحُبِّ الكعبةِ)[٢].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ الآيةُ لتذكيرِ قُرَيشٍ بهذه النِّعَمِ الجليلةِ عليهم ببرَكةِ أبيهم الأعظَمِ الذي نهَى عن عبادةِ الأوثانِ[٣].

١٦- مكَّةُ نَفسُها لا يُدفَعُ البلاءُ عن أهلِها، ويُجلَبُ لهم الرِّزقُ إلَّا بطاعتِهم لله ورَسولِه، كما قال الخليلُ عليه السَّلامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[٤] [إبراهيم: ٣٧].

١٧- قال تعالى على لسانِ إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ فذكَرَ حالَ الكِبَرِ؛ لأنَّ المِنَّةَ فيها بهِبةِ الولَدِ أعظَمُ؛ مِن حيثُ إنَّ الكِبَرَ مَظِنَّةُ اليأسِ مِن الولدِ؛ فإنَّ مجيءَ الشَّيءِ بعد الإياسِ أحلَى في النَّفسِ وأبهَجُ[٥].

١٨- قولُه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ احتُجَّ به على أنَّ أفعالَ

---

(١) يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن عثيمين (٥/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٢٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٩).

العبدِ مَخلوقةٌ لله تعالى؛ فإنَّ قَولَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يدُلُّ على أنَّ فِعلَ المأموراتِ لا يحصُلُ إلَّا مِن الله[١].

١٩- قولُه: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ فيه سؤالٌ: كيفَ جاز أن يستغفِرَ لأبويهِ وكانا كافِرَينِ؟

والجوابُ عنه مِن وُجُوهٍ:

الوجهُ الأوَّل: أنَّه دَعا لأبيه قبلَ أن يتبيَّن له أنَّه عدوٌّ لله[٢].

الوجه الثاني: أنَّ المنعَ منه لا يُعلَمُ إلَّا بالتَّوقيفِ، فلعلَّه لم يجِدْ منه مَنعًا، فظَنَّ كونَه جائِزًا[٣].

الوجهُ الثالثُ: أنَّهما كانا في الأحياءِ، فرجَا إيمانَهما[٤]. وقيل غيرُ ذلك[٥].

٢٠- قولُه: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ فيه بِشارةٌ عَظيمةٌ للمؤمنينَ بالمَغفِرةِ[٦].

٢١- في قَولِه تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ دَلالةٌ على انتفاعِ الميِّتِ بدُعاءِ الخَلْقِ له[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٧٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٨٨).

(٧) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٣٠٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ...﴾ أي: واذْكُرْ إذ قال إبراهيمُ؛ زِيادةً في التَّعجُّبِ مِن شأنِ المُشركينَ الَّذي مَرَّ في قولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾؛ فموقعُ العِبْرةِ مِن الحالينِ واحدٌ[(١)]، والمقصودُ مِن تذْكيرِه: تذْكيرُ ما وقَعَ فيه مِن مَقالاتِه عليه السَّلامُ على نهْجِ التَّفصيلِ، والمُرادُ به: تأْكيدُ ما سلَفَ مِن تعْجيبِه عليه السَّلامُ ببَيانِ فنٍّ آخَرَ مِن جِناياتِهم، حيثُ كفَروا بالنِّعمِ الخاصَّةِ بهم بعدَما كفَروا بالنِّعمِ العامَّةِ، وعَصَوا أباهم إبراهيمَ عليه السَّلامُ، حيث أسكَنَهم مكَّةَ- شرَّفَها اللهُ تعالى- لإقامةِ الصَّلاةِ، والاجتنابِ عن عِبادةِ الأصنامِ، والشُّكرِ لِنِعَمِ اللهِ تعالى، وسألَه تعالى أنْ يجعَلَه بلدًا آمِنًا، ويَرزُقَهم مِن الثَّمراتِ، وتَهْوِيَ قُلوبُ النَّاسِ إليهم مِن كلِّ أَوْبٍ سحيقٍ، فاستجابَ اللهُ تعالى دُعاءَه، وجعَلَه حرَمًا آمِنًا يَجِيءُ إليه ثَمراتُ كلِّ شيءٍ، فكفَروا بتلك النِّعَمِ العِظامِ، واستبْدَلوا بالبلدِ الحرامِ دارَ البَوارِ، وجعَلوا للهِ أندادًا، وفعَلوا ما فعَلوا[(٢)].

- والفرْقُ بين قولِه هنا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، وبين قولِه في سُورةِ البَقرةِ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]: أنَّه قد سأَلَ في الأوَّلِ في سُورةِ البقرةِ أنْ يجعَلَه مِن جُملةِ البلادِ الَّتي يأمَنُ أهْلُها ولا يَخافونَ، وفي الثَّاني أنْ يُخرِجَه مِن صِفَةٍ كان عليها مِن الخوفِ إلى ضِدِّها مِن الأمْنِ؛ كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٠).

قال: هو بَلَدٌ مخوفٌ، فاجعَلْه آمِنًا[١]. وقيل: الفرْقُ بينه وبين قولِه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]: أنَّ المسؤولَ هناك البَلَدِيَّةُ والأمْنُ معًا، وهاهنا الأمْنُ فقط؛ حيث جُعِلَ هو المفعولَ الثَّانيَ للجَعْلِ، وجُعِلَ البلدُ صِفَةً للمفعولِ الأوَّلِ؛ فإنْ حُمِلَ على تعدُّدِ السُّؤالِ، فلعلَّه عليه السَّلامُ سأَلَ أوَّلًا كِلَا الأمرينِ، فاسْتُجيبَ له في أحدِهما، وتأخَّرَ الآخَرُ إلى وقْتِه المُقدَّرِ؛ لِمَا يقْتَضيه مِن الحكمةِ الدَّاعيةِ إليه، ثمَّ كرَّرَ السُّؤالَ كما هو المُعتادُ في الدُّعاءِ والابتهالِ[٢]، أو كان المسؤولُ أوَّلًا مُجرَّدَ الأمْنِ المُصَحِّحِ للسَّكنِ كما في سائرِ البلادِ، وقد أُجيبَ إليه، وثانيًا الأمْنَ المعهودَ، أو كان هو المسؤولَ فيهما، وقد أُجيبَ إليه أيضًا، لكنَّ السُّؤالَ الثَّانيَ للاستدامةِ، والاقتصارِ على ذلك؛ لأنَّه المقصودُ الأصلِيُّ، أو لأنَّ المُعتادَ في البلَدِيَّةِ الاستمرارُ بعدَ التَّحقُّقِ، بخلافِ الأمْنِ. وإنْ حُمِلَ على وَحدةِ السُّؤالِ وتكرُّرِ الحكايةِ كما هو المُتبادَرُ؛ فالظاهِرُ أنَّ المسؤولَ كِلَا الأمرينِ، وقد حُكِيَ أوَّلًا، واقْتُصِرَ هاهنا على حِكايةِ سُؤالِ الأمْنِ، لا لِمُجرَّدِ أنَّ نِعمةَ الأمْنِ أَدْخَلُ في استيجابِ الشُّكرِ؛ فذِكْرُه أنسَبُ بمقامِ تقريعِ الكَفَرةِ على إغفالِه كما قيل، بل لأنَّ سُؤالَ البلَدِيَّةِ قد حُكِيَ بقولِه تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ إذ المسؤولُ هُوِيُّتُها إليهم للمُساكَنةِ معهم لا للحجِّ فقط، وهو عينُ سُؤالٍ قد حُكِيَ بعبارةٍ أُخرى، وكان ذلك أوَّلَ ما قدِمَ عليه السَّلامُ مكَّةَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٤).

(٢) قال ابنُ كثير: (قال في هذه القِصَّة: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ فعرَّفَه كأنَّه دَعا به بعدَ بنائِها؛ ولهذا قالَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلومٌ أنَّ إسماعيلَ أكبرُ مِنْ إسحاقَ بثلاثَ عشرةَ سنةً، فأمَّا حين ذَهَب بإسماعيلَ وأُمِّه وهو رضيعٌ إلى مكانِ مكَّةَ، فإنَّه دَعا أيضًا فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البَقَرَة: ١٢٦]). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٠).

- في قولِه تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ لم يَقُلْ: «وامنَعْني»؛ لأنَّ معنى ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ أي: اجعَلْني في جانبٍ وعبادةَ الأصنامِ في جانبٍ، وهذا أبلغُ مِن «امنَعْني»؛ لأنَّه إذا كان في جانبٍ وهي في جانبٍ، كان أَبْعَدَ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ هو تَعليلٌ لِدُعائه بإجْنابه عِبادتَها؛ فافتتاحُ الجُملةِ بحرْفِ التَّوكيدِ لِمَا يُفيدُه حرْفُ (إنَّ) في هذا المقامِ مِن معنى التَّعليلِ، وإنَّما صدَّره بالنِّداءِ ﴿رَبِّ﴾؛ إظهارًا لاعتنائِه به، ورَغبةً في استجابتِه، أو أعاد النِّداءَ؛ لإنشاءِ التَّحسُّرِ على ذلك[2].

- قولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، أي: بعْضي؛ قاله عليه السَّلامُ مُبالَغةً في بيانِ اختصاصِه به، أو مُتَّصلٌ بي، لا ينفَكُّ عنِّي في أمْرِ الدِّينِ، و﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فيه طِباقٌ مَعنويٌّ؛ لأنَّ التَّبعيَّةَ طاعةٌ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ مُستأنَفةٌ لابتداءِ دُعاءٍ آخَرَ، وافْتُتِحَتْ بالنِّداءِ؛ لِزيادةِ التَّضرُّعِ، وفي كونِ النِّداءِ تأكيدًا لِنِداءٍ سابِقٍ: ضَرْبٌ مِن الرَّبْطِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥١).

بين الجُمَلِ المُفْتَتَحَةِ بالنِّداءِ؛ رَبْطُ المِثْلِ بمِثْلِه[١].

- قولُه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيه تَكرارُ النِّداءِ؛ رَغبةً في الإجابةِ، وإظهارًا للتَّذلُّلِ والالتجاءِ إلى اللهِ تعالى. وأيضًا تكريرُ النِّداءِ وتوسيطُه؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بإقامةِ الصَّلاةِ، وللاهتِمامِ بمُقدِّمةِ الدُّعاءِ؛ زِيادةً في الضَّراعةِ، والاهتمامِ بعرضِ أنَّ الغرَضَ من إسكانِهم بذلك الوادي البَلْقَعِ[٢] ذلك المقصِدُ الأقصى، والمطلَبُ الأَسْنى؛ للإشعارِ بأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ مِن إسكانِهم ثَمَّةَ، والمقصودُ مِن الدُّعاءِ توفيقُهم لها، وكلُّ ذلك لِتمهيدِ مَبادي إجابةِ دُعائِه، وإعطاءِ مسؤولِه الَّذي لا يتسنَّى ذلك المَرامُ إلَّا به؛ ولذلك أُدْخِلَ عليه الفاءُ فقال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: أفئدةً من أفئدتِهم[٣].

- وفي قولِه: ﴿رَّبَّنَآ﴾ إيثارُ ضَميرِ الجَماعةِ خِلافًا لسابقِيه، حيثُ قال فيهما: ﴿رَبِّ﴾؛ لأنَّه تقدَّمَ ذِكْرُه وذِكْرُ بَنِيهِ في قولِه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾[٤]، أو أُضِيفَ الرَّبُّ هنا إلى ضَميرِ الجمْعِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ الَّذي افْتُتِحَ به فيه حَظٌّ للدَّاعي ولأبنائِه، ولعلَّ إسماعيلَ عليه السَّلامُ حاضِرٌ معه حينَ الدُّعاءِ، كما تدلُّ له الآيةُ الأُخرى[٥]. وقيل: ليس إيثارُ الجمْعِ لِتقدُّمِ ذِكْرِه وذِكْرِ بَنِيهِ، وإلَّا لَراعاهُ في قولِه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ...﴾ إلخ، بل لأنَّ الدُّعاءَ المُصدَّرَ به وما أورَدَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).

(٢) البَلْقَع: الأرضُ القَفْرُ الخاليةُ التي لا شَيءَ بها. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١١٨٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٠).

بِصدَدِ تَمهيدِ مَبادي إجابتِه مِن قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ ...﴾ مُتعلِّقٌ بذريتِه؛ فالتعرُّضُ لوصفِ رُبوبيَّتِه تعالى لهم أَدْخلُ في القَبولِ، وإجابةِ المسؤولِ[1].

– وخَصَّ الصلاةَ دونَ سائرِ العباداتِ في قولِه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنَّها أفضَلُها، أو لأنَّها سببٌ لكُلِّ خيرٍ[2].

– وذِكْر (الأفئدة)؛ لِإرادةِ أنْ يكونَ مَسيرُ النَّاسِ إليهم عن شوقٍ ومحبَّةٍ، حتَّى كأنَّ المُسرِعَ هو الفؤادُ لا الجسَدُ[3]. وقيل: (مِن) للتَّبعيضِ؛ ولذلك قيل: لو قال: (أفئدةَ النَّاسِ) لَازْدَحَمَت عليهم فارسُ والرُّومُ[4].

– قولُه: ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تَهوي مُضارِعُ (هَوَى)؛ أُطْلِقَ هنا على الإسراعِ في المشْيِ، والإسراعُ: جُعِلَ كِنايةً عنِ المحبَّةِ والشَّوقِ إلى زيارتِهم[5].

– قولُه: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم﴾ لم يخُصَّ الدُّعاءَ بالرِّزقِ بالمُؤمنينَ منهم، كما في قولِه: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ اكتفاءً بذِكْرِ إقامةِ الصَّلاةِ[6].

٤– قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

– قولُه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾ فيه تَكْريرُ النِّداءِ ﴿رَبَّنَآ﴾؛ للمُبالَغةِ في الضَّراعةِ والابتهالِ[7].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٢).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي السعود))

- وقولُه: ﴿مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾ فيه تَقديمُ ﴿مَا نُخۡفِي﴾ على ﴿مَا نُعۡلِنُ﴾؛ لِتحقيقِ المُساواةِ بينهما في تعلُّقِ العِلْمِ بهما على أبلَغِ وجْهٍ؛ فكأنَّ تعلُّقَه بما يُخْفَى أقدَمُ منه بما يُعْلَنُ، أو لأنَّ مَرتبةَ السِّرِّ والخَفاءِ مُتقدِّمةٌ على مَرتبةِ العَلَنِ؛ إذ ما مِن شَيءٍ يُعْلَنُ إلَّا وهو قَبلَ ذلك خفِيٌّ؛ فتعلُّقُ علْمِه سبحانه بحالتِه الأُولى أقدَمُ مِن تعلُّقِه بحالتِه الثَّانيةِ(١).

- قولُه: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ تذييلٌ لِجُملةِ ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾، أي: تَعلَمُ أحوالَنا وتَعلَمُ كلَّ شيءٍ، ولكونِها تذييلًا أُظْهِرَ فيها اسمُ الجلالةِ؛ لِيكونَ التَّذييلُ مُستقِلًّا بنفْسِه بمنزِلةِ المثَلِ والكلامِ الجامعِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الالْتفاتُ مِن الخِطابِ إلى اسمِ الذَّاتِ المُستجمِعةِ للصِّفاتِ؛ لِتربيةِ المَهابَةِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحكمِ -على نهْجِ قولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]- والإيذانِ بعُمومِه؛ لأنَّه ليس بشأْنٍ يختَصُّ به أو بِمَن يتعلَّقُ به، بل شاملٌ لِجميعِ الأشياءِ؛ فالمُناسِبُ ذِكْرُه تعالى بعُنوانٍ مُصحِّحٍ لِمبدأِ الكلِّ. وقيل: هو مِن كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ واردٌ بطريقِ الاعتراضِ؛ لِتصديقِه عليه السَّلامُ، كقولِه سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾(٣) [النمل: ٣٤].

- وقولُه: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾؛ للاستغراقِ، كأنَّه قيل: وما يَخْفى عليه شيءٌ ما(٤).

- قولُه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه تَقديمُ الأرضِ على السَّماءِ، مع

(٥/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠١).

تَوسيطِ حرْفِ النَّفي (لا) بينهما؛ باعتِبارِ القُربِ والبُعدِ مِنَّا المُسْتَدْعِيَيْنِ للتَّفاوتِ بالنِّسبةِ إلى عُلُومِنا(١).

٥- قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

- و(على) في قولِه: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ للاستعلاءِ بمعنى (مع)، أي: وَهَبَ ذلك تَعَلِّيًا على الحالةِ الَّتي شأنُها ألَّا تسمَحَ بذلك، أي: مع الكِبَرِ الَّذي لا تحصُلُ معه الوِلادةُ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ تَعليلٌ على طريقةِ التَّذييلِ للهِبَةِ المذكورةِ، وفيه إيذانٌ بتضاعيفِ النِّعمةِ فيها، حيثُ وقَعَتْ بعد الدُّعاءِ بقولِه: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، فاقترَنَتِ الهِبةُ بقَبولِ الدَّعوةِ. وتَوحيدُ ضَميرِ المُتكلِّمِ وإنْ كان عَقِيبَ ذكْرِ هِبَتِهما؛ لِمَا أنَّ نِعمةَ الهِبةِ فائضةٌ عليه خاصَّةً، وهما مِن النِّعمِ لا مِن المُنعَمِ عليهم، أي: وَهَبَ ذلك؛ لأنَّه سميعُ الدُّعاءِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ كنَّى بـ(سميع الدُّعاءِ) عنِ الإجابةِ والتَّقبُّلِ -معَ إثباتِ صفةِ السمعِ لله على ما يَليقُ بكَمالِه- وكان إبراهيمُ عليه السلامُ قد دعا اللهَ أنْ يهَبَه ولدًا، وصِيغَ بمِثالِ المُبالَغةِ أو الصِّفةِ المُشبَّهَةِ؛ لِيدُلَّ على كَثرةِ ذلك، وأنَّ ذلك شأْنُه، وفيه إشعارٌ بأنَّه دعا ربَّه وسأَلَ منه الولدَ، فأجابه ووهَبَ له سُؤْلَه حينما وقَعَ اليأْسُ منه؛ لِيكونَ مِن أجَلِّ النِّعمِ وأجْلَاها(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٣).

٦- قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾

- قولُه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: وبعْضَ ذُرِّيَّتي - على اعتبارِ أنَّ (مِن) تبعيضيةٌ- عطفًا على المنصوبِ في ﴿ٱجْعَلْنِي﴾، وإنَّما بَعَّضَ؛ لأنَّه علِمَ بإعلامِ اللهِ له، أو استِقراءِ عادتِه في الأُمَمِ الماضيةِ، أنَّه يكونُ في ذُرِّيَّتِه كُفَّارٌ[1].

٧- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾

- قولُه: ﴿يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾، أي: يثبُتُ؛ عُبِّرَ به عنِ الثُّبوتِ تبَعًا لِتشبيهِ الحسابِ بإنسانٍ قائمٍ؛ لأنَّ حالةَ القِيامِ أقْوى أحوالِ الإنسانِ؛ إذ هو انتِصابٌ للعَمَلِ، مِن قِيامِ القائمِ على الرِّجْلِ، والدليلُ عليه قولُهم: قامَتِ الحربُ على ساقِها، ونحوُه. وقيل: أُسنِد إلى الحسابِ قيامُ أهلِه، أو حُذِف المضافُ، مثلَ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[2] [يوسف: ٨٢].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٠٠).

الآيات (٤٢-٤٦)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ
تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ
هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ
كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿تَشْخَصُ﴾: أي: تُرفَعُ وتُفتَحُ فلا تَطرِفُ، وأصلُ (شخص): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ[(١)].

﴿مُهْطِعِينَ﴾: أي: مُسرِعينَ، مُديمِي النَّظَرِ، وأصلُ (هطع): يدُلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ، وانقيادٍ[(٢)].

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أي: رافِعِيها مع الإقبالِ بأبصارِهم إلى ما بينَ أيديهم، مِن غيرِ التفاتٍ إلى شَيءٍ، وأصلُ (قنع): ارتفاعُ الشَّيءِ ليس فيه تَصَوُّبٌ، وأيضًا يدُلُّ على الإقبالِ على الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((مقاييس

﴿طَرْفُهُمْ﴾: أي: نَظَرُهم وأبصارُهم، ولا يُثنَّى (الطَّرْفُ) ولا يُجمَعُ؛ لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ، وأصلُ الطَّرفِ: تحريكُ الجَفنِ، وعُبِّرَ به عن النَّظرِ؛ إذ كان تحريكُ الجَفنِ لازِمُه النَّظرُ[1].

﴿هَوَآءٌ﴾: أي: خالِيةٌ خاوِيةٌ فارِغةٌ، وأصلُ (هوي): يدلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾

﴿وَتَبَيَّنَ﴾ فاعلُه مُضمَرٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، أي: تَبيَّنَ لكم حالُهم، وخبَرُهم، وهلاكُهم.

و﴿كَيْفَ﴾ اسمُ استفهامٍ في محَلِّ نَصبِ مَفعولٌ مُطلَقٌ، وجملةُ ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا﴾ مُفسِّرةٌ للفاعِلِ المقدَّرِ، فلا محلَّ لها من الإعرابِ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾

﴿لِتَزُولَ﴾ اللامُ في ﴿لِتَزُولَ﴾ للجُحودِ، و﴿إِنْ﴾ نافيةٌ، و(تَزولَ) مُضارعٌ منصوبٌ بأنْ مُضمَرة بعدَ اللَّامِ، والمصدرُ المؤوَّلُ (أَنْ تَزُولَ) مجرورٌ باللَّامِ متعَلِّقٌ بخَبَرِ كان المحذوف، أي: ما كان مكرُهم أهلًا أو مُعَدًّا لإزالةِ الجبالِ،

اللغة)) (٥/ ٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٧)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٥٩)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٤٠٥-٤٠٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٢٤-١٢٥)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (٢/ ١٣٦)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٥٥٠).

وهو استخفافٌ بهم، أي: ليس مكرُهم بمتجاوزٍ مكْرَ أمثالِهم، وما هو بالذي تزولُ منه الجبالُ. ويجوز أن تكونَ اللامُ في ﴿لِتَزُولَ﴾ لامَ التَّعليلِ، و﴿إِنْ﴾ شرطيَّةٌ، وجوابُها محذوفٌ، والتَّقديرُ: وإنْ كان مكرُهم لشِدَّتِه مُعَدًّا لإزالةِ أشباهِ الجبالِ الرَّواسي- وهي المُعجِزاتُ والآيات- فاللهُ مُجازيهم بمكرٍ هو أعظمُ منه.

وقُرِئَ ﴿لَتَزُولُ﴾ بفَتحِ اللامِ الأولى، ورفعِ اللامِ الثانيةِ، فـ﴿إِنْ﴾ مُخفَّفةٌ مِن الثَّقيلة، واللامُ فارِقةٌ بينها وبين النَّافيةِ، فيكونُ الكلامُ إثباتًا لزوالِ الجبالِ مِن مَكرِهم، أي: هو مكرٌ عظيمٌ لَتَزولُ منه الجِبالُ لو كان لها أن تزولَ؛ فهو مستعمَلٌ في معنى الجدارةِ والتأهُّلِ للزَّوالِ، لو كانت الجِبالُ زائلةً[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ولا تظُنَّ- يا مُحمَّدُ- أنَّ اللهَ ساهٍ عن أعمالِ هَؤلاءِ الظَّالِمينَ، كالمشركينَ مِن قومِك، بل هو عالِمٌ بأعمالِهم، وسيُعاقِبُهم على ظُلمِهم، إنَّما يمهلُهم ويؤخِّرُ عِقابَهم إلى يومٍ شَديدٍ ترتفِعُ فيه أبصارُ الخلقِ دونَ أن تطرِفَ جفونُهم؛ مِن هولِ ما تراه، وشدةِ ما يصيبُهم مِن الفزعِ. يمشُونَ مُسرِعينَ عندَ الخُروجِ مِن قُبورِهم، والمَجيءِ لمحشَرِهم، رافعي رُؤوسِهم: لا تعودُ إليهم أبصارُهم، فلا يتمكَّنونَ من توجيهِ أنظارِهم حيث شاؤوا، أو الطَّرْفِ بأعيُنِهم كما أرادوا، وقلوبُهم خاليةٌ ليس فيها شَيءٌ؛ ولا تعقِلُ شيئًا من شدَّةِ الخَوفِ.

وخَوِّفِ النَّاسَ -يا محمدُ- ما ينزلُ بهم مِن عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ، فيقولُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والتكذيبِ والمعاصي: ربَّنا أَمْهِلْنا وأرجِعْنا إلى

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٧٣-٧٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٢٦-١٢٧)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ١٨)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٠-٢٧١).

الدُّنيا زمنًا قليلًا نُؤمِنْ بك ونُصَدِّقْ رُسُلَك. فيقولُ الله لهم: ألم تَحْلِفوا في حياتِكم أنَّه لا انتقالَ لكم مِن الحياةِ الدُّنيا إلى الآخرةِ، ولا بعثَ بعدَ الموتِ؟ وحلَلْتُم في مساكِنِ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم باللهِ، وعَلِمتُم -بما رأيتُم مِن آثارِهم، وسمعتُم مِن أخبارِهم- ما أنزَلْناه بهم من الهلاكِ، ومثَّلْنا لكم الأمثالَ في القُرآنِ؛ لتعتَبِروا بها، فلم تعتَبِروا؟ وقد مكروا مَكرَهم العظيمَ، وعندَ اللهِ جزاءُ مَكرِهم، وما كان مَكرُ الكُفَّارِ بالذي تزولُ منه الجبالُ لضعفِه ووهنِه، ولو كان مكرُهم تزولُ منه الجبالُ فلن يستطيعوا أيضًا إبطالَ دينِ الإسلامِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى دلائِلَ التَّوحيدِ، ثمَّ حكى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه طلَبَ مِن اللهِ أن يَصونَه عن الشِّركِ، وطلَبَ منه أن يوفِّقَه للأعمالِ الصَّالحةِ، وأن يخُصَّه بالرَّحمةِ والمغفرةِ في يومِ القيامةِ- ذكرَ بعد ذلك ما يدُلُّ على وجودِ يومِ القيامةِ، وما يدُلُّ على صفةِ يومِ القيامةِ(١).

وأيضًا لَمَّا ختَمَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ دُعاءَه بيوم الحِسابِ، المُوجِبِ ذِكرُه لكلِّ سَعادةٍ، ونِسيانُه لكُلِّ شَقاوةٍ- ذكرَ بعضَ ما يتَّفِقُ فيه؛ رجوعًا إلى ما مضى من أحوالِ يومِ القيامةِ(٢).

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ، ولها اتِّصالٌ بجُملةِ ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٣٢).

﴿مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] الذي هو وعيدٌ للمُشرِكينَ، وإنذارٌ لهم بألَّا يغتَرُّوا بسلامتِهم وأمْنِهم؛ تنبيهًا لهم على أنَّ ذلك متاعٌ قليلٌ زائِلٌ، فأكَّدَ ذلك الوعيدَ بهذه الآيةِ(١)، فقال:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ولا تظُنَّ- يا محمدُ- اللهَ الذي مِن سُنَّتِه إمهالُ الظَّالِمينَ، وإنظارُهم مُدَّةً قبل أن يُحِلَّ بهم عِقابَه؛ ساهيًا عن أعمالِ هَؤلاءِ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم، كمُشرِكي قَومِك وغيرِهم، بل هو عالِمٌ بأعمالِهم، وسيُعاقِبُهم على ظُلمِهم؛ فإنَّه سُبحانه يُمهِلُ ولا يُهمِلُ(٢).

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي(٣) للظَّالم، حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢]))(٤).

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾.

أي: إنَّما يُمهِلُ اللهُ الظَّالِمينَ ويُؤخِّرُ عِقابَهم إلى يومِ القيامةِ الذي ترتفِعُ فيه أبصارُ الخَلقِ، وهم يُحَدِّقونَ بها مَبهُوتينَ خائفينَ، دون أن تَطرِفَ أجفانُهم، أو تَغتَمِضَ أعيُنُهم؛ لشدَّةِ ما أصابَهم من الفزَعِ، وما يَرَونه من عظيمِ الأهوالِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).
(٣) لَيُملي للظَّالم: أي: يُمهِلُه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٥٥).
(٤) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للأصفهاني (ص: ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).

كما قال تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾.

﴿مُهۡطِعِينَ﴾.

أي: يمشُونَ مُسرِعينَ عند خُروجِهم مِن قُبورِهم، ومَجيئِهم لمحشَرِهم، وحضورِ حِسابِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾.

أي: رافِعي رُؤوسِهم ينظُرونَ إلى ما بينَ أيديهم، دونَ أن يلتَفِتوا يمينًا أو شِمالًا(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

قال القرطبي: (إقناعُ الرأسِ: رفْعُه. قاله ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ... وقيل: ناكسي رؤوسِهم، والآيةُ محتملةُ الوجهينِ، وقاله المُبَرِّدُ. والقولُ الأولُ أعرفُ في اللغةِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦، ٣٧٧). ويُنظر: ((الكامل)) للمبرد (٣/ ٩١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٤٠)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).

وممَّن ذهب من المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بـ ﴿مُقۡنِعِي﴾: رافعو رؤوسِهم: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((غريب القرآن)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾.

أي: لا تعودُ إليهم أبصارُهم على ما اعتادُوه، بحيثُ يتمكَّنونَ من توجيهِ أنظارِهم حيث شاؤوا، أو الطَّرْفِ بأعيُنِهم كما أرادوا؛ وذلك لإدامةِ نَظَرِهم إلى ما يُشاهِدونَه مِن أهوالٍ، فأجفانُهم إليها شاخِصةٌ، وأعيُنُهم نحوَها مُصَوَّبةٌ لا تَطرِفُ لَحظةً[1].

﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾.

أي: وقلوبُهم خاليةٌ، ليس فيها شيءٌ، ولا تعقِلُ شيئًا من شدَّةِ الخَوفِ[2].

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم

ومِمن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والضحاكُ، والحسنُ، وابنُ زيدٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ، وأبو عبيدةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٧).

وقيل: المرادُ بإقناعِ الرأس: طأطأتُه مِن الذلِّ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).

قال أبو العباس المُبَرِّد: (المُقْنِع: الرافِعُ رأسَه، في هذا الموضع، ويقال في غيره: الذي يحُطُّ رأسَه استخذاءً وندمًا؛ قال الله جل وعزَّ: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾. ومن قال هو الرافِعُ رأسَه: فتأويلُه عندنا أن يتطاولَ فينظُرَ ثم يطأطئَ رأسَه، فهو بعدُ يرجِعُ إلى الإغضاءِ والانكسارِ). ((الكامل في اللغة والأدب)) (٣/ ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥).

قال ابنُ كثير: (ولهذا قال: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ أي: وقلوبُهم خاويةٌ خاليةٌ، ليس فيها شيءٌ؛ لكثرة الفزَعِ والوجَلِ والخوفِ؛ ولهذا قال قتادةُ وجماعةٌ: إنَّ أمكِنةَ أفئدتِهم خاليةٌ؛ لأنَّ القلوبَ لدى الحناجِرِ، قد خرَجتْ مِن أماكِنِها مِن شِدَّةِ الخوفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٥).

﴿مِّن زَوَالٖ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: تسَلَّ عنهم، ولا تملَلْ مِن دَعوتِهم، وأنذِرْهم(١).

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾.

أي: وخَوِّفِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- ما هو نازِلٌ بهم يومَ يأتيهم العذابُ يومَ القيامةِ، فيَحذَروا مِن الأعمالِ المُوجِبةِ لذلك العذابِ(٢).

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾.

أي: فيقولُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والتَّكذيبِ، وأنواعِ المعاصي، في ذلك اليومِ: ربَّنا أمهِلْنا، وأرجِعْنا إلى الدُّنيا زمنًا قليلًا، نُؤمِنْ بك ونوَحِّدْك، ونتَّبِعْ رُسُلَك(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٨).

كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾.

أي: فيقولُ الله للظَّالِمينَ الذين سألوه الرَّجعةَ إلى الدُّنيا، مُوبِّخًا لهم: أولَمْ تكونوا تحلِفونَ في الدُّنيا أنَّه لا انتقالَ لكم مِن الدُّنيا إلى الآخرةِ، ولا بعْثَ بعدَ الموتِ[1]؟

كما قال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: ٣٨].

﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

أي: وحلَلْتُم في الدُّنيا في مساكنِ الأُمَمِ السَّابقةِ، الذين ظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم باللهِ تعالى[2].

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾.

أي: وعَلِمتُم بالنَّظَرِ في آثارِهم، والسَّماعِ لأخبارِهم كيف أهلَكْناهم، حينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٩).

قال ابن عاشور: (كان العربُ يَمُرُّونَ على ديارِ ثمودَ في رحلتِهم إلى الشام، ويحطُّون الرِّحالَ هنالك، ويمرُّونَ على ديارِ عادٍ في رحلتِهم إلى اليمنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٩).

أصَرُّوا على كُفرِهم وطُغيانِهم[1].

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.

أي: ومَثَّلْنا لكم في القُرآنِ الأمثالَ الواضِحةَ، وبيَّنَّا الأشباهَ؛ لتعتَبِروا بها، لكِنَّكم لم تفعَلوا، فالآن تَسألونَ التَّأخيرَ للتَّوبةِ يومَ أتاكم العذابُ؟! إنَّ هذا غيرُ كائنٍ أبدًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).

قال الرازي: (المرادُ ما أورده الله في القرآنِ مما يُعلَمُ به أنَّه قادرٌ على الإعادةِ، كما قدَر على الابتداءِ، وقادرٌ على التعذيبِ المؤجَّلِ، كما يفعلُ الهلاكَ المعجَّلَ، وذلك في كتابِ الله كثيرٌ، والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٠).

وقال الشوكاني: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ فِي كُتُبِ اللَّهِ وعلى أَلْسُنِ رسلِه إيضاحًا لَكم وتقريرًا وتكميلًا للحجَّةِ عليكم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٠).

وقال الزمخشري: (﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: صفاتِ ما فعلوا وما فُعِلَ بهم، وهي في الغرابةِ كالأمثال المضروبة لكُلِّ ظالم). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٥).

مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ صِفةَ عِقابِ الكافرينَ؛ أتبَعَها بذِكرِ كيفيَّةِ مَكرِهم[1].

﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ ﴾.

أي: وقد مَكَروا[2] مَكرَهم[3] ....

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٠).

(٢) اختلف المفسِّرون في المرادِ بالذين مكَروا على أقوالٍ؛ منها: أنَّهم الذين ظلموا أنفُسَهم، فيكون المعنى: فعَلْنا بهم ما فعَلْنا، والحالُ أنهم قد مكروا مكرَهم. وهذا في الجملةِ: ظاهرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٠).
وقيل: الضميرُ في ﴿مَكَرُواْ﴾ عائدٌ على المُخاطَبينَ في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي: الذين سكنوا في مساكنِ الذين ظلموا أنفسَهم. وممن اختار هذا المعنى: الرازي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٣- ٤٥٤).
وفي الآية أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥١٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٨٩).

(٣) قيل: كان مكرُهم شركَهم باللهِ وافتراءَهم عليه. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٠).
وقال السمعاني: (قولُه تعالَى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ أي: كادُوا كيدَهم). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٤).
وقال ابنُ عاشور: (والمكرُ: تَبييتُ فعلِ السُّوءِ بالغيرِ وإضمارُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٠).
وهذا القول أيضًا هو ظاهرُ اختيارِ البيضاوي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).
قال الواحدي: (﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ يعني: مكرَهم بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وما همُّوا به مِن قتلِه أو نفيِه). ((الوجيز)) (ص: ٥٨٦).
وقال الرازي: (وذلك المكرُ هو الذي ذكَره الله تعالى في قولِه: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٠). وهذا على اعتبارِ أنَّ الضميرَ في ﴿مَكَرُواْ﴾ عائدٌ على قومِ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٤).

العظيمَ[١].

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾.

أي: وعندَ اللهِ عِلمُ مَكرِهم، وجَزاءُ مَكرِهم، فسيُعاقِبُهم بما يستَحِقُّونَ[٢].

﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لَتَزُولُ﴾ بفتحِ اللامِ الأولى ورفعِ الثَّانية؛ فاللامُ الأولى لامُ التَّوكيدِ، والمعنى: قد كاد مَكرُهم العظيمُ يَبلُغُ مِن شِدَّتِه إلى إزالةِ الجِبالِ. وقيل: المعنى: ولو كان مَكرُهم يبلُغُ في الكيدِ إلى إزالةِ الجِبالِ، فلن يُزيلُوا دينَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ ناصِرٌ دِينَه[٣].

٢- قراءةُ ﴿لِتَزُولَ﴾ بكَسرِ اللامِ الأولى، ونصبِ الثانية، فاللامُ الأولى لامُ الجحود، أي: ما كان مكرُهم لتزولَ منه الجبالُ، والمعنى: ما كان مَكرُهم لِيَزولَ به أمرُ النبيِّ وأمرُ دينِ الإسلامِ؛ لأنَّ ثُبوتَه كثبوتِ الجِبالِ الرَّاسياتِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧١٨، ٧٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٣- ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).
قال ابنُ عاشورٍ: (وانتَصبَ مكرُهم الأولُ على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لفعلِ «مكروا» لبيانِ النوعِ، أي: المكر الذي اشتهروا به، فإضافةُ مكرٍ إلى ضميرِ «هم» مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٦)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٧).
(٣) قرأ بها الكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٦٧)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٥٤٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٦٤، ٦٥)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣١، ٣٢).
(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٠).

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

أي: وما كان مَكرُ الكُفَّارِ بالذي تزولُ منه الجبالُ لضعفِه ووهنِه[1]، ولو كان مكرُهم تزولُ منه الجبالُ فلن يستطيعوا أيضًا إبطالَ دينِ الإسلامِ؛ فإنَّ الله ينصُرُ دينَه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وقال سُبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٠٣، ٢٠٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٦٤، ٦٥)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣١، ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٦٧)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٤١).
قال ابنُ كثيرٍ: (والقولُ الثَّاني في تفسيرِها [أي: على قراءةِ فتحِ اللامِ الأُولَى وضمِّ اللامِ الثانيةِ]: ما رواه عليُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابنِ عبَّاس: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ يقولُ: شِرْكُهم، كقولِه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠ -٩١]، وهكذا قال الضحَّاكُ وقتادةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٧).
ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٥)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (١/ ٢٧٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ هذه الآيةُ بجُملتِها فيها وعيدٌ للظَّالِمينَ، وتسليةٌ للمَظلومينَ(١).

٢- يجِبُ على كلِّ مَن شاهَدَ أحوالَ الماضِينَ مِن الأُمَمِ الخاليةِ، والقُرونِ الماضيةِ، وعَلِمَ ما جرى لهم، وكيف أُهلِكوا- أن يعتَبِرَ بهم، ويعمَلَ في خَلاصِ نَفسِه من العقابِ والهَلاكِ؛ قال الله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يليقُ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يحسَبَ اللهَ مَوصوفًا بالغَفلةِ؟

والجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجه الأوَّلُ: أنَّ المُرادَ به التَّثبيتُ على ما كان عليه مِن أنَّه لا يحسَبُ اللهَ غافِلًا، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤]، و﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [القصص: ٨٨].

الوجه الثاني: أنَّ المقصودَ منه بيانُ أنَّه لو لم ينتقِمْ لكان عدمُ الانتقامِ لأجلِ غَفلتِه عن ذلك الظُّلم، ولَمَّا كان امتناعُ هذه الغَفلةِ معلومًا لكُلِّ أحدٍ، لا جرَمَ كان عدَمُ الانتقامِ مُحالًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤).

الوجه الثالثُ: أنَّ المُرادَ: ولا تحسَبَنَّه يُعامِلُهم مُعاملةَ الغافِلِ عمَّا يعملونَ، ولكِنْ مُعاملةَ الرَّقيبِ عليهم، المُحاسِبِ على النَّقيرِ والقِطميرِ.

الوجه الرابعُ: أن يكونَ هذا الكلامُ وإن كان خطابًا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الظَّاهِرِ، إلَّا أنَّه يكونُ في الحقيقةِ خِطابًا مع الأمَّةِ[1].

الوجه الخامسُ: أنَّ نهيَه عنه تحذيرٌ مِن التلبسِ به، بقطعِ النظرِ عن تقديرِ تلبُّسِ المخاطَبِ بذلك الحسبانِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ سُمِّيَ جزاءُ المَكرِ مَكرًا؛ تنبيهًا على أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المُرادُ بالنَّهيِ عن حُسبانِه غافلًا: الإيذانُ بأنَّه عالِمٌ بما يفعَلُ الظَّالمونَ، لا يخْفى عليه مِنْهُ شيءٌ، وأنَّه مُعاقِبُهم على قليلِه وكثيرِه، على سبيلِ الوعيدِ والتَّهديدِ[4]، وصِيغَةُ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ظاهِرُها نهْيٌ عن حُسبانِ ذلك، وهذا النَّهيُ كِنايةٌ عن إثباتِ وتَحقيقِ ضدِّ المَنْهيِّ عنه في المقامِ الَّذي مِن شأنِه أنْ يُثيرَ للنَّاسِ ظنَّ وُقوعِ المَنْهيِّ عنه؛ لِقوَّةِ الأسبابِ المثيرةِ لذلك؛ وذلك أنَّ إمهالَهم، وتأْخيرَ عُقوبتِهم يُشبِهُ حالةَ الغافلِ عن أعمالِهم، أي: تحقَّقْ أنَّ اللهَ ليس بغافلٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٠٧-١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٥).

وهو كِنايةٌ ثانيةٌ عن لازِمِ عدَمِ الغفلةِ، وهو المُؤاخذةُ، فهو كِنايةٌ بمرتبتَينِ؛ ذلك لأنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ يُؤذِنُ بأنَّ المَنْهيَّ عنه بحيثُ يَتلبَّسُ به المُخاطَبُ، فنهْيُه عنه تحذيرٌ مِن التَّلبُّسِ به بقطْعِ النَّظرِ عن تقديرِ تلبُّسِ المُخاطَبِ بذلك الحُسبانِ. وعلى هذا الاستِعمالِ جاءتِ الآيةُ، سواءٌ جعَلْنا الخِطابَ لكلِّ مَن يصِحُّ أنْ يُخاطَبَ؛ فيدخُلُ فيه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أمْ جعَلْناه للنَّبيِّ ابتداءً، ويدخُلُ فيه أُمَّتُه. ونفْيُ الغفلةِ عنِ اللهِ ليس جاريًا على صَريحِ معناه؛ لأنَّ ذلك لا يظُنُّه مُؤمنٌ، بل هو كِنايةٌ عنِ النَّهيِ عنِ استعجالِ العَذابِ للظَّالمينَ، ومنه جاء معنى التَّسليةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ففي قولِه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ تسليةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووعْدٌ له أكيدٌ، ووعيدٌ شَديدٌ للكَفَرةِ وسائرِ الظَّالمينَ، أو لكلِّ أحدٍ ممَّن يَستعجِلُ عذابَهم أو يتوهَّمُ إهمالَهم؛ للجهْلِ بصِفاتِه تعالى والاغترارِ بإمهالِه[1].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ استِئنافٌ وقَعَ تعليلًا للنَّهيِ السَّابقِ[2]، وإيقاعُ التَّأخيرِ عليهم مع أنَّ المؤخَّرَ إنَّما هو عذابُهم؛ لِتهويلِ الخطْبِ، وتفظيعِ الحالِ، ببيانِ أنَّهم مُتوجِّهونَ إلى العذابِ، مُرْصَدونَ لأمْرٍ ما، لا أنَّهم باقونَ باختِيارِهم، وللدَّلالةِ على أنَّ حقَّهم مِن العذابِ هو الاستئصالُ بالمرَّةِ، وألَّا يَبْقَى منهم في الوُجودِ عَينٌ ولا أثَرٌ، ولو قيل: (إنَّما يُؤَخِّرُ عذابَهم ...) لَمَا فُهِمَ ذلك[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله تعالى: ﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡ﴾ كِنايةٌ عن هوْلِ ما شاهَدُوه، بحيث يَبقُونَ ناظرينَ إليه، لا تطْرِفُ أعينُهم، والمعنى: لا يَرجِعُ إليهم، أي: لا يعودُ إلى مُعتادِه، أي: لا يستطيعونَ تحويلَه(١).

- وقولُه: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ تَشبيهٌ محْضٌ؛ لأنَّ أفئدتَهم ليستْ بهواءٍ حقيقةً، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ في فراغِها مِن الرَّجاءِ والطَّمَعِ في الرَّحمةِ؛ فهي مُنخَرِقةٌ مُشْبِهةٌ الهواءَ في تفرُّغِه مِن الأشياءِ وانخراقِه، وأنْ يكونَ في اضْطرابِ أفئدتِهم، وجَيَشانِها في الصُّدورِ، وأنَّها تَجيءُ وتذهَبُ وتبلُغُ- على ما رُوِيَ- حناجِرَهم، فهي في ذلك كالهواءِ الَّذي هو أبدًا في اضْطرابٍ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ بالناسِ: الكفارُ المعبَّرُ عنهم بالظالمينَ ففيه العُدولُ مِن الإضمارِ- حيثُ لم يقُلْ: (وأنذِرْهم)- إلى ذكْرِ النَّاسِ بقولِه: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ المُرادَ بالإنذارِ هو الزَّجرُ عمَّا هم عليه مِن الظُّلمِ؛ شفقةً عليهم، لا التَّخويفُ للإزعاجِ والإيذاءِ؛ فالمُناسِبُ عدَمُ ذكْرِهم بعنوانِ الظُّلمِ. وعلى القول بأنَّ المرادَ: النَّاسُ جميعًا: فإنَّ الإنذارَ عامٌّ للفريقَينِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ [يس: ١١]، والإتيانُ يعُمُّهما مِن حيثُ كونُهما في الموقفِ، وإنْ كان لُحوقُه بالكُفَّارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٥).

خاصَّةً، أي: أنذِرْهم وخوِّفْهم[١].

- وإنَّما خَصَّهم بيومِ العذابِ فقال: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ - وإن كان يومَ الثَّوابِ- لأنَّ الكلامَ خرجَ مَخرجَ التَّهديدِ للعاصي[٢].

- قولُه: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ﴾، أي: فيقولونَ؛ ففيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، والعُدولُ عن المُضمَرِ إلى ما عليه النَّظمُ الكريمُ؛ للتَّسجيلِ عليهم بالظُّلمِ، وللإشعارِ بأنَّ ما لَقُوه مِن الشِّدَّةِ إنَّما هو لِظُلمِهم، وإيثارُه على صِيغةِ الفاعِلِ (الظَّالِمونَ) حسْبَما ذُكِرَ أوَّلًا؛ للإيذانِ بأنَّ الظُّلمَ في الجُملةِ كافٍ في الإفضاءِ إلى ما ذُكِرَ مِن الأهوالِ مِن غيرِ حاجةٍ إلى الاستمرارِ عليه، كما يُنْبِئُ عنه صِيغَةُ الفاعِلِ. وعلى تقديرِ كونِ المُرادِ بالنَّاسِ مَن يعُمُّ المُسلمينَ أيضًا؛ فالمعنى: الَّذين ظلَموا منهم، وهم الكُفَّارُ، أو يقولُ كلُّ مَن ظلَمَ بالشِّركِ والتَّكذيبِ مِن المُنذَرينَ وغيرِهم مِن الأُمَمِ الخاليةِ؛ فإنَّ إتيانَ العذابِ يعُمُّهم، كما يُشْعِرُ بذلك وعْدُهم باتِّباعِ الرُّسلِ[٣].

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ﴾ استِفهامٌ معناه التَّوبيخُ والتَّقريعُ[٤].

- وصِيغَةُ الخِطابِ في جوابِ القسَمِ ﴿مَا لَكُم﴾؛ لِمُراعاةِ حالِ الخطابِ في ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾، كما يُقال: حلَفَ باللهِ لَيَخرُجَنَّ، وهو أَدْخَلُ في التَّوبيخِ مِن أنْ يُقالَ: ما لنا؛ مُراعاةً لِحالِ المُقسِمِ؛ فجاء على إرادةِ القولِ، و﴿مَا لَكُم﴾ جوابُ القسَمِ، جاءَ بلفْظِ الخِطابِ على المُطابَقةِ دونَ الحكايةِ، والمعنى: أقسَمْتُم أنَّكم باقونَ في الدُّنيا لا تُزَالُونَ بالموتِ، ولعلَّهم أقسَموا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٢).

بطَرًا وغُرورًا، أو دلَّ عليه حالُهم، حيث بَنَوْا شديدًا، وأمَّلوا بعيدًا(١).

– وافْتُتِحَت جُملةُ الجوابِ ﴿أَوَلَمْ﴾ بواوِ العَطفِ؛ تَنبيهًا على مَعطوفٍ عليه مُقدَّرٍ هو رفْضُ ما سألوه؛ حُذِفَ إيجازًا؛ لأنَّ شأْنَ مُستحِقِّ التَّوبيخِ ألَّا يُعْطَى سُؤْلَه، والتَّقديرُ: كلَّا وألَمْ تكونوا أقسَمْتُم... إلخ(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ هذا مِن الاستِطرادِ، وهو التَّعريضُ بِعَيبِ إنسانٍ بذِكْرِ عَيبِ غيرِه(٣).

– قولُه: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ فيه مِن المُبالَغةِ ما ليس في أنْ يُقالَ: (ما فعَلْنا بهم)(٤)، والتَّعبيرُ بـ﴿فَعَلْنَا﴾ مَحمولٌ على الوَعيدِ الشَّديدِ(٥).

٥- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾

– قولُه: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ فيه تَعريضٌ بالوعيدِ والتَّهديدِ بالمُؤاخذةِ بِسُوءِ فعْلِهم، أو هو وَعيدٌ بالجزاءِ على مكْرِهم(٦).

– قولُه: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ هذا مِن بابِ الغُلُوِّ والإيغالِ والمُبالَغةِ في ذمِّ مكْرِهم(٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤٨).
(٣) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٧).
(٥) يُنظر: ((البرهان)) (٤/ ١٢١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٥).

- قولُه: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ على قِراءةِ الجمهورِ ﴿لِتَزُولَ﴾ -بكسرِ اللامِ وبنَصبِ الفِعلِ المضارِعِ بعدَها- فتكونُ (إنْ) نافيةً، ولامُ ﴿لِتَزُولَ﴾ لامَ الجُحودِ، أي: وما كان مكْرُهم زائلةً منه الجبالُ، وهو استخفافٌ بهم، أي: ليس مكْرُهم بمُتجاوِزٍ مكْرَ أمثالِهم، وما هو بالَّذي تزولُ منه الجبالُ. وفي هذا تعريضٌ بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسلمينَ الَّذين يريدُ المُشركونَ المكْرَ بهم لا يُزَعْزِعُهم مكْرُهم؛ لأنَّهم كالجبالِ الرَّواسي[1]، وجُعِلَتْ (إنْ) نافيةً، واللَّامُ مُؤكِّدةً لها، والمعنى: ومُحالٌ أنْ تزولَ الجبالُ بمكْرِهم[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٥، ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٣).

الآيات (٤٧-٥٢)

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ
تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ
﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ
لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: أي: مَشدُودينَ، قد قُرِنَ بعضُهم إلى بعضٍ، أو قُرِنَت أيديهم وأرجلُهم إلى رِقابِهم، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾: أي: الأغلالِ والقُيودِ، وأصلُ (صفد): يدلُّ على شَدٍّ بشَيءٍ[٢].

﴿سَرَابِيلُهُم﴾: أي: قُمُصُهم، واحِدُها: سِربالٌ، وهو القَميصُ مِن أيِّ جِنسٍ كان[٣].

﴿قَطِرَانٍ﴾: القَطِرانُ: مادَّةٌ حارَّةٌ، سَوداءُ اللَّونِ، نَتِنةُ الرَّائِحةِ، شديدةُ الاشتعالِ، تُطلَى بها جُلودُ الإبلِ الجَربَى؛ لِيَزولَ الجَرَبُ منها[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

﴿وَتَغْشَىٰ﴾: أي: تَلفَحُ وتَعلو وتغطِّي، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى: فلا تظُنَّ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ مخلفُ رُسُلِه ما وعَدَهم به من النَّصرِ على أعدائِهم؛ إنَّ اللهَ قَويٌّ قاهِرٌ لا يُغالَبُ، ولا يمتَنِعُ عليه شيءٌ أراده، مُنتَقِمٌ مِن أعدائِه أشَدَّ انتقامٍ، يومَ تُبَدَّلُ صفاتُ هذه الأرضِ إلى صفاتٍ أخرَى، وكذلك تُبَدَّلُ السَّمواتُ، ويخرُجُ الناسُ مِن قُبورِهم أحياءً ظاهرينَ لِلقاءِ اللهِ المتفرِّدِ بالمُلْك والخَلقِ والتَّدبيرِ، والعَظَمةِ والكمالِ، الذي قهَرَ كُلَّ خَلْقِه، فهم تحتَ تصَرُّفِه وتَدبيرِه وحُكمِه، وترى- يا محمدُ- الكافرينَ يومَ القيامةِ مُقَيَّدينَ بالقيودِ، ثِيابُهم مِن القَطِرانِ الشَّديدِ الاشتعالِ، وتلفَحُ وُجوهَهم النَّارُ فتَحرِقُها، يفعَلُ اللهُ ذلك بهم؛ ليكونَ في ذلك جزاءٌ للمُسيءِ على إساءتِه، واللهُ يجازي كلَّ إنسانٍ بما عَمِلَ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، إنَّ اللهَ سَريعُ الحسابِ.

هذا القرآنُ الذي أنزَلْناه إليك -أيُّها الرَّسولُ- بلاغٌ وإعلامٌ للنَّاسِ؛ وكفايةٌ لهم به يتبلَّغونَ؛ للوُصولِ إلى أعلى المَقاماتِ والدَّرَجاتِ، أنزلناه ليُخَوَّفوا به عِقابَ اللهِ، ويُحَذَّروا من نقمتِه، وليعلموا أنَّ اللهَ المعبودَ بحقٍّ إلهٌ واحِدٌ، لا يستحِقُّ غيرُه العبادةَ، وليتَّعِظَ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤٧﴾.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾.

أي: فلا تظُنَّ اللهَ -يا مُحمَّدُ- مُخلِفَ رُسُلِه ما وعَدَهم من النُّصرةِ لهم ولأتباعِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٣٧).

وإهلاكِ أعدائِهم، وخِذلانِهم في الدُّنيا والآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال سُبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قَويٌّ قاهِرٌ لا يُغالَبُ، ولا يمتَنِعُ عليه شيءٌ أراده، مُنتقِمٌ مِن أعدائِه الكافرينَ[٢].

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾، بيَّنَ وقتَ انتقامِه[٣].

وأيضًا لَمَّا تقرَّرت عظَمةُ ذلك اليومِ الذي تشخَصُ فيه الأبصارُ، وكان أعظَمَ يومٍ يظهَرُ فيه الانتقامُ؛ بيَّنَه بقَولِه تعالى[٤]:

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٣٨).

أي: إنَّه تعالى ذو انتقامٍ مِن الكافرينَ[١] حينَ تتبدَّلُ صِفاتُ هذه الأرضِ إلى صفاتٍ أُخرَى، ومِن ذلك نَسْفُ جِبالِها، وتفجيرُ بحارِها، وذَهابُ أوديتِها وأشجارِها، وجميعِ ما عليها مِن عِمارةٍ وغَيرِها، فلا يبقَى على وَجهِها شيءٌ، وتُبسَطُ وتُمدُّ مَدًّا، وتتبدَّلُ صِفاتُ هذه السَّمواتِ كذلك إلى صفاتٍ أُخرَى، ومن ذلك انتِثارُ كواكِبِها، وكسوفُ شَمسِها، وخُسوفُ قَمَرِها، وانشقاقُها وغيرُ ذلك[٢].

(١) ممَّن اختار أنَّ ﴿ يَوۡمَ ﴾ ظرفٌ للانتقامِ المذكورِ قَبلَه: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

وقيل: المعنى: اذكُرْ يومَ تبَدَّلُ الأرض. وممَّن اختار هذا: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٩، ٧٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: الزجَّاج، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ تيميةَ، وابنِ كثيرٍ، وابنِ جزي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ١٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٠).

وقيل: المرادُ تبديلُ ذواتِها إلى ذاتٍ أخرى مختلفةٍ. وممن اختار ذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٣-٣٨٤).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وأنسُ بنُ مالكٍ، وعمرُو بنُ ميمونٍ، وكعبٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٢٩).

وقال ابنُ جَريرٍ: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: قولُ مَن قال: معناهُ: يومَ تُبدَّلُ الأرضُ الَّتي نحنُ عليها اليومَ يَومَ القيامةِ غيرَها، وكذلك السَّمواتُ اليومَ تُبدَّلُ غيرَها، كما قال جَلَّ ثناؤُه، وجائزٌ أنْ تكونَ المُبدَّلةُ أرضًا أُخرى مِن فِضَّةٍ، وجائزٌ أنْ تكونَ نارًا، وجائزٌ أنْ تكونَ خُبزًا، وجائزٌ أنْ تكونَ غيرَ ذلك، ولا خبَرَ في ذلك عِندنا مِن الوجْهِ الَّذي يجبُ التَّسليمُ له أيَّ ذلك يكونُ، فلا قولَ في ذلك يَصِحُّ إلَّا ما دَلَّ عليه ظاهِرُ التَّنزيلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٣٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (خرَّجَ مُسلمٌ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالت: سألْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن قولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩-١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨- ٩].

وقال سُبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ٨-١٠].

﴾؛ فأين يكونُ النَّاسُ يَومئذٍ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «على الصِّراطِ». فالأرْضُ تُبدَّلُ كما ثبَتَ في الصَّحيحين: «أنَّ النَّاسَ يُحْشَرونَ على أرض بَيضاءَ عَفْراءَ كقُرصةِ النَّقِيِّ، ليس فيها عَلَمٌ لأحد». قال ابنُ مَسعود رضيَ اللهُ عنه: «هي أرضٌ بَيضاءُ كهَيئةِ الفِضَّة، لم يُعْمَلْ عليها خَطيئةٌ، ولا سُفِكَ فيها دَمٌ حَرامٌ، ويُجمَعُ النَّاسُ في صَعيدٍ واحدٍ يَنفُذُهم البَصرُ، ويُسمِعُهم الدَّاعي، حُفاةً عُراةً، غُرْلًا، كما خُلِقوا، فيأخُذُ النَّاسَ مِن كرْبِ ذلك اليوم وشِدَّته حتَّى يُلجِمَهم العرَقُ». وبَعضُهم يَرفَعُه إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكذا عن مُجاهدٍ وغَيره مِنَ السَّلفِ... فهذا الحديثُ وسائرُ الآثارِ تُبيِّنُ أنَّ النَّاسَ يُحشَرونَ على الأرضِ المُبدَّلةِ، والقُرآنُ يُوافِقُ على ذلك؛ كقولِه تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وحَشْرُهم وحِسابُهم يكونُ قبْلَ الصِّراطِ؛ فإنَّ الصِّراطَ عليه يَنْجُون إلى الجنَّة، ويَسقُطُ أهْلُ النَّارِ فيها، كما ثبَتَ في الأحاديث. وحديثُ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها المُتقدِّمُ يدُلُّ على أنَّ التَّبديلَ وَهُمْ على الصِّراطِ، لكنَّ البُخاريَّ لم يُورِدْه، فلعلَّهَ ترَكَهُ لهذه العِلَّةِ وغيرِها؛ فإنَّ سنَدَهُ جيِّدٌ. أو يُقالُ: تُبدَّلُ الأرضُ قبْلَ الصِّراطِ، وعلى الصِّراطِ تُبدَّلُ السَّمواتُ. ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ١٠٣).

وقيل في الجمعِ بينَ هذه الأخبارِ بأنَّ تبديلَ السمواتِ والأرضِ يقعُ مرَّتينِ: إحدُاهما تُبدَّلُ صفاتُهما فقط، وذلك عندَ النفخةِ الأُولَى، فتُنثَرُ الكواكبُ، وتخسفُ الشمسُ والقمرُ، وتصيرُ السماءُ كالمُهلِ، وتكشطُ عن الرؤوسِ، وتسيرُ الجبالُ، وتموجُ الأرضُ، وتنشقُّ إلى أن تصيرَ الهيئةُ غيرَ الهيئةِ، ثمَّ بينَ النفختينِ تُطوَى السماءُ والأرضُ، وتُبدلُ السماءُ والأرض. يُنظر: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٥٠٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٧٦).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ١-٣].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٤].

وعن سَهلِ بنِ سعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ[(١)]، كقُرصةِ النَّقيِّ[(٢)]، ليس فيها عَلَمٌ[(٣)] لأحدٍ))[(٤)].

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

أي: وخرجَ النَّاسُ مِن قُبورِهم أحياءً ظاهِرينَ -لا يُوارِيهم شَيءٌ مِن بناءٍ أو غيرِه- لِلَّهِ المتفرِّدِ بالمُلْك والخَلقِ والتَّدبيرِ، والعَظَمةِ والكمالِ، الذي قهَرَ كُلَّ خَلْقِه، فهم تحتَ تصَرُّفِه وتَدبيرِه وحُكمِه[(٥)].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) عفراءَ: أي: لا يَخلُصُ بَياضُها، بل يَضرِبُ إلى الحُمرة. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٣٤)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٥١٠).

(٢) قُرصَة النَّقِيِّ: أي: رغيف الدَّقيقِ المَنخُولِ النَّظيفِ الأبيضِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٥٤٨)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٥١٠).

(٣) ليس فيها علَمٌ: أي: ليس فيها علامةُ سُكنى، ولا بناءٌ ولا أثَرٌ، ولا شيءٌ مِن العلاماتِ التي يُهتدى بها في الطُّرُقاتِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٧٥).

(٤) رواه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠)، واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢١، ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

أي: وترى -يا محمَّدُ- الكافرينَ يومَ القيامةِ مُقَيَّدينَ بالأغلالِ والقُيودِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢].

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾.

أي: ثيابُهم التي يَلبَسونَها مِن القَطِرانِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٠).
قيل: مُقَرَّنة أيديهم وأرجُلُهم إلى رِقابِهم بالأصفادِ. وممن قال بهذا: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠). وممن قال بهذا القولِ مِن السلف: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٢).
وقيل: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: بعضُهم إلى بعضٍ، قد جُمِعَ بين النُّظَراء أو الأشكالِ منهم، كلُّ صِنفٍ إلى صِنفٍ. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثيرٍ، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).
وجمَع البقاعي بينَ المعنيينِ، فقال: (﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: القُيودِ، والمراد هنا: الأغلالُ، أي: السلاسِلُ التي تُجمَعُ الأيدي فيها إلى الأعناقِ، ويُقرَنونَ فيها مع أشكالِهم). ((نظم الدرر)) (١٠/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).
قال الزمخشري: (تُطلى به جلودُ أهلِ النَّارِ، حتى يعود طلاؤُه لهم كالسَّرابيل وهي القُمُص، لتجتمعَ عليهم الأربَعُ: لذعُ القَطِرانِ وحُرقتُه، وإسراعُ النَّارِ في جلودهم، واللَّونُ الوَحش، ونَتْنُ الرِّيحِ. على أنَّ التفاوتَ بين القطرانينِ كالتَّفاوتِ بين النَّارينِ). ((تفسير الزمخشري))

عن أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((النَّائحةُ إذا لم تتُبْ قبل مَوتِها تُقامُ يومَ القيامةِ وعليها سِربالٌ من قَطِرانٍ، ودِرعٌ من جَرَبٍ[1]))[2].

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: وتلفَحُ وُجوهَ المُجرِمينَ النَّارُ، فتُحيطُ بها مِن كُلِّ جانبٍ، وتَحرِقُها[3].

كما قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩-٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾.

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

(٢/ ٥٦٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وجُعِلَتْ سَرابيلُهم مِن قَطِرانٍ؛ لأنَّه شَديدُ الحرارةِ، فيُؤلِمُ الجِلْدَ الواقِعَ هو عليه، فهو لِباسُهم قبْلَ دُخولِ النَّارِ ابتداءً بالعذابِ حتَّى يَقَعوا في النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٣).

(١) دِرعٌ مِن جَرَبٍ: الدِّرعُ من المرأةِ قَميصُها، والجربُ داءٌ يُصيبُ الجلدَ بالحَكَّةِ. والمراد: أنَّه يُسلَّط على أعضاءِ النائحةِ الجربُ والحَكَّةُ، بحيثُ يُغطِّي جِلدَها تغطيةَ الدِّرعِ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٧)، ((شرح المشكاة للطيبي)) (٤/ ١٤١٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٠/ ٥٣٨).

(٢) رواه مسلم (٩٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٠).

قال السعدي: (﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ التي هي أشرَفُ ما في أبدانِهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: تحيطُ بها وتَصْلاها من كلِّ جانبٍ، وغيرُ الوجوهِ من بابِ أولَى وأحرَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

أي: يفعَلُ اللهُ بالمُجرِمينَ ما يفعَلُ؛ ليكونَ في ذلك جزاءٌ للمُسيءِ على إساءتِه، لا ظُلمًا منه سُبحانه، وكما يعاقِبُ من أساء يُثيبُ من أحسَنَ وأطاع[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

وقال سُبحانه: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سَريعُ المُحاسَبةِ لعبادِه يومَ القيامةِ، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِهم[2].

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا اشتَمَلت هذه السُّورةُ على ما قَرَع السَّمعَ مِن هذه المواعِظِ والأمثالِ والحِكَم التي أبكَمَت البُلَغاءَ، وأخرَسَت الفُصَحاءَ، وبَهَرت العُقولَ؛ تَرجَمَها سُبحانَه بما يصلُحُ عُنوانًا لجميعِ القُرآنِ، فقال تعالى[3]:

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).
وقد تقدم تفسير نظير هذه الجملة في تفسير سورة آل عمران- الآية ١٩ من ((التفسير المحرر)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٤١).

أي: هذا القُرآنُ تَبليغٌ مِن اللهِ تعالى إلى جميعِ النَّاسِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، والإعذارِ إليهم(١)، وهو كفايةٌ لهم في الموعظةِ والتذكيرِ(٢)، وبه يتبلَّغونَ، ويتزوَّدونَ للوُصولِ إلى أعلى المَقاماتِ والدَّرَجاتِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٠).

ومِمن اختار أنَّ قولَه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ بمعنى التبليغِ: الواحدي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٤).

وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جرير، وابنِ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣).

قال ابنُ جريرٍ: (يقولُ تعالى ذكرُه: هذا القرآنُ بلاغٌ للناسِ، أبلَغ الله به إليهم في الحجةِ عليهم، وأعذرَ إليهم بما أنزَل فيه مِن مواعظِه وعبره). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٤).

ومِمن اختار أنَّ قولَه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ بمعنَى الكفايةِ: الزمخشري، والرسعني، وابنُ الجوزي، والرازي، والبيضاوي، وأبو حيان، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٩)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٢٦).

ومِمن جمَع في تفسيرِ قولِه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ بينَ معنى الكفايةِ ومعنَى التبليغِ: الشوكاني، فقال: (﴿بَلَٰغٌ﴾، أي: تبليغٌ وكفايةٌ في الموعظةِ والتَّذكيرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

قال السعدي: (﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يتبلَّغونَ به ويتزوَّدونَ إلى الوصولِ إلى أعلَى المقاماتِ، وأفضلِ الكراماتِ، لما اشتمل عليه مِن الأصولِ والفروعِ، وجميعِ العلومِ التي يحتاجُها العبادُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨).

وقال الشنقيطي: (والبلاغُ: الكفايةُ، وما تُبْلَغُ به البُغيةُ. وما ذَكَره هنا مِن أنَّ هذا القرآنَ فيه الكفايةُ للعابدِينَ، وما يبلغونَ به بُغيتَهم، أي: مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ ذَكَره في غيرِ هذا الموضعِ، كقولِه: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٥٠).

وقال ابنُ أبي زمنين: (يُبَلِّغُهم إلى الجنَّةِ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٧٨).

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لما كان متعلقُ البلاغِ يتضمَّنُ البشارةَ؛ عُطِف عليه النذارةُ[١]، فقال تعالى:

﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

أي: وأنزَلْنا القُرآنَ ليُخَوَّفَ النَّاسُ به عِقابَ اللهِ، ويُحَذَّروا من نقمتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال سُبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أي: وليعلمَ النَّاسُ بحُجَجِ القرآنِ وبَراهينِه أنَّ اللهَ المعبودَ بحَقٍّ إلهٌ واحِدٌ، لا يستحِقُّ غيرُه العبادةَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ١-٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

وقال سُبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

أي: وليتذكَّرَ ويتَّعِظَ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ بهذا القرآنِ، فيَهتَدوا إلى العمَلِ بما ينفَعُهم، وتَرْكِ ما يضُرُّهم[1].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال سُبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ﴾ [فصلت: ٤٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ -أي: العُقولِ الكاملةِ- ما ينفَعُهم فيفعَلوه، وما يضُرُّهم فيتركوه، وبذلك صاروا أولي الألبابِ والبَصائرِ؛ إذ بالقُرآنِ ازدادت معارِفُهم وآراؤُهم، وتنوَّرَت أفكارُهم لَمَّا أخَذُوه غَضًّا طَرِيًّا، فإنَّه لا يدعو إلَّا إلى أعلى الأخلاقِ والأعمالِ وأفضَلِها، ولا يستدلُّ على ذلك إلَّا بأقوى الأدلَّةِ وأبيَنِها، وهذه القاعدةُ إذا تدَرَّبَ بها العبدُ الذَّكيُّ، لم يزَلْ في صعودٍ ورُقِيٍّ على الدَّوامِ في كلِّ خَصلةٍ حَميدةٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٧)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٢٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ اللهَ تعالى قال في الآيةِ الأُولَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال في هذه الآيةِ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ والمقصودُ منه التنبيهُ على أنَّه تعالى لو لم يُقِمِ القيامةَ، ولم ينتقِمْ للمظلومينَ مِن الظَّالِمينَ، لزِمَ إمَّا كونُه غافِلًا، وإمَّا كَونُه مُخلِفًا في الوعدِ، ولَمَّا تقَرَّرَ في العقولِ السَّليمةِ أنَّ كُلَّ ذلك مُحالٌ، كان القولُ بأنَّه لا يقيمُ القيامةَ، باطِلًا(١).

٢- إنَّما قال اللهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ مع كونِه سُبحانَه عالِمًا بهم، لا تخفَى عليه خافيةٌ مِن أحوالِهم، برَزوا أو لم يَبرُزوا؛ لأنَّهم كانوا يستَتِرونَ عن العُيونِ عند فِعلِهم للمعاصي، ويظنُّونَ أنَّ ذلك يخفَى على اللهِ تعالى، فالكلامُ خارِجٌ على ما يعتَقِدونَه(٢).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ لَمَّا عَظُمَ الأمرُ بإسنادِ الجَزاءِ إلى الاسمِ الأعظَمِ الجامِعِ لجميعِ صِفاتِ الكَمالِ، اقتضَى ذلك أن يكونَ نَفسُ الكسبِ هو الجزاءَ؛ لأنَّ ذلك أبدَعُ وأدَقُّ في الصُّنعِ، وأبرَعُ بأن يُصَوَّرَ بما يَحِقُّ من الصُّوَرِ المَليحةِ عند إرادةِ الثوابِ، والقبيحةِ عند إرادة العِقابِ(٣).

٤- اللهُ سُبحانَه حَكيمٌ لا يفعَلُ شَيئًا عَبَثًا، ولا لغَيرِ معنًى ومَصلحةٍ، وحِكَمُه هي الغايةُ المقصودةُ بالفِعلِ، بل أفعالُه سُبحانَه صادِرةٌ عن حِكمةٍ بالغةٍ لأجْلِها فعَلَ، كما هي ناشِئةٌ عن أسبابٍ بها فَعَل، وقد دلَّ كَلامُه وكلامُ رَسولِه على هذا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٤٠).

ومن ذلك قَولُه تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[1].

٥- في قول الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ذكَرَ الله لِهذا البلاغِ ثلاثَ فوائدَ هي الغايةُ والحكمةُ في إنزالِ الكتُبِ: تكميلَ الرُّسلِ للنَّاسِ، واستكمالَ القوَّةِ النَّظريَّةِ الَّتي مُنْتهى كَمالِها التَّوحيدُ، واستصلاحَ القوَّةِ العَمليَّةِ الَّذي هو التَّدرُّعُ بِلِباسِ التَّقوى، جعَلَنا اللهُ تعالى مِن الفائزينَ بهما، فقوله: ﴿ بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي: كفايةٌ لهم في الموعظةِ. ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ عطفٌ على محذوفٍ، أي: لينصحوا ولينذروا بهذا البلاغ ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ بالنظرِ والتأملِ فيما فيه مِن الآياتِ الدالةِ عليه، أو المنبِّهةِ على ما يدلُّ عليه ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ فيرتَدِعوا عما يُرْديهم، ويتدرَّعوا بما يُحْظيهم[2].

٦- بيَّنَ الله تعالى بقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أنَّه إنما أنزَلَ هذه الكُتُبَ، وإنما بعَثَ الرُّسُلَ؛ لتذكيرِ أولي الألبابِ، فلولا الشَّرفُ العَظيمُ والمرتبةُ العاليةُ لأولي الألبابِ، لَما كان الأمرُ كذلك[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾

- قولُه: ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ أصْلُه: مُخلِفَ رُسلِه وعدَه،

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٤- ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٥).

وإنَّما قال ذلك، وقدَّمَ المفعولَ الثَّانيَ على الأوَّلِ؛ فقدَّمَ الوعْدَ؛ لِيُعْلَمَ أنَّه لا يُخلِفُ الوعْدَ أصلًا، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، ثمَّ قال: ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾؛ لِيُؤذِنَ أنَّه إذا لم يُخْلِفْ وعدَه أحدًا، وليس مِن شأنِه إخلافُ المواعيدِ؛ فكيف يُخْلِفُه رُسلَه الَّذين هم خِيرتُه وصفوتُه[1]؟!

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ المذكورِ، وتذييلٌ له، وحيثُ كان الوعْدُ عبارةً عن تعذيبِهم خاصَّةً، لم يُذَيَّلْ بأنْ يُقالَ: (إنَّ اللهَ لا يخلِفُ الميعادَ)، بل تَعرَّضَ لِوصْفِ العزَّةِ والانتقامِ المُشعرَيْنِ بذلك[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ استِئنافٌ لِزيادةِ الإنذارِ بيومِ الحسابِ؛ لأنَّ في هذا تَبْيينَ بَعضِ ما في ذلك اليومِ مِن الأهوالِ[3].

- وفي قولِه: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ مَحذوفٌ، أي: غيرَ السَّمواتِ؛ حُذِفَ لدَلالةِ ما قبلَه عليه[4].

- قولُه: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ التَّعرُّضُ للوصفَيْنِ ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأمْرَ في غايةِ الصُّعوبةِ، ولِتهويلِ الخطْبِ، وتَربيةِ المَهابةِ، وإظهارِ بُطلانِ الشِّركِ، وتَحقيقِ الانتقامِ في ذلك اليومِ، على تقديرِ كونِه ظرفًا له، وتَحقيقِ إتيانِ العذابِ الموعودِ، على تَقديرِ كونِه بدلًا مِن ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ فإنَّ الأمْرَ إذا كان لواحدٍ غلَّابٍ لا يُغَازُّ، وقادرٍ لا يُضارُّ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٧).

كان في غايةِ ما يكونُ مِن الشِّدَّةِ والصُّعوبةِ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَتَرَى ﴾ فيه العُدولُ إلى صِيغَةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ، أو للدَّلالةِ على الاستِمرارِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

- قولُه: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ خَصَّ الوُجوهَ هنا؛ لأنَّ الوجْهَ أعزُّ مَوضِعٍ في ظاهِرِ البدَنِ وأشرَفُه، كالقلْبِ في باطنِه[٣]؛ فلهذا السَّببِ خصَّ اللهُ تعالى هذين العُضوينِ بظُهورِ آثارِ العِقابِ فيهما، فقال في القلبِ: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦- ٧]، وقال في الوجهِ: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾[٤] [إبراهيم: ٥٠] ؛ فالوجهُ لَمَّا كان أشرَفَ ما في الإنسانِ- فإهانتُه إهانةٌ عظيمةٌ لصاحِبِه- ذكَرَه وقَدَّمَه؛ تعجيلًا لإفهامِ الإهانةِ[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

- قولُه: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ فيه مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: كلَّ نفْسٍ مُجْرِمةٍ، أو كلَّ نفْسٍ مِن مُجْرِمةٍ ومُطيعَةٍ؛ لأنَّه إذا عاقَبَ المُجرمينَ لِإجرامِهم، عُلِمَ أنَّه يُثيبُ المُطيعينَ لِطاعتِهم، واكتُفِيَ بذكْرِ عِقابِ العُصاةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٣- ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٤٤٠).

تعويلًا على شهادةِ الحالِ، لا سيَّما مع مُلاحظةِ سبْقِ الرَّحمةِ الواسعةِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ مُستأنَفةٌ؛ إمَّا لِتحقيقِ أنَّ ذلك واقعٌ، وإمَّا استئنافٌ ابتدائيٌّ، وأُخِّرَتْ إلى آخِرِ الكلامِ؛ لِتقديمِ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ إذا قُدِّرَ معمولًا لها[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ولِيعْلَموا ممَّا ذُكِرَ فيه مِن الأدلَّةِ: ما اللهُ إلَّا إلهٌ واحدٌ، أي: مَقصورٌ على الإلهيَّةِ المُوحَّدةِ، وهذا قصْرُ موصوفٍ على صِفَةٍ[٣].

- وقد رُتِّبَت صِفاتُ الآياتِ المُشارِ إليها باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ على تَرتيبٍ عقليٍّ بحسَبِ حُصولِ بعضِها عَقِبَ بعضٍ؛ فابْتُدِئَ بالصِّفةِ العامَّةِ، وهي حُصولُ التَّبليغِ، ثمَّ ما يَعقُبُ حُصولَ التَّبليغِ مِن الإنذارِ، ثمَّ ما ينشَأُ عنه مِن العِلْمِ بالوحدانيَّةِ؛ لِمَا في خِلالِ هذه السُّورةِ مِن الدَّلائلِ، ثمَّ بالتَّذكيرِ في ما جاء به ذلك البلاغُ، وهو تفاصيلُ العِلْمِ والعمَلِ، وهذه المَراتبُ هي جامِعُ حِكمةِ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُوزَّعة على مَن بلَّغَ إليهم، ويختَصُّ المُسلمونَ بمضمونِ قولِه: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٢، ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ الثاني عشرَ
ويليه المجلدُ الثالثَ عشرَ
وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الحِجرِ









الفهرس







الفهرس

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠